ss

دكتور لويس عوض

ثورة الفكر
في عصر النهضة الأوربية

مركز الأهرام
للترجمة والنشر

ss

ثورة الفكر

فى عصر النهضة الأوربية

دكتور لويس عوض

الطبعـــة الأولى
١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ ـ تلكس ٩٢٠٠١ يوان

المحتويات

تمهيد

ليست هذه الكلمة مقدمة ، ولكنها مجرد تمهيد . ومن يتأمل هذه الدراسات يجد أنها تمثل أهم مقومات عصر الرنيسانس المعروف بعصر النهضة الأوروبية ، ويجد من جهة أخرى أنها تمثل الدعامات الفكرية التى قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة .

فهناك روح الاستكشاف والمغامرة والاقتحام التى تجلت فى أسفار ماركو بولو وما زالت تلتهم الوجدان الأوربى قرونا حتى اينعت فى مغامرة كولمبوس الكبرى والكشف عن الأمريكتين ، والكشف عن رأس الرجاء الصالح واستراليا ونيوزيلندا والقطبين ، حتى فض مغاليق القارة العذراء ، (أفريقيا) ، فى القرن التاسع عشر . وبعد أن فرغ الانسان من كوكبنا بدأ يغزو الكواكب الأخرى فى نهاية القرن العشرين . وقد استغرقت ريادة الفضاء ستة قرون كاملة ، منذ حسابات كوبرنيك وجاليليو الدقيقة لمدارات الأفلاك حتى وطئت أقدام الانسان أرض القمر .

هذه الروح ، روح البحث والسطو ، ولا سطو بغير بحث ، هى وراء ظاهرة الاستعمار التى اقترنت بالحضارة الغربية الحديثة وانتهت بنزح ثروات العالم وكنوزه وتكديسها أو استغلالها فى أوروبا فى الانتاج والخدمات وفى مزيد من البحث والاقتحام .

وهناك ظهور ظاهرة الدولة القومية من انقاض الجامعة الدينية التى نجد دعامتها النظرية فى دانتى اليجييرى وفى مكيافيللى . وهى فى وجهها الناضر وراء كل حركات التحرير الوطنى منذ جان دارك ، أم شهداء الوطنية فى العالم الحديث ، وفى وجهها الكريه وراء العنجهيات القومية والعنصرية والدينية ووراء بحار الدماء التى خضبت وجه الأرض منذ آلاف السنين ، وحالت ولا تزال تحول دون قيام مجتمع دولى ترفرف عليه رايات الحرية والعدل والسلام .

وهناك انتصار اللهجات الشعبية على اللغة الفصحى (اللاتينية) ، وتحولها الى لغات حية مزدهرة بالآداب الخصبة بثمار القلب والعقل ، بعد الف عام من العقم الكنسى الذى قتل الآداب والفنون والعلوم ، وخنق لغة الشعب وجرم ترجمة الكتاب المقدس اليها حتى يحتكر الكهنة فهم نصوص الدين وتفسيرها للملايين من بسطاء المؤمنين .

SS

هذه اللغات الشعبية التى اينعت فى أدب دانتى وبترارك وبوكاشيو ، ونظائرهم فى الآداب الأوروبية الأخرى ، كان انتصارها على اللاتينية الفصحى مقدمة لازمة لحركة الاصلاح الدينى لأنها اشركت الجماهير فى قراءة نصوص دينها وفهمها ومناقشتها ، ومقدمة لازمة لاتساع قاعدة الديمقراطية لأنها اشركت الجماهير فى قراءة نصوص القانون والسياسة بعد أن كانت كالتعاويذ لا يفهمها الا الصفوة ، لأنها كانت محنطة فى اللغة اللاتينية الفصحى .

وهناك إنتصارات الفنون التشكيلية التى بدأت بفنانى الكواتروتشنتو وبلغت قمتها فى روائع ليوناردو دافنشى ورفاييل وميكلانجلو ، بعد ألف عام من انقراض التصوير والنحت ، فلم يبق من الفنون التشكيلية الا فن العمارة لحاجة الكنيسة لبناء الكاتدرائيات ، ولحاجة أمراء الاقطاع لبناء القصور والقلاع . أما التصوير والنحت فقد ازدراهما الشعور الدينى لأنهما يذكران بالوثنيات الأولى .

وهناك رد اعتبار الانسان ورد اعتبار الحياة الدنيا بعد الف عام من العصور الوسطى ملأت أوربا بالأديرة واقنعت البسطاء أن نصيبهم فى ميراث الأرض هو حرثها وزرعها لأمراء الاقطاع ، وأن ميراثهم الحقيقى هو ما كان الدكتور حسين فوزى يسميه « القيراط الخامس والعشرون » . الحياة ذاتها خطيئة ، فما بالنا بمجد الحياة : بالعلم ، بالفن ، بالفكر ، بالمال ، بالجمال ، بالقوة ، بالسعادة ، بالحرية ، بالمساواة . مجد العالم زائل . وكل هذه الكنوز لا معنى لها الا فى العالم الآخر .

وجاء لورنزو دى مديتشى وبيكو ديللا ميراندولا وارازموس ليدحضوا ذلك ، كل بمنطقه الخاص . بلْ جاء كامبانيللا ليتصور امكان بناء المدينة الفاضلة على الأرض .

واجمع الجميع على رد اعتبار الحضارات « الجاهلية » ، ولاسيما حضارة اليونان والرومان ، لأنها حضارات اعترفت بالانسان والحياة وبكل ما تحت الشمس . كانوا يقولون : بكل ما تحت القمر . كلهم الا ذلك الراهب العجيب سافونارولا . ولكن هذه قصة أخرى .

• • •

ss

ماركوبولو

MARCO POLO

١٢٥٤ - ١٣٢٥

١

□ لعل ماركو بولو كان أشهر رحالة أوربى قبل كريستوفر كولمبوس (١٤٥١ — ١٠٥٦) فى بدايات أوربا الحديثة ، فهو من أسبق الرواد الذين عبروا آسيا الوسطى واستقروا فى الصين . وقد ترك لنا تجربته مدونة. أملاها فى سجنه بميناء جنوا بعد عودته من أسفاره على رفيق سجنه روستكان فألهبت خيال الأوربيين وحفزتهم الى ارتياد اقطار العالم المجهولة شرقا وغربا ، وقد كانت يومئذ ثلاثة أرباع العالم .

وفى العالم القديم لم يكن سكان البحر الأبيض المتوسط يجهلون تماما وجود الصين ، فهناك وثائق صينية ويونانية ولاتينية تدل على وجود علاقات تجارية طفيفة بين بعض دول البحر المتوسط والصين . ومع ذلك فأقدم هذه النصوص لا يتجاوز القرن الأول ق.م.

وفى « جغرافية » استرابو (٥٨ ق.م. — ٢٥ ميلادية) أن أول من جاء الى البحر المتوسط بأخبار الصين كان الضابط نياركوس وهو أحد قواد الاسكندر الأكبر ، وقد سار بجنوده من الخليج الفارسى الى مصب نهر السند فى القرن الرابع ق.م. وكان اليونان يعرفون الصينيين باسم «الصير» غالبا من اسم « الحرير » باللغات القديمة ، وهو « سيريكوم » ، أو ربما كان اسم الحرير على اسم « الصير » .

وجغرافيو مدرسة الاسكندرية فى القرنين الأول والثانى للميلاد يحدثوننا عن نشاط التجار المصريين القوى فى العصرين البطلمى والرومانى بين موانىء البحر المتوسط والنوبة والبحر الأحمر والهند وسيلان . ففى كل صيف كان يخرج من مصر أسطول تجارى قوامه نحو مائة سفينة قاصدا المحيط الهندى ثم يعود مع الرياح العكسية فى ديسمبر — يناير . وقد وصل الملاحون المصريون الى الهند الصينية فى القرن الأول الميلادى وعند عودتهم نقلوا اخبار الصينيين الى علماء الاسكندرية وكانوا يسمونهم أهل « الصين » أو

ss

« الصينا » .. ومعنى هذا أن المصريين نقلوا الى الرومان أخبار أمتين هما « الصـــير » الذين كانوا يزودون الرومان « بالسيريكوم » أى الحـــرير ، و « الصين » الذين لا يمكن بلوغهم الا بعد رحلة طويلة وراء المحيط الهندى. والحقيقة ان « الصير » و « الصين » كانتا أمة واحدة .

وقد ورد ذكر حرير « الصير » فى بلينيوس الأكبر (٢٣ — ٧٩ م) ، وفى ديو كاسيوس (١٥٥ — ٢٢٥ م) ، كما حدثنا الرحالة المؤرخ الجغرافى باوسانياس (ق ٢ للميلاد) عن ذلك وعن دودة القز . وبالمثل ورد ذكر « الصير » فى الشعر اللاتينى عند هوراس (٦٥ — ٨ ق.م) وفرجيـــل (٧٠ — ١٩ ق.م) ، على أنهم قوم ناءون غريبو الأطوار والعادات .

وكانت أساطير الرومان تقول ان الصينيين لا يعـــرفون الحـــــرب ولا السلاح وان الفرد منهم يعمر مائتى عام . وفى بلينى الأكبر أن روما كانت تستورد من الصين الحرير والمصنوعات الحديدية والفراء — أما الوثائق الصينية فتقول ان الصين كانت تستورد من البحر المتوسط الزجاج والألوان والصوف والكتان والمعادن والرصاص والأحجار الكريمة . وقد جاء فى تاريخ الرومان أن « الحرير الذى كان قديما الامتياز الخاص بالنبلاء ، أصـــبح كل الناس يلبسونه فى أيامنا هذه » . وكان هذا يستنزف ذهب الامبراطورية، فحاول أباطرة روما الحد من استيراده باصدار المراسيم ولكن دون جدوى .

كان طريق التجارة بين الامبراطورية الرومانية والصين يمـــر بالعـــراق وفارس وباكتريا وقشغر ، وهو نفس الطريق الذى سلكه ماركو بولو . وكثيرا ما كان التجار الرومان يشترون منتجات الصين من الهنود فى طريق الملاحة أو من الفرس فى طريق القوافل ، مما رفع ثمن المنتجات الصـــينية فى روما مائة ضعف عن ثمنها الأصلى فى الصين . ولمـــا أقفل الفرس طريق التجارة مع الشرق فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى أيام الدولة الساسانية قيل ان رطل الحرير بلغ ثمنه فى روما رطلا من الذهب .

وأول مرة نسمع فيها عن بعثة دبلوماسية بين روما والصين ، كانت عام ١٦٦ ميلادية عندما أرســـل امبراطور روما الفيلسوف مارك أوريليـــوس (١٢١ — ١٨٠ م) ، وهو من أسرة الانطونين ، سفيرا الى تونكين يحمـــل هدية منه الى امبراطور الصين مكونة من العاج وقرن الخـــرتيت وظهـــر السلحفاة ، وهى هدية هندية لا رومانية . والوثائق الصينية تتحدث عن « أندون » امبراطور روما . ويظن البعض أن هذه البعثة لم تتجاوز أن تكون زيارة مجموعة من التجار المصريين أو السوريين للصين — وفى ٢٢٦ م زار

ss

الصين تاجر سورى عن طريق الهند الصينية ، ولكن الطريق البرى ، كان هو الطريق الأكثر أهمية .

غير أنه ابتداء من القرن الثالث والقرن الرابع سد الفرس طريق القوافل بين البحر المتوسط والصين ثم تلاهم العرب فى القرن السابع فقلت القوافل وقلت السفن الساعية بين العالم اليونانى الرومانى والصين. كما أن أوربا الاقطاعية كانت فقيرة قليلة الاحتياج الى صادرات الشرق .. فذبلت التجارة بينهما . وفى القرنين الخامس والسادس نقلت بيزنطة زراعة شجر التوت وأنشأت مصانع الحرير وأخذت تصدر الحرير الى روما . وقد انتهى الانحطاط الثقافى وعزلة أوروبا الاقطاعية ، بأن نسى الأوربيون درجة درجة وجود الصين .

وبتشقق الامبراطورية العربية بدأت أوربا من جديد تحاول أن تخرج من عزلتها عن طريق الحروب الصليبية لاستعمار الشرق الأدنى ، وفى الوقت نفسه ظهرت فيها ارهاصات الاهتمام من جديد بالشرق الأقصى . وكانت الطلائع فى هذا ماركو بولو وأسرته ، وهم من أهل البندقية التى كانت اقوى دويلة بحرية فى البحر المتوسط ولا منافس لها الا دويلة جنوا .

وفى الحروب الصليبية اكتشف الأوربيون أن الشرق كان أرقى بكثير من الغرب . تدفق أمراء الاقطاع على سورية وفلسطين ومصر وبيزنطة لنهب ما يحتلونه من بلاد . فكانوا يغتصبون القصور بما فيها من تحف ثمينة وبدا لهم الشرق كأرض سحرية ونشأت بينهم اسطورة « كنوز الشرق » وتجاهلوا أن السواد الأعظم من أهل المشرق كانوا يعيشون فى فقر مدقع بسبب جبروت حكامهم . كان تجار أوروبا وفرسان العالم المسيحى قد الفوا مقاعدهم العادية الخشنة المصنوعة من خشب الأرو أو البلوط فى قلاعهم فراوا لأول مرة ارائك أمراء المسلمين والمغول وفرسانهم وتجارهم مكسوة بالوسائد والسجاجيد متعددة الألوان ، ورأوا الخناجر والسيوف المطعمة قبضاتها بالأحجار الكريمة . وكان ماركو بولو ابن عصره فكان من الغارقين فى الافتتان بالشرق وكنوزه .

وفى فترة الحروب الصليبية تسللت الى أوروبا بضائع الشرق الأدنى ورقيقه والفاظه العربية واليونانية ، بل وتأثرت عادات الفرسان الفرنسيين والايطاليين وملابسهم بعادات الشرقيين وملابسهم . ولطول اقامة ماركو بولو وأسرته فى القسطنطينية وشبه جزيرة القرم تحولوا الى شرقيين .

وكان المستفيد الأول من الحروب الصليبية المدن التجارية الايطالية ، ولاسيما موانىء البندقية وجنوا وبيزا ، فقد كانت هذه المدن والموانىء تمد

الصليبيين بالسفن والسلاح والغذاء ، ومقابل هذا كانت تحصل على القسم الأكبر من الغنائم . وبعد الحملة الصليبية الثالثة حصلت جنوا وحدها على جزء من القدس وعلى انطاكية واللاذقية وعلى ثلث بيروت وقيصرية وعكا . وبعد ذلك استولى اهل جنوا على فافا جوستا عاصمة قبرص ، وعلى طرابلس فى سورية ، وعلى بعض جزر اليونان مثل خيوس وساموس ، الخ .. واسسوا فى القرم مستعمرة خاصة بهم كانت بمثابة محطة لهم للتجارة مع فارس وآسيا الوسطى .

وفى الحملات الثلاث الأولى استولت جنوا والبندقية على صور وصيدا ، وانتهت المنافسة بينهما بحرب دامية للسيطرة على البحار وعلى طرق التجارة وعلى المستعمرات فى بر الشام . وكانت أمالفى أول ضحية لهذه الصراعات . ففى القرن ١٢ حطمتها بيزا وحطمت كل أسطولها . ثم حطمت جنوا أسطول بيزا عام ١٢٨٤ واستولت جنوا منها على ٣٣ سفينة وأسرت ١٠٫٠٠٠ محارب . وفى ١٢٩٠ تعاونت جنوا وفلورنسا على تحطيم ميناء بيزا وأغلقتا بالصخور مصب نهر الأرنو .

وبدأ الصراع الرهيب بين البندقية وجنوا للسيطرة على البحر المتوسط وطرق التجارة مع الشرق . فكان أهلهما يتقاتلون فى البحر والبر وفى أسواق التجارة وفى مدن الشرق بلا رحمة ويحرق بعضهم سفن البعض الآخر ومصانعه . وكانوا أحيانا يستأجرون المرتزقة لذلك وأحيانا يتنافسون فى استرضاء عرش بيزنطة ويستغلون الخلافات بين أمراء الصليبيين .

وقد كانت النقطة الحاسمة بين البندقية وجنوا هى الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ . فقد سارت الحملة الصليبية الرابعة بناء على نصيحة البندقية وبسند من أسطولها الى بيزنطة بدلا من قتال المسلمين ، واستولت على القسطنطينية ودمرتها وأنشأت فيها امبراطورية لاتينية ونهبت من كنوزها غنائم بغير حصر من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والجواهر النفيسة والحرير والفراء والطنافس . واستولى أهل البندقية بالاتفاق السابق على نصف الغنائم وعلى كثير من الامتيازات : استولوا بعد الحملة الرابعة على أهم جزر الأرخبيل وعلى شواطىء بحر مرمرة وعلى كريت وعلى جزر أيونيا وعلى ساحل دالماسيا (فى يوجوسلافيا الحالية) ، وعلى الأحياء التجارية فى القسطنطينية وغيرها من مدن بيزنطة . وأقاموا المصانع على سواحل بحر آزوف ، وبهذا استولت البندقية على ثلاثة أثمان الأراضى التى استولى

عليها الصليبيون وحاولت ان تحتكر الربا فى هذه الامبراطورية الرومانيـــة الجديدة ، وبلغت البندقية قمة سطوتها .

كانت البندقية لا تزال فى قمة سطوتها فى ١٢٦٠ حين بدأ الأخـــوان نيكولو وماتيو بولو رحلتهما الى الشرق ومعهما الفتى اليافع ماركو بولو بن نيكولو بولو . وكان تجار البندقية فى حماية أمراء الفرنجة اللاتين وفرسانهم. وكان أهل جنوا يستعدون للثأر بجولة ثانية ، فتعاونوا مع الأمراء والفرسان اليونان فى دويلات آسيا الصغرى من بقايا امبراطورية بيزنطة .

وفى ١٢٦١ كانت اسرة بولو ، وهم من تجار البندقية ، قد وصـــلت الى نهر الفولجا عندما اسقط اهل جنوا الحكام اللاتين فى بيزنطـــة ، وحل اهل جنوا محل اهل البندقية فى السيطرة على كل شىء من جزر البـــــا وكورسيكا وسردينيا غربا الى آسيا الصغرى وشبه جزيرة القرم والبحـــر الأسود وبحر آزوف وبحر قزوين شرقا .

وسواء تحت هيلمان البندقية أو جنوا لم يـــكن التجـــار الأوربيـــون يتجاوزون فى رحلاتهم مدن نهر الفولجا وفارس وآسيا الوسطى لأن طريق الشرق الأقصى كان مسدودا بقوة المغول .

أما فى الشرق الاسلامى فقد كانت الشام مجزأة الى امارات أو دويلات عربية صغيرة بعضها تحت حكم الصليبيين . وكان اكثر آسيا الصـــغرى تحت حكم الأتراك السلاجقة . وفى فارس وآسيا الوسطى تعاظمت قـــوة شاهات خوارزم . أما فى بغداد فقد كانت الخلافة العباسية مجرد ديكور او واجهة ، والسلطة الفعلية فى أيدى الأمراء والسلاطين الترك أو الـــكرد والوزراء الفرس . وكان الفاطميون فى مصر لا يعترفون بدولة بنى العباس .

وفى المدن الكبرى مثل دمشق وحلب وبغداد والموصل وتبريز وخوارزم وبخارى وسمرقند وهراة تكونت طبقة ضخمة من الحرفيين الذين كان التجار يستغلونهم بلا رحمة مما أشاع الفتن والقلاقل فى هذه المناطق . وكان كبار التجار يسيطرون على القوافل ناقلة التجارة الرئيسية بين الشرق الأقصى والشرق الأوسط والشرق الأدنى . ولاسيما الأقمشة والتوابل والطيـــور والجلود والفراء والحرير والجواهر والرقيق . واختل الأمن بسبب القـــلق الاقتصادى والقلق الاجتماعى وفتن الصناع وثورات العبيد ، فاختلت طرق التجارة مع الشرق الأقصى ، مما جعل كبار التجار يعملون على ظهور قـــوة ضاربة موحدة تؤمن لهم طرق القوافل . وفى هذه الظروف قاد جنكيزخان جحافل المغول عبر آسيا واوربا الشرقية .

ss

فحتى النصف الثانى من القرن ١٢ كان النظام الاقتصادى فى منغوليا نظاما اقطاعيا يقتسم فيه امراء منغوليا سهوب بلادهم ومراعيها وبراريها وكانوا يسمون أنفسهم بألقاب « النويون » و « البكولت » . وفى أواخر القرن ١٢ قاد تيموشين هذه الارستقراطية المغولية ، وفى ١٢٠٦ وحدها ووحد بها كل منغوليا وسمى نفسه جنكيزخان . وبين ١٢١١ و ١٢١٦ اجتاح جنكيزخان بجيوشه الجرارة ، وقوامها من الفرسان ، الصين الشمالية ، وفى ١٢١٧ اجتاح آسيا الوسطى وهزم محمد خان الذى أسس فى خوارزم دولة قوية بين ١٢٠٠ و ١٢٢٠ .

وفى ١٢٢٠ أحرق جنكيزخان بخارى ثم سمرقند ، وفى ١٢٢١ دمر مدينة بلخ بتركستان الأفغانية وأباد أهلها بعد أن كانت أكبر مركز تجارى فى آسيا الوسطى ، وهكذا قضى نهائيا على دولة خوارزم . وفى ١٢٢١ أيضا اجتاحت جيوش المغول شمال ايران وهزمت قوات جورجيا فى تفليس . ومن شمال فارس والقوقاز احتل المغول سهوب نهر الدون بقيادة أحد أبناء جنكيزخان وهو طولاى خان ، وسحق الروس حتى نهر الدنيبر . واحتلوا القرم فى الجنوب وخربوا مدن القوط والبيزنطيين .

واجتاح المغول روسيا بين ١٢٣٧ و ١٢٤٠ بقيادة باطاى أو باطو، وفى ١٢٤٠ خربوا مدينة كييف وفى ١٢٤١ خربوا بولندا وسيليزيا ومورافيا ، وفى ١٢٤١ أيضا سقطت فى أيديهم مدينة بيشت (بودابست) ، عاصمة المجر ، وزحفوا الى بحر الأدرياتيك . ولكنهم انسحبوا بعد وفاة ابن جنكيزخان ، واسمه أوجوداى ، وعادوا الى منغوليا .

وفى ١٢٥٨ دمر هولاكو حفيد جنكيزخان بغداد وقتل آخر الخلفاء العباسيين . واستمر المغول بقيادة كوبلاى خان ، حفيد جنكيزخان ، فى غزو الصين الوسطى والصين الجنوبية ، وفى ١٢٧٠ صفى كوبلاى خان امبراطورية أسرة سونج فى الصين الجنوبية واستولى على التبت وبورما فى زمن زيارة ماركو بولو للصين . وأصبح كوبلاى خان أول موحد للصين بعد أن ظلت قرونا طويلة تنقسم الى شمالية وجنوبية . وقد ساعد المغول فى كل هذه الانتصارات الساحقة أن العالم من شرقهم وغربهم كان ينقسم الى امارات أو « دويلات » مفتتة متحاربة وليس فيه دولة موحدة قوية .

كانت الحروب المستمرة بين هذه الامارات تهدد باستمرار طريق القوافل بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى فتضافر كبار التجار أولا مع محمد خان ليبنى دولة عسكرية قوية فى خوارزم تؤمن طريق القوافل ، وقد نجح فى تأمين آسيا الوسطى ، ولكن يبدو أن الأمر كان بحاجة الى قوة

ضاربة أكبر من قوته لربط الصين بشرق البحر المتوسط ومن هنا نقل التجار بعد ١٢١٨ تأييدهم للمغول وموّلوا جنكيزخان حتى استطاع ان يقيم أوسع امبراطورية عرفها التاريخ وربما أقصرها عمرا .

كان جيش المغول عبارة عن حشود ضخمة من الفرسان سريعى الحركة ، ينقضون بسرعة ويختفون بسرعة ويثيرون الرعب بحرق المدن والفتك بالتجمعات البشرية . وكانوا يستخدمون أسرى البلاد المفتوحة جنودا فى جيوشهم ويضعونهم فى الصفوف الأمامية وفى أقل من مائة عام امتدت امبراطوريتهم من الصين الى المتوسط ومن نهر لينا الى المحيط الهندى وشملت العراق وأرمينيا وجورجيا وايران وافغانستان وروسيا الموسكوفية والقرم والفولجا وسيبيريا الغربية وكازاكستان وآسيا الوسطى وتركستان الشرقية ومنغوليا وبايكل ومنشوريا والصين والتبت وبورما . وفتحت هذه الامبراطورية طريق التجارة من المحيط الهادى حتى البحر الأبيض المتوسط .

• • •

٢

كتاب كوبلاى خان

□ ولد ماركو بولو بن نيكولو بولو عام ١٢٥٤ فى جزيرة الريالتـــو بالبندقية . ولا احد يعرف شيئا عن حياته الأولى وعن تنشئته ، ويظن البعض انه لم يدخل مدرسة ولم يكن يعرف القراءة والكتابة بالايطالية .

وكان أبوه نيكولو بولو وعمه ماتيو من تجـار البندقيـة الصغار او متوسطى الحال . وكانا يسافران الى الشرق للتجارة . وفى سن الخامسة عشرة خرج ماركو مع أبيه وعمه الى عكا وتوجه ثلاثتهم الى القدس للحصول على زيت من سراج القبر المقدس . وكانت القدس يومئذ تحت حـكم المغول ، وكان آل بولو يحملون خطابا من البابا جريجورى التاسع فى عكا الى خان المغول الأعظم فى القدس ، فزود خان المغول آل بولو بألواح ذهبية عليها خاتم كوبلاى خان لضمان الأمان فى الطريق .

وكان سلطان مصر البندقدارى يهاجم ارمينيا بجيش جرار ، ولـكن آل بولو استطاعوا بلوغ أرمينيا بفضل هذه الألواح الذهبية . وكانت أرمينيا مركزا لتجمع فرسان التتار بسبب كثرة الكلأ فيها . ومن هناك وصـلوا الى أرضروم وهى الأناضول التى كانت بلاد التركمان . وفى أرمينيـا يصف لنا ماركو بولو أشياء تذكرنا بحواديت « ألف ليلة وليلة » وقصص السندباد . فهو يحدثنا عن جبال أرمينيا العالية وأخاديدها الغائرة التى تتساقط فيهـا جداول المياه المحملة بالماس من أعالى الجبال . وطريقة جمع المـاس هى أن يلقى الناس بقطع من اللحم فى هذه الجبال والأخاديد فيلتصق فيهـا المـاس ، وتجتمع النسور على قطع اللحم فتحملها الى الوديان ، وهناك يتجمع الناس ويخيفون النسور بصياحهم فتطير النسور تاركة ما قد حملت من اللحم والماس .

ومر آل بولو بالموصل فتحدث ماركو بولو عن حرير الموسلين . ثم انطلقوا الى تبريز « وهى مدينة كبيرة وعريقة فى قطر كبير يدعى العراق ».

وهناك وجد الناس يعيشون على التجارة وعلى صناعة الحرير المطعم بخيوط الذهب وعلى تجارة اللؤلؤ . وقد ذكر رحالة آخر عن تبريز أن تجار جنوا بنوا قلعة على جبل مشرف على هذه المدينة فقال لهم الخان : هذا ممنوع . أنا بعتكم الجبل ، فانقلوه الى بلادكم ، وهناك ابنوا عليه ما تشاءون. ولما بدءوا يجادلونه أمر بقطع رءوسهم جميعا .

وبعد سبعة أيام من الرحيل وصل آل بولو الى مدينة كرمان التى كانت قد سقطت حديثا فى أيدى التتار وكانت شهيرة بمناجم الفيروز . وبعد سفر أيام عديدة وصل ماركو بولو وأسرته الى ميناء هرمز على الخليج الفارسى حيث كانت الحرارة خانقة . وقرروا الرحيل الى الصين بالطريق البرى فلحقوا بالقوافل المسافرة شمالا الى هضبة البامير شمال الهند ليصلوا الى دولة كوبلاى خان . وكان الخان الأعظم كوبلاى قد منح هولاكو لقب خان وأطلق يده فى فارس . وكان آل بولو أثناء عبورهم فارس يجمعون المعلومات لصالح كوبلاى خان عن طائفة الحشاشين التى كانت تخل بالأمن فى ايران وتقطع طرق القوافل فى السهوب والبرارى ، وهى منطقة الحشاشين .

كان الحشاشون ينقسمون الى سبع درجات على راسها زعيمهم « عجوز الجبل » ، ومن تحته « الدعاة الكبار » وهم أعوانه الذين يسكنون القلاع ويلبسون ملابس بيضاء ، وتلا هؤلاء الطبقة الثالثة ، وهم « المجندون العاديون » (بكسر النون) ، والطبقة الرابعة ، وهم « الرفاق » (جمع « رفيق ») ، وهؤلاء لايعرفون أسرار الجماعة . ثم الطبقة الخامسة ، وهم « المحكوم عليهم » ، وهؤلاء ينفذون أحكام « عجوز الجبل » ويلبسون الملابس البيضاء ولكن مع طاقية حمراء وحزام أحمر وتزلك أحمر . وأخيرا فهناك الطبقة السادسة وهم المبتدءون .

هذا ما يبدو للناس ، أما الحقيقة فغير ذلك . فالقمة فى هذا النظام يحتلها الامام «الخفى» «الذى سيأتى فى آخر الزمان» . والطبقة الثانية يحتلها « الكوديديا » وهم طبقة تعرف بأنها « حجة اللطف الالهى » . والطبقة الثالثة هم « الصادقون » وهم الحجة بأن حجة اللطف الالهى مكلفون من الامام وأن الامام مكلف من الله . أما الطبقة الرابعة فهم « الدعاة » ، والخامسة هم « الأتباع الجدد » الذين تلقوا حديثا أسرار الطائفة وأقسموا يمين الولاء لها ، والسادسة هم « الممسوخون كلابا » أى الباحثون عن القبول فى الطائفة بحث كلاب الصيد عن الفريسة . والسابعة هم « المؤمنون » وهم الشعب . وفى ماركو بولو أن طائفة الحشاشين هى طائفة الاسماعيلية

او متفرعة منها . وقد كان الحشاشون يحاربون المسلمين والصليبيين فى آن واحـــد .

قال ماركو بولو ان « عجوز الجبل » كان يقيم فى قصر آية فى البهاء وسط حديقة شاسعة غناء لا مثيل لها فى العالم كله فيها جداول من خمـــر ولبن وشهد وحور ، وكان يلقن اتباعه انها الفردوس الأرضى . وكان فى بلاطه غلمان عمر كل منهم نحو اثنتى عشرة سنة ، وكان يعطيهم مخـــدرا يشربونه وحين يفيقون يجـــدون أنفسهم بين هؤلاء الحور فى الفردوس الأرضى . اما هذا المخدر فهو الحشيش ، وهذا ما لم يعرفه ماركو بولو وانما تحدثت عنه المصادر الأخرى . وكان « عجوز الجبل » يخدر الغلمان ثم ينقلهم الى قصره ويصحون فى دهشة لخروجهم من الفردوس الأرضى . كل هذا ليسيطر على ارادتهم فيجعلهم يقتلون من يريد .

وذكر ماركو بولو أن هولاكو أراد أن يتخلص من شرهم فى ١٢٥٢ فدمر قصر « عجوز الجبل » بعد حصار دام ثلاث سنوات ، وأباد الحشاشين عن آخرهم . ولكن ماركو بولو أخطأ فى روايته لأن منهم كثيرين فروا الى جبال البامير ، وعند بعض المؤرخين أن طائفة الاسماعيلية من بقاياهم .

ثم سافر ماركو بولو وأسرته الى قشغر فى غرب الصين ، ثم عبر صحارى جرداء قليلة الواحات حتى بلغ سور الصين العظيم . وتوقف آل بولو سنة كاملة فى مدينة كانتشيو حيث وجدوا مسجدا وثلاث كنائس وعددا عظيما من المعابد الصينية . وكان ماركو بولو قد تعلم لغة التتر .

وبعد سنوات من الرحيل استعد ماركو بولو للقاء كوبلاى خان ، خان المغول الأعظم فوصل الى بلاطه فى مايو ١٢٧٥ مع ابيه نيكولو وعمه ماتيو . وقادهم رسول الخان الى بلاطه فى تشانج تو فبلغها بعد رحلة أربعين يوما .

ووجد ماركو بولو كوبلاى خان يجلس على عرشه كل يوم ويصدر اوامره اليومية لتصريف أمور الدولة، ومن بين هذه الأوامر أمر يومى للشمس أن تشرق . وحين شاخ كان يخشى أن يتأخر فى النوم فكان يكلف أحد رجال البلاط بتلاوة هذا الأمر الفلكى حتى لا يختل نظام الكون . ووجد بلاط الخان الأعظم الذى جلس على العرش منذ ١٢٥٦ ، يعج بالأجانب من نساطرة سوريا ومن العرب ومن البنادقة ومن أهل جنوا . وأبلغ ماركو بولو كوبلاى خان بكل ما رآه وسمعه فى رحلته ، وكان قوى الذاكرة فأعجب به كوبلاى خان . وكان واضحا أن ماركو بولو استثمر مواهب الرحالة الأوربى فى التجسس لحساب كوبلاى خان لينال الحظوة فى بلاطه .

ووجد ماركو بولو كوبلاى خان متزوجا بن أربع زوجات شرعيات يسميهن بالامبراطورات ، وخصص لكل منهن ٣٠٠ آنسة من الوصيفات وحشدا من الرجال لخدمتهن ، فكان فى بلاط الخان الأعظم نحو ١٠,٠٠٠ شخص . وكانت له محظيات عديدات يختارهن سفراؤه أو مبعوثوه وكن يفحصن من جميع الوجوه ويعطون درجات بالقيراط ، وأخيرا تختار كل من تحصل على ٢١ قيراطا ، ويدخلن عليه خمسا ، ويتغيرن كل ثلاثة ايام ، ثم تبدأ الدورة من جديد . اما من بلغ تقديرهن بين ١٦ و ٢٠ قيراطا فكن يعشن فى القصر الملكى ويتعلمن الخياطة والأعمال المنزلية ويتزوجن من رجال البلاط بعد أن يمنحهن كوبلاى خان الدوطة اللازمة . وكان لكوبلاى خان ٢٢ ولدا ذكرا من زوجاته الأربع منهم عشرة صاروا ملوكا . وكان له من محظياته ٢٥ ولدا آخرين .

وكان كوبلاى خان ، كما يروى ماركو بولو ، كثير السأم ، وكان يبدد هذا السأم بدعوة اليهود والمسلمين والمسيحيين والسحرة الوثنيين ، ويجعلهم يتجادلون امامه فى الدين ويهب المنتصر الهدايا . وكان دائم التنقل بين قصوره . وكان رهيبا ومرهوبا يرتعد الناس فى حضرته ، وكان يسكر بلا حساب ، فحذره طبيبه من أن الاسراف فى تناول الكحول واكل اللحم يسببا تورم ساقيه .

وقد تبع ماركو بولو الخان الأعظم الى قصره الشتوى فى كامبالوك او « خان بليغ » ، وهى مكان بكين الحالية ، وكان بها مرصد كبير .

وقد جمع كوبلاى خان ثروة طائلة من تجارة الجملة . وجمع كنوزا مقابل عملة ورقية ابتكرها ولم تكلفه شيئا ، فكان بذلك اول ملك ابتكر العملة الورقية . وكانت العملة الورقية عبارة عن شرائح مربعة من لحاء شجر التوت وقد طبع عليها الخاتم الامبراطورى . وقد أساء خلفاء كوبلاى خان استعمال اصدار العملة الورقية فنشبت ثورة ١٣٥٩ ، وبعد عشر سنوات انتهى حكم المغول . وكان طبيب كوبلاى خان الايطالى ، واسمه ايسيا ، يشتغل بمحاولة تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، فحاول ماركو بولو اقناعه بأن التجارة أوفر كسبا من تجاربه الكيميائية أو السيميائية .

أوفد كوبلاى خان ماركو بولو فى مهمة عبر الصين وكلفه بمهمتين : الأولى معرفة من يقبلون عملته الورقية ومن يرفضونها ، والثانية هى اعداد بيان بصادرات المناطق المختلفة . وكانت هناك محطات لتغيير الخيول كل منها تبعد عن الأخرى ٢٥ ميلا ، وبين هذه المحطات رجال بريد كل ثلاثة أميال مجهزون بأجراس يعلنون بها اقترابهم لتسليم الرسائل للطوافين فى

كل مرحلة تالية ، وبهذا كان الطوافون يقطعون بالرسائل فى يوم واحد مسافة ١٠ أيام .

وكان كوبلاى خان يستخدم البغايا لاكرام ضيوفه ، وكان عددهن ٢٥٠٠٠ بغى ، وكن يقمن بهذا الواجب بدلا من دفع الضرائب للدولة . وفى مناطق من الصين كانت بكارة العذارى بلا قيمة . وكانت النساء العجائز تقدن البنات للتجار المسافرين وللرحالة فى خيامهم ، وتدوم المعاشرة حتى رحيل الرجال ، وينتهى دائما بهدية يقدمها الرجل للفتاة . فمن لم تجمع من الفتيات عشرين هدية كانت تعد بلا قيمة . ولكن بعد الزواج كانت الفتيات تخلصن لأزواجهن .

وقد عبر ماركو بولو ثمانى مناطق من الصين حتى بلغ منطقة اعتادت أن يقدم فيها المضيف زوجته أو أخته أو ابنته لضيفه اكراما له . وكان رب الدار يترك بيته ولا يعود اليه قبل انصراف الضيف حتى لا يزعجه .

وبلغ ماركو بولو منطقة أخرى من الصين اسمها زار دندان ، وتعنى « ذوى الأسنان الذهبية » . وفى هذه المنطقة كان الزوج حين تلد زوجته يتظاهر بالمرض وآلام الولادة ويتلقى التهانى بأنه أصبح أبا ، كل ذلك ليثبت انه بالفعل الأب الحقيقى للطفل .

وقد ساعدت أسرة ماركو بولو كوبلاى خان على فتح الصين الجنوبية التى استعصت على جنوده ، وذلك بادخال المنجنيق فى أسلحته لقذف كرات حجرية زنة كل منها ٣٠٠ رطل لتدمير التحصينات .

وكان كوبلاى خان لا يثق فى الأمراء المغول ، فكان يتوسع فى استخدام الجنرالات التتر والعرب والأوروبيين فى بلاطه. وكان يصفى المؤامرات باعدام الخونة والقاء جثثهم للكلاب فى الشوارع أو سلخ جلودهم أحياء ، كما فعل مع قائده العربى أحمد الذى قاد فتنة ليستولى على جزء من مملكة كوبلاى خان .

وبعد سقوط أحمد ازدادت ثقة كوبلاى خان فى ماركو بولو ، فعينه حاكما على احدى مقاطعاته بينما انصرف أبوه نيكولو وعمه ماتيو الى التجارة . ويصف لنا ماركو بولو صناعة الخمر من الأرز فى الصين وعن فرض كوبلاى خان العملة الورقية على الصينيين . كذلك كانت العملة الحديدية وعملة الأصداف أو « الودع » منتشرة فى الصين ، فحلت محل العملة النحاسية ، حتى حرمت الدولة بيع الحديد فى القرن ١٢ ، وبدأت تصهر الحديد فى أفران عالية الحرارة وهو ما لم تعرفه أوروبا الا فى القرن ١٨ . وفى عودة ماركو بولو لوطنه مر بفارس فوجد العملة الورقية تستخدم هناك .

وفى ١٢٨٦ كان عمر كوبلاى خان ٧٦ سنة . واراد نيكولو وماتيو بولو العودة الى البندقية ، ولكن كوبلاى خان رفض الأذن لهما فى ذلك . ولكنه وافق اخيرا على سفر آل بولو الثلاثة الى فارس فى ١٢٩٢ لمصاحبة عروس مغولية اختارها كوبلاى خـــان للزواج من ارجون ملك فارس المغولى . واعطاهم ألواحا ذهبية مختومة تؤمن مرورهم فى كل امبراطورية المغول ، وحملهم رسائل للملك فرنسا وملك انجلترا وملك اسبانيا والبابا وغيرهم من اقيال أوربا ، وجهزهم بثلاث عشرة سفينة كل سفينة منها بأربعة صوارى، واثنى عشر شراعا . وكانت حاشية الأميرة العروس تبلغ ٦٠٠ شخص ، وقد حملت السـفن تموين عامين من الرحيــل . وكان عمر ماركو بولو يومئذ ٤٢ سـنة .

وكان ماركو بولو يعرف الطريق البحرى .. وكان الصينيون يعرفون البوصلة التى تتجه للنجم القطبى كما يقول ماركو بولو . ومر بجزر منها جاوة وسنغافورة حيث لم تكن النقود من الأصداف أو الودع كما كانت الحال فى الصين . ومر بسومطرة حيث توقفت السفن خمسة شهور ، وهناك جمع ماركو بولو حبوب التقاوى ليزرعها فى البندقية عند عودته . واختفى النجم القطبى ، وتاهت سفنهم فترة . وفى ماركو بولو انه نشأت بينه وبين الأميرة علاقات غرامية .

وبلغت السفن سيلان ثم الهند . وفى سيلان راى ماركو بولو صيادى اللؤلؤ يغطسون طول النهار وراء اللؤلؤ . وفى الهند كان الملك متزوجا من ٥٠٠ امرأة ، وكان الهنود وثنيين يعبدون آلهة من اناث وذكور . وكانت آلهتهم سوداء اما شياطينهم فكانت بيضاء ، وهو ما عجب له ماركو بولو .

وعند ساحل مالابار تحرش بهم قرصان من ماليزيا . وعـــاد النجم القطبى الى الظهور ، ولكن السفن تاهت من جديد لأن الربان مات ، وكان عدد البحارة يتناقص كلما توقفوا فى ميناء . واخيرا وصـــلوا الى افريقيـــا الشرقية قبالة زنزبار . ويبدو أن ماركو بولو يصف هنا جزيرة مدغشقر لأنه يقول انها كانت أكبر جزيرة رآها فى حياته .

وفى كل محطة كان ابوه وعمه يشتريان البضائع للتجارة . ثم ابحروا شمالا الى سقطرة امام ساحل جزير العرب . ووصلوا الى هرمز ولكنهم وجدوا فى فارس جيوش المغول تقاتل جيوش المغول . فسلم التجار الأميرة للملك الغزنوى المنتصر . وانتهى امر آل بولو الى تبريز ، فباعوا لالئهم ورحلوا متخفين الى تفليس فى جورجيا وكانت خاضعة للتتار . وهناك رأوا آبار النفط تتفجر كالنوافير . ونزل الأب والعم فى ترابيزون على البحر الأسود

ومنها ركبوا المركب حتى القسطنطينية ، ولم ينزلوا على اليابسة بعد أن عرفوا ان اهل جنوا أصبحوا سادة البر والبحر فى كل مكان .

ومر آل بولو الثلاثة بأرخبيل بحر ايجه ، واخيرا عادوا الى دارهم فى البندقية عام ١٢٩٥ وكانت خالية ليس بها الا خادمهم العجوز الفانى فلم يتعرفوا عليه بعد غيبة خمسة وثلاثين سنة .

● ● ●

SS

٣

القصر الذهبى

□ لم يكن ماركو بولو اول من زار الصين من الأوربيين فى العصور الحديثة فقد سبقه اليها سفير البابا أنوتشنتو الرابع فى ١٢٤٦ وسفير لويس التاسع فى ١٢٥٣ .

وفى رحلة الأخوين نيكولو وماتيو الأولى عام ١٢٦٠ كانت دولة المغول تنقسم الى أربعة اقسام مستقلة رغم انها كانت اسميا يراسها كوبلاى خان . وكانت هـذه الأقسام هى :

(أ) دولة باركا خان قائد الجيش الذهبى ، وهو حفيد جنكيز خان ، وتشمل أوربا الشرقية وامارات روسيا حتى جبال الأورال .

(ب) دولة هولاكو ، حفيد جنكيزخان واخو الخان الأعظم كوبلاى ، وتشمل العراق وفارس وأفغانستان وارمينيا وجورجيا .

(ج) دولة آسيا الوسطى وكازاكستان الجنوبية ومنغوليا الغربية وكان يحكمها بعض احفاد جنكيز خان .

(د) شرق الأمبراطورية ، أى الصين وبورما ومنشوريا واكثر منغوليا وبايكال والتبت وتركستان الشرقية ، وكان يحكمها الخان الأعظم كوبلاى .

وكانت طرق التجارة من الصين الى البحر المتوسط والبحر الأسود مفتوحة على الدوام الا عندما تنشب الحرب بين المغول انفسهم ، كحرب ١٢٦٢ بين باركا وهولاكو . فكانت القوافل تسير سنويا من آسيا الوسطى الى الصين ومن شواطىء الفولجا الى فارس وبخارى . وكان يلحق بها صغار التجار والحجاج .

وكان ابن بطوطة (١٣٠٤ — ١٣٧٧) معاصرا لماركو بولو . وكان المسلمون فى الصين كثيرين ، وقد قابل ماركو بولو منهم عددا كبيرا من

الأطباء والعلماء والجنود والمديرين فى الصين التى فتحها المغول . وفى الموانىء وفى المراكز التجارية بطول طريق القوافل أسس المسلمون أحياء كاملة . كذلك بدأ عهد جديد فى علاقات الصين بأوربا منـذ الحـروب الصـليبية بعد أن ذبلت هذه العلاقات قرونا بقيام الدولة الساسانية ثم الدولة العربية .

ورغم انقطاع علاقات الصين بأوربا طوال العصور الوسطى فقد استمرت علاقات الصين مع الهند ومع آسيا الوسطى . وقد حاولت الصين أن تستفيد من الصراع الدائر بين العرب والفرس فى القرن السابع عند ظهور الاسلام ، فحاولت أن تضم بعض أقاليم آسيا الوسطى ، ونشب فى القرن الثامن صراع مسلح بين العرب والصين . وكانت البوذية قد انتشرت فى الصين منذ القرن الرابع الميلادى فكثر الحجاج الصينيون الى الأماكن المقدسة فى الهند . وفى العصر الاسلامى ترك الرحالة العرب والفرس كتابات هامة عن الصين .

وبعد أن عاد ماركو بولو الى البندقية وجد دويلته فى حرب ضروس مع دويلة جنوا فاشترك فى هـذه الحرب التى انتهت بهزيمة البندقية ، وأسر ماركو بولو فى الحرب وقضى ست سنوات فى السجن بجنوا ثم أفرج عنه وعـاد الى البندقية .

وفى أثناء حبسه فى سجن جنوا أملى ماركو بولو على زميل له فى السجن يدعى روستيكان كتابه الشهير المعروف باسم « كتاب كوبلاى خان العظيم » ، وهو مدون بالفرنسية القديمة التى كانت لغة الثقافة العالمية فى تلك الأيام .

وكان روستيكان نفسه فارسا يشتغل بتأليف الروايات الخيالية المليئة بالمغامرات . ولعل هـذا هو السبب فى ان قراء ماركو بولو ظلـوا قرونا لا يأخذونه مأخذ الجد ، ويتصورون أن « كتاب كوبلاى خان العظيم » هو مجرد عمل من أعمال الخيال .

ولكن البحث فى القـرن التاسع عشر أثبت صـدق تفاصيل رحلـة ماركو بولو فى مجموعها بغض النظر عن اعتماده على السـماع فى بعض الأحايين . فهو أحيانا يروى الأساطير عن الصين وعن بعض البلاد التى زارها والقصص الشبيهة بقصص « ألف ليلة وليلة » ، ومنها حكاية الطائر الجسيم أو الرخ الـذى يرد فى حكاية السندباد ، ومنها وصفه لجبال الماس .

ومن المفارقات الغريبة أن فارسا رحالة اسمه جان دى مانديفيل كتب مثل ماركو بولو كتابا بالفرنسية عن أسفاره فى الشرق بين ١٣٥٧ و ١٣٧١ ، أى بعد ماركو بولو بمائة عام تقريبا ، وقال إنه ساح أربعين سنة فى تركيا

وارمينيا وسوريا وفلسطين ومصر وليبيا . وفى مصر ذكر مانديفيل انه كان يعمل فى جيش السلطان الــذى أراد أن يزوجه من ابنته بشرط أن يعتنق الاسلام ، ولكنه رفض وهرب الى القدس ، ثم زار روسيا وبولندا ولتوانيا والهند وسومطرة والصين . ولمــا ترجم كتابه الى الانجليزية كان له أثر عظيم تجاوز بكثير أثر كتاب ماركو بولو .

ففى القرن الخامس عشر صدرت من كتاب مانديفيل ٢٥ طبعة بينما لم تصدر من كتاب ماركو بولو الا ٥ طبعات ، رغم انه تبين بعد ذلك أن مانديفيل كان شخصية وهمية وان كتابه بقلم طبيب بلجيكى من مدينة ليبج يدعى جيهان دى لابارب .

وقد كان ماركو بولو منحازا للمغول لأنه كان معجبا بهم ، فهو لا يتحدث عما أنزلوه بالبلاد المفتوحة من تدمير وتقتيل واحراق ، بل لا يتوقف عن التعبير عن الاعجاب بهم وبعظيمهم كوبلاى خان على وجه الخصوص. وهو يعبر عن حزنه لمـــا أصاب المغول من تدهــور بسبب مخالطتهم لشعوب كان يراها منحطة كالصينيين والفرس والسوريين وغيرهم من الأمم التى قهرها المغول .

وبعد أن ثبت للناس أن ماركو بولو لم يكن مجرد قصاص بارع بل كان بالفعل رحالة يصف البلاد على الطبيعة ، اخـــذوا يمجدونه تمجيدهم لمكتشف عظيم اماط اللثام عن بلاد جديدة ، فذهبوا من النقيض الى النقيض . فحقيقة الأمر أن ماركو بولو كان مجرد تاجر من تجار الجملة يعرف طرق القوافل والمسافات ومواقع الكلأ وموارد المياه والبرارى والقفار معرفة تامة ، كما كان يعرف أسرار بعض البضائع والصــنائع ، وهى اهتمامه الأول . لقد كان اثناء مقامه فى الصين وغيرها أجنبيا فى بلاط ملك أجنبى . ولم يعن بأن يتعلم لغة الصين وانما اكتفى بتعلم لغة المغول وابجدية التتر مع ذكريات من السريانية والعربية اللتين تعلم جانبا منهما فى بداية رحلتـــه الطويلة ، وربما بعض الفارسية .

فماركو بولو اذن لم يكن مؤرخا ولا جغرافيا ولا عالما فى علم الاجتماع ، وانما كان اهتمامه الأكبر هو اهتمام التاجر الــذى يفكر دائما فى الانتاج والاستهلاك أو على الأصح ما يمكن شراؤه وبيعه . وهو لا يطيل الحديث عن عادات الأقوام وتقاليدهم ومعتقداتهم الا ما شذ من احوالهم ، وانمـــا يطيل الحديث عن الأقمشة والحرير والدنتيلا والطيوب والتوابل والأحجار الكريمة ، وهى مطالب تجار البندقية من الشرق .

فهو مثلا فى القسم (٣٨) يقول : « كوبنان مدينة كبرى أهلها يتبعون محمدا وفيها حــديد كثير وصلب كثير ، وهناك يصنعون من الصلب مرايا

جسيمة الحجم . جميلة الهيئة . وهناك أيضا يصنعون التوتيا لعلاج العيون». وهو فى القسم (٢٣) يقول : « وكل المنسوجات التى تصنع من الحرير وخيوط الذهب تسمى موسلين ، ومن هذه البلاد يسافر تجار عديدون يسمون بالموصليين . وهم يصدرون كميات وافرة من التوابل ومن الأقمشة ومن منسوجات الذهب والحرير » .

وهو فى القسم (٣٤) يقول : « الرجال هنا مهرة يحسنون ببراعة صناعة كل الأدوات اللازمة للفرسان كالعقود والبرادع والمهاميز والسيوف.. والسيدات والآنسات يشتغلن بمهارة فائقة اشغال الابرة الجميلة على الأقمشة الحريرية والبروديرى بالألوان المختلفة . فيرسمن صور الحيوانات والطيور والأشجار والزهور » .

وفى القسم (٤٦) يحدثنا ماركو بولو عن الأحجار الكريمة . أما فى القسم (٢١) فيحدثنا عن بترول باكو فى أذربيجان فيقول : « اعلموا أن هناك نافورة ينبثق منها النفط بغزارة لدرجة أنه يمكن لمائة سفينة أن تأخذ حمولتها منه فى وقت واحد ، وهو لا يصلح للأكل ولكن يصلح للاشعال ولدهن الجمال المريضة . والناس تأتى من أقاصى البلاد لحمله ، ففى كل هذه البلاد لا يستخدمون الزيت فى الاشعال » . وفى القرن ١٣ كان الصينيون يستخدمون الفحم للوقود وماركو بولو يخصص فصلا لذلك .

ومن الغريب أن ماركو بولو لا يحدثنا عن الزراعة فى الصين ولا عن زراعة الشاى رغم أنه يحدثنا باستفاضة عن العملة الورقية ، كذلك لا يحدثنا ماركو بولو عن أن الصين عرفت الورق والطباعة فى أيامه كما هو مأثور ، ومع ذلك فانه يقال انه عاد الى البندقية بكتاب مطبوع فى الصين ويقال أيضا ان حكومة البندقية كلفت موظفا فيها يدعى كاستالدى (١٣٩٨ — ١٤٩٠) بنسخ بعض الأوراق الرسمية ، فاستفاد من اختراع توصل اليه كبير أساقفة أكويلا ، واسمه ناتالى ، حين صنع حروفا منفصلة من زجاج ، وكان يضغط بها على الورق وتلون باليد . وقد صنع كاستالدى هذه الحروف المنفصلة من الخشب ومن المعادن بدلا من الزجاج ، بعد أن رأى كتبا كان ماركو بولو قد جاء بها من الصين ، وطبع الأوراق بمساعدة الواح صغيرة من الخشب يمكن تغيير مواضعها وكان ذلك عام ١٤٢٦ . وتقول الرواية ان يوهان فاوست ، زميل جوتنبرج مخترع الطباعة كان يتردد على « منسخ » كاستالدى وإنه تعلم منه هذه الطريقة .

كذلك من الغريب أن كتاب ماركو بولو ليس فيه ذكر لأن الصينيين عرفوا البارود كما هو شائع ، ومع ذلك فنحن نعرف ذلك من مصادر أخرى

مثل قــول شيلجيل « ومع ذلك فانى أؤكد أن المغول كانت لديهم مدفعية فى ١٢٩٣ ، وأنهم عرفوا مدافع الهاون منذ ١٢٣٢ . ومنــذ ١٢٣٣ كان الصينيون يستعملون قــوة النــار فى المنجنيق » .

ومن وصف ماركو بولو لثروات الشرق الأقصى وكنوزه الأسطورية التى بقيت فى ذاكرة الأوربيين وجعلتهم يلهثون وراء ذهب العالم قرنا بعد قرن ، وصفه لجزيرة اسمها زيبانجو قال انها تقع على بعد ١٥٠٠ ميل من اليابسة فى أقصى الشرق . قال :

« وسوف أروى عليكم عجيبة هائلة هى قصر سيد هــذه الجزيرة ـــ فأعلموا اذن أنه يملك قصرا عظيما سقفه كله من الذهب الخالص على غرار ما نكسو نحن سقوف كنائسنا بألواح الرصاص ، بحيث تتجاوز قيمة هــذا القصر كل ما يمكن أن نتصوره . وفوق هــذا فان أرصفة القصر وأرضــية الحجرات مكسوة تماما بألواح الذهب وكأنها مربعات من بلاط حجرى سمكه بين أصبعين وثلاثة أصابع . وبالمثل فكل نوافذ القصر من الذهب الخالص ، حتى أن قيمة هذا القصر تتجاوز كل تصور .

« ولديهم بوفرة أيضا الأحجار الكريمة واللآلىء الوردية اللون وهى غاية فى الجمال . وهى غالية الثمن . وهذه اللآلىء كبيرة الحجم جدا ومستديرة ويبلغ ثمنها ثمن اللآلىء البيضاء » .

وقد كان وصف قصر جزيرة زيبانجو من أكثر الأشياء التى استرعت انتباه الأوربيين فى بدايات عصر النهضة الأوربية وحفزت مئات المغامرين الى التجوال برا وبحرا فى أركان المعمورة الأربعة فيما يسمى بحركات الكشف الجغرافى ، رغم أن هــذا الوصف وصف لقصر أسطورى نعرفه نحن جيدا فى الخيال الشرقى الفولكلورى أو كما تقول حواديتنا هو قصر فيه طوبة من ذهب وطوبة من فضة .

وفى متحف كولمبوس باشبيلية نسخة من كتاب ماركو بولو عليهــا سبعون ملاحظة بقلم كولمبوس الــذى تأثر كثيرا بوصف هــذا القصر الذهبى وكان يظن أنه فى اليابان ، وقد كتب الجغرافى باولو توسكانيللى خطــابا مشهورا الى كولمبوس عــام ١٤٧٤ يتحدث فيه عن هــذا القصر العجيب ويستحثه للوصول الى جزيرة زيبانجو بكنوزها الوفيرة وقــد لمع هــذا السراب الذهبى بعد مائتى عام ، كما لمعت لآلىء الهنــد التى تحدث عنهــا ماركو بولو وأفاض ، فى خيال كولمبوس حين خرج فى رحلته المشهورة غربا فى أغسطس ١٤٩٢ ليصل الى الشرق الأقصى والهند اعتمادا على كروية

الأرض . فوصل بدلا من ذلك الى جزر الهند الغربية (سان سلفادور) فى ١٢ اكتوبر ١٤٩٢ .

ومنذ ذلك التاريخ والاستعمار الأوربى لم يهدأ ولا يريد أن يهدأ فى بحثه عن قصور الذهب فى زيبانجو أو زاردندان أو زانادو ، جزيرة كوبلاى خان المسحورة . وفى هذا البحث الدائب خاض الاستعمار فى بحار الدماء ، ولكنه أيضا اكتشف مجاهل الأرض والسماء .

• • •

دانتي اليجييري
DANTE ALIGIERI
١٢٦٥ - ١٣٢١

١

□ لو أردنا ان نؤرخ لبداية عصر النهضة الأوروبية لما وجدنا تاريخا انسب من مطلع القرن الرابع عشر ، وهو فترة انشاء ملحمة « الكوميديا الالهية » الشهيرة — التى نظمها بين عام ١٣٠٧ وعام ١٣٢١ — « دانتى اليجييرى » أبو الشعر الايطالى كما يسمونه فى تاريخ الآداب الأوروبية (١٢٦٥ — ١٣٢١) .

فاذا أردنا أن نحدد معنى عبارة « أبى الأدب الايطالى » قلنا أن معناها هو أن دانتى اليجييرى هو واضع أساس الأدب القومى فى ايطاليا ، لأنه كان أول شاعر فحل يستخدم اللغة الايطالية وهى اللهجة العامية من لهجات اللغة اللاتينية التى كانوا يتكلمون بها فى ايطاليا فى التعبير الأدبى العظيم . وبذلك جعل دانتى من هذه اللغة العامية الرثة القلقة الفقيرة الركيكة لغة فصحى قادرة على التعبير الأدبى البليغ .

وبذلك أيضا مكن دانتى الايطاليين من الاستغناء درجة درجة عن الكتابة باللغة اللاتينية ، بعد أن ظلت اللغة اللاتينية الفصحى أولا ، ثم اللاتينية الوسطى ثانيا ، أكثر من أربعة عشر قرنا هى اللغة الرسمية فى روما وكافة أرجاء الامبراطورية الرومانية ثم فى ايطاليا وكافة أرجاء العالم المسيحى الغربى . فكانت لغة الدولة ولغة الكنيسة الكاثوليكية ولغة القانون ولغة الخطابة ولغة الرسائل ولغة التأليف فى كل ما يتصل بالدين والدنيا .

كانت اللاتينية لغة مقدسة تستمد قداستها من ممارسات الكنيسة الكاثوليكية وشعائرها فلا صلاة الا بها ولا قداس الا بها ولا وعظ الا بها ولا نصوص دينية أو دنيوية الا بها ، بل ولا نصوص من التوراة والانجيل معتمدة من الكنيسة الا الصيغة المترجمة الى اللاتينية من الكتاب المقدس . وكانت الكنيسة حريصة على بقاء هذا حتى تحول الأمية وجهل العامة

باللاتينية الفصحى والوسطى دون فهم العامة لنصوص دينهم بالاطلاع المباشر فيدوم اعتمادهم على رجال الدين فى كل ما يتصل بأمور دينهم .

ولم يكن هذا وضعا خاصا بايطاليا وحدها أو بفرنسا وحدها أو بأسبانيا وحدها . حيث اللهجات العامية منحدرة انحدارا مباشرا من أصول لاتينية فيقال ان لغة الكلام قريبة الشبه بلغة الكتابة . ولكنه كان القاعدة أيضا فى المانيا ومجموعة الشعوب الجرمانية وفى انجلترا وفى شعوب شمال أوروبا . حيث لغة الكلام لم تنحدر من اللاتينية وحيث الفجوة بين لغة الكلام ولغة الكتابة اشد عمقا وأوسع مدى .

كانت اللاتينية الوسطى لغة منحطة من اللاتينية الفصحى شبيهة بلغة الجرائد والاذاعة والتليفزيون فى بلادنا اليوم .. بالقياس الى اللغة العربية الفصحى .

ورغم أنها سارت فى طريق التبسيط . ورغم أنها كانت لغة مهجنة . الا أنها حافظت بقدر الامكان على نحو الفصحى وصرفها واعرابها وما يكفى من سماتها الرئيسية بما يجعلها لاتينية منحطة بعيدة عن فهم العامة وخانقة للتعبير الادبى فى وقت واحد .

بعبارة أخرى كان هناك ازدواج لغوى : فالناس تقول شيئا وتكتب شيئا آخر .. بما أدى الى شل كل تعبير وجدانى تلقائى وكل وصف صادق للحياة والطبيعة .. وحبس العاطفة والخيال فى اطارات البلاغة التقليدية القديمة . فأجهض كل ابداع أدبى أكثر من ألف عام .

وطوال هذه الأعوام الألف لم تكن هناك مشكلة متأزمة . لأن سيطرة الدين على كل مرافق الحياة لم تترك الا هامشا ضئيلا للفن والأدب . بل لقد كان الفن والأدب فى نظر القائمين على الدين محرمات دنيوية تلهى الانسان عن ذكر الله وتستدرجه الى الشهوات ، وعبادة الجمال .

أما اللغات العامية فى أوروبا .. أو « المنحطة » كما كانت تسمى يومئذ .. فقد كانت فى المجموعة اللاتينية وهى الايطالية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية والرومانيش .. لغات منحطة أو لهجات من اللاتينية الوسطى نفسها وقد اختلطت عبر القرون بلغات القبائل المتبربرة الغازية وبالتعبيرات الشعبية من مفردات وتراكيب ومصطلحات وعادات خاصة فى النطق والنحو والصرف والعروض .. ولانها كانت لغات الشعوب فقد كانت تتميز بالحيوية والتلقائية والصدق فى التعبير أكثر من اللاتينية

الوسطى . رغم كل ما كان يشوبها من فوضى وعدم الخضوع دائما لقواعد واضحة .. بل وغلظة وجلافة فى بعض الأحايين .

ولذا فقد اقترب ظهور الآداب الأوروبية الحديثة بالثورة على تلك اللغة الجامعة ، لاتينية العصور الوسطى ، وباتخاذ اللغات العامية فى أوروبا أدوات للتعبير الأدبى فى الشعر أولا ثم فى النثر .. وقد اقترن هذا التحول الخطير بظهور القوميات الحديثة فى أوروبا وبسيادة لغة الشعب على لغة السادة الرسمية .. ولذا فقد كان اتخاذ لغة الكلام لغة للكتابة وللتعبير الأدبى بمثابة ثورة كبرى رسخت دعائم القوميات الحديثة ومهدت للديمقراطية منذ بدايات عصر النهضة الأوروبية .

واجتاحت أوروبا بين ١١٠٠ و ١٣٠٠ (أى طوال القرنين ١٢ و ١٣) .. موجة من التعبير الأدبى بالشعر العامى — الغنائى والقصصى . ففى فرنسا شاع الشعر الغنائى الذى كان ينظمه أو يرتجله الشعراء الجوالون فى الجنوب (التروبادور) والشعراء الجوالون فى الشمال (التروفير) . وهم أشبه ما يكونون بشعراء المواويل الشعبية .. كذلك اشتهر كريتيان دى تروا (١١٣٥ — ١١٨٣) بما نظمه من فصول ملحمية شعرية باللغة الفرنسية العامية . وفى نفس الفترة اشتهرت ملحمة « أغنية رولان » التى نظمت بين ١١٠٠ و ١١٢٥ وهى عن مغامرات فرسان شرلمان وملاحم أبطال الفرنجة مع أبطال العرب فى جنوب فرنسا والبرانس . وسيرة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة ثم تلك الملحمة الروحية العجيبة « أغنية الوردة » التى بدأها جويوم دى لوريس نحو ١٢٣٦ وأتمها جان دى مانج (١٢٤٠ — ١٣٠٥). ويقال إنه أكملها بين (١٢٧٥ و ١٢٨٠) .

هذه الأشعار العامية أشبه شىء بأشعار المواليا أو بالمواويل الغنائية والموشحات التى ورثناها عن العصور الوسطى .. وهذه السير والملاحم أشبه شىء بتغريبة بنى هلال وبسير عنترة وسيف بن ذى يزن والأميرة ذات الهمة والزير سالم والظاهر بيبرس التى ورثناها عن نفس الفترة فى العالم العربى . كانت هذه ونظائرها الأساس الذى بنى عليه الأدب القومى فى فرنسا . وفى انجلترا كانت هناك « حكايات كانتربرى » وأمثالها للشاعر تشوسر أبى الشعر الانجليزى (١٣٤٠ — ١٤٠٠) . و « سيرة الحارث بيرس » للشاعر لانجلاند وموال « السير جاوين والفارس الأخضر » الخ .. هى الأساس الذى بنى عليه الأدب القومى فى انجلترا . وبهذه الآداب القومية نضجت اللغات القومية وغدت أدوات صالحة للتعبير الأدبى العظيم. وكانت الثورة على اللغة الرسمية الجامعة والاعتراف باللغات العامية هما الأساس الذى بنيت عليه القوميات الأوروبية الحديثة .

وهذا عين ما فعله فى ايطاليا الشاعر دانتى اليجييرى (١٢٦٥ — ١٣٢١) ومن بعده الشاعر بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) والروائى بوكاشيو (١٣١٣ — ١٣٧٥) . هؤلاء الثلاثة ثاروا على اللغة اللاتينية المقدسة الجامعة التى كانت لغة الدين والدولة فى ايطاليا وفى كافة أرجاء أوروبا واتخذوا من اللغة الايطالية العامية أداة للتعبير الأدبى فى الشعر والنثر .. وبذلك وضعوا اساس الأدب القومى وانضجوا اللغة القومية فى ايطاليا .

وقد ولد دانتى فى فلورنسا عام ١٢٦٥ لأب قيل انه كان يعمل موثق عقود . وانه كان ينتمى لأسرة من صغار النبلاء .. واصاب دانتى فى شبابه الباكر بعض الصيت فى نظم الشعر الغنائى . وكان بين أصدقائه الشاعر كافالكانتى والرسام جيوتو . وفى شبابه الباكر تعرف ايضا على الفتاة بياتريس بورتنيرى التى أحبها حب العبادة ونظم فيها قلائد الغرام .. ولكن حبه لها كان حبا عذريا وكأنها طيف اثيرى سرعان ما اصبح محورا هاما فى كل اشعاره . فلما ماتت بياتريس عام ١٢٩٠ ، ودانتى لا يزال فى الخامسة والعشرين من عمره ، جمع قصائده فيها ونشرها مع مقدمة بعنوان « الحياة الجديدة » .

وتزوج دانتى من فتاة تدعى جيما دوناتى أنجب منها ولدين وبنتين . ويقال ان جيما كانت خطيبته منذ الصبا على عادة تلك الأيام حين كانت الأسر تربط ما بين بنيها وبناتها وهم بعد صغار . ولا يعرف الكثير عن تعليم دانتى فى شبابه ولكننا نسمع أنه قد التحق بنقابة الأطباء والصيادلة . ولم يكن فى تلك الأيام ممكنا ان يشتغل أحد فى مهنة من المهن الا اذا كان عضوا فى نقابتها .. ولا نعرف ماذا أهل دانتى لدخول هذه النقابة الا أن يكون قد تلقى العلم والتدريب فى المهن الطبية .

كذلك نسمع عنه يعمل فارسا مقاتلا فى معركة كامبالدينو ، وانه كان يعمل أيضا فى المجالس البلدية قبل ١٣٠٠ وهى وظيفة مدنية أهلته لها عضويته فى تلك النقابة المهنية الهامة . وكان قريبه كورسو دوناتى زعيم الحزب الارستقراطى الذى كان يسمى بالحزب الأسود ، أما صديقه الشاعر جويدو كافالكانتى فقد كان زعيم الحزب الأبيض ، وهو الحزب الشعبى ، فوقع دانتى بين هذين النقيضين . ونفى الشاعر كافالكانتى من فلورنسا أيام عضوية دانتى لمجلس الستة الذى كان يدير هذه الدويلة ، بسبب اثارة كافالكانتى لبعض الفتن فى فلورنسا . ومن الوظائف التى تقلدها دانتى وظيفة السفير ووظيفة المشرف على تخطيط فلورنسا ، والعضو فى اللجنة المشرفة على الانتخابات . ثم نسمع عنه وقد نفى من فلورنسا فى ١١ يناير ١٣٠٢

ss

حين استولى الأمير شارل دى فالوا ، أخو ملك فرنسا تحت جناح البابا ، على مدينة فلورنسا ، ثم عدل الحكم عليه فى مارس ١٣٠٢ فصار « الموت حرقا » .

ولجأ دانتى الى مدينة بولونيا عام ١٣٠٣ واشتغل بالمؤامرات مع الحزب الابيض لقلب نظام الحكم فى فلورنسا والاطاحة بالحزب الأسود الحاكم ، وهو حزب الارستقراط . فلما فشل قصد الى فيرونا فى شمال غربى ايطاليا وربما سافر الى باريس . والأرجح انه كتب كتابه الفلسفى « المائدة » (كونفيفيو) بين أعوام ١٣٠٤ و ١٣٠٨ ، والأرجح أيضا انه بدأ كتابه الناقص « فى البلاغة العامية » فى تلك الفترة . أما « الكوميديا الالهية » فقد بدأها دانتى على الأرجح فى فترة متأخرة من حياته ، ومعها بحثه « فى النظام الملكى » (دى موناركيا) ، وان كانت هناك اشارات فى نهاية ديوان « الحياة الجديدة » توحى بأن دانتى كان يفكر فى نظم « الكوميديا الالهية » فى تاريخ باكر هو ١٢٩٤ .

على كل فقد أصدرت حكومة فرنسا عفوا عاما عن أعدائها السياسيين فى ١٣١١ ولكن دانتى بالذات قد استثنى من هذا العفو . ثم لا يلبث الحكم عليه ان يتجدد فى ١٣١٥ . وقد أقام دانتى بعض الوقت فى فيرونا ضيفا على آل سكاليجر ، تحت حماية الدوق الشاب كان جراندى ديللا سكالا الذى أهدى اليه قسم « الفردوس » من « الكوميديا الالهية » . ثم انتقل دانتى الى رافنا بدعوة من أحد سادتها اسمه جويدو نوفيللا دى بولينتا . ويبدو أن دانتى كان يحاضر فى رافنا واشترك فى جدل علمى حول دعوة وجهت اليه لأن يكتب ملحمة باللغة اللاتينية وقد كان دانتى كما هو معروف من أنصار العامية . وقد رحل فى سفارة الى البندقية ليوقف الغزو عن رافنا . ثم مات دانتى فى رافنا عام ١٣٢١ ودفن فيها .

وقد بدأ دانتى بالدفاع عن اللغة العامية فى تاريخ باكر من حياته الأدبية، ولكن دفاعه الباكر كان يشوبه التحفظ. ففى ديوان «الحياة الجديدة» يذكر مترجمه ، دانتى جابرييل روزيتى ، أن دانتى استخدم العامية الايطالية لكى يسهل فهم قصائده على سيدة لا تتقن اللاتينية ، وكذلك ليعبر عن مضمونه الفلسفى تعبيرا غنائيا بلغة الحب . أو كما قال دانتى نفسه ان العامية لا تصلح الا للتعبير عن الحب ، أما المعانى الأخرى فهى قاصرة عنها . ولكن دانتى لم يلبث أن خرج بعد ذلك بنظرية متكاملة فى الدفاع عن اللغة العامية ، فاستفز أكثر فقهاء عصره .

وفى « المـــائدة » يقول دانتى : « ان اللاتينية لغة ثابتة وغير قابلة للاضمحلال ، بينما العامية لغة غير مستقرة وهى قابلة للاضمحلال » . كذلك يعترف دانتى بأن اللاتينية « أكثر جمالا وامتيازا ونبلا من عاميتها الايطالية ، ولكن اللاتينية الفصحى أقل استعمالا من لهجتها العامية » . وهو يعتذر عن استعماله للغة العامية بقوله : « انما اخترت هذا الطريق يدفعنى حبى الطبيعى للغة موطنى .. لكى أرفع أولا من شأن المحبوب ، ثم لكى أغار عليه ثانيا ، ثم لكى ادافع عنه ثالثا » . والمحبوب هنا هو لغة الموطن (الايطالية) التى تنبأ لها دانتى بأنها « سوف تبزغ كالنور الجديد وكالشمس الجديدة التى سوف تشرق عندما تغيب الشمس القديمة ، وسوف تسطع على من تكتنفهم الظلمة والضباب لأن الشمس القديمة لم تعد تسطع عليهم بالضياء » .

وهكذا تقدم دانتى على استحياء من مرحلة التجريب الى مرحلة اليقين والاعتزاز بلغة قومه وعصره ، فقد بدت له اللغة اللاتينية (الفصحى) لغة شكلية مصطنعة لا تعبر عن الواقع بعد أن ماتت جذورها الحية وتضاءلت علاقتها بالحياة . وحين بدأ دانتى فى انشاء « الكوميديا الالهية » كان مترددا حائرا بين القديم والجديد حتى أنه نظم مطلعها باللغة اللاتينية ، وكأنما كان يخشى أن تعجز اللغة العامية عن اثبات نبلها أو قدرتها على الحياة ، ولكن دانتى لم يلبث أن وثب الوثبة الكبرى فعدل عن كتابتها باللاتينية وقرر انشاءها بالايطالية .

وقد أورد بوكاشيو فى كتابه « سيرة دانتى » الأبيات الثلاثة الأولى من «الكوميديا الالهية» حين بدأ نظمها باللاتينية ثم أضاف : ولكن دانتى أعاد صياغتها « بلهجة فلورنسا .. لكى تعم قراءتها بين مواطنيه وبين غيرهم من الايطاليين . فقد عرف دانتى أنه لو نظمها بالعروض اللاتينى كما فعل أسلافه من الشعراء لمـــا انتفع منها الا الراسخون فى المعرفة ، فى حين أنه بكتابتها بالعامية يحقق شـــيئا لم يحققه أحد قبله ، دون أن يمنع هذا فهم الأدباء لشعره » .

والحق أن القضية لم تكن قضية اللغة العامية وحدها أو مولد اللغة الايطالية كلغة صالحة للتعبير الأدبى ، وانما كانت القضية تمتد الى الدفاع عن الشعر والأدب الابداعى بعامة . فلأكثر من الف عام ، بعد انتصار المسيحية على الوثنيات الأولى ، انقرض الشعر اليونانى واللاتينى والأدب الابداعى بعامةمع ما انقرض منتراث وثنى ، بل ودخلالشعر والأدبالابداعى بعامة فى نطاق المحظورات والسفاسف الدنيوية التى لا يجوز لمؤمن زاهد فى عرض الدّنيا أن يهتم بها ، وشاعت فى العالم المسيحى نظرية أفلاطون القائلة بأن الشعر غواية وتزييف ومجافاة للأخلاق الفاضلة والروحانية المثاليـــة

الدائمة وابتعاد عن عالم الحقائق وتزيين للخطيئة والكفر والشرك ، ومثل الشعر بقية الفنون .

وقد كان القديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) من أسبق من روجوا لهذه النظرية . ولكن ذلك قاده الى نظريته فى الحقيقة الرمزية للأدب ، وهى النظرية التى مكنت مفكرى الرنيسانس بعد ألف عام من انقاذ آداب القدماء وفنونهم ومن الدفاع عن الآداب والفنون بوجه عام .

متى كتب دانتى بحثه الهام الناقص « فى البلاغة العامية » ؟ بحسب ما جاء فى « سيرة دانتى » لبوكاشيو : « وعندما اقتربت منية دانتى كتب كتابا صغيرا باللاتينية اسمه (فى البلاغة العامية) .. ويبدو انه كان ينتوى أن ينشىء أربعة فصول فى هذا الكتيب .. الا أنه لم يبق لنا منه الا فصلان » . فاذا كان كلام بوكاشيو دقيقا من أن دانتى كتب دفاعه عن العامية قبيل وفاته ، فقد وجب ان ننظر الى هذا البحث نظرنا الى آخر موقف اتخذه دانتى من قضية العامية والفصحى ، بل ونظرنا الى « مانيفستو »أو « بيـــان » أقدم أخيرا على اعلانه فى هذا الموضوع الشائك بعد أن أتم « الكوميديا الالهية » باللغة العامية فأصبحت الأساس الأدبى الحقيقى الذى بنيت عليه اللغة الايطـــالية .

ومما يلفت النظر أن دانتى فى « البلاغة العامية » كتب دفاعه عن اللغة الايطالية العامية باللغة اللاتينية الفصحى . وقد دل هذا على أن اللغات الشعبية حتى ذلك التاريخ كانت قد نضجت للابداع الأدبى ، ولاسيما فى الشعر ، ولكن استخدامها فى النثر العـــلمى والتعليمى وفى نثر البحـــوث والدراسات لم يأت الا متأخرا بعد أن استقر استخدامها فى النثر الابداعى (الرواية والقصة القصيرة والمسرح) ، فظلت اللغة اللاتينية لغة التعبير القانونى والدبلوماسى والعلمى والتعليمى والفلسفى والفكرى بصفة عامة اكثر من ثلاثة قرون بعد دانتى ، حتى فرانسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦) ولايبنتز (١٦٤٦ — ١٧١٦) ، أو لعلها بقيت بعد ذلك الى حد ملموس .

بل ان الناقد الانجليزى الكبير صمويل جونسون (١٧٠٩ — ١٧٨٤) حين زار جامعة باريس فى أواسط القرن الثامن عشر اتخذ من اللغة اللاتينية اداة للتخاطب اليومى بينه وبين أساتذة تلك الجامعة ، حتى يتجنب استخدام الفرنسية ويعفى أصحاب البيت من استخدام الانجليزية فى بلادهم .

لن نتكلم هنا عن « الكوميديا الالهية » فهذه شرحها يطول ، وانما نتكلم عن وجه واحد فى دانتى هو الذى جعل كل حديث عن الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية لابد وأن يبدأ به ، وذلك هو موقفه من اللغة . فهو أول من

دعا فى ايطاليا نظريا وعمليا الى التخلى عن اللغة اللاتينية والى استخدام عاميتها الايطالية اداة للابداع الأدبى .

وقد كان هناك فى ايطاليا قبل دانتى من الشعراء من استخدم اللغة العامية فى المواويل الشعبية ، ولكن هؤلاء كانوا من صغار الشعراء والشعراء الشعبيين الذين تغلب قيمتهم التاريخية على قيمتهم الفعلية . فعبقرية دانتى اذن هى التى جعلت من البلاغة العامية بلاغة فصحى ووضعت أساس اللغة الايطالية كلغة قومية استغنى بها الايطاليون عن ذلك اللسان الجامد المتحجر العتيق أسير قواعد النحو والصرف القديم وتقاليد الفصاحة الميتة التى لم تكن تعبر عن الحياة بعد قرون من اندثار حضارة الرومان .

فعل دانتى كل ذلك حين نظم مقطوعات « الحياة الجديدة » آية فى الرقة والسمو ، فكانت مثلا أعلى للشعر الغنائى تأثر به كافة الشعراء من بعده فى كافة الآداب الأوروبية ، وفعل ذلك حين نظم بالعامية الايطالية ملحمته الخالدة « الكوميديا الالهية » (الجحيم والمطهر والفردوس) ، فكانت مثلا أعلى للشعر الفلسفى لا نظير له فى العصر الحديث الا ملحمة « الفردوس المفقود » للشاعر الانجليزى ميلتون والا « فاوست » للشاعر الألمانى جوته.

وقد حاول دانتى أن يكتب دفاعا نظريا عن اللغة العامية ، فكتب بحثه عن « البلاغة العامية » ، ولكنه لأمر ما لم يكمل بحثه فكتب فيه فصلين من أربعة فصول .

يبدأ دانتى دفاعه عن اللغة العامية بتعريفها على الوجه الآتى : « اللغة العامية هى تلك اللغة التى نتعلمها بلا قواعد بمحاكاة مرضعاتنا » . ومن هذه اللغة تخرج لغة ثانوية هى ما كان الرومان يسمونه « اللغة النحوية » ، « وهى لغة لا يتعلم استخدامها الا الأقلون لأننا لا نكتسب معرفتها الا بعد انفاق وقت طويل ونتيجة لدراسة مثابرة » . والحكم الذى يصدره دانتى فى هذا الشأن منذ البداية هو أنه : « من بين هذين النوعين من الكلام نجد أن الكلام العامى أعظم نبلا ، من جهة لأنه الأسبق استعمالا بين البشر ، ومن جهة أخرى لأن كل الناس يستخدمونه رغم انقسامه الى لهجات مختلفة فى النطق والمفردات . كذلك فان اللغة العامية أعظم نبلا من اللغة النحوية لأنها طبيعية بالنسبة لنا ، بينما اللغة النحوية تدخل فى باب اللغة المصطنعة ».

ثم ينتقل دانتى الى التحليل البشرى لسكان أوروبا فيفترض أنهم جاءوا أصلا من المشرق ثم تفرقوا الى ثلاث مجموعات لغوية متميزة بالطريقة التى تقول بها « نعم » . فسكان شمال أوروبا يقولون « اوى » (أيوه) ، وسكان

ss

وسطها يقولون « اوك » (آه) ، وسكان جنوبها يقولون « سى » ، وهؤلاء هم الايطاليون والفرنسيون والأسبان ، وقد كانت هذه المجموعات الثلاث أصلا تتكلم لغة واحدة ثم تعددت لغاتها رغم وحدة الأصل أو تبلبلت بعد تفرقها فى المكان وتطورها فى الزمان كما تقول أسطورة برج بابل .

والغريب فى هذا التحليل ان دانتى كتب هذا الكلام عن هجرة الأقوام الأوروبية من المشرق اكثر من ستة قرون قبل اهتداء الدراسات الأنثروبولوجية (الجغرافيا البشرية) والدراسات الفيلولوجية (فقه اللغة) الى منبع سكان أوروبا من شمال الهند ما بين نهر سيحون وجيحون وانتمائهم ، سلالات ولغات ، الى المجموعة الهندية الأوروبية ، والهندية الايرانية ، والهندية الجرمانية . وهى نظرية تقريبية فى تقديرى لأنها تصف جزءا من الحقيقة وليس الحقيقة كلها ، فهى تستبعد الصحراء الكبرى كأحد المصادر الأصلية لسكان أوروبا فى العصور الجيولوجية .

أيا كان الأمر ، فدانتى يفسر تعدد لغات أوروبا رغم وحدة أصلها بثلاثة عوامل (١) اختلاف الزمان . (٢) اختلاف المكان . (٣) اختلاف المناخ والبيئة ، أو فلنقل إنهما عاملان وهما اختلاف الزمان واختلاف المكان ، وهذان العاملان يشملان اختلاف المناخ والبيئة . اما اختلاف الزمان فهو يجرى على اللغات كما يجرى على الأحياء : فكما أن الأحياء تولد وتنمو وتزدهر وتهرم وتموت فكذلك اللغات تولد وتنمو وتزدهر وتهرم وتموت . وبالمثل فان اختلاف المكان يتبعه اختلاف المناخ وما يترتب عليه من اختلاف فى بعض الخصائص العضوية عند البشر متمثلة فى تطور جهاز النطق ، ويتبعه اختلاف البيئة الجغرافية والمادية والاجتماعية وما يترتب عليه من اختلاف المفردات والمصطلحات وعادات التعبير عند الأقوام المختلفة .

يقول دانتى : « وما دام الانسان حيوانا كثير الانتقال شديد التغير ، فلا يمكن أن تكون هناك لغة بشرية دائمة أو مستمرة ، وانما لا مناص من أن تتغير اللغة كما تتغير بقية خصائصنا ، كما يتغير سلوكنا وملبسنا على سبيل المثال بحسب بعد الزمان والمكان » . أو كما يقول دانتى ، لو عاد أهل ايطاليا القدماء من قبورهم الى الحياة لوجدوا الايطاليين الأحياء يتكلمون لغة مختلفة عن لغتهم . ولا عجب فى ملاحظة هذا الاختلاف . فنحن حين لا نرى شابا وهو ينمو نحس بما طرأ عليه من تغير بعد أن تقدمت به السن . أما اذا لازمناه فى نموه فنحن لا نلاحظ ما يطرأ عليه كل يوم أو كل سنة من تغيرات تدريجية طفيفة . « فلا نعجب اذن اذا وجدنا رأى الناس الشبيهين بالبهائم أنهم يحسبون أن سكان أية بلدة كانوا دائما يتكلمون بلغة لا تتغير ، فتغير لغة أية بلدة يأتى تدريجيا وعبر أزمنة طويلة متعاقبة ، بينما نجد أن حياة الانسان

قصيرة بالطبيعة » . وما يقال فى اختلاف الزمان يقال أيضا فى اختلاف المكان . وبسبب هذا الاختلاف نشأ « النحو » .

يقول دانتى : « وهكذا بدأ عمل مخترعى علم النحو ، فما النحو الا نوع من تثبيت هوية الكلام فى الأزمنة المختلفة وفى الأمكنة المختلفة . ولما كانت هذه الهوية مستقرة باتفاق الكثيرين ، فهى لا تخضع لتحكم أحد بالذات ، ولذا فهى لا تقبل التغيير . فالنحاة اذن اخترعوا النحو حتى لا نعجز كليا او جزئيا عن معرفة افكار القدماء وأعمالهم او معرفة أفكار وأعمال النائين عنا فى المكان ، بسبب اختلاف اللغة نتيجة لنزوات بعض الأفراد فى التعبير » .

ودانتى يشير هنا الى انقسام اللغات نفسها الى لهجات معاصرة ويقول ان العامية الايطالية ذاتها كانت فيها أكثر من ألف لهجة ، وان بعض هذه اللهجات أقرب الى الروح الايطالية من غيرها . ومع ذلك فهو يقول ان بنية العامية الايطالية يجب أن تلتمس فيما ما هو مشترك بين كل أقاليم ايطاليا .

وقد كان من راى دانتى أن استعمال العامية ينبغى أن يقتصر على أفضل الشعراء الموهوبين من أصحاب الفكر النبيل . فاللغة العامية لغة نبيلة ولا يصلح لها الا الفكر النبيل . أما العاجزون والتافهون من الشعراء فيمكنهم ان يستروا عجزهم وتفاهتهم بالتعبير بالفصحى ، فان هم عبروا بالعامية تجلى قصورهم ونقصهم فى الالهام .

اما أهم أغراض الشعر العامى فهى عنده ثلاثة أغراض ، وهى التعبير عن النافع والممتع والأخلاقى : « فالباحثون عن النافع لن يجدوه الا فى معانى (الأمان) . ثم هناك ثانيا الممتع ، وفيه نقول انه ليس هناك أمتع لأشواق الانسان من (الحب) . وثالثا ، بالنسبة الى ما هو أخلاقى ، وفى هذا الصدد لا يشك أحد فى أن موضوعه الأول هو (الفضيلة) . ومن هذا يتضح أن هذه الأشياء الثلاثة ، ألا وهى الأمان والحب والفضيلة ، هى فيما يبدو الأغراض الرئيسية التى ينبغى أن تكون أهم ما يعالجه الشعر العامى ، أقصد التعبير عن أهم ما يفضى اليها كبطولة السلاح ونار الحب واتجاه الارادة نحو الخير . واذا نحن تدبرنا الأمر جيدا ، وجدنا أعظم كتاب العامية قد نظموا الشعر فى هذه الأغراض وحدها دون سواها : وهؤلاء هم برتران دى بورن الذى كتب عن بطولات السلاح ، وأرنو دانييل الذى كتب عن الحب ، وجيرودى برونيل الذى كتب عن الفضيلة ، وتشينو دى بيسترو الذى كتب عن الحب ، وصاحبه (أى دانتى نفسه) كتب عن الفضيلة . ومع ذلك فلست أجد بين الشعراء الايطاليين من مجد بالشعر بطولة السلاح » .

ومن هذا يتضح أن دانتى يستعمل اصطلاح « الأمان » بمعنى خاص ، هو الذود عن الوطن أو القوم أو العرض أو المصلحة ، وأنه يتحدث هنا عن الشعر الملحمى الذى كان شائعا فى الأدب الفرنسى العامى فى زمن دانتى وقبيل زمنه ، ونموذجه « أغنية رولان » التى تصور وقائع شرلمان وفرسانه مع الغزاة العرب ، ونظيرها فى الآداب الجرمانية « أغنية النبلونج » وفى الآداب النوردية « أغنية الفولسونج » . هذا الشعر البطولى الذى عرفه اليونان فى « الالياذة » و « الاوديسا » المنسوبتين الى هوميروس ، وعرفه الرومان فى « انيادة » فرجيل ، لم يعرفه الايطاليون الا حين نظم أريوسطو (١٤٧٤ — ١٥٣٣) فى العامية الايطالية ملحمة « أورلاندو غاضبا » ثم نظم تاسو (١٥٤٤ — ١٥٩٥) ملحمة « أورشليم محررة » عن الحروب الصليبية .

ثم يتطرق دانتى بعد ذلك الى الكلام عن مقومات البلاغة العامية فى الألفاظ والتراكيب والأسلوب والعروض فيحدثنا عن أوزان الشعر وعن مكان الألفاظ الرقيقة والألفاظ الفخمة والألفاظ الضخمة .. الخ .. فى شعر شعراء العامية ويبين لنا وظيفة كل فصيلة على حدة فى أنواع الشعر المختلفة .

هذا مجمل دفاع دانتى عن اللغة العامية فى ايطاليا ودعوته الى اتخاذها أداة للتعبير الأدبى بدلا من اللغة اللاتينية . فهو بذلك قد وضع أساس اللغة القومية التى أمكن أن تبنى عليه فكرة القومية الايطالية . قال الشاعر الانجليزى الكساندر بوب فى القرن الثامن عشر عن الشاعر الانجليزى جون درايدن فى القرن السابع عشر انه «وجد اللغة الانجليزية طوبا فتركها رخاما» . فاذا جاز لنا أن نستعير هذه العبارة المشهورة ونطبقها على شعر دانتى اليجييرى ، فأكثر صدقا أن نقول ان دانتى اليجييرى وجد اللغة الايطالية طوبا فتركها رخاما .

وهكذا بالرغم من أن كثيرا من أفكار دانتى تنتمى فى حقيقتها الى العصور الوسطى ، الا ان هذه الثورة اللغوية والأدبية والقومية التى استحدثها قد جعلته أول رائد لعصر النهضة الأوربية فى ايطاليا وربما فى أوربا بصفة عامة .

فلنذكر قول دانتى فى ديوانه « فيتا نوفا » أى « الحياة الجديدة » :

« ولكى افسر هذا الأمر على الوجه الأمثل ، لابد أن نتذكر أولا أن من كانوا يكتبون قديما قصائد الحب ، لم يكتبوها باللغة العامية وانما كتبها بعض الشعراء المعينين باللغة اللاتينية ، أقصد بين الايطاليين . ومع أن هذا الأمر يصدق أيضا على أبناء الشعوب الأخرى ، وهو ما ينطبق أيضا على اليونان ، فلم يكن بيننا ولا بينهم كتاب يكتبون بلغة الكلام ، وانما كان

بينهم ادباء يعالجون هذه الأشياء باللغة الفصحى . يجب أن نذكر حقا أنه لم تمض سنوات عديدة منذ بدا نظم الشعر باللغة العامية ، وكان نظم القوافى بلغة الكلام هو ما يعادل استخدام البحور فى الشعر اللاتينى وهو غير مقفى . أقول إنه لم يمض وقت طويل ، لأننا لو تأملنا اللغة البروفنسال فى جنوب فرنسا واللغة الايطالية لما وجدنا فى هاتين اللغتين شيئا مكتوبا فى تاريخ أقدم من مائة وخمسين سنة . كذلك فانبعض صعاليك الشعراء بالعامية قد اكتسبوا أولا بعض الشهرة ، وذلك لمجرد أن أحدا لم يسبقهم الى الكتابة بالايطالية . ومن بين هؤلاء كان أولهم شاعر وجد دافعه الى كتابة شعره بالعامية رغبة منه فى أن تفهم محبوبته قصائده لأن الشعر اللاتينى كان مستعصيا عليها » .

فاذا ذكرنا كلام دانتى هذا أدركنا مدى الثورة التى استحدثها دانتى فى تحويل لغة ناشئة بلا تقاليد ولا ضوابط ، لغة لم تعرف الانشاء الأدبى فى الشعر أو فى النثر قبل قرن واحد من زمانه ، الى لغة للشعر الغنائى فى ديوان « الحياة الجديدة » وللشعر الفلسفى فى « الكوميديا الالهية » تفيض عذوبة وشجوا ونبلا وعمقا ، لغة عامية لا يدفع الى الانشاء بها العجز عن فهم الفصحى أو عن التعبير بها ، وانما يدفع اليه احساس شاعر مبدع بما فى لغة الشعب من جمال وجلال وصدق وعمق ، خصائص لا تنتظر الا العبقرى الجبار ليجلوها ويفجرها وينشر عليها غلالة من سحر هاروت وماروت .

وهذا ما اكتشفه دانتى فى اللغة الايطالية التى سماها لغة « قومية » لأنها الأساس والقاسم المشترك الأعظم فى كافة لهجات ايطاليا المحلية . وعنده أن اللغة لا تكون قومية الا اذا اتصفت بأربع خصائص :

١ — أن تكون مضيئة .

٢ — وأن تكون محورية .

٣ — وأن تكون نبيلة .

٤ — وأن تكون محكمة . وهذا فى رأيه هو حال اللغة الايطالية التى دافع عنها دانتى كلغة قومية تتوفر فيها كل هذه الخصائص .

هى أولا لغة « مضيئة » بمعنى أنها « منيرة ومنارة » ، وضياؤها يضفى الشرف والمجد على أصحابها وهو الضياء الذى استمدته من قوة أصحابها الذين أزالوا عنها جلافة اللهجات الريفية ، وحوشية التعبيرات المبتذلة

فبلغت بذلك مرتبة عالية من « الرفعة » و « الوضوح » و « التمام » و « الصقل » .

وهى ثانيا لغة « محورية » كالمصراع الذى يتحرك عليه الباب الى الداخل أو الى الخارج ، وتبعا لحركتها تتحرك بقية اللهجات المحلية . (والاصطلاح الذى يستخدمه دانتى هو « الكردينالية » . والكاردينال هو « مفصلة الباب » أى المفصل الذى يتحرك عليه الباب ، أى أن الكرادلة فى الدين المسيحى الكاثوليكى هم مصاريع باب الجنة الذى يحمل القديس بطرس مفاتيحه ، وقد استعار دانتى هذا التعبير لوصف اللغة المحورية أو المركزية التى تتبع حركتها كل اللهجات) .

وهى ثالثا لغة « نبيلة » لأنها تصلح لأن تكون لغة البلاط . والبلاط عند دانتى هو صورة الأمة ممثلة فى صفوتها لأن فيه يجتمع حول الملك أو الأمير النبلاء من كل الأقاليم . ومن تجمعهم تنشأ لغة راقية تمثل خير ما فى كل اللهجات .

ودانتى يأسف لأن الايطاليين فى أيامه لم يكن لهم بلاط كالفرنسيين لأنه لم يكن لهم ملك أو أمير يوحد كلمتهم ويلتفون حوله : « لهذا فان لغتنا المضيئة تتجول هنا وهناك كعابر سبيل ولا تجد مأوى يرحب بها غير بيوت البسطاء ، فليس هناك بلاط يحميها » .

وهى رابعا لغة « محكمة » كلغة المحاكم والقضاء والقانون والادارة والمجالس التى تسن الشرائع للناس ، ومقياس هذا الاحكام هو التوازن والدقة وضبط التعبير . واللغة الايطالية عند دانتى تستطيع أن تباهى بهذا الاحكام بفضل « نور العقل » الذى يتميز به الايطاليون .

أهذا كلام عاشق للغة العامية الايطالية أم كلام محام قدير ؟ سواء أكان الأمر هذا أو ذاك ، فهذه المرافعة التى كتبها دانتى عن اللغة الايطالية باللغة اللاتينية لم تكن هى التى زحزحت اللاتينية الوسطى وأخرجتها من الميدان واحلت محلها اللغة الايطالية كلغة قومية للايطاليين ، وانما فعل كل ذلك عجز اللغة العجوز عن التعبير الأدبى ونضارة لغة الشعب التى ضفرها دانتى حول رأسه كأكليل الغار .

• • •

ss

٢

فى الملكية

□ كانت دعوة دانتى للتخلى عن الكتابة باللغة اللاتينية والى الكتابة بصيغتها العامية (الايطالية) تدخل فى باب التجديف الذى استوجب غضب الكنيسة ، لأن اللاتينية كانت لغة الكنيسة ولغة الدولة فى القوانين والادارة والدبلوماسية ، الخ ..

واستخدام الايطالية لغة للقراءة والكتابة كان سيفضى بالضرورة الى ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة العامية ، بعد أن كان العالم المسيحى الكاثوليكى لا يقرؤه الا فى اللاتينية التى لا يعرفها الا القساوسة والمثقفون الذين احتكروا تفسير الكتاب المقدس واقامة الصلوات والوعظ بسبب جهل العامة باللغة اللاتينية ، مما زين لرجال الدين التحكم فى عقول الناس وكل ما يتصل بشئونهم الروحية ، وفيما بعد ذلك بقرنين (فى ١٥٢٠) سوف نرى أن البابوية قد أصدرت قرار الحرمان على المصلح الدينى الألمانى مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) لأنه كان يهاجم صكوك الغفران ويدعو لترجمة الكتاب المقدس الى الالمانية ، لغة أهل بلاده ، حتى يكسر احتكار أصحاب اللاتينية لتعليم الدين المسيحى وتفسيره ، ولأنه كان يطالب بالغاء دور الكهنوت فى الوساطة بين الانسان والله .

دعوة دانتى للتخلى عن اللغة الفصحى (اللاتينية) والى استخدام اللغة العامية (الايطالية) ، كانت اذن وحدها كافية لغضب الكنيسة عليه . ومع ذلك فنحن نرى دانتى ينفى من مدينته أو دويلته ، فلورنسا ، عام ١٣٠١ ، اى وهو فى سن السادسة والثلاثين ، ويقضى فى المنفى عشرين عاما متصلة حتى وفاته فى ١٣٢١ .

بل نرى أن الحكم بنفيه يتحول بعد شهرين الى الحكم باحراقه حيا ثم يمتد فى ١٣١٥ الى اعدام أولاده الثلاثة أو الأربعة الذين كانوا لا يزالون فى سن اليفاعة والصبا !

لماذا ؟ فى الظاهر لأن دانتى اشتغل بالسياسة وانضم الى الحزب الخاسر . أما فى الحقيقة فلأنه كان صاحب مبادىء ثورية خطيرة فى السياسة والدين ، نجدها مشروحة فى كتابه الشهير « دى موناركيا » ، أى فى الملكية أو « فى النظام الملكى » .

وقد بدأت متاعب دانتى فى عام ١٣٠٠ . فقد كان فى فلورنسا حزبان يتنازعان السلطة ، هما حزب الارستقراطية الذى كان يسمى بحزب « السود » ، ويتزعمه كورسو دوناتى ، قريب زوجته ، وحزب البورجوازية ، أو الأثرياء المحدثين ، وكان يسمى بحزب « البيض » ، ويتزعمه أصدق أصدقائه الشاعر جويدو كافالكانتى .. ووقع دانتى بين هذين النقيضين . وكان قد بلغ بالانتخاب منصبا عاليا فى فلورنسا ، فانتخب عضوا فى المجلس الحاكم فى المدينة وهو مؤلف من ستة أعضاء . فلما أثار « السود » الفتن للاستيلاء على الحكم قرر المجلس الحاكم نفى زعماء الطرفين ، ومنهم صديقه الشاعر كافالكانتى .

ولكن حزب « السود » الارستقراطى تآمر مع بابا روما ليعيده الى الحكم . فدفع البابا شارل ، دوق فالوا فى فرنسا الى غزو فلورنسا ، وتسليمها للحزب الارستقراطى ، حزب « السود » . وعرف المجلس الحاكم هذا المخطط ، فأوفد دانتى مع آخرين فى سفارة الى روما ليتوسط لدى البابا بونيفاسيو الثامن ليوقف هذا الغزو . ولكن فلورنسا سقطت فى يد الدوق دى فالوا ، أخو ملك فرنسا عام ١٣٠١ ، أثناء سفارة دانتى فى روما ، فعاد كورسو دوناتى زعيم « السود » الى فلورنسا واستولى على الحكم بقوة الغزاة الفرنسيين وبتأييد البابا .

وحكم على دانتى وهو فى الخارج وعلى أربعة من البيض فى يناير ١٣٠٢ بغرامة فادحة وبالنفى لمدة عامين وبالحرمان الدائم من المناصب العامة ، وكانت التهمة التآمر والتواطؤ لقلب نظام الحكم . ثم عدل الحكم فى مارس ١٣٠٢ الى مصادرة كل أمواله واعدامه حرقا اذا قبض عليه داخل فلورنسا أو اقليمها . ومنذ ذلك التاريخ حتى وفاته لم تطأ قدما دانتى أرض وطنه ، بل عاش مشردا ينتقل من مدينة الى أخرى .

كان دانتى بشهادة معاصريه متعاطفا مع « البيض » أو منحازا لمبادئهم ولكنه سرعان ما سئم صحبة زملائه المنفيين منهم ، فتركهم وانتقل الى فيرونا حيث أقام مع آل سكالا ، وهى أسرة الناقد الشهير سكاليجر ، وفى عام ١٣٠٦ كان يدرس فى باريس بحسب رواية بوكاشيو عنه .

ثم خابت آمال دانتى من جديد ونهائيا . ففى ١٣١٠ أراد هنرى دوق لوكسمبورج ، بعد أن أصبح الأمبراطور هنرى السابع أن يوحد دويلات شمال ايطاليا ويدمجها فى امبراطوريته . فكتب دانتى خطابا مفتوحا الى اهالى فلورنسا يدافع فيه عن هنرى السابع ويهاجم بعنف من يعدون العدة فيها لمقاومته .. وبالفعل حاصر هنرى السابع فلورنسا عام ١٣١٢ ، ولكنه لم يلبث أن انسحب ، ثم توفى فى العام التالى ، فقضى ذلك على كل أمل عند دانتى فى العودة الى وطنه . وكانت حكومة فلورنسا قد أصدرت فى ١٣١١ قرارا بالعفو العام عن جميع المنفيين ، ولكنها استثنت دانتى بالاسم بسبب صلاته بهنرى السابع دوق لوكسمبورج . وفى ١٣١٥ تجدد قرار نفيه واعدامه حرقا اذا وطأ أراضى فلورنسا وامتد حكم الاعدام الى أولاده .

وبعد اقامته فى فيرونا فى رعاية كان جراندى ديللا سكالا أمير فيرونا ، انتقل دانتى الى رافينا فى ١٣١٨ — بدعوة من الدوق جويدو نوفيللا دى بولنتا أمير رافينا ، وهناك كان يلقى المحاضرات ويرد على دعوة له أن يكتب ملحمة باللغة اللاتينية ببحوث فى علم اللغة وبالدراسات الأدبية . ثم قصد الى دوق البندقية فى سفارة ليحول دون قيامه بغزو رافينا .. وكانت شهرته قد طبقت الآفاق كأمير لشعراء ايطاليا فقدمت له مدينة بولونيا أكليلا من الغار رمزا لامارة الشعر ، ولكنه اعتذر عن قبوله لأنه كان يأمل أن يأتيه اكليل الغار من موطنه فلورنسا . وفى طريق عودته من البندقية أصيب بالملاريا ومات فى ١٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ ودفن فى كنيسة الفرانسيسكان فى رافينا . وبعد ذلك بخمسة وسبعين عاما حاول أهل فلورنسا وحكومتها فى ١٣٩٦ أن يستردوا رفات الشاعر الذى نفوه مدى الحياة وأمروا باحراقه ، ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح . ومن قبل انشأت جامعة فلورنسا ، بعد خمسين سنة من وفاته ، كرسيا لدراسة شعر دانتى ، أمير شعراء ايطاليا فى كل العصور ، واحد شعراء خمسة لم يجد الزمان بمثلهم ، هم هوميروس وفرجيل وشكسبير وجوته ودانتى اليجييرى .

• • •

كانت لدانتى فى الفكر السياسى معتقداته التى كانت تقوض سلطان الكنيسة فى الدولة وتحرر السلطة الزمنية (الدنيوية) من السلطة الدينية وترفع ولاية البابوات على الملوك ، بعد أن كان البابوات فى زمانه وطوال الف عام من العصور الوسطى هم الذين يتوجون الملوك والأباطرة ويفوضونهم فى حكم شعوبهم بحق الملوك الالهى . وبهذا المعنى يجب أن نعد فكر دانتى السياسى مرحلة هامة فى تاريخ العلمانية .

وقد طرح دانتى قضية الحكم على الوجه التالى فى كتابه عن « الحكم الملكى » :

« (٢) وبناء عليه يجب علينا أولا أن نتدبر معنى الملكية الزمنية ، (أى الدنيوية أو العلمانية) ، وما نموذجها وما غايتها . فالملكية الزمنية اذن ، وهى ما يسمى بالامبراطورية ، هى امارة واحدة يمتد سلطانها على كل الناس فى وجودهم الزمنى أو على كل شىء يقاس بالزمن أى متصل بالدنيا ومن هنا تنشأ ثلاثة مباحث فى هـذا الصـدد : فيجب أولا أن نبحث وندرس ما اذا كانت السلطة الزمنية ضرورية لسعادة العالم ، ثم نبحث ثانيا ان كان الرومان قد أصابوا باقامة امبراطوريتهم ، ثم نبحث ثالثا ان كانت سلطة الملك تعتمد على الله مباشرة أو تعتمد على ممثل آخر لله .

« (٣) والآن علينا أن نتدبر ما الغاية من الحضارة الانسانية فى مجموعها. فاذا اهتدينا الى هـذه الغاية فقد قطعنا نصف الطريق كما يقول المعلم الأول أرسطو صاحب (علم الاخلاق ، الى نيقوماخوس) . فاحدى غايات الحضارة هى خلق الانسان الفرد ، وغايتها الثانية هى خلق الأسرة ، والثالثة هى خلق الحى ، والرابعة هى خلق المدينة الدولة ، والخامسة هى خلق المملكة ، واخيرا فهناك الغاية النهائية التى يحققها الله بيد الفنان عن طريق الطبيعـة وهى جمع الجنس البشرى فى مجتمع واحد . وهـذه الغاية الأخيرة هى المبدأ الأول الذى نحاول الآن أن نستهدى به فى بحثنا » .

الغاية النهائية لحالة المدنية التى ارادها الله للانسان هى عند دانتى اذن وحدة الجنس البشرى تحت رايات السـلام . ومادامت هنـاك غاية واحدة للجنس الانسانى فـلا مناص من أن تقوده قيادة واحـدة أو أمير واحد أو ملك واحد أو امبراطور واحد ، سمه ما شئت من الأسماء . فدانتى اذن كان من أوائل من وضـعوا فى الفكر السياسى أساس الحكومة العالمية ، وعنده أن مجتمعات القبائل ثم الدويلات ثم القوميات ليست الا خطوات فى طريق اقامة الحكومة العالمية .

منطق الكمال لله وكمال الطبيعة يمنعان ان يكون هنـاك صراع بين الكائنات ، لأن الصراع دليل النقص . وحيثما وجـد الصراع فلابد من وجود حكم او قاض يحسم هذا الصراع : « فلو وجد أميران ، فلن يخضع أحدهما للآخر ، وهنا قد ينشأ الصراع ، امـا بسبب خطأ منهما أو بسبب خطـأ يرتكبه رعاياهما ، وهذا امر واضح فلابد عندئذ من وجود حكم يفصل بينهما. ولمـا كان كل منهما لا يعترف بالآخر ، فليس بينهما من يخضع للآخر لأن الأنداد لا سـلطان لبعضـهم على بعضـهم الآخـر ، فلابد أن يوجـد

امير ثالث يتمتع باختصاص اوسع من اختصاص كل منهما ، يستطيع بما له من حق أن يفرض امارته عليهما معا . وهذا يجعل الملكية لازمة للعالم ، وقد ادرك أرسطو هذا المنطق حين قال : (لا شىء يحب الاعوجاج ، وتعدد الامارات أمر سىء ، ولذا فقد لزم أن يكون هناك امير واحد) » .

ونفس هذا المنطق يفضى بنا الى ان تعدد الدول القومية يؤدى بالضرورة الى الصراعات التى لا حل لها الا قيام حكومة عالمية .

ولكن أليس هذا هو المنطق الذى كانت تستخدمه الكنيسة الكاثوليكية طوال العصور الوسطى : اخاء البشر فى الله الذى لا سبيل الى تحقيقه بقيام الدول القومية وانما يتحقق فقط اذا كانت السلطة العليا على كل الشعوب والأمراء والملوك هى سلطة البابا ، خليفة الله على الأرض بوصف أنه خليفة القديس بطرس الذى سلمه المسيح مفاتيح الفردوس؟

كلا . فهى كذلك فى الظاهر فقط ، اما فى الحقيقة فان دانتى يجرد السلطة الروحية من حق الولاية على السلطة الدنيوية وينزع من البابوات احتكارهم للوكالة عن الله التى يفوضون بموجبها الملوك فى الحكم بالحق الالهى . فهو يؤسس نظريته على أن الملك الدنيوى يتلقى تفويضه فى السيادة من الله مباشرة لا عن طريق البابا او السلطة الروحية ، وهو يتلقاه من الله مباشرة بوصف انه اداة الله فى تحقيق السلام بين البشر وأداته فى تحقيق العدالة والخير والحرية بين الناس .

فهذه المبادىء عند دانتى لا تتوفر الا بانفراد حاكم أعلى بالسلطة الدنيوية ، أميرا كان أم ملكا أم امبراطورا ، و لايمكن أن تتحقق فى ظل أمراء متعددين أنداد يحكمون امارات أو دوقيات أو ولايات مستقلة متعددة متنازعة كل منها تستمد شرعيتها وسيادتها بل وسلطانها الدنيوى وتخومها الدنيوية من البابوات الذين كانوا يتلاعبون بهم وبها لكى تتحول سلطتهم الروحية الى سلطة زمنية ويصبح ملك الدين هو ملك الدنيا .

يرى دانتى ، ما رآه ارسطو فى الفصل الخامس من « علم الأخلاق : الى نيقوماخوس » ، أن عدو « العدل » الأول هو « الطمع » ، أما صديق « العدل » الأول فهو « الخير » أو « الاحسان » . ومن تأصل فيه حب « الخير » كان « العدل » اقوى صفاته . و « الملك » أو الحاكم المفرد هو عنوان « الخير » و « العدل » :

« والطمع يهدر قيمة الانسان الجوهرية لانه يبحث عن الأشياء ولا يبحث عن الانسان . أما الخير فيهدر كل شيء ما خلا الله والانسان ، وبالتالى فهو يبحث عن خير الانسان . ولما كان السلام من بين النعم التى ينعم بها الانسان ، ولما كان العمل هو اكبر محقق للسلام ، كان عمل الخير أقوى محرك للعدل ، وكلما ازداد عمل الخير ازداد تحقيق العدل .

« وحب الخير ينبغى أن يكون ملازما لطبيعة الملك .. » .

« (١٢) والجنس البشرى كلما اكتملت حريته اكتملت سعادته . وهذا يتضح اذا فهمنا مبدأ الحرية على حقيقته . فلنعلم اذن أن أول مقومات الحرية هو حرية الاختيار ، وهى شيء يترنم به الكثيرون بشفاههم ولكن لا يفهمه الا الأقلون » .

. . . .

« وعندما نرى هذا ندرك ايضا أن هذه الحرية هى أعظم نعمة حباها الله للطبيعة الانسانية . فبالحرية نبلغ سعادتنا فى هذا العالم ، وبالحرية نبلغ سعادتنا فى غير هذا العالم بوصفنا ملائكة . والجنس الانسانى لا يوجد لذاته وليس من أجل شيء آخر الا اذا حكم الناس ملك فرد . عندئذ فقط تستقيم نظم الحكم المعوجة ، الا وهى الديمقراطيات ، والاليجاركيات (حكم القلة) ، والديكتاتورية الشعبية ، وهى تفرض العبودية على الناس بالقهر كما هو واضح لكل من يجربها جميعا . الجنس البشرى لا يوجد لذاته الا اذا حكمه الملوك والصفوة والمتحمسون لحرية الشعب . مثل هذه الحكومات تستهدف تحقيق الحرية ، أى أن الناس توجد لذاتها .. أى أن المواطنين لا يوجدون من أجل حكامهم ولا الشعوب توجد من أجل ملوكها ، وانما ، على العكس من ذلك ، يوجد الحكام من أجل مواطنيهم ويوجد الملوك من أجل شعوبهم . فكما أن المجتمع لا يؤسس لتطبيق القوانين وانما توضع القوانين لمنفعة المجتمع ، كذلك فان من يطبق عليهم القانون لا يخضعون لمنفعة المشرع وانما يخضع المشرع لمنفعة من يسرى عليهم القانون ، كما جاء أيضا فى فيلسوفنا أرسطو .. » .

وواضح من كل هذا الكلام أن دانتى ، متأثر بأرسطو فى كتابه « علم السياسة » ، وكان عديم الثقة فى الديمقراطية (حكم الشعب) ، والتى كان يعدها نوعا من حكم الرعاع ، كما أنه كان عديم الثقة بحكم الأقلية وبحكومات « الطغاة » ، أى الملوك المنتخبين أو « التيرانوس » كما كانت اليونان تقول ، بوصف هذه الحكومات مرادفة للدكتاتوريات الشعبية أو لدكتاتورية الأقلية ، وكلاهما مناف للحرية ومرادف للقهر .

واضح ايضا أن دانتى ، مثل ارسطو ، كان يؤمن بحكم الملكية والارستقراطية والمدافعين عن حرية الشعب . ويبدو أن دانتى لا يستخدم كلمة « الارستقراطية » بمعناها الشائع وانما يستخدمها بمعناها اليونانى القديم ، اى « حكومة الصفوة » (الارستوى) بمعنى « النخبة » او الطبقة الممتازة ، وليس بمعنى الطبقة التى تتمتع بالامتيازات أو تتوارثها .

هذا الكلام قد يبدو غريبا اذا لم ندرك المعنى الخاص لمفهوم « الحرية » عند دانتى .. فالحرية عنده هى « حرية الاختيار » ، ولكن ما دمنا نتحدث عن « الاختيار » فلا اختيار الا بالقدرة على التمييز والقدرة على الحكم . وكل ما يعطل ملكة التمييز أو الحكم عند الانسان ، كالخضوع كالبهائم للشهوات ، أو الانبهار بالعرض البراق ، أو طلب المنافع العاجلة ، أو الوقوع فى أسر الضرورة ، أو الخضوع للقهر الخارجى أو الداخلى ، يعطل قدرة الانسان على الاختيار وبالتالى فهو سالب للحرية .

• • •

٣

حق الملوك الإلـهى

□ انتهى دانتى من بحثه فى نظم الحكم الى أن النظام الملكى القائم على سلطان الحاكم الفرد (المونارخية) هو النظام الأمثل لسياسة الشعوب . ودرجة درجة نكتشف أنه يقصد بالنظام الملكى النظام الامبراطورى ولا سيما كما عرفته الامبراطورية الرومانية . بهذا كان دانتى أول مفكر فى عصر النهضة الأوربية يدعو ضمنا ، بل تصريحا ، الى احياء مجد روما الامبراطورى .

وكانت هـذه أيضـا دعـوة ثورية فى الفـكر السياسى أيام حكم البابوات فى العالم المسيحى .

فمنذ المؤرخ المسيحى الشهير أورسيوس الذى عاش نحو عام ٤٠٠ ميلادية وعرفه ابن خلدون باسم هرشيوش ، قرأ الناس فى مغارب الأرض ومشارقها شاهد قبر الامبراطورية الرومانية فى موسوعته الشهيرة عن « تاريخ العالم »، أو على الأصح قرأ الناس « التفسير المسيحى » لتصدع الامبراطورية الرومانية وانهيارها . وكانت خلاصة كلام أورسيوس هى أن تصـدع الامبراطورية الرومانية وانهيارها كان نتيجة للغضب الالهى ، وأن غضب الله حل على الرومان لأنهم ضلوا وحادوا عن طريق الله بفسقهم وجبروتهم وظلمهم وطغيانهم وانغماسهم فى الشهوات ، ولـذا أرسل الله عليهم البرابرة من كل جانب فخربوا الامبراطورية وعاثوا فيها فسادا .

بقى هذا التفسير هو التفسير المعتمد فى العالم المسيحى الف عام أو يزيد لأنه كان التفسير الرسمى الذى اعتمـدته الكنيسـة الكاثوليكيـة والبابوات قرنا بعد قرن .. وبهذا التفسير قضت الكنيسة على كل شـعور قومى فى نفوس الايطاليين فجعلتهم يتنكرون لأمجاد أجدادهم الأولين أيام جاهليتهم العظيمة ويتبرءون من حضارتهم الوثنية المجيدة السابقة على انتصار المسيحية فى مختلف أرجاء الامبراطورية .

ولا شك أن نهوض آباء الكنيسة وفقهائها بدءا بلاكتانس (٢٦٠ — ٣٢٥) والقديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) ، الذى تتلمذ عليه المؤرخ أوروسيوس، والقديس جيروم (٣٤٧ — ٤٢٠) ، وفولجانس (٤٧٦ — ٥٢٣) ، قد حاولوا انقاذ تراث الوثنيات اليونانية واللاتينية من الاندثار تماما امام حماس المسيحيين الأوائل ، واغلبهم من بسطاء الناس وجهالهم ، فأعطوا تفسيرات رمزية داخل الاطار المسيحى لأساطير اليونان والرومان وآلهتهم وابطالهم واصنامهم .

ولكن الطابع العام الذى ساد الحضارة المسيحية طوال الف عام من العصور الوسطى كان محاولة اقتلاع كل ما كان من تراث الجاهلية اليونانية والرومانية وامجادها التاريخية بوصفه كفرا فى كفر ومعاديا لله والمسيح ، ولم يبق من ذلك الفكر الشاهق الا بقايا مبتسرة من منطق ارسطو لاستخدامه فى السفسطة الدينية ، ومن مثالية افلاطون لاستخدامها فى الشطحات الروحانية .

والآن يأتى دانتى ليعلم الناس عكس ما كانت الكنيسة تعلمهم ، وهو أن عصر الرومان الامبراطورى الوثنى لم يكن ضلالا فى ضلال ولا فسادا فى فساد ، بل كان عصرا مجيدا ازدهر فيه الانسان وحضارة الانسان حتى قبل ظهور اديان التوحيد ، وان هذه الحضارة الدنيوية لم تكن من عمل الشيطان وانما صاغتها العناية الالهية بنور العقل وبنور الايمان .

ودانتى يعترف فى الباب الثانى من كتابه « فى الحكم الملكى » انه كان فى البداية فريسة لهذا الاعتقاد الشائع :

« كان هناك زمن كنت انا ايضا اقف ذاهلا امام هذا التصور ، وهو ان الشعب الرومانى بلغ قمة السؤدد على الكرة الأرضية ، لا يجد من يقاومه ، وكنت احسب ، لأنى لم اكن ارى الا سطح الأمور ، ان الرومان بلغوا كل هذا السؤدد بقوة السلاح وحدها . ولكنى الآن وقد نفذت بعقلى الى لب الأشياء ، ورايت بدلائل مقنعة كل الاقناع أن العناية الالهية هى التى حققت ذلك لم أعد اقف متعجبا امام هذا المجد الدنيوى ؟؟ » .

والمنطق الذى يستخدمه دانتى لاثبات رأيه بسيط من صميم الدين ومن صميم العقل معا ، كما يقول . فمن جهة الدين فهو يقول ان كل هذا المجد الامبراطورى الذى حققه الرومان ، وهو ملك الدنيا ، ما كان ليكون لولا ان اراد الله . وبما ان الله لا يريد الا الخير والحق ، فالامبراطورية الرومانية اذن قامت لتحقق الخير والحق . وبمثل ما نقول ان الرومان انحطوا برذائلهم فدالت دولتهم العظمى ، يجب ايضا ان نقول ان الرومان

ارتقوا بفضائلهم حتى ملكت دولتهم كل العالم القديم . وفى راى دانتى ان الطبيعة خلقت الشعب الرومانى للسيادة والقيادة ، فتاريخه يدل على أنه لم يكن يطلب السلطان لذاته ولكن لفعل الخير واشاعة الحضـــارة . فهم أولى شعب بحكم العالم . وكم من أمم نافستهم فى بناء الامبراطـوريات ولكنهم انتصروا على الجميع ، وهذا نطق من الله بأنهم يفضلون سواهم . وهنا تكلم دانتى وكأنه موسولينى !

هذا التطرف فى الشعور القومى وهذه الدعوة لاحياء الدولة الامبراطورية كانت بمثابة ثورة على تعاليم الكنيسة التى كانت تزرى من شأن الامبراطورية الرومانية بوصفها تجسيدا للمجد الدنيوى الذى يتعارض مع طلب ملكوت الله والزهد فى الدنيا انتصارا لمجد الآخرة . قال دانتى منددا بدعـاوى الكنيسة : لولا ان الرومان صلبوا المسيح لما كانت هناك مسيحية :

« فكيف اذن من يزعمون أنهم أبناء الكنيسة لا يكفـون عن التنـديد بالامبراطورية الرومانية ..

« يا للرومان من شعب مبارك ! يا لاوزونيا من دولة مجيدة ! (واوزونيا هى الاسم الشاعرى لايطاليـا . ل . ع) ليتـه ما ولد قط من اضعف امبراطوريتك يا روما ، أو ليت تقواه لم تقده فى سبيل الضلال ! » .

وهكذا كان دانتى بمثابة الفاصل بين عالمين : عالم وسيط يؤمن بأن الدولة الدينية الجامعة (البابوية) ، هى أساس التنظيم الاجتماعى ، وعالم جديد يؤمن بأن الدولة القومية الجامعة (الامبراطورية) ، هى اســاس التنظيم الاجتماعى . وكان دانتى من اسبق دعاة الدولة القومية التى كانت الطابع المميز لعصر النهضة الأوربية . ولم يكن الخيار عنـد دانتى بين قيصر والله ، فقد كان دانتى مؤمنا ولكنه كان بين قيصر والبابا . فاختـار دانتى قيصر واعرض عن البابا ، ولهذا كان انتقام البابا منه انتقاما رهيبا : النفى المؤبد والحرق حيا اذا وطئت قدماه أرض موطنه .

●●●

وما دام الخيار بين قيصر والبابا فهذا ما يقـوله دانتى فى الموازنة بينهمـا :

« اذن فالسؤال المطروح هنا ، وهو موضوع بحثنا ، يقع بين نورين عظيمين هما البابا الرومانى والأمير الرومانى . فنحن نتساءل : من أين تستمد سلطة الملك الرومانى الذى هو بالحق ملك العالم ، كما أثبتنـا فى

الباب الثانى من هذا الكتاب ، اهى تستمد مباشرة من الله أم هى تستمد من خليفة لله أو رسول منه . أقصد خليفة بطرس الرسول الذى يحمل بالحقيقة مفاتيح الفردوس . اى من البابا ؟

« (٤) ان كل من أسوق من الحجج التالية لاقناعهم ، يؤكدون أن سلطة الامبراطورية مستمدة من سلطة الكنيسة ، وهى تعتمد عليها كما يعتمد الأسطى على المهندس المعمارى . وهم فى هذا الاعتقاد مسوقون بجملة حجج معارضة يستقونها من الكتاب المقدس ، ومن بعض أعمال الرئيس الأعلى للكنيسة والامبراطور نفسه فى وقت واحد . ومع ذلك فهم يحاولون أيضا أن يجدوا بعض السند لرأيهم فى منطق العقل .

« فهم أولا يقولون استنادا الى قول الكتاب المقدس فى سفر التكوين ، ان الله خلق جرمين مضيئين عظيمين ، أحدهما كبير والآخر أصغر ، حتى يحكم أولهما النهار والثانى الليل . وقد اعتاد هؤلاء أن يفهموا بالمجاز أن هذين النظامين انما يعنيان العالم الروحى والعالم الزمنى .. ومن هنا نجدهم يحتجون بأنه كما أن القمر .. وهو الجرم المضىء الأصغر .. ليس له نور خلاف النور الذى يتلقاه من الشمس ، كذلك فالنظام الزمنى ليست له أية سلطة الا ما يستمده من النظام الروحى » .

ويرد دانتى على هذه الحجة بقوله ان هذه حجة زائفة لأن القمر رغم انه يستمد نوره من الشمس الا أن هذا لا يعنى انه يستمد من الشمس وجوده ، أو أنه يعتمد فى وجوده على الشمس ، أو انه يعتمد فى حركته على الشمس ، لأن حركته من محركه الأول .

(المعروف فى الفلك أن القمر قطعة انفصلت من الأرض كما أن الأرض قطعة انفصلت من الشمس ولكن هكذا كانت حال علم الفلك فى زمن دانتى الذى يضيف أن القمر ليس مدينا للشمس بكل نوره اذ أن له بعض النور الذاتى ، وانما الشمس تضيف الى القمر ضياءه الساطع . وما دمنا نتكلم بلغة المجاز فهو يريد أن يقول ان الملك لا يستمد وجوده ولا حركته ولا سلطته من البابا ، وانما الكنيسة تضيف الى سلطته قوة ، ل. ع.) .

يقول دانتى :

« وهم يزعمون أيضا استنادا الى نفس النص أن قول المسيح لبطرس: (وكل ما عقدته على الأرض سوف يعقد فى السماء أيضا ، وكل ما حللته على الأرض سوف يحل فى السماء كذلك) ، وهو ما نجده فى متى وفى يوحنا ، ويستخلصون أن المسيح قال هذا الكلام لكل تلاميذه . ولهذا يستدلون على

ان خليفته بطرس قادر على عقد كل شيء وحله ، ومنه يستخلصون أن البابا يستطيع أن يلغى قوانين الامبراطورية ومراسيمها وانه يستطيع أن يصدر القوانين والمراسيم للسلطة الزمنية » .

وهذا عند دانتى تزييف لأنه قائم على قياس خاطىء لأنه يجعل الكلام عن الجزئى ينطبق على الكلى :

« فالمسيح يقول لبطرس : (سوف أعطيك مفاتيح الفردوس) (حرفيا ملكوت السماء ل. ع.) . اى انه سيجعله بواب الجنة . ثم هو يضيف : (وكل ما عقدته ، الخ .. وكل ما حللته .. الخ) ، وهذا معناه : (كل ما تعقده وتحله فى نطاق وظيفتك كحارس لباب الجنة) ، وليس معناه كل ما تعقده وتحله على الاطلاق . هذه العمومية المتضمنة فى عبارة (كل ما) ، عمومية مقصورة على حدود اختصاصه كحامل مفاتيح مملكة السماء . فالقضية التى نناقشها اذن قضية صحيحة فى حدودها ، فان هى أخذت على اطلاقها فواضح انها ليست كذلك . وبناء عليه فانى اقول : ولو أن خليفة بطرس يستطيع أن يحل ويعقد فى نطاق ما اختص به بطرس من مهام وظيفته ، فانه لا يستخلص من ذلك انه يستطيع أن يحل ويعقد قوانين الامبراطورية وقراراتها بحسب زعمهم ، الا اذا استطاعوا أن يثبتوا أيضا أن ذلك يدخل فى اختصاص المفاتيح . وهذا عكس الحقيقة كما سنوضح فيما يلى » .

وهكذا استطاع دانتى بقوة المنطق الارسطاطاليسى أن يقصر سلطة الكنيسة والبابوات على الأمور الروحية وحدها ، وأن ينفى أية سلطة للكنيسة أو للبابوات على أى أمر من أمور الدنيا ، وهو ما خص دانتى به الدولة وحدها (الأمير ، الملك ، الامبراطور) . كذلك يرد دانتى على حجة أخرى كان يستخدمها دعاة الدولة الدينية ، وهى قولهم ان الامبراطور قسطنطين حين شفى من البرص بشفاعة البابا سيلفستر ، وهب كرسى الامبراطورية وهو روما للكنيسة . ومن هذا يستخلصون أنه منذ ذلك التاريخ غدا مستحيلا على أى انسان أن يجلس على عرش الامبراطورية الا اذا تلقاه من البابا ، وهذا يجعل سلطة الامبراطور مستمدة من سلطة البابا ويجعل السلطة الزمنية خاضعة للسلطة الروحية . وعلى هذا يرد دانتى بقوله :

« وأنا أقول ان هذه الحجة ضعيفة ، لأن قسطنطين لم يكن يملك أن يتنازل عن الشرف الامبراطورى ، ولا كان من سلطة الكنيسة أن تتلقى هذا الشرف .

« فهـذا يناقض الحـق الطبيعى أن تدمر الامبراطورية نفسـها ، فالامبراطورية لا تدمر نفسـها . وبمـا أن الامبراطورية متمثلة فى وحـدة الملكية الجامعة والتنازل عن جزء منها تمزيق لها ، فمن الواضح أن من يتقلد سلطة الامبراطورية لا يجوز له أن يمزق الامبراطورية » .

وهنا يقذف دانتى فى وجه البابوات والكنيسة قول المسيح لقاضيه الرومانى عندما نسب اليه أنه يدعى الملك : « مملكتى ليست من هذا العالم» فلو كانت مملكتى من هذا العالم لقاتل خدامى حتى لا اسلم لليهـود » . وبهذا يثبت ان الدين شىء والدولة شىء آخر ، بل أكثر من ذلك ، فان دانتى يوضح أن سلطة الدولة على الدين ثابتة من نصوص الكتاب المقـدس ذاته حيث نرى القديس بولس يقبل راضيا أن يقضى قيصر فى أمره كمـا أمره بذلك « ملاك الرب » .

كلا . ان السلطة الزمنية ليست خاضعة للسلطة الروحية ، بل على العكس من ذلك ، يرى دانتى أن السلطة الروحية يجب أن تخضع للسلطة الزمنية ، اقتداء بموقف المسيح أمام بيلاطس ممثل قيصر ، واقتداء بمـا قاله وفعله القديس بولس فى « أعمال الرسل » فى الاحتكام الى قيصر ليقضى بينه وبين اليهود وليحميه من عدوانهم . أما السلطة الزمنية فيرى دانتى أنها لا تخضـع الا لله مباشرة ، لأنها تستمد من الله مباشرة تفويضها فى حكم البشر . قال دانتى فى الباب الثالث من كتابه « فى الملكية » :

« أوضحنا كيف أن سلطة الامبراطورية ليست راجعة الى سـلطة البابا ، وهو الرئيس الأعلى للكنيسة . ولكننا لم نثبت تماما أنهـا تتـوقف مباشرة على الله الا بالاستنتاج الضمنى . فالاستنتاج الضمنى يقول انهـا اذا لم تكن تتوقف على خليفة الله فهى تتوقف على الله . ولذا فلكى نثبت هذه القضية اثباتا نهائيا فلا مناص من أن نثبت أن الامبراطور أو ملك العالم لابد وأن يكون على علاقة مباشرة بملك الملوك أمير الكون « وهو الله » .

« ....

« فالانسان اذن بحاجة الى قوة مزدوجة تقوده الى غايته المزدوجة ، أى انه بحاجة الى البابا ليقود الجنس البشرى وفقا لتعاليم الوحى الى الحياة الأبدية ، والى الامبراطور ليقود الجنس البشرى الى النعيم الأبدى وفقـا لتعاليم الفلسفة .. بدستور تعود أعماله على الناس بتحقيق غايتى الحرية والسـلام » .

فالجديد فى فكر دانتى السياسى أنه لأول مرة بعد الف عام من انقراض الدولة الزمنية أو الدنيوية المتمثلة فى الامبراطورية الرومانية ذكر النـــاس بأن قيصر له غايته وهى اقامة الفردوس الأرضى فى هذا العالم ، وأن البابا له غايته وهى قيادة الجنس البشرى لدخول الفردوس الأبدى فى العـــالم الآخر . وبذلك فصل دانتى بين الدين والدولة ووضع حـــدا للدولة الدينية التى تحكم فيها شرائع الدين ورجال الدين أمور الدنيا .

لأول مرة منذ الف عام من العصور الوسطى يجرؤ مفكر أن يقـــول للناس فى العالم المسيحى ان للانسان الحق فى السعادة والمجد على الأرض وليس قدره أن يجعل من حياته الأولى مجرد معبر للحياة الثانية .

ولأول مرة بعد الف عام من العصور الوسطى يجرؤ مفكر أن يقول للناس فى العالم المسيحى ان الملوك لا يستمدون حقهم الالهى فى الحكم من البابوات ، وانما يستمدونه من الله مباشرة . وربما كانت هناك فى أوروبا ارهاصات بذلك الصراع بين الكنيسة والدولة فى زمن هنرى الثـــانى ملك انجلترا الذى انتهى باغتيال القديس توماس بيكيت فى كاتدرائية وستمنستر عام ١١٧٠ ، ولكن هذه كانت أول مرة تطرح فيها على المستوى النظـــرى قضية الفصل بين الدين والدولة ومسئولية الملك أمام الله مباشرة وليس امام خليفة الله على الأرض كما كان البابوات يسمون .

ولا شك أننا فى دانتى لا نزال بعيدين كل البعد عن الديمقراطية التى عرفها اليونان ويعرفها العالم الحديث ، فنحن لا نتحدث اليوم عن الله كمصدر للسلطات ولكننا نتحدث عن الأمة كمصدر للسلطات .. ودانتى قد حـــرر الأمير أو الملك أو الامبراطور من تقلد الحق الالهى فى الحكم بتفـــويض من الكنيسة ، ولكنه أعطى الأمير أو الملك أو الامبراطور الحق الالهى فى الحكم بالاصالة لا بالنيابة أو من الباطن . وهو ما يقابل فى زماننا نظرية رجـــل الاقدار (نابوليون) أو الزعيم الملهم (الفوهرر) ..

واخيرا فلأول مرة بعد الف عام من العصور الوسطى يجرؤ مفكر أن يدعو الى اقامة الدولة القومية ، بل والامبراطورية ، أى الدولة القوميـــة الجامعة ، على أنقاض الدولة الدينية الجامعة وكبديل لهـــا .

لقد وضع دانتى أساس الدولة الحديثة على القومية والعلمانية قبـــل مكيافيللى بقرنين ، فكان رائد الفكر السياسى الحديث فى عصر النهضـــة الأوربية . ورغم وضوح دعوته العلمانية ، فقد أعلن دانتى فى ختام كتابه

« فى الملكية » ، أن الدولة الزمنية (الدنيوية) لا تعنى بتاتا الخروج على الدين ، أو بلغة دانتى : « فليراع قيصر اذن واجب الاحترام لبطرس (مؤسس الكنيسة الكاثوليكية ل. ع.) ، الاحترام الذى يجب أن يحمله الابن البكر نحو أبيه حتى يضيئه نور النعمة الابوية فيشع ضياؤه بقوة أكبر فى أرجاء العالم الذى اقامه عليه حاكما حاكم كل شىء فى الوجود ، روحيا كان أو زمنيا ، الله » .

• • •

بتــرارك
PETRARCH
١٣٠٤ - ١٣٧٤

□ كان دانتى أبا الشـعر الايطـالى فى عمـومه ، ولاسيما الملحمى والفلسفى والدينى منه فى « الكوميديا الالهية » ، ولكن بترارك كان أبا الشعر الايطالى الغنائى بصفة خاصة .

ومن النقاد من يبدأ عصر النهضة الأوربية بأدب بترارك . متجـاهلين دانتى الذى يعدونه اقرب الى العصور الوسطى منه الى الرنيسانس . ولقد كان دانتى كذلك فى أكثر أفكاره الفلسفية والدينية .

ومع ذلك فقد كان دانتى أول رائد من رواد عصر النهضة الأوربيـة بدعوته نظريا وعمليا لاتخاذ اللغة الايطالية الدارجة أداة للابداع الأدبى ، وبدعوته لاقامة الدولة القومية ، بل والامبراطورية ، مكان الدولة الدينيـة الجامعة . وبدعوته لتحرير الدولة القومية من هيمنة البابوية ولفصل الدين عن الدولة . فكان بذلك أول من فتح الباب لظهور أوربا الحديثـة من ظلام العصور الوسطى .

أما بترارك فهناك من يسميه أول من وضع أساس المذهب الانسانى فى ايطاليا . وهو فى نفس الوقت أعظم شاعر غنائى نظم فى اللغة الايطالية الدارجة فى زمانه وفى كل العصور . وقد كان من أوسع أهل زمانه معـرفة بآداب القدماء وعملا على احياء ثقـافة الرومان . وكان دائم البحث عن المخطوطات اللاتينية وجمعها ودراستها ، فعاش فى صحبة فرجيل وشيشرون وسنيكا فارتفع بعلمه وذوقه المصفى عن كافة أهل عصره . وكان صاحب أسلوب راق فى اللاتينية . ومع هذا لم يمنعه ذلك من أن يختص اللغـة العامية (الايطالية) بأروع ابداعه الأدبى . وابتكر ، أو على الأصـح طـور .. فى الشعر الايطالى قالبا غنائيا خاصا هو « السونيتة » خلد به غرامه لصاحبته لورا . ولم يلبث هذا القالب أن اقتبسته كافة الآداب الأوربيـة الأخرى . ولاسيما الأدب الايطـالى والأدب الفـرنسى والأدب الانجليزى .

ولد فرانشسكو بترارك فى بلدة اريتزو بايطاليا فى ٢٠ يوليو ١٣٠٤ . وكان أبوه بتراكو دى سر بارينتزو موثق عقــود فى مدينة فلورنسا . وكان صديقا لدانتى وزميلا له فى المنفى منذ ١٣٠٢ . وقد قضى بترارك شبابه فى مدينة افنيون فى جنوب فرنسا ، حيث كان مقر البابوية بين ١٣٠٩ و ١٣٧٦ ثم حيث كان مقر بابوات افنيون بين ١٣٨٧ و ١٤١٧ بعد انشقاق الكنيســة الغربية (الكاثوليكية) نفسها . وفى افنيون عرف بترارك محبوبته لورا التى خلدها فى اشعاره .

وفى سن الثانية عشرة أرسله أبوه الى جامعة مونبلييه بجوار افنيــون فى جنوب فرنسا لمدة اربع سنوات ليتعلم القانون المدنى . وأكمل دراسته بثلاث سنوات أخرى فى جامعة بولونيا . ثم عاد الى افنيــون التى كان يمقتها . وفى هذه الفترة اســتولى عليه شغفه العظيم بالشــعراء اللاتين ، كما افتتن بشعر التروبادور ، اى الشعراء الجوالين .. الذى كان ينشــئه وينشده الشعراء الجوالون فى أقليم بروفانس بجنوب فرنسا باللهجة العامية الفرنسية المعروفة بالبروفنسال نسبة الى اقليم بروفــانس .. وفى تلك الفترة ذاتها افتتن بترارك أيضا « بالأسلوب الجديد الحلو » الذى كان ينظم به دانتى وأبناء جيله فى ايطاليا . وليس هذا غير اللغة الايطالية . أو اللاتينية العامية كما كان يتحدث بها مثقفو ايطاليا .

كان بترارك قد فقد أمه . فلما مات أبوه فى ١٣٢٦ عاد الى افنيون .. وهناك استأنف حياة اللهو والصبوات بل والمجون . وفى ٦ ابريل ١٣٢٧ رأى لأول مرة فى كنيسة سانتا كلارا سيدة فؤاده لورا ، وكان يومئذ فى الثالثة والعشرين من عمره . فكانت لورا محور كل ما نظم من شعر غنائى ، حتى ذهب شعر بترارك مثلا فى الحب « العذرى » كما ذهب من قبل شــعر دانتى فى محبوبته بياتريس مثلا فى الحب العذرى . وقد ماتت لورا بالطاعون فى ٦ أبريل ١٣٤٨ بعد أن عرفها بترارك باحدى وعشرين سنة . وقد أخفى بترارك اسم محبوبته عن العالمين . ولكن مؤرخى الأدب يعتقدون أنهــا كانت بنت أحد نبلاء بروفانس ويدعى أوديبرت دى نوفيس ، وأنها كانت زوجة هيوج دى صاد . أحد أشراف أفنيون .. فهجر بترارك فى ســن الثانية والعشرين دراسة القانون ، لا استخفافا بالقانون ، ولكن كمــا يقول اشمئزازا من المشتغلين به المتاجرين فيه .

وفى تلك الفترة ذاتها تعرف بترارك على آل كولونا المشــهورين . وهم من أقطاب روما المشتغلين بالدين والسياسة . فقضى صيفا كاملا مع الأسقف جياكومو كولونا على سفح جبال البرانس .. ثم خادما للكنيســة أو قسا غير مرسوم لفترة ما لدى الكاردينال جيوفانى كولونا فى المقــر

البابوى بافنيون وحصل بذلك على مرتب منتظم . ثم تعددت رحلاته فسافر الى باريس والى المانيا وهولندا وطاف بوادى نهر الراين فى ١٣٣٣ .. وفى ١٣٣٧ زار روما لأول مرة فى حياته فبهرته آثارها .

وفى ١٣٣٧ قرر أن يعتزل حياة المدينة فى افنيون فاعتكف فى ريفها بوادى فوكلوز الساحر وسط كتبه ، على مبعدة خمسة عشر ميلا شرق المدينة . وهناك أقام حتى ١٣٥٣ متفرغا للقراءة والكتابة واستلهام جمال الطبيعة نحو سبعة عشر عاما .

وفى فوكلوز أيضا بلغ بترارك أقصى مجده الأدبى . وفى يوم واحد تلقى دعوتين لتنصيبه أميرا للشعراء : جاءته احداهما من رئيس جامعة باريس ، وجاءته الأخرى من مجلس الشيوخ بروما . فقبل دعوة السناتور الرومانى . وهناك توجوه فى الثامن من ابريل ١٣٤١ على تل الكابيتول بأكليل الغار ، فصارت اليه امارة الشعر من بعد دانتى اليجييرى الذى رفض من قبل أن يتوج الا فى موطنه فلورنسا .

وهكذا أصبح بترارك أميرا لشعراء ايطاليا وهو لا يزال فى السابعة والثلاثين من عمره . ولكنه كان أيضا فوق هذا زعيما روحيا لدعوة توحيد ايطاليا ولتجديد شبابها ولاعادة مجد روما القديمة . ألم تكن هذه من قبل هى نفس أحلام دانتى اليجييرى ؟

وبعد تتويج بترارك أميرا للشعراء عاد الى افنيون . وهناك استأنف مرة أخرى حياة المجون التى اتسم بها شبابه .. وفى ١٣٤٣ دخل أخوه جيراردو الدير . أما هو فقد دخل فى أزمة روحية عنيفة .. لقد كان فى بترارك شىء كثير من القديس أوغسطين : ازدواج فى الشخصية جعله ينقلب من النقيض الى النقيض . فيسمو آنا الى سموات الطهر والفضيلة ويتمرغ آنا فى أوحال الشهوات . فلا غرابة اذن أن يتشبه بترارك بأوغسطين ويكتب فى تلك الفترة ما سماه « سرى الخاص » تشبها « باعترافات » القديس أوغسطين . كتبه باللاتينية فى ١٣٤٢ وما تلاها . وفى تلك الفترة أيضا كتب « رسالة الى الأجيال القادمة » جاء فيها : « حين اقتربت من سن الأربعين .. بينما كانت قواى لا يخامرها ضعف وبينما كانت شهواتى لا تزال متأججة . تخليت فجأة عن عاداتى الذميمة . بل وتخليت فوق ذلك عن كل تفكير فى رذائلى . وكأن عينى لم تقع قط على امرأة » . أما كتابه « سرى الخاص » ، فقد اتخذ صورة محاورة وهمية مع القديس أوغسطين ، وكأنه يريد أن يكرر تجربة « الاعترافات » الشهيرة .. اعترافات أوغسطين .

ثم قضى بترارك أكثر من عامين فى ايطاليا سفيرا مبعوثا من البابا الى بلاط نابولى ، بين سبتمبر ١٣٤٣ وأواخر ١٣٤٥ . ثم عاد بترارك مرة أخرى الى

ايطاليا حين اعلن كولا ريينزو نفسه حاكما على روما فى ١٣٤٧ . وقد اجتذب بترارك الى ايطاليا ذلك الحلم العظيم الذى كان لا يفتأ يراود خيال مفكرى عصر النهضة فى ايطاليا منذ بدء تكون القوميات الحديثة : وهو أن تتوحد دويلات ايطاليا فى دولة مركزية واحدة وان يعود لروما مجدها الامبراطورى القديم . ورغم ان تجربة ريينزو لم تعمر ، الا ان بترارك ظل مقيما فى ايطاليا حتى عام ١٣٥١ .. يقيم آنا فى بارما وآنا فى فيرونا وآنا فى بادوا . وفى بادوا جاءه نبأ وفاة صاحبته لورا . وفى ١٣٥٠ زار بترارك روما .. وفى طريقه الى روما زار فلورنسا حيث استقبله بوكاشيو العظيم ، ثالث الثلاثة من آباء الأدب الايطالى الحديث : دانتى وبترارك وبوكاشيو . كذلك زار بترارك اريتزو ، مسقط رأسه ، فوجد ان الطاعون قد حصد أكثر اصدقائه ومعارفه فعاد الى واديه المنعزل فى فوكلوز يملؤه الحزن والوحشة .

ثم أقام بترارك فى ميلانو ثمانى سنوات بين ١٣٥٣ و ١٣٦١ حيث نزل ضيفا على آل فيسكونتى وقام فى خدمتهم ببعض السفارات الى الملوك . فلما انتشر الطاعون فى ميلانو انتقل الى فينسيا (البندقية) عام ١٣٦٢ فرارا من الطاعون .. ثم أهداه مجلس الشيوخ بفينسيا دارا يقيم فيها على أساس أن يهب المدينة مكتبته بعد وفاته .. وقد زاره بوكاشيو فى هذه الدار فى صيف ١٣٦٣ . ثم دعا بترارك ابنته غير الشرعية ، واسمها فرانشيسكا .. مع زوجها لتقيم معه فى هذه الدار . ثم انتقل بترارك الى بادوا عام ١٣٦٨ . ثم انتقل أخيرا الى اركوا عام ١٣٧٠ وفيها عاش حتى وجدوه ذات صباح فى ١٩ يوليو ١٣٧٤ ميتا منكفئا على كتاب كان يقرؤه فى مكتبته .

وقد كتب بترارك كثيرا باللاتينية فنظم ملحمة اسمها « أفريقيـــا » بدأها فى ١٣٣٨ تمجد بطولة البطل الرومانى شيبيو الأفريقى . وله باللاتينية أيضا « سير أعلام الرجال » وقد بدأها فى ١٣٣٨ أيضا وهى فى تاريخ روما . وله أيضا اعترافاته وعنوانها « سرى الخاص » ، وقد بدأها نحو ١٣٤٢ . و « حياة العزلة » وهى من أعمال ١٣٤٦ . وله « اغانى الرعاة » وهى اثنتا عشرة قصيدة رمزية بدأها فى ١٣٤٦ .. وله « سلام الدير » (١٣٤٧) . وله « الواقى من الأقدار » (١٣٥٤) . كما أن له أربعة مجلدات من الرسائل .

كل هذه الأعمال اللاتينية رغم رفعة أسلوبها لا يقرؤها الا الأقلون . أما اضافته الخالدة للأدب فهى ديوان « الأغانى » (الكانزونييرى) أو « القوافى » (ريما) .. وهو عبارة عن ٣٦٦ قصيدة .. منها ٣١٧ سونيتة والباقى أشكال غنائية مختلفة كالمواويل (البالاد) وامثالها .. نظمت كلها بالايطالية . ومثل ديوان « الأغانى » أو « القوافى » ديوان «الانتصارات» . وهو مجموعة من الرمزيات التى بدأها بترارك عام ١٣٥٢ حول موضوعات

الحب والموت والحياة والعفة والشهرة والزمن والحياة الأبدية .. وهى بالايطالية كذلك — وغرام بترارك بلورا هو المحور الذى تدور عليه قصائد « الاغانى » أو « القوافى » و « الانتصارات » . والواقع أن بترارك لم يتوج أميرا للشعراء احتفاء بقصائده العامية ، وانما توج احتفاء بقصائده اللاتينية ولاسيما ملحمة « أفريقيا » التى صور فيها بطولات القائد الرومانى شيبو الأفريقى (٢٣٥ — ١٨٣ ق.م) .. فاتح أسبانيا وقرطاجة وقاهر هانيبال العظيم . ويلاحظ انه فى أول طبعة كاملة من اعماله (١٥٥٤) تبلغ كتابات بترارك شعرا ونثرا عشرين مثلا من كتاباته باللغة العامية (الايطالية) ، وهى « القوافى » و « الانتصارات » ، من حيث الحجم . بل ان بترارك نفسه كان أثناء حياته يصف أشعار العامية بأنها « سفاسف الشبان » ، حتى أنه لم يعن بأن يختار لقصائده الغرامية فى صاحبته لورا حية وميتة اسما محددا يضعه على ديوانه . فديوانه يسمى تارة « القوافى » (ريما) وتارة اخرى « الاغانى » (كانزونييرى) ، على خلاف ما فعله دانتى من قبل حين أطلق على ديوان غرامياته فى صاحبته بياتريس اسم « الحياة الجديدة » ..بل ودافع عن اللغة العامية دفاعا نظريا فى كتابه « فى البلاغة العامية » .

ووجه التناقض فى كل هذا أن الأجيال التالية لبترارك لا تعرف من هذا الشاعر العظيم ولا تقرأ له الا اشعاره العامية فى حب لورا . وأكثر الناس فى القرون المتأخرة لم يسمعوا بأعماله اللاتينية مثل ملحمة « أفريقيا » و « اغانى الرعاة » . وقل منهم من سمع بنثر بترارك اللاتينى فى كتابه « سرى الخاص » و « سير أعلام الرجال » . فهو عند الناس أولا وأخيرا أمير شعراء ايطاليا فى القرن الرابع عشر بعد دانتى ، وواضع أساس الشعر الأيطالى بعد دانتى بفضل دواوينه الغنائية العامية التى صقل فيها العامية الايطالية الى حد الاعجاز .

وليس من الضرورى أن نصدق كل ما كان يقوله بترارك نفسه عن رايه فى شعره العامى . فربما كان هذا من باب التصالح مع جهابذة عصره من أساتذة الجامعات والكرادلة والمحافظين من رجالات عصره ، الذين كانوا لا يزالون على تقديسهم للاتينية الفصحى ولم يسحرهم فى انتاج بترارك الا سيطرته التامة على البيان اللاتينى الفصيح . والدليل على ذلك أن بترارك نفسه كان فى كل مرحلة من مراحل حياته دائم الصقل والتنقيح لمقطوعاته العامية فى ديوان « القوافى » ليبلغ بها حد الكمال . كما تشهد بذلك مسودة مخطوط هذا الديوان المحفوظة الآن فى مكتبة الفاتيكان . فهذا المخطوط ملىء بالتنقيحات وهوامش صفحاته زاخرة بالملاحظات البلاغية والأسلوبية .

فلو كان بترارك يعتقد صدقا أن شعره العامى بغير قيمة حقيقية .. أو أنه مجرد « سفاسف تافهة ومن حماقات الشباب » كما كان يقول .. وانه كان يتمنى الا يعرف أحد فى العالم عنه شيئا .. « بل وأن أنكره أنا لو كان ذلك ممكنا » . لو كان بترارك صادقا فى كل هذا التبرؤ من شعره العامى كما حدثنا فى « رسالة الى الأجيال القادمة » ، لما سهر الليالى ، كما كتب عام ١٣٦٨ ، وهو فى الرابعة والستين من عمره .. فى مراجعة قصيدة كتبها قبل ذلك بربع قرن وتنقيحها بما جعلها فى نظره كاملة التكوين .

لقد كان بترارك يعرف ما يفعله وما يقوله . لقد عاش مثل دانتى فى عصر كان الانشاء فيه باللغات العامية يتضمن عند الكنيسة وعند المحافظين من أهل السطوة درجة واضحة من الزندقة لأنه كان يمثل تحديا للغة المقدسة، وهى اللاتينية الفصحى أو شبه الفصحى ، التى ترجم اليها الكتاب المقدس منذ القديس جيروم (٣٤٧ — ٤٢٠ ميلادية) وأصبحت لغة الكنيسة الرسمية ولغة الشعائر الدينية فى أوروبا ألف عام . والفرق الواضح بين دانتى وبترارك هو الفرق بين الثائر المنفى الأبدى والثائر المتصالح مع السلطة .

فاذا نحن طرحنا هذا السؤال العام : فيم اذن كان بترارك يمثل عصر النهضة الأوربية ، كان الجواب كالآتى :

أولا : وقبل كل شيء : لأنه كان بعد دانتى وقبل بوكاشيو أهم من وضع أساس اللغة الايطالية والأدب الايطالى الحديث باضفاء النبل والصفاء فى المعانى وفى التعبير على اللغة العامية التى كانت من قبل لغة سوقية فى ايطاليا . وبذلك أعطى للايطاليين لغة قومية حية بدلا من اللغة الدولية الشاحبة التى لا يتكلمها أحد (اللاتينية) ، وأدبا قوميا حيا بدلا من الأدب اللاتينى المنقرض .

ثانيا : لأنه كان أعظم قطب للدراسات الانسانية وللمذهب الانسانى فى عصره . فقد كان عصره لا يعترف بأن الأدب بعامة والشعر على وجه الخصوص له قيمة فى الوجود . بل كان يعد هذا وذاك من « السفاسف التافهة » ، بلغة بترارك . كذلك كانت ايطاليا ، بل وأوربا كلها ، لأكثر من الف عام قبله تتنكر لأدب الدنيا ولا تعترف الا بأدب الدين بتأثير الثقافة الدينية السائدة وبقوة الكنيسة .

وهكذا تنكر الأوربيون أكثر من الف عام لحضارة أوربا الجاهلية ، أى الوثنية أيام اليونان والرومان ، وتنكر أحفاد الرومان (الايطاليون) لحضارة أجدادهم أيام الوثنية وتنكروا لثقافتهم ولأدبهم اللاتينى شعرا ونثرا ولفلسفاتهم ولأمجادهم فى السلم والحرب على السواء ، من جهة

لانها كانت مؤسسة على معتقدات وثنية تتعارض مع العقيدة المسيحية ، ومن جهة أخرى لأنها كانت تحتفل بالانسان وغاياته الدنيوية أكثر مما ينبغى .

كان بترارك اذن من رواد عصر النهضة الأوربية الذين اكتشفوا حضارة الرومان وثقافتهم وادبهم وتاريخهم ومجدوها وزينوها لمعاصريهم كمثل أعلى يحتذى ، حتى أصبح أكبر داعية لاحياء الآداب القديمة فى أوربا وأكبر داعية لشرف الانسان ولنبل الانسان ولحكمة الانسان ولبطولة الانسان . ونحن الآن لا نعرف بترارك الا شاعرا غنائيا من الطبقة الأولى ، أما معاصروه فى القرن الرابع عشر فقد كانوا يعرفونه كأكبر عاشق لتراث القدماء كما يقول المؤلف بوركيهارت . بل لقد كان هو بملحمته اللاتينية « أفريقيا » وبديوانه اللاتينى « اغانى الرعاة » يتصور نفسه فرجيل صاحب « الانيادة » و « أغانى الرعاة » ، وكان يحلم بتتويجه فى روما بأكليل الغار كما جرى لفرجيل العظيم .

لقد كان الاهتمام بعلوم الدنيا وآدابها وفنونها فى عصر لا يحترم الا علوم الدين وآدابه وفنونه هو القاعدة الصلبة التى بنى عليها الهيومانزم أو المذهب الانسانى وكان البداية الحقيقية لعصر النهضة الأوربية .

ثالثا : لأن بترارك كان من رواد الفكر الذين تأججت قلوبهم بنار الوطنية ولفحهم لهيب الشعور القومى وكانوا يحلمون ليل نهار بوحدة ايطاليا ، ويدعون لظهور الأمير المخلص الذى ينقذ ايطاليا من نظام الدويلات ويقيم فيها دولة قومية مركزية واحدة : حلم راود الايطاليين منذ أيام دانتى وبترارك ومكيافيللى أيام الرينيسانس ولم يتحقق الا فى القرن التاسع عشر .

ولم يكن بترارك يشتغل بالسياسة ، ومع ذلك فقد اهاب بحكام ايطاليا أن يذكروا دائما « الدم اللاتينى الشريف » وناشدهم الا يستعينوا بالجنود المرتزقة من البرابرة أو يستجلبوهم من الخارج أو « يحطموا أجمل بلاد على وجه الأرض » بالاعتماد على الجيوش الأجنبية لحمايتهم أو توطيد سلطتهم ، فالأمل عنده هو فى احياء « الفضيلة الرومانية » القديمة والشرف الرومانى القديم . أما هؤلاء البرابرة الأجانب الذين يتحدث عنهم فهم « الفرنسيون والألمان والسويسريون والأسبان الذين كانت جيوشهم تتدخل فى السياسة الايطالية بدعوة من هذا الدوق أو ذاك أو بالتحالف مع البابوات » . وكان بترارك لا يفتأ يناشد البابوات المنفيين أو اللاجئين

الى أفنيون بجنوب فرنسا حيث أقاموا كرسى البابوية والبلاط البابوى ، أن يعودوا الى روما .

وبعد قرنين من الزمان كان مكيافيللى يؤسس دعوته لتوحيد ايطاليا واقامة الدولة القومية بدلا من الدولة المسيحية الجامعة واقامة الدولة القومية فيها على دعوة بترارك ، حتى أن مكيافيللى ختم كتابه « الأمير » بالمناداة بتطهير ايطاليا من « البرابرة » الأجانب كما فعل بترارك . كما ختم الفصل الأخير من هذا الكتاب بأبيات من قصيدة بترارك الشهيرة « ايطاليا بلادى » ، التى تعد من أروع روائع شعر الوطنية فى تاريخ الآداب العالمية .

بهذه الصفات الثلاث كان بترارك بعد دانتى رائدا عظيما من رواد حركة الرنيسانس : بدوره الخطير فى وضع أساس الشعر الايطالى فى مواجهة الشعر اللاتينى ، وبدوره الخطير فى احياء تراث القدماء الوثنى بكل ما تضمنه ذلك من تمجيد الانسان والحياة فى مواجهة الألف عام من ثقافة روحية كانت تبشر بأن الموت باب الحياة .

● ● ●

ss

بوكاشيو
BOCCACCIO
١٣١٣ - ١٣٧٥

□ وهذا ، جيوفانى بوكاشيو ، ثالث الثلاثة الذين وضعوا فى القرن الرابع عشر ، أساس عصر النهضة الأوربية ، لا فى ايطاليا وحدها ولكن فى أوروبا كلها ، الا وهم دانتى وبترارك وبوكاشيو .

كان دانتى أول من ثار على اللغة اللاتينية فى ايطاليا ووضع اساس التعبير الشعرى فى اللغة العامية الايطالية بملحمته الفلسفية « الكوميديا الالهية » وبديوانه الغنائى « الحياة الجديدة » الذى خلد به حبه العذرى لصاحبته بياتريس . وكان بترارك أرق وأصفى من نظم الشعر الغنائى فى ديوانه « القوافى » أو « الأغانى » وفى ديوانه « الانتصارات » اللذين خلد فيهما حبه العذرى لصاحبته لورا . وبهذا وضع دانتى وبترارك أساس الشعر الايطالى الحديث .

أما بوكاشيو فقد فعل اكثر من هذا . وثب الوثبة الكبرى وكتب النثر الأدبى باللغة العامية فى مجموعته القصصية المعروفة باسم «ديكاميرون» ، أى القصص العشر ، وبذلك وضع أساس النثر الفنى فى الأدب الايطالى الحديث.

وقد كان النثر من قبله لا يكتب الا باللغة اللاتينية . حتى دعاة اللغة العامية (الايطالية) ، لم يجترئوا على كتابة النثر بالعامية ووقفت ثورتهم عند نظم الشعر بهذه اللغة الشعبية .

وقد ولد جيوفانى بوكاشيو عام ١٣١٣ فى باريس لأب ايطالى يدعى بوكاتشينو أو بوكاشيو من بلدة تشرتالدو من أعمال فلورنسا . وكان جيوفانى ابنا غير شرعى لبوكاتشينو هذا من سيدة فرنسية لا يعرف عنها الا القليل ، ويقال ان اسمها كان جان دى لاروش وانها كانت تنتمى لأسرة من صغار النبلاء .

كذلك نعرف ان أباه هجر امـه وعاد الى ايطاليا ، وان بوكاشيو الابن تلقى تعليمه الاول فى فلورنسا حيث اقام ابـوه وتزوج ، وان تعليم بوكاشيو الأول كان يعده للتجارة . فقد كان الأب نفسه يزاول مع اخيه (عم بوكاشيو) التجارة وربما اعمال الصيرفة فى فلورنسا ، وكان على صلة ببيت باردى الشهير ، وهو بنك فى فلورنسا كانت دائرة نشاطه تمتد الى نابولى ، وباريس. ولم يكن بوكاشيو سعيدا ايام صباه بالعيش فى بيت ابيه ، ولكن الحال تغيرت بعد انتقاله الى نابولى نحو عـام ١٣٢٨ ، حين كان فى نحو الخامسة عشرة من عمره . فقد ارسله أبوه بوكاتشينو الى نابولى ليتدرب هناك عند أحـد شركائه على الأعمال التجارية والمصرفية ، وبقى بوكاشيو فى هـذا البيت التجارى ستة أعـوام عدها هو ضياعا فى ضياع ، ثم وافق ابـوه عندئذ على ان يتجه بوكاشيو ستة أعـوام اخـرى الى دراسة الشريعة المسيحية أو القانون الدينى كما يسمى ، الذى كان مطبقا فى اوروبا طـوال العصور الوسطى بسبب سيطرة الكنيسة على الدولة .

كان بوكاشيو فى الحادية والعشرين من عمره حيث بدأ يدرس فى نابولى القانون الدينى او القانون الكنسى . وظل يدرسه حتى سن السابعة والعشرين ، اى حتى عـام ١٣٤٠ . غير أن تعليمه الحقيقى فى فترة شبابه كان فى بـلاط الملك روبير دانجو الـذى كان يحكم نابولى . وكانت نابولى فى عهده ازهى مدينة فى ايطاليا كلها واكثرها ترفا واشدها اقبالا على الحياة . وكذلك خالط بوكاشيو اهـل العلم والأدب فى جامعة نابولى ، واخـذ شيئا من علم الفلك من منجم القصر ، وشيئا من الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية) عن امين مكتبة القصر بعد ان درس مبادىء اليونانية على يد راهب من اقليم كالابريا ، ولكن المعروف عن بوكاشيو انه فى الأساس ثقف نفسه بنفسـه .

وكما كان لدانتى صاحبته بياتريس ولبترارك صاحبته لورا ، كذلك كان لبوكاشيو صاحبته ماريا ، التى سماها بوكاشيو فى أعماله الأدبية فياميتا . كانت ماريا غرام شباب بوكاشيو ، وكانت بنتا غير شرعية لروبير دانجو ملك نابولى ، من الكونتيسة داكوينو ، وهى سيدة من نبيـلات مقاطعة بروفانس بجنوب فرنسا . وقد زوجت ماريا على كره منهـا من نبيـل من نبـلاء البـلاط . اما القصة التى يرويها بوكاشيو عنها فهى تجربة حب عنيف وسعادة غامرة وجيزة الأمد ، انتهت بغيرة بوكاشيو على محبوبته وفتورها نحوه ثم هجرانها اياه فى نهـاية الأمر عـام ١٣٣٨ ، اى وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . وهنا اعتكف بوكاشيو لدراسة فحـول الشعراء فى الأدب اللاتينى : فرجيل واوفيد وستاتيوس .. وكان ذلك فى

دار خـــارج المدينة بالقرب من قبر فرجيل . وهنـــاك اقـــام حتى ١٣٤٠ حين استدعى للعودة الى فلورنسا بسبب افلاس ابيه .

وقد تركت ماريا فى أدب بوكاشيو ، شعرا ونثرا ، اثرا عميقا . فهى تظهر فى غرام فلوريو وبيانكوفيورين فى رواية « فيلوكولو » التى بداها بوكاشيو فى نابولى بناء على طلب محبوبته ماريا ، ثم اتمها فى فلورنسا وهى بالعامية (الايطالية) . وهى تظهر فى القصيدة القصصية العامية « فيلو ستراتو » ، وهى تظهـــر فى حكاية « ترويلوس وكريسيدا » التى كتبها ليعبر عن عذابه عنـــدما تركت ماريا مدينة نابولى ، وهى تظهـــر فى قصـــيدة « ثيسيوس » القصصية التى نظمها بوكاشيو بالعامية فى نابولى ليصور فيها غرام ارسيتا وبالامون باميليا . وفيما تـــلا ذلك من سنوات انشأ بوكاشيو فى فلورنسا ثلاثة أعمال متأثرة بغرامه بماريا ، هى « اميتو » ، وهى رواية بالشعر والنثر ، وموضوعها أثر الحب فى تهذيب الطباع ، و « رؤيا الغرام »، وهى قصيدة رمزية تمجد الحب وتمجـــد ماريا ، ورواية « مرثية المادونا فياميتا » ، وهى رواية تقلب الأوضاع وتصور عـــذاب ماريا فى الحب بدلا من عذابه .

وبعد ان عاد بوكاشيو الى ابيه فى فلورنسا قضى نحو عشر سنوات لا نعرف عنها شيئا كثيرا سوى أن ابنته الصغرى فيولانت ماتت فحزن لموتها حزنا شديدا . ولكننا نعرف أنه استغرق فى دراساته . وفى هـــذه الفتـــرة كتب بعض هذه الأعمال التى مر ذكرها . وكتب أيضا رواية « نتفـــالى فييزولانو » .

وفى نهاية ١٣٤٦ نسمع انه كان فى مدينة رافينا ، وفى نهاية ١٣٤٧ أو بداية ١٣٤٨ نسمع انه كان فى فورلى يعمل عند سـيدة المدينة . وهـــذه هى السنة (١٣٤٨) التى حصد فيها الطاعون آلاف الأرواح فى فلورنسا وكان يسمى « الموت الأسود » ، وقـــد ذكر لنا بوكاشيو فى كتابه الخالد « ديكاميرون » الـــذى بدأه عـــام ١٣٤٨ ، عام انتشار الوباء ، انه رأى « الموت الأسود » رؤية العين ، وقـــد ماتت فيامينا بالطاعون فى نابولى . وفى ١٣٤٩ مات ابـــوه فتولى هو تعليم اخيه يعقوب ، وهو أخ غير شقيق .

فى هذا الجـــو القاتم ولدت « القصص العشر » أو « ديكاميرون » التى استغرقت كتابتها خمس سنوات ، بين ١٣٤٨ و ١٣٥٣ وهى باللغة العامية أو بالايطالية .

وكانت هـــذه قمة عمر بوكاشيو وقمة نضوجه الفنى ، فاختفت من ادبه العاطفة الملتهبة وحل محلها التصوير الموضوعى للناس ولسلوكهم فى

عصره فى هيئة مجموعة من الحكايات تمثلت فيهــا مأساة الانسان ومهزلة الانسان وتجلت فيهــا سخريات الحياة ، فكتب بوكاشيو باللغة العامية أعظم رواية فى الأدب الايطالى وهى حكايات « ديكاميرون » ، فوضع بها اساس النثر الفنى فى اللغة الايطالية ووضع فى الأدب العالمى غرة الأدب القصصى فى الرواية والقصـــة القصيرة على حد سواء .

وذاع صيت بوكاشيو فتقلد عــدة وظائف تشريفية بعد انجــلاء الموت الأسود . ففى ١٣٥٠ أوفد سفيرا الى سادة اقليم روماجنا . وفى نفس العام اوفده رؤساء جماعة سان ميكيل الى رافينا ليسلم عشرة فلورينات ذهبية الى الأخت بياتريس بنت الشاعر العظيم دانتى اليجييرى الراهبة فى دير سانتا ستيفانو ديل أوليفاقى رافينا . وفى ١٣٥١ أوفد لمفاوضة ملكة نابولى ، وفى مناسبة أخرى لمفاوضة لويس دوق بافاريا . وفى ١٣٥٤ أوفد الى البابا أنوتشنتو السادس المنفى فى افنيون .

كان بوكاشيو مفتونا بأشعار بترارك وكتاباته وأفكاره . فما أن عرف أنه سيمر بفلورنسا فى طريقه الى روما فى خريف ١٣٥٠ حتى سعى للقائه ، وهنا بــدأت صداقة بين الرجلين امتدت نحو ربع قرن حتى وفاتهما ، بترارك فى ١٣٧٤ وبوكاشيو فى ١٣٧٥ .

وفى ١٣٥٧ حمل بوكاشيو الى بترارك فى بادوا الخطاب الذى دعت فيه سلطات فلورنسا بترارك لشغل منصب الأستاذية فى جامعتها المنشأة حديثا وقررت رد أملاك ابيه المصادرة اليه . وفى ١٥٦٣ قضى بوكاشيو الصيف ضيفا على بترارك فى فنيسيا ، وكان بوكاشيو قد أزمع أن يهجر الشعر بناء على نصـــيحة راهب كان يحتضر ولقن بوكاشيو أن الاهتمام بالأدب فسق وتجديف ، وأن كل ما يصرف الانسان عن دراسة الالهيات والتأمل فيها يصرفه عن وجه الله . ولكن بترارك بثقافته الانسانية الواسعة استطاع اقناع بوكاشيو بفساد هــذا المنطق الــذى يقيم كل هــذا التناقض بين الدين والدنيا ويريد أن يسحق الحياة بفلسفة الموت .

وهكذا قضى بوكاشيو الشطر الأخير من عمره بين اليونان والرومان . وفى ١٣٦٠ — ١٣٦٢ اشتغل مع أســتاذ يونانى بجامعة فلورنسا بترجمة هوميروس من اليونانية الى اللاتينية ، كذلك الف اربعة مجلدات أكثرها فى الدراسات القديمة باللغة اللاتينية هى : « انساب آلهة الأمم » ، وهــو موسوعة فى الأساطير القديمة تنتهى بدفاع بوكاشيو عن الشعر والشعراء ، و « سقوط أعلام الرجال » الــذى ترجمه ليدجيت الى الانجليزية تحت عنوان « سقوط الأمراء » ، و « مشاهير النساء فى العالم القديم وما تلاه » ،

واخيرا قاموس فى الجغرافيا بعنوان « فى الجبـــال والغـــابات والنـــوافير والبحيرات » .

وكان آخـــر مؤلف من مؤلفات بوكاشيو كتابه « سيرة دانتى » ، وهى من أهم التراجم التى كتبت عن هـــذا الشاعر العظيم لأن بوكاشيو تقصى فيها حياة الشاعر من شهادات معاصريه . وفى ١٣٧٣ دعى بوكاشيو ليحاضر عن « الكوميديا الالهية » فى جامعة فلورنسا ولكنه لم يكمل محاضراته بسبب اعتلال صحتـــه .

ولم تكن حياة بوكاشيو رخية فى أواخر أيام حياته اى بعد ١٣٦٢ . ولذا كثرت تنقلاته بين فلورنسا ونابولى وروما وفنيسيا وكرتالدو فى تسكانيا حيث مات فى ديسمبر ١٣٧٥ . وكان يقـــوم بمهمات تـــدر عليه مالا كافيا للعيش ولكن ليس فيهـــا متسع للترف أو للادخار . كذلك حاصرته بعد أن فرغ من كتابة « ديكاميرون » (١٣٤٨ — ١٣٥٣) ذكريات خيانة معشوقته ماريا (فياميتا) له أيام شبابه فطفحت المرارة فى كتـــابه « آل كورباتشيو » (١٣٥٥) ، وتفاقمت هـــذه المرارة مع الأيام حتى صبغت كل تفكيره عن المرأة فى أواخر أيامه . وليس بمستبعد أن تكون تجاربه المتأخرة مع النساء هى التى نكأت جراح تجربته الأولى .

●●●

والسؤال الآن هو : لمـــاذا يعـــد بوكاشيو قطبـــا من أقطاب عصر الرنيسانس اى عصر النهضة الأوروبية ؟

أولا ، لأن شأنه شأن صنويه دانتى وبترارك ، كان أسبق من اجترأ فى ايطاليا فى القرن الرابع عشر على اســـتخدام اللغة العامية فى التعبير الأدبى ، وبهذا شارك فى وضع اساس اللغة الايطالية كلغة قومية يتفرد بها الايطاليون عن سائر الأوربيين ، بدلا عن اللغة اللاتينية الوسطى التى كانت لغة الدين والدولة والرسائل التى كان يتبادلها المثقفون .

غير أن اجتراء بوكاشيو كان اكبر من اجتراء صنويه ، لأن دانتى وبترارك وقفا عند حد نظم الشعر بالعامية ، والشعر مادته الوجـــدان والعواطف التى تصـــهر حرارتها الكلمات لأنها صـــادرة من القلب وغايتها القلب ، وحيث ترتفع الحرارة تبدأ حمى الهذيان الجميل الذى يسوغ فيه الخيال كل شىء أو حمى الحماسة التى تؤجج قلوب السامعين . والعامية هى لغة القلب لأنها لغة الأم التى نأخذها مع الرضاعة ، كما يقـــول دانتى ، وقبل أن تتفتح عقولنا فهى أيضا لغـــة الحواس والمحسوسات . ولـــذا كانت

ss

بلاغتها الطبيعية أقـوى من البلاغة المكتسبة ، والصـدق الفطرى قد يكون أقرب الى الشعر من الصدق المكتسب .

كان اجتراء بوكاشيو أكبر من اجتراء صنويه لأنه استخدم اللغة العامية فى النثر الفنى فكتب بهـا الرواية والقصـة القصيرة واثبت انهـا اقـدر على التعبير الأدبى من لاتينية العصور الوسطى التى لم تكن الا صيغة ضامرة شاحبة من اللاتينية الفصحى ، وكان ضمورها وشحوبها من اقتصارها على التعبير عن الفكرين الدينى والقانونى وعن احتياجات الدواوين ، وبسبب انصرافها عن التعبير الأدبى أكثر من الف عام . وهكذا كان بوكاشيو بحق أبا النثر الايطالى .

ولكن بوكاشيو كان كذلك قطبا من اقطاب حركة الرنيسانس بسبب دفاعه عن الأدب عامة وعن الشعر خاصة فى زمن كانت الكنيسة لا تزال فيه تحرم كل نشاط فكرى أو فنى أو علمى أو أدبى يخـدم الدنيا ولا يخدم الدين وتعده منافيا للايمـان المسيحى القويم . من أجل هذا مات الفـكر والفن والعلم والأدب فى أوروبا المسيحية أكثر من الف عام ، ولم ينج من هذه اللعنة الا فن العمارة بسبب حاجة الكنيسة الى بناء الكاتدرائيات وحاجة أمراء الاقطاع لبناء القـلاع والحصون ، كذلك لم ينج من هذه اللعنة الا الفكر الدينى ، لا كما نجده عند الفلاسفة ولكن كما نجده عند فقهاء الدين ومفسريه . لقد وضعت الكنيسة الخيار بين الانسان والله وبين الدنيا والآخرة وبين المـادة والروح وبين العالم الطبيعى وما وراء الطبيعة وبين الوجود فى الزمان والوجود فى الأبدية ، واسست العقيدة المسيحية على قيام التناقض بين الطرفين ، واختارت الله والآخرة والروح وما وراء الطبيعة والوجود فى الأبدية .

أما بوكاشيو فقد شارك بترارك فى الدعـوة لاحياء آداب القدماء ، وآداب اليونان والرومان فى جاهليتهم الوثنية وأيام أمجادهم الدنيوية ، ولذا كان بوكاشيو مثل بترارك جزءا لا يتجزأ من الدعوة للفلسفة الانسانية أو حركة الهيومانزم كما يسمونها .

بل أكثر من هـذا . فقد كتب بوكاشيو دفاعا عن الشعر ليدحض ضمنيا تعاليم الكنيسة القائلة بإن الشعر عدو الدين ، وليقول إن القدماء رغم وثنيتهم كانوا مثلنا مؤمنين بالله . وهو فى نهاية كتابه « أنساب الآلهـة » ، وفى مقدمة ذلك الكتاب ، حاول أن يثبت انه لا يغض من مسيحية الشاعر المسيحى أن يستلهم تراث اليونان والرومان . (انظر مقدمة « أنساب الآلهة » والفصلين الرابع عشر والخامس عشر من ذلك الكتاب) .

SS

وفى الفصل الثانى والعشرين من كتاب بوكاشيو « سيرة دانتى » يقول بوكاشيو :

« (٢) اذا نحن اردنا انتخلى عن عواطفنا وننظر الى العقل فاعتقادى اننا سوف نتبين بسهولة كافية أن الشعراء القدماء كانوا فى الحدود المستطاعة للبشر يقتفون آثار الروح القدس ، الذى يقول الكتاب المقدس انه يكشف للأجيال القادمة عن مكنونات أسراره الشامخة من خلال افواه كتاب عديدين جعلهم يقولون من وراء نقاب ما أراد الروح القدس اظهاره فى الوقت المناسب صراحة بالأعمال وبدون نقاب . وبناء عليه فلو اننا تأملنا كتاباتهم بامعان ، لراينا هـؤلاء الكتاب يصفون ما قد كان أوما حدث فى زمنهم أو ما كانوا يتمنون حدوثه مستقبلا مسربلا فى رداء القصص . قاصدين الا يختلف المقلد فى وصفه عما يقلده . ومن هنا ، فدون أن نفترض أن كل انواع الكتابة واحدة فى الهدف .. وانما تأسيسا على منهج الكتابة ، وهو اهم ما يعنينى الآن ، فان ما يقال فى مـدح الكتاب المقدس يمكن ايضا ان يقال فى مـدح الكتابات الدنيوية وفقا لمـا ذكر القديس جريجوار دى تور (٥٣٨ — ٥٩٤) .. فهو يقول عن الكتاب المقدس ما يمكن أن يقال أيضا عن الشعر ، وهو انه كلما سرد شيئا فهو يطرح فى نفس الألفاظ النص والأسرار المتضمنة فى النص .. وبذلك فهو يشغل الحكماء ويرضى البسطاء فى آن واحد . ففى معناه الظاهر ما يقنع الأطفال ، وفى معناه الخفى هو يخبىء ما يملأ احكم السامعين بالرهبة والاعجاب .. فهو اذن يبدو — لو جاز لى هذا المجاز — كالنهر الضحل العميق معا .. يعبره الحمل الصغير على اقدامه ويسبح فيه الفيل الجسيم بحرية تامة » .

« (٣) والكتاب المقدس الذى نسميه اللاهوت أو الالهيات يقـوم بتعريفنا فى ثوب قصصى — آنا باجتلاء رؤيا ، وآنا بسماع نواح ، وآونة بطرق عديدة مختلفة — سر تجسد الكلمة الالهيـة وسيرة حياته ووقائع موته وبعثه المنصـور وصـعوده المعجز وكل ما اتى من أعمال . فلو اتعظنا بهذه الأشياء بلغنا ذلك المجد الذى هيأه لنا بموته وقيامته بعد أن اوصد بابه فى وجوهنا زمنا طويلا بخطيئة الانسان الأول . وبالمثل فان الشعراء بأعمالهم التى نسميها الشعر يبينون لنا — من خـلال قصص الالهة المختلفة ومن خـلال تشكلات الناس فى هيئات مختلفة وبالاقناع الجميل — علل الأشياء ونتائج الفضائل والرذائل وما ينبغى علينا اجتنابه وما ينبغى علينا أتباعه ، حتى نبلغ بالفضيلة تلك الغاية التى تصورها قمة الرضـوان أولئك القوم الذين لم يعرفوا الاله الحق تمام المعرفة .. » .

« (٤) وبالمثل فشعراؤنا عندما زعموا أن الاله ساتيرن (المشترى) كان له اطفال عديدون التهمهم جميعا فيما خلا أربعة ، فانما ارادوا أن نفهم من هذه القصة شيئا ولا شيء سواه : وهو ان الاله ساتيرن هو الزمن الذى فيه يولد كل شيء .. وانه كما أن كل شيء يولد فى الزمن فالزمن ايضا يدمر كل شيء ويحيله الى عدم . واطفاله الأربعة الذين لم يلتهمهم كان الأول هو جوبيتر ، وهو عنصر النار .. والثانى هو جونو امراة جوبيتر واخته ، وهى عنصر الهواء الذى به تشتعل النار فى الدنيا .. والثالث هو نبتون رب البحر ، وهو عنصر المـاء .. اما الرابع فهو بلوتو رب العالم السفلى ، وهو عنصر التراب .. وهو ادنى عنصر من هـذه العناصر . كذلك زعم شعراؤنا أن هرقل استحال من بشر الى اله .. وأن ليكاون استحال الى ذئب ، وقد ارادوا بذلك أن يدللوا على أن التمسك بالفضيلة — على غرار ما فعل هرقل — يجعل من الانسان الها بالمشاركة فى ملكوت السموات .. وان طريق الرذيلة الذى سلكه ليكاون يجعل من الانسان شبيه الذئب رغم هيئته الآدمية .. ولا شك أنى لو لم اضف شيئا الى هذه الأمثلة لكانت هذه الأمثلة كافية لاثبات أن اللاهوت والشعر يتفقان فى طريقة عملهما .. أما من حيث الموضوع فانى أقول انهما ليسا مجرد شيئين مختلفين كل الاختلاف وانما هما من بعض الوجوه متناقضان . فموضوع اللاهوت المقدس هو الفضيلة الالهية ، اما الشعراء القدماء فيتناولون قصص آلهة الأميين وقصص البشر . وهما متناقضان من حيث أن اللاهوت لا يقدم من البداية شيئا الا اذا كان صادقا ، أما الشعر فيقدم بعض الأشياء العارية عن الصدق والخاطئة والمضادة للدين المسيحى على انها اشياء صادقة . ولكن لأن بعض الحمقى يهاجمون الشعراء بقولهم انهم الفوا اساطير مقززة وشريرة ولا تستقيم مع الحق ، وانهم كان ينبغى عليهم ان يظهروا قدرتهم وأن يلقوا بتعاليمهم للناس من طريق آخر غير ابتكار الأساطير .. فانى اود أن أمضى الى مزيد من مناقشة هذا الموضوع ولكن داخل حدود » .

« (٥) فليتأمل اذن أمثال هؤلاء المهاجمين رؤى دانيال واشعياء وحزقيال وغيرهم فى التوراة . تلك التى خطها القلم الالهى ونزل بها الوحى من عند من لا بداية له ولا نهاية . وليتأملوا ايضا رؤى الرسل فى الانجيل . وهى المليئة بعجائب الحق التى يدهش لها العقل .. فان وجدوا ان قصص الشعراء أبعد عن الحق وعن مشابهة الواقع من قصص الأنبياء كما تبدو فى الظاهر فى مواطن عديدة ، كان من حقهم القول بان الشعراء وحدهم قد سطروا الأساطير بسبب عجزهم عن تهذيب الناس بالمتعة او الفائدة . ودون أن أتعرض لما يسوقونه من اتهامات للشعراء من حيث لجوء الشعراء

لتقديم تعاليمهم بالأساطير أو تحت قناع أسطورى . أرانى أستطيع أن أمضى فى حديثى دون تردد . لأنى أعلم أنهم حين ينتقدون الشعراء فى حماقة على هذا المنهج . فهم فى طيشهم يتورطون فى نقد الوحى نفسه . وما الوحى للانسان الا الطريق والحق والحياة . ومع ذلك فسوف أسعى لارضائهم » .

« (٦) من الواضح ان كل ما نكتسبه فى عناء يبدو أحلى مذاقا مما نكتسبه بغير جهد . فالحقيقة الواضحة تمتعنا . ولكن سرعان ما ينساها العقل لأنه يفهمها دونما مشقة كبيرة . غير أن الشعراء يخفون الحقيقة تحت غطاء يبدو فى الظاهر على النقيض منها حتى يجعلوها اكثر امتاعا للنفس بحكم أنها مكتسبة بمشقة ولذا فهى أقوى رسوخا فى النفس . ولهذا السبب نجدهم يبدعون الأساطير من دون وسائل التعبير الأخرى . لأن جمال الأساطير يجتذب أولئك الذين يعجز العرض الفلسفى أو الاقناع المنطقى عن اجتذابهم . فماذا يكون اذن حكمنا على الشعراء ؟ أنقول انهم مجانين كما يتصورهم أعداؤهم الحمقى زاعمين أنهم لا يعرفون شيئا ؟ بالقطع لا . فالشعراء يستخدمون فى انتاجهم أعمق الأفكار .. وهى أشبه شىء باللباب الخبىء داخل الفاكهة . وهم يستخدمون اللغة الرائعة المثيرة للاعجاب .. وهى أشبه شىء بالقشرة والأوراق . ولنمضى فى حديثنا » .

« (٧) اقول ان اللاهوت والشعر يمكن ان نسميهما شيئا واحدا على وجه التقريب اذا كان موضوعهما واحدا . بل انى لأقول ان اللاهوت ليس الا الشعر الالهى . وهل يخرج الكتاب المقدس عن الابتكار الشعرى حين يصف المسيح فى موضع ما بأنه أسد . وفى موضع آخر بأنه حمل . وفى موضع غيره يصف ابن الانسان بأنه دودة (سفر ايوب ٢٥/٦) . والمسيح هنا تنين وهو هناك صخرة . وأشياء أخرى كثيرة اغفلها من باب الايجاز ؟ . وهل كلمات مخلصنا فى الانجيل غير ابتكار شعرى اذا كانت عظاته تقول شيئا فى الظاهر وتضمر مغزى غير ما بدا ؟ . فلنقل إنها بالتعبير المشهور مجاز . ومن هذا يتجلى بوضوح ليس فقط أن الشعر هو اللاهوت ولكن أيضا أن اللاهوت هو الشعر . وأنا لست انزعج اذا كانت اقوالى فى هذا الأمر الخطير غير اهل لثقة الناس ، لانى اثق فى قول أرسطو . وهو الحجة الساطعة فى كل أمر خطير . انه وجد أن الشعراء كانوا أسبق من كتبوا عن الالهيات » .

(كما ورد فى كتاب « الميتافيزيقا » ٣/٤/١٠٠٠/١/٩) .

● ● ●

كان رأى الكنيسة واكثر فقهاء الدين المسيحى لأكثر من الف عام طوال العصور الوسطى ادانة الشعر خاصة والأدب بعامة بوصف أنهما قائمان على سفاسف الأشياء الدنيوية التى تشغل الانسان عن ذكر الله ويدعوان للفسق بتمجيد خطايا البشر كالحب والحرب وطلب النعيم فى الحياة الدنيا . كذلك أدانوا منهج الشعر والأدب فى التعبير بوصفه كذبا فى كذب فهو يعمد الى المجاز الذى يقول شيئا ويعنى شيئا آخر ويفتن الباب الناس بالأحاجى والألغاز وترهات الخيال بدلا من أن يخاطبهم بلغة العقل . فهو الطريق الى الغواية والضلال .

وقد تجلى موقف الكنيسة وفقهاء الدين المسيحى من الأدب شعرا ونثرا فى نظام التعليم طوال العصور الوسطى الذى استبعدت فيه دراسة الأدب اليونانى واللاتينى من برامج الدراسة بحجة حماية الناس من الوثنية والكفر والفجور .. وهكذا مات أيضا الانشاء الأدبى شعرا ونثرا اكثر من الف عام فى اللغة الرسمية لغة الدين والدولة . وهى اللغة اللاتينية .. ولم يبعث الا فى أواخر العصور الوسطى باللغات الشعبية فى الملاحم والمواويل .

كان دفاع بوكاشيو عن الشعر اذن بداية عصر جديد . هذا الذى نسميه عصر الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية . وقد بنى بوكاشيو دفاعه عن الشعر على حجة خطيرة هى أنه ليس هناك فرق جوهرى من حيث الشكل والمنهج بين وحى الشعراء ووحى الأنبياء : كلاهما يتخذ من الخيال سبيلا الى بلوغ الحقيقة بالرؤى والتعبير عنها بالرمز والمجاز ودروبهما التى نسميها التشبيه والاستعارة والكناية وكل ما جعل للكلام ظاهرا وباطنا وسربل الحكمة بالأحاجى .

وانما يدان الشعر عند بوكاشيو اذا شط موضوعه أو جوهره فدعا الى الرذيلة وزين الضلال . حتى القدماء من الشعراء يكفيهم مجدا اجتهادهم لارتياد مكنون الالهيات والتعبير عنها فى زمن لم يكتمل فيه تصور الانسان لله الواحد السرمدى .

• • •

SS

مكيافيللى

MACHIAVELLI

١٤٦٩ - ١٥٢٧

١

«الأمير»

القومية والاستعمار

□ كنا فى جيلى ، كلما رأينا قصورا فى الحياة المصرية ، ننظر وراءنا فى غضب ونبحث عن الحلول فى التاريخ الأوروبى منذ عصر الثورة الفرنسية، أى منذ عام ١٧٨٩ ، بقصد الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى .

ولكن يبدو أن حركة المجتمع العربى تدفعنا الآن الى التراجع قرونا الى الوراء حتى تجعلنا نقترب من العصور الوسطى ، تدفعنا الى نحو عام ١٥٠٠ أو ربما قبل ذلك فى بعض الأمور .

وهكذا غدا لزاما علينا أن نرى كيف خرجت أوروبا الحديثة من العصور الوسطى بينما كتب على عالمنا العربى أن يطول مخاضه وأن يتعسر فيه ميلاد الحياة الجديدة ، وكلما تجدد فى أوصاله أكسير الصحة والنماء حاصرته جراثيم المرض والهزال .

أما كيف خرجت أوروبا الحديثة من العصور الوسطى ، فهى قصة عصر النهضة الأوروبية التى يسمونها حركة الرنيسانس أو «الميلاد الجديد» . والميلاد الجديد غير « البعث » لأن البعث لا يكون الا للموتى ولا نظنه يتم الا فى الآخرة ، أما الميلاد الجديد فهو ملازم لدورة الأجيال .

تقول : ولماذا نبدأ بمكيافيللى ؟ وهو رجل سيىء السمعة ؟ والاجابة على هذا بسيطة : وهى أن بداية البدايات فى نشوء الحضارة الحديثة هى ظهور الهيومانزم أو المذهب الانسانى ، وبداية تجلى المذهب الانسانى هى ظهور الدولة القومية وحلولها محل الدولة الدينية أو ما يسمى «بالثيوقراطية» كأساس للتنظيم الاجتماعى ، وقد كان مكيافيللى من أهم فلاسفة السياسة الذين وضعوا أساس الدولة القومية الحديثة أو لعله أهمهم جميعا لأنه كان أول من ارسى الأساس .

ولد نيكولو مكيافيللى (١٤٦٩ — ١٥٢٧) فى فلورنسا لأب محام فى تلك المدينة رقيق الحال ولكنه كان ينحدر من أسرة نبيلة ، وكذلك كانت أمه من أسرة كريمة افتقرت . ولا تزال داره قائمة الى الآن فيما يسمى الآن ١٦ شارع جيتشياردينى على مقربة من البونتى فيكيو أى الكوبرى القديم بمدينة فلورنسا . وكان أسلافه من نبلاء توسكانيا الذين بلغوا أعلى المناصب فى جمهورية فلورنسا . ولا يعرف شىء كثير عن تعليمه الا أن كتاباته تدل على أنه درس التراث اللاتينى دراسة متأنية ولا سيما فى التاريخ ، كما انه كان مفتونا بدانتى وبترارك وبوكاشيو .

وقد قضى مكيافيللى الشطر الأول من حياته يعمل كدبلوماسى توفده جمهوريته فى سفارات متعددة الى بلاط الملوك والأمراء . اما النصف الثانى من حياته فقد قضاه محدد الاقامة فى داره الريفية .. وكان فى الثالثة والعشرين حين مات أمير فلورنسا العظيم لورنزو دى مديتشى (الأول) ، راعى الفنون والآداب المتوفى عام ١٤٩٢ . وفى زمنه عاصر مأساة المصلح الدينى الثورى الخطير سافونارولا الذى أعدم حرقا فى فلورنسا عام ١٤٩٨ بتهمة الزندقة لأنه هاجم البابا اسكندر السادس (اسكندر بورجيا) ، وكان يبشر باقامة دستور لفلورنسا ثيوقراطى ديمقراطى . كذلك عاصر مكيافيللى غزو شارل الثامن ملك فرنسا لايطاليا وبداية انهيار ايطاليا نتيجة لذلك الغزو .

كان مكيافيللى عام اعدام سافونارولا فى التاسعة والعشرين من عمره ، وعين سكرتيرا لجمهورية فلورنسا ، وهو شبيه بمنصب أمين فى ديوان الأمير أو فى القصر الجمهورى ، وكانت هذه الفترة هى قمة حياته العامة ، وكان يوفد فى سفارات لا حصر لها الى بلاط الملوك والأمراء خارج ايطاليا وداخلها فى مقاطعات ايطاليا المستقلة . فتعرف بذلك على أقوى رجالات عصره المشتغلين بالحكم والسياسة ، ولاسيما السياسة الدولية ، ودرسهم عن كثب مما مكنه أن يبلور أفكاره ومشاهداته فيما يمكن أن يسمى فن الحكم وعلم السياسة ، وهو محور أكثر كتاباته . وقد دامت فترة بعثاته الدبلوماسية من ١٤٩٨ الى ١٥١٢ وقد تبلورت تجربة هذه الفترة فى كتاب « الأمير » (١٥١٣) .

وفى زمن مكيافيللى تعاظمت قوة فرنسا من جهة وقوة البابوية من جهة أخرى أيام البابا اسكندر السادس (بورجيا) ، واستنزفت امارة فلورنسا حربها مع امارة بيزا . فاضمحلت فلورنسا وأخذت تعتمد فى حمايتها على الجيوش الفرنسية . وكان مكيافيللى يرصد كل هذه الدسائس الدولية

SS

فى سبيل السيطرة فدعا الى انشاء جيش وطنى من ابناء فلورنسا للدفاع عن دولتهم . وكان ملتهب الوطنية ، ولكن سلوك الملوك والأمراء فى السياسة الدولية علمه الواقعية الفظيعة التى نلمسها فى كتاباته . فقد رأى الدول فى عصره لا تتحرك الا بدافع المصلحة ولا تحترم اتفاقاتها الا حين تعود عليها بالنفع ، وكما وجد الدول كذلك وجد الأفراد .

وقد انتهى طرد الجيش الفرنسى من ايطاليا فى ١٥١٢ الى بقاء جمهورية فلورنسا بغير حماية لوقوعها تحت رحمة الأسبان . فسقطت الجمهورية فى فلورنسا وعاد الى حكمها الأمراء المستبدون من آل مديتشى . وهكذا عزل مكيافيللى من كافة المناصب التى كان يشغلها فى ظل الجمهورية ونفى من مدينة فلورنسا وهو فى سن الثالثة والأربعين ، ولكنه عاش فى ريفها محدد الاقامة فى عزبته مع زوجته وأولاده الخمسة سنوات لا عمل له الا القراءة والكتابة واجترار الذكريات فى هدوء العلماء .

وهذه هى الفترة التى كتب فيها كتاب « الأمير » وكتاب « أحاديث لتيتوس ليفيوس » ، وهى أهم اعماله فى علم السياسة . وواضح منها انها كتبت لترشد لورنزو دى مديتشى الثانى ليكون أميرا قويا ناجحا . لقد خدم مكيافيللى الجمهورية فلما سقطت فقد منصبه ونفى من بلده ، وهو الآن يحاول ان يسترد مكانته فى بلاط الأمير المستبد من عائلة مديتشى ، ولم تثمر جهوده الا فى ١٥٢٦ حين عاد الى الخدمة العامة فى ظل آل مديتشى . ولكن سرعان ما انهارت الامارة المطلقة فى فلورنسا وعادت اليها الجمهورية فطرد آل مديتشى من الحكم وفقد مكيافيللى عمله من جديد ، ثم مات فى العام التالى (١٥٢٧) ، ولم تعمر بعده الجمهورية طويلا .

وقد ترك مكيافيللى أيضا كوميديا اسمها « ماندراجولا » واخرى اسمها « كليزيا » ورواية اسمها « بيلفاجور » واخرى اسمها « سيرة كاستروتشيو كاستراكانى » وكتابا فى « تاريخ فلورنسا » وآخر عن « اصلاح حكومة فلورنسا » و « رسائل شخصية منشورة » .. ولكن اشهر أعماله جميعا هو كتاب « الأمير » ، الذى يعتبر بداية الطريق فى الفكر السياسى الحديث بسبب واقعيته الضارية فى الوصف والتحليل . وقد اتخذ فى هذا الكتاب سيزار بورجيا (١٤٧٥ — ١٥٠٧) مثلا أعلى للأمير .

فى اهداء كتاب « الأمير » الى عاهل فلورنسا لورنزو دى مديتشى الثانى ، يقول مكيافيللى انه فى علم الخرائط الطبيعية يضع الجغرافى نفسه فى السهول الواطئة ليرصد معالم الجبال والمرتفعات ويضع نفسه على الجبال والمرتفعات ليرصد تضاريس السهول الواطئة ، وبالمثل فمعالم السياسة

يجب أن يضع نفسه مع الطبقات الشعبية ليفهم طبيعة الحكام ومع الطبقة الحاكمة ليفهم طبيعة الشعب . ومعنى هذا أن الحكام عاجزون عن الحكم على أنفسهم وأن الشعب ايضا عاجز عن الحكم على نفسه .. والقصد من هذا ان علم السياسة أو علم الدولة لا يكون موضوعيا الا اذا أسس على راى الشعوب فى حكامها وعلى رأى الحكام فى شعوبهم .

وفى الفصل الثالث من كتاب « الأمير » يحدثنا مكيافيللى عن مشكلة الانقلابات والثورات التى يسميها مكيافيللى « الامارات الجديدة » . وعنده ان أول عقبة تواجهها اية امارة جديدة عقبة طبيعية : « فالناس يتحمسون لتغيير أميرهم (أى حاكمهم أو ملكهم أو رئيس دولتهم أو ولى الأمر فيهم .. ل . ع .) عندما يأملون فى تحسين أحوالهم ، وحين يتسلط عليهم هذا الاعتقاد يجعلهم يحملون السلاح ضده . وهم بهذا يخدعون أنفسهم ، لأنهم فيما بعد يكتشفون بالتجربة أن احوالهم قد ساءت ، وهذا الوضع ناجم عن حتمية أخرى طبيعية ونمطية الا وهى أن الانسان لابد وأن ينزل الأذى دائما بأولئك الذين يصبح أميرهم الجديد ، ببطش الجنود وبالأضرار الأخرى التى لا حصر لهـا والتى تعقب الفتح الجديد . وبهذا تكتسب كأعداء لك كل من انزلت بهم الضرر باستيلائك على تلك الامارة . كما أنك لا تستطيع الاعتماد على من وضعوك فى دست الامارة كأصدقاء لك ، لأنك لن تستطيع ارضاءهم بالدرجة التى كانوا يأملون فيها ، ولأنك لن تستطيع أن تردعهم بناجع الدواء باعتبارك مدينا لهم . فالمرء ، مهما بلغت قوة جيشه ، بحاجة دائما الى ارضاء الأهالى حين يفتح منطقة من المناطق » .

ومن هذا الكلام ومن سياقه التاريخى نفهم أن مكيافيللى كان لا يفرق بين الانقلابات والثورات الداخلية التى تطيح بأمير أو بأسرة أو جماعة حاكمة لتضع مكانها أميرا جديدا وأسرة أو جماعة حاكمة جديدة ، وبين الغزو الخارجى الذى ينقل السيادة على البلاد الى يد جديدة ، وهذا ما سماه مكيافيللى فى الفصل الثالث « الامارات المختلطة » .

فقد كانت ايطاليا فى عصره قبل الوحدة الايطالية مؤسسة سياسيا على نظام المدينة الدولة أو « الدولة المدينة » . كان لكل من فلورنسا والبندقية وفيرارا وبيزا وروما .. الخ كيان سياسى مستقل شبيه بما كان معروفا عند اليونان وعند الرومان قبل نشأة حركات التوحيد والامبراطوريات ، أى قبل فيليب المقدونى ويوليوس قيصر . وكانت فلورنسا بالذات من اقوى هذه المدن ، وكانت تحكمها أسرة مديتشى الشهيرة برعايتها للفنون والآداب ، كما كانت روما من أقوى هذه المدن ، وكانت تحكمها أسرة بورجيا الشهيرة بدسائسها وجرائمها وسيطرتها على الكنيسة لتثبيت طغيانها .

وكانت هذه المدن الايطالية كثيراً ما تتحارب فيما بينها وتعقد الصلح والمعاهدات وكانها دول مستقلة ، وكانت من حين الى حين تقوم الثورات داخل المدينة الواحدة لتنقل الحكم من يد اسرة قوية الى يد اسرة قوية اخرى، كما يحدث فى عصرنا الحالى فى الصراع بين الأحزاب والتنظيمات السياسية. وفى عصر مكيافيللى اغارت فلورنسا على بعض جيرانها مثل مدينة بيزا ، كما تعرضت مدينة ميلانو لغزو الجيوش الفرنسية ، فحكمتها فترة وجيزة أيام لويس الثانى عشر . اما فلورنسا فكانت تحمى استقلالها بالتحالف مع فرنسا وبالاعتماد على الجيوش الفرنسية ، فلما هزم الأسبان الفرنسيين أيام الامبراطور شرلكان أصبحت فلورنسا تحت رحمة الأسبان .

وكانت ايطاليا فى زمن مكيافيللى ، كبقية أوروبا ، تخرج من العصور الوسطى وتدخل عصر النهضة ، وتخرج من النظام الاقطاعى ، الشبيه بعصر المماليك ، حيث كل امارة أو دوقية أو مملكة صغيرة تتمتع بشخصيتها المستقلة وباستقلالها تحت السلطان البابوى والكنيسة الكاثوليكية الجامعة، وتدخل عصر تكون القوميات الحديثة التى تميزت بحركات التوحيد القومى فى ظل ملكيات مطلقة تخضع ارادة الأمراء والدوقات والكونتات واللوردات وتجمعها لبناء الدولة العلمانية الحديثة المؤسسة على العلوم والفنون والآداب والنظم والشرائع والقوانين والقيم والمقاييس والأحكام الدنيوية الوضعية المستمدة من منطق الأرض واللازمة لصلاح الدنيا وليس لمجرد التمهيد للآخرة . وليس معنى هذا أن الصراع بين الدولة والكنيسة أفضى الى تخلى الدولة عن الدين ، وإنما أفضى الى صيغة جديدة للعلاقة بينهما وهى فصل الدين عن الدولة .

ولعل أقرب شىء نعرفه لذلك فى بلادنا هو بناء الدولة الحديثة الموحدة على يد محمد على ، والقضاء على سنجقيات المماليك ، وتأسيس قيم الدولة ونظمها وقوانينها على الأساس الدنيوى الوضعى ، بما تضمنه ذلك من صراع بين محمد على ورجال الدين الرافضين لمبدأ الدولة القومية الحديثة .

وتاريخ نشأة القوميات الحديثة مقترن بأربع ظواهر سياسية هامة هى :

١ ـ الصراع على السيادة بين الدين والدولة .

٢ ـ حروب التحرير .

٣ ـ التوسع الاستعمارى .

٤ — الصراع الاجتماعى من أجل الديمقراطية السياسية والاقتصادية وحقوق الانسان .

وفى الفصل الثالث من كتاب « الأمير » يحدثنا مكيافيللى عن التوسع الاستعمارى وعن حروب التحرير فيضرب لنا مثلا : استيلاء لويس الثانى عشر ملك فرنسا على مدينة ميلانو وضمها الى أملاكه بجهد ضئيل أو بمجرد استعراض العضلات ، لأن اهالى ميلانو الساخطين على أميرهم فتحوا لهذا الأمير الجديد أبواب مدينتهم . ولكن حين تبين لهم أن أحوالهم لم تتحسن تحت حكم لويس الثانى عشر افاقوا من وهمهم وتخلصوا من الحكم الفرنسى الأجنبى فى يسر شديد . فلما أعاد لويس الثانى عشر الاستيلاء على ميلانو استدعى طرده منها تضحيات جسيمة ، لأنه اتخذ للاحتلال حيطته وأباد كل جيوب المقاومة لفتحه الأول ودعم قواته فى كل مكان ، فاحتاج الأمر الى حرب تحرير ضروس دمرت جيوشه تماما والى تأليب العالم عليه فى كل مكان حتى جلا عن ايطاليا جملة .

وهذا مصداق للقانون الذى استخلصه مكيافيللى فى علم السياسة ، وهو أن الشعوب تثور لاستبدال حاكم بحاكم ، وطنيا كان أو أجنبيا ، اذا أنت من المظالم وتوهمت أن حالها سوف تتحسن فى ظل الأمير الجديد ، ولكنها لا تلبث أن تفيق من وهمها حين تكتشف أنها تسير من سيىء الى أسوأ فتثور من جديد لطرد الحاكم الجديد .

وهنا يضع مكيافيللى بعض القوانين السياسية التى يراها لازمة لنجاح الفتوحات وحركات التوسع القومى بأسلوب أفضل من التوسع الفرنسى فى ايطاليا . وهذه القوانين هى بعبارة مكيافيللى :

(١) « أقول اذن ان تلك الدول عند فتحها لو وحدت مع دولة سبق أن امتلكتها الدولة الفاتحة ، فهى اما أن تكون من نفس الاقليم وتتكلم نفس اللغة أو لا تكون . فان كانت من نفس الاقليم واللغة كان الاحتفاظ بها أمرا يسيرا جدا ، ولاسيما اذا كانت لم تتعود على الحياة الحرة . وهنا يكفى لتأمين الاحتفاظ بها تدمير نسل الأمير الذى كان يحكمها ، ذلك لأن أهلها، فيما يخرج عن البيت المالك ، يعيشون فى هدوء طالما أبقى الأمير الجديد على أسلوب حياتهم القديم ، وطالما لم يكن هناك عدم تجانس فى العادات . ومثال ذلك ما نراه من أحوال بورغونيا وبريتانيا وجاسكونيا ونورمانديا التى بقيت متحدة مع فرنسا منذ مدة طويلة جدا . ورغم وجود عدم تجانس فى اللغة الا أن العادات متشابهة بحيث تستطيع هذه الامارات أن تعيش فى يسر بعضها مع البعض الآخر ، ومن يستولى على هذه الامارات عليه

أن يراعى الحيطة فى أمرين : الأول هو ابادة نسل الأمير السابق ، والآخر هو عدم اجراء تعديل فى القوانين أو فى الضرائب المفروضة على الأهالى ، وبهذا يندمجون خلال فترة وجيزة جدا فى جسم دولة الأمير الفاتح .

« أما اذا جرى فتح الدول فى منطقة غير متجانسة مع الدولة الفاتحة فى اللغة أو فى العادات أو فى القوانين فهنا تنشأ الصعوبات ، وهنا يحتاج الأمير الى الكثير من حسن الحظ ومن الحكمة ليحتفظ بالدول المفتوحة . ومن أهم سبل العلاج الجوهرى لهذه الحالة أن ينتقل الأمير الفاتح الى الامارة المفتوحة ليقيم فيها ، وهذا كفيل بأن يجعل امتلاكه لها اكثر امنا وأكثر دواما ، وهذا ما فعله الترك فى اليونان ، فقد كان يستحيل عليهم الاحتفاظ بها ، رغم كل ما مارسوه من وسائل أخرى ، لولا انهم انتقلوا اليها ليقيموا فيها . ذلك لأنه بالحضور المباشر يمكن اكتشاف القلاقل بمجرد نشأتها ويمكن علاجها على وجه السرعة ، اما بغير الحضور المباشر فهى لا تكتشف الا حين تستفحل وتمتنع على العلاج . وبالاضافة الى هذا فالحضور المباشر يمنع موظفى الأمير من نهب البلاد الخاضعة له ، والرعية تغتبط بقدرتها على مخاطبة الأمير مباشرة ودون وساطة .. وبهذا الحضور يزداد حبهم له ان كان فى نيتهم حسن السلوك ويزداد خوفهم منه ان كانوا يضمرون شرا . ثم أن القوى الأجنبية تتردد كثيرا قبل أن تغزو الدولة المفتوحة اذا كان الأمير مقيما فيها . وبوجه عام فان اقامة الأمير فى الدولة المفتوحة تجعل ضياعها أمرا عسيرا .

« كذلك من وسائل الاحتفاظ بالدولة المفتوحة ارسال مستوطنين فى بقعة أو بقعتين منها لكى تكون بمثابة أغلال تقيد بها تلك الدولة . هذا أمر لازم فبغيره لا مناص من احتلالها بقوات كبيرة من الفرسان والمشاة أما المستعمرات فهى لا تكلف كثيرا ، ويمكن للأمير ارسالها لتستوطن هناك دون أن يتكبد شيئا من جيبه الخاص أو قد لا يتكبد الا قليلا .. وهو بهذا الاستعمار الاستيطانى لا يضر أناسا الا من يستولى على حقولهم وعلى دورهم ليعطيها لسكانها الجدد ، وهم أقلية ضئيلة فى الدولة المفتوحة ، أما من ينزل بهم الضرر ، فلأنهم يبقون مشتتين وفقراء ، فهم عاجزون عن ايذاء الأمير . ومن جهة أخرى فان سائر الباقين الذين لا يمسهم الضرر فى حياتهم فمن الأرجح أن يعيشوا فى هدوء ، بل وفى رعب من ارتكاب اى خطأ خشية أن يصيبهم ما أصاب المنهوبين . وخلاصة القول هى أن هذه المستعمرات غير مكلفة وهى أشد ولاء وأقل ايذاء للأهالى من جنود الحامية. أما الغاضبون من الأهالى فلا يملكون ضرا لأنهم مشتتون وفقراء كما سبق ان قلت .

« وفى هذا الصـــدد يجب أن نلاحظ أن الناس ينبغى امـــا تذليلهم أو سحقهم ، فهم يثأرون لما ينزل بهم من أضرار تافهة ، أما الأضرار الجسيمة فهم عاجزون عن الانتقام لها . ولذا فالتنكيل بانسان يجب أن يـــكون من نوع لا يخشى معه من الانتقام . فاذا احتفظ الأمير بقوات مسلحة فى الدولة التى يحتلها بدلا من اقامة المستعمرات فيها ، ازدادت نفقاته زيادة عظيمـــة لأنه سيستنزف كل موارد الدولة المفتوحة على حراسها وبهذا يتحول غنمــه الى غرم ، كما أنه سيثير غضبا أشد لأنه سيؤذى كل من فى الدولة المفتوحة بنقل جيشه وأركانه اليها . وسوف يتأذى من كل ذلك كل الناس ويتحول الكل الى أعداء له،أعداء قادرين على ايذائه ، لأنهم رغم اخضاعهم باقون فى بلادهم. فمن جميع الوجوه نجد اذن أن قوات الاحتلال لا جـــدوى منها فى حين أن المستعمرات مجدية » .

وهكذا نجد أن مكيافيللى قد وضع فى ١٥١٣ فى كتاب « الأمير » فى مبادىء علم السياسة مبادىء « علم الاستعمار » اذا جاز هذا التعبير . فقد كانت أوروبا منذ فجر عصر النهضة تدخل تجربتها الكبرى فى استعمار العالم منذ نشأة القوميات الحديثة فيها ، تدخلها هذه المرة على أســـاس « علمى » بعد تجربتها الساذجة الفاشلة أيام الحروب الصليبية .

ولكن ربما كان من الظلم لمكيافيللى أن نكتفى بتوصيفه على هذا النحو، فهو حين كتب هذا الكلام لم يكن قد مر على اكتشاف كولمبس (١٤٥١ — ١٥٠٦) لأمريكا الا نحو عشرين عاما (١٤٩٢) ، وأمريجو فزبوتشى (١٤٥٤—١٥١٢) الذى اطلق اسمه على أمريكا فى ١٥٠٧ ، وماجلان (١٤٨٠ — ١٥٢١) الذى اكتشف مضيق ماجلان فى ١٥٢٠ وكان أول من قام برحلة حول العالم وقتل فى الفلبين ، وبارثولوميو دياز (١٤٥٠ — ١٥٠٠) وفاسكو دى جاما (١٤٦٩ — ١٥٢٤) اللذان اكتشفا رأس الرجـــاء الصالح فى ١٤٨٧ وفى ١٤٩٧ على التعـــاقب .

وبالتالى فهو لم يضع هذه القوانين فى مبادىء الفتح أو مبـــادىء الاغتصاب ليقنن للاستعمار الأوروبى فى أفريقيا وآسيا واستراليا والأمريكتين، وانما وضعها ليقنن بها حركات الوحدة القومية التى كانت تجتاح مختـــلف دول أوروبا ذاتها لتنشىء فى كل أمة دولة مركزية واحدة ، أو امارة واحدة بلغة مكيافيللى ، على أنقاض امارات الاقطاع المتعـــددة التى كانت تتكون منها كل قومية . كذلك وضع مكيافيللى هذه القوانين لكى يفسر بها نجـــاح أو فشل غزو الدول الأوربية بعضها للبعض الآخر ، ونجاحها أو فشـــلها فى استمرار هيمنتها .

قانون آخر يضعه مكيافيللى : الضعفاء دائما ينضمون الى الفاتح القوى . واذا أراد الفاتح القوى أن يديم سيطرته فعليه أن يحابى هؤلاء الضعفاء اللائذين به خوفا منه أو طلبا لحمايتهم من أعدائهم أو من سادتهم القدامى ونفاقا ومداهنة من أجل المنافع ، ولكن حذار له من أن يسمح لأحدهم بأن يشتد عوده حتى يصبح خطرا عليه سواء فى القوة العسكرية أو فى السلطة . فبقوته الخاصة وبمعونة من هم أقل منه قوة يستطيع هذا الأمير الفاتح أن يديم سيطرته على ما فتحه . كذلك حذار أن يتخذ له شركاء أو حلفاء أقوياء ليثبت قدمه أو ليوسع ملكا . هؤلاء الشركاء أو الحلفاء الأقوياء كفيلون بأن ينتزعوا منه كل شىء .

كل هذه المحاذير أفشلت خطط لويس الثانى عشر ملك فرنسا حين غزا ايطاليا .. فطمع أهل البندقية فى الاستيلاء على مقاطعة لومبارديا جعلتهم يهيئون له دخول ايطاليا . وحين استولى لويس الثانى عشر بقوته على لومبارديا ، استسلمت له جنوة وصادقه أهل فلورنسا ودوق فيرارا وماركيز مانتوا وسادة بيزا وسيينا وريمينى وغيرهم .. وهكذا لكى يكسب أهل البندقية مدينتين فى لومبارديا جعلوا هذا الملك الأجنبى سيدا على ثلث ايطاليا . ولكن لويس الثانى عشر ما لبث أن فقد كل هذا السلطان .. لماذا ؟ لأن سياسته كسرت قواعد السلطة . فما أن دخل ميلانو حتى ساعد البابا اسكندر السادس على الاستيلاء على روماجنا ، دون أن يدرك أنه بذلك قد أضعف نفسه بالتخلى عن أصدقائه واللائذين به وبتقوية الكنيسة باضافة السلطة الزمنية (الدنيوية) الى سلطتها الروحية الرهيبة ، ولأنه أراد أن يستولى على نابولى تحالف مع ملك قوى هو ملك اسبانيا ، الذى نازعه سلطانه فى ايطاليا . وهكذا فقد لويس الثانى عشر كل شىء فى ايطاليا لأنه تخلى عن أصدقائه الضعفاء وتحالف مع منافسيه الأقوياء . قال مكيافيللى فى كتاب « الأمير » :

« وقد تحدثت فى هذا الأمر مع كاردينال روان فى مدينة نانت بفرنسا عندما استولى فالنتينو على روماجنا ، (وفالنتينو هو اسم الشهرة لسيزار بورجيا بن البابا اسكندر السادس) .. وحين قال لى كاردينال روان ان الايطاليين لا يفهمون فى الحرب ، أجبته بأن الفرنسيين لا يفهمون فى السياسة اى فى الدولة . فلو انهم فهموا ما الدولة لما سمحوا للكنيسة أن تتعاظم الى هذا الحد . وقد دلت التجربة على أن فرنسا هى سبب قوة الكنيسة فى ايطاليا وأسبانيا ، وأن سبب خراب ملك فرنسا هما ايطاليا وأسبانيا » .

• • •

٢

«الأمـــير»
فى الوطنية

□ فى الفصلين السابع والثامن يحدثنا مكيافيللى عن ثلاثة نماذج من « الأمراء » الذين يصلون الى امارة دولهم بطرق مختلفة :

١ — بقـــوة الغـــير .

٢ — بطريق الحظ .

٣ — بطريق الاجرام أو الغدر .

وهذه النماذج الثلاثة ذات صفة خاصة لأنها لا ترث السلطة .

فرد من أبناء الشعب يصبح أميرا دون جهد يذكر له ، مثل هذا الشخص لا يجد متاعب فى بلوغ السلطة ولكن متاعبه تبدأ حين يبلغها ويستوى فى دست الحكم . ومن الأمراء من يشترى الرياسة بماله أو بالرشوة أو ليكون صنيعة من يهبها اياه . ومثل هؤلاء الأمراء كمثل الأمراء الذين عينهم دارا ملك الفرس عندما غزا اليونان فولاهم على أيونيا وعلى جزر بحر ايجه . ومثل هؤلاء ايضا مثل الأمراء الذين اشتروا جنودهم بالرشا ليضعوهم على راس الدولة .

ومن كان مصدر سيادته من غيره عاش مقلقلا فى دست السلطان . ومثله لا يعرف كيف يحكم لأنه عاطل من الكفاءة الذاتية الفذة والقوة الشخصية المسيطرة ، ولأنه عاش كآحاد الناس فهو عاجز عن القيادة ثم أنه لا يملك القوات التى تدين له بالولاء . وكل ما جاء على عجل انقضى على عجل ، الا اذا ساندته القـــوة والموهبة الذاتية العظمى فهو عندئذ يستطيع أن يضرب جذوره فى التربة بعد أن يستولى على الحكم .

مثلان يسوقهما مكيافيللى : فرانشيسكو سفورزا « ١٤٠١ — ١٤٦٦ » وسيزار بورجيا « ١٤٧٥ — ١٥٠٧ » .

الأول ارتفع من بين آحاد الناس بجهده الفذ وباتباع الأساليب اللازمة حتى غدا دوق ميلانو ، وما اكتسب بمشقة فائقة حافظ عليه بجهد يسير .

أما الثانى ، وهو سيزار بورجيا ، فقد ارتفع بمساعدة أبيه اسكندر بورجيا « البابا اسكندر السادس » حتى اصبح دوق روماجنا . ولأن الدوقية جاءته من غيره فقد ضاعت منه ، رغم أنه بذل جهدا جبارا وأبدى موهبة فذة لتأسيس امارة له فى روماجنا ، فما جاءه بجيوش الغير وبنفوذ الغير لم يمكنه الاحتفـــاظ به .

أراد البابا اسكندر السادس « ١٤٣١ — ١٥٠٣ » أن يجعل من ابنه سيزار علما من الأعلام ، ولكنه واجه صعوبات بــلا عـــدد ذللها واحدة بواحدة . فأولا لم تكن هناك دوقية خالية خارج اقطاعيات الكنيسة يمكنه ان يجعله أميرا عليها . وكان يعلم انه لو نصـــب ابنه دوقا على قسم من املاك الكنيسة لثار عليه دوق ميلانو ولثار عليه أهل البندقية لأنهم المتكفلون بحماية هـــذه الأملاك . كما أن القوات الايطالية التى كان يمكنه الاعتماد عليها كانت تابعة لامارة أورسينى وامارة كولونا ، وهـــؤلاء بالـــذات كانوا يخشون ازدياد سطوة البابا ولـــذا لم يمكنه الاعتماد عليهم .

وهكذا خطط اسكندر السادس لاشاعة الاضطراب فى حزب أورسينى وفى حزب كولونا لكى يستولى على قسم منهما . وسهل له الأمر أن أهل البندقية دعوا لويس الثانى عشر ملك فرنسا الى غزو ايطاليا ليفوزوا بجزء من لومبارديا ، فوجد اسكندر السادس فى هـــذا فرصته فوافق على هذا الغزو ، بل واسترضى لويس الثانى عشر بالغاء زواجه الباكر الذى كان الملك راغبا فى نسخه ، ومقابل هـــذا ساعد الملك الدوق سيزار بورجيا على اقتحام اقليم روماجنا وتنظيم قـــوة كولونا بقوات من أورسينى وهكذا أصبح سيزار بورجيا دوقا اى اميرا على اوربينو ، واراد بعدها أن يفتح اقليم توسكانيا ويستولى على عاصمته فلورنسا ولكن لويس الثانى عشر نصحه بأن يحجم عن ذلك كما أن قـــوات أورسينى لم تكن متحمسة لذلك .

وهنا قـــرر سيزار بورجيا عـــدم الاعتماد فى فتوحاته على جنود الغير او على ظروف الغير . وكان أول ما فعله هو اضعاف حزب أورسينى وحزب كولونا فى روما ، وجردهما من كل أعوانهما الأقوياء بشراء ولاء هـــؤلاء النبلاء آنا بالمـــال وآنا بالوظائف العامة وآنا بالتكريم والتشريف حتى انحاز أكثرهم الى الدوق فالنتينو « سيزار بورجيا » . وبعد أن شتت زعماء آل كولونا تفرغ للقضاء على زعماء آل اورسينى الذين ادركوا بعد فوات الآوان أن قـــوة الكنيسة وقـــوة الدوق تعنى نهايتهم ، فأثاروا على سيزار بورجيا

فتنة فى أوربينو وفتنة فى روماجنا وأقاموا فى طريقه عـددا لا يحصى من المتاعب ، ولكنه تغلب على كل ذلك بمعونة الفرنسيين .

ولكنه كان شديد الشك فى مطامع فرنسا أو أية قـوة أجنبية . وبعد أن استرد هيبته لجأ الى الخـداع فأظهر الـود لآل اورسينى وأتقن الختل حتى آمنوا له فاستدرج رؤساءهم الى سينيجاليا وفتك بهم ثم تقرب الى انصارهم ، فاستتب له الأمر ووضع اساس دوقية مزدهرة فى أوربينو وأساس امارة مزدهرة فى روماجنا . وحين شاع الرخاء هنا وهناك تعلقت به قلوب الناس ، بعد أن كانت كل منهما مباءة ينهب فيها النبلاء الرعية ولا تعرف الأمن من السلب واعمال اللصوصية ولا تنقطع فيها حوادث الشغب . فأقام سيزار بورجيا حكومة مستبدة قاسية حازمة نشرت الأمن والنظـام فى كل مكان .

ولكن سيزار بورجيا أدرك أن الاستقرار وحـده غير كاف اذ لابد من العدل بعد البطش ، فأنشأ محكمة للمقاطعة اشتهرت بنزاهتها وفقهها ، وكان لكل مدينة محاميها فى هـذه المحكمة . وكان بطش عامله قد ترك جراحا غائرة فى نفوس الناس . فأنذر سيزار بورجيا عامله بأن يكف عن بطشه ، فلما لم يستجب أعدمه والقى بجثته ذات صباح فى الميدان العام مشطورة الى شطرين . قال مكيافيللى : « وقد جعلت وحشـية هـذا المشـهد أولئك الناس ذاهلين وراضين فى وقت واحد » .

وبعد أن استتب له الأمر فى الداخل لم يبق من قيد على حركته الا فرنسا فأخذ يتهيأ للانتقاض عليها . ولكن وفـاة أبيه ، البابا اسـكندر السادس عطلت توسعاته وجعلته يعيد النظر فى موقفه . فالخطر الأكبر الآن هو أن يتولى بابا جديد قد يكون مُعاديا له فيجـرده من كل ما حصل عليه .فأخذ سيزار بورجيا يؤمن نفسه بأربع وسائل : الأولى هى اجتثاث كل الأسر التى نهب ممتلكاتها حتى لا يجد البابا الجديد من يعاونه على عدائه، وثانيا ، استمالة كل نبلاء روما حتى يستعين بهم على درء خطر البابا الجديد . وثالثا استمالة الكرادلة الى صـفه ما أمكن ذلك . رابعا جمع اكبر قـدر من السلطة فى يده قبل وفاة أبيه المريض .

وبالفعل نفذ سيزار بورجيا أكثر مخططه . فقد فتك بأكثر الذين صادر املاكهم أو نهبها ولم ينج منهم الا الأقلون ، وكسب صداقة اكثر اشراف روما ، وكان له بين الكرادلة انصار كثيرون .

وكان فى نية سيزار بورجيا أن يتجاهل الفرنسيين المشغولين مع الأسبان فى نابولى وأن يغزو فلورنسا فتستسلم له بيزا و لوكا وسيينا على

الفور ، وبهذا يصبح سيد ايطاليا بغير منازع ودون الاعتماد على قوة غير قوته . ولكن وفاة البابا اسكندر السادس أحبطت مخططه ، فلم يكن لديه ثابت فى ملكه الا امارة روماجنا اما بقية أحلامه فكانت معلقة فى الهواء ، كما أن صحته كانت معتلة الى اقصى درجة ، بل كان نفسه بين الحياة والموت .

ومع ذلك فقد ظل أصدقاؤه أوفياء له وظل أعداؤه يرهبونه . واذا لم تكن لديه القدرة ان يختار بابا خلفا لأبيه فقد كان يستطيع أن يمنع اختيار البابا الذى لا يريده . وبالفعل فقد اختار الكاردينال يوليوس خلفا لأبيه، وكان اختيارا سيئا جلب على سيزار بورجيا الكوارث .. يقول مكيافيللى : « فالناس تؤذى اما بدافع الخوف أو بدافع الكراهية » و « من يحسب أن الكبراء ينسون الأذى القديم بفضل المنافع الجديدة فهو يخدع نفسه . » لم يكن بين الكرادلة الايطاليين من لم يكن يرهب سيزار بورجيا او يحقد عليه لأذى سابق . فكان عليه اما أن يختار الكاردينال روان الفرنسى أو أحد الكرادلة الأسبان ، ولكنه لم يفعل ذلك .

•••

كل هـــذا السجل الحافل فى حياة سيزار بورجيا جعل مكيافيللى ينظر اليه على أنه نموذج للأمير الذى ينبغى أن يحتذيه كل من ارتفع الى دست الحكم فى عصر الرنيسانس بقـــوة غيره أو بالحظ ، وهـــذه هى الخـــلال التى وجدها مكيافيللى فى قصر بورجيا :

« فمن وجد اذن من اللازم أن يؤمن نفسه ضد أعـــدائه فى امارته الجديدة ، وأن يكسب الأصدقاء ، وأن يفتح البـــلاد بالقوة أو الخـــداع ، وأن يجعل الشعب يحبه ويرهبه ، ويجعل جنوده يتبعونه ويحترمونه ، وأن يبيد كل القادرين على ايذائه او من يحتمل أن يؤذوه ، وأن يقيم القوانين الجديدة مكان العادات القديمة ، وان يجمع بين الصرامة واللطف ، ، وبين الرفعة والسخاء ، وأن يمحق جنده العصاة ويجند محلهم جنودا جددا ، وأن يتواصل مع الملوك والأمراء بحيث يعملون على استرضائه أو يترددون فى ايذائه ، مثل هذا الأمير لن يجد امثلة أوضح من انجازات هذا الرجل » .

ونحن نسأل أنفسنا ونحن نستعرض تاريخ الفكر السياسى : ولمـــاذا كل هذا الاعجاب الذى يظهره مكيافيللى بشخصية كشخصية سيزار بورجيا وما قام به من اغتصاب دولة جديدة كادت أن تنتهى بتوحيد ايطاليا فى هذا التاريخ الباكر لولا تدخل القـــوى الأجنبية « فرنسا وأسبانيا والنمسا » ، والاعيب البابوية التى أجلت توحيد ايطاليا الى عصر غاريبالدى « ١٨٠٧ — ١٨٨٢ » فى القرن التاسع عشر ؟

ss

ويأتينا الجواب واضحــا فى كلمات مكيافيللى نفســه الذى كتب يقول : « كلما استطعت ان احرز مجدا لمدينتى وهى وطنى ، كنت أسعد بذلك ولو تعرض شخصى للخطر . فليس فى حياة الانسان واجب اكبر من واجبه نحو وطنه .. ذلك لأن الانسان مدين لوطنه أولاً بوجوده ثم بكل خير يأتيه به القدر والطبيعة ، وكلما عظم وطنــه فى النبل ازداد دينه له » . وهو القائل : « ان فقرى هو الشاهد على اخلاصى وسلامة طويتى » .

الوطنية : كلمة جديدة لم نسمعها أوروبا بعد أكثر من الف عام من العصور الوسطى فى ظل « الاكليزيا » « الكنيسة » الدينية والأخوة فى الدين بدلا من الأخوة فى الوطن .

هذه الروح الجديدة التى انطلقت فى كل أمة من أمم أوروبا هى جوهر عصر النهضة الأوروبية الذى شقق العالم المسيحى الواحد الرافض للحياة الدنيا الساعى — نظريا طبعا — فى طلب الحياة الأخرى ، الى دول وطنية قومية فتية تعمل لدنياها كأنها تعيش أبدا .

وفى عصر النهضة الأوروبية بــدأ الأوروبيون يرددون ما كانوا يرددونه فى « جاهليتهم » اليونانية الرومانية أيام كاتو وشيشرون الخطيب ويوليوس قيصر واغسطس :

« ما أحلى الموت فى سبيل الوطن » ، بدلا من القرصنة باسم الصليب. الوطنية والروح القومية أعطتا لأوروبا فى أول الأمر هدفا راقيا واضحا ملموسا مفهوماً يعيش الأوروبيون من اجله ويموتون من أجله ، هو الاستقلال عن الدولة المسيحية الجامعة أو الخلافة الرسولية أو مدينة الله على الأرض أو « الامبراطوريات المقدسة » ، سمها ما تشاء من الأسماء . ثم أعطتاها هدفا عدوانيا هو الاستعمار والامبريالية . أو على الأصح ان الوطنية أعطت أوروبا الهدف الراقى أما القومية فأعطتها الهدف العدوانى ، كما كان يمكن أن يقول الفيلسوف كروتشى .

والتهمة الأولى الموجهة الى مكيافيللى هى انه فصــل السياسة عن الأخلاق . وهذا الاتهام بعضه صادق وبعضه مبالغ فيه ، فمكيافيللى هو واضع نظرية ان « الغاية تبرر الوسيلة » .

ومع ذلك فنماذج « الامارة » الأخرى التى يقدمها تلقى بصيصا من النور على عقليته ومنطقه المتجرد البارد فى النظر الى الأمور .

هو يعطينا مثل اجاثوكليس الصقلى الذى ارتفع فى المــاضى البعيــد الى دست الامارة فى صقلية ، لا بفضل مساعدة الغير أو بتدخل الحظ مثل

سيزار بورجيا ، ولكن بمحض قوته الذاتية ومواهبه الشخصية . فقد كان اجاثوكليس أصــلا رجلا وضيع المنشأ فى سيراكيوز ، فكان أبوه فخرانيا وكان هو شريرا ولكنه مع خلقه الشرير الــذى تجلى فى كل مراحل حياته كان قــوى العقل والجسد ، فدخل الجيش وارتقى فيه حتى اختير محافظا لسيراكيوز . ولكنه كان قد اعتزم أن يتولى الامارة وأن يحتفظ بالبطش بما ناله برضا الناس . فتواطأ مع هاميلكار القرطاجى الــذى كانت جيوشه تحارب فى صقلية ، وذات يــوم دعا أعضاء السناتور « مجلس الشيوخ » فى سيراكيوز وأجبر الأعيان فيها الى اجتماع للنظر فى أمور الدولة ، وباشارة متفق عليها وثب عليهم بجنوده وأجهزوا عليهم جميعا . وبهذا صار ملكا على سيراكيوز بغير حرب أهلية .

وما أن صــــار أميرا حتى التفت الى جيش قرطاجة الذى كان يحاصر سيراكيوز واستطاع أن يحررها من القرطاجيين الذين انسحبوا الى أفريقيا بعد صراع مرير معهم ذاق فيه الأهوال وتعرض لأشــد الأخطار . وهــذا نموذج لأمير اغتصب الحكم ولكن بجهده وجهاده ، وهو يســتحق الثنــاء لأنه حــرر وطنه ، « ولكننا مع ذلك لا نصف بالفضيلة من يقتل اخوته فى الوطن ويعيش بلا اخلاص ولا رحمة ولا دين » ، هكذا يقول مكيافيللى . كل بطولاته تزكية لأن يعد بين القادة العظام : « ومع ذلك فان قسوته وافتقاره الى الانسانية والعدد الذى لا يحصى من أعماله الشريرة تحول دون اشتهاره باعتباره واحدا من أفضل الرجال » .

ويضرب مكيافيللى مثلا آخر من عصره على هذا النوع من الأمراء الذى يغتصب الامارة بقوته الذاتية وبخسة طبعه وغدره وقسوته ، فيحدثنا عن رجل آخر فى زمن البابا اسكندر السادس وسيزار بورجيا اسمه ليفروتو الذى أصبح أمير فيرمو بالوحشية والخديعة . كان ليفروتو يتيما فى فيرمو فكفله خاله واسمه فوليانى ، ثم أرسله ليتعلم الجندية تحت قائد فى مكان آخر . كان قويا وموهوبا وطموحا فترقى فى سلك الجندية الى منصب عال . وهنا رتب ليقوم بانقلاب فى فيرمو ، موطنه الأصلى ، فأرسل الى خاله فوليانى قائلا انه أزمع زيارة مدينته ، ولا أمل له فى الحياة الا أن يرى أبناء مدينته ما أصاب من هيبة ومجد ، فيسمحوا له أن يدخل المدينة على رأس مائة من فرســانه وأن يستقبلوه بالتكريم . وبالفعل اعد فوليانى كل شىء لاســتقبال ربيبه ليفروتو الذى نزل ضيفا عليه برجاله . ثم أقام ليفروتو مأدبة دعا اليها فوليانى وصفوة الأعيان فى فيرمو ، وبعد المأدبة استدرجهم الى قاعة ما أن استقروا فيها حتى انقض عليهم رجاله وفتكوا بهم . ومن بعدها خرج ليفروتو على جواده بين فرسانه المــائة وحاصر قصر الحاكم واستولى على الحكم . ولكن

قبل أن ينقضي العام لقى مصرعه ، فقد كان بين النبلاء الذين استدرجهم سيزار بورجيا الى سينجاليا وأجهز عليهم .

والسؤال الذى يطرحه مكيافيللى هو : اجاثوكليس وليفروتو حالتان متشابهتان لأمير قوى موهوب شرير اجرامى مخاتل يصل الى الامارة بجهده الذاتي . أحدهما ، وهو أجاثوكليس ، يبقى فى دست الحكم زمنا طويلا آمنا على حياته لا يتآمر به احد حتى فى أيام شدته رغم جرائمه الكثيرة . والآخر ، وهو ليفروتو ، لا يدوم له الملك حتى فى زمن السلم فما السبب ؟

يقول مكيافيللى : « أعتقد أن هذا ناشىء من سوء استعمال اعمال القسوة أو حسن استعمالها ، اذا جاز لنا أن نتحدث عن الحسن فى سىء الأشياء . فأعمال القسوة التى تستعمل بطريقة عاجلة كضرورة لتأمين النفس ثم لا يستمر الأمير فيها بل يحولها ما أمكن الى أعظم المنافع لشعبه ، هذه يمكن أن نصفها بحسن استعمال القسوة . اما أعمال القسوة التى قد تبدأ قليلة ولكنها تزداد مع الأيام ولا تتضاءل فهى اساءة لاستعمال القسوة. فالحكام الذين يتبعون الطريق الأول يمكن أن يجدوا مع الله ومع الناس صلاحا لحالهم ، على غرار ما فعل اجاثوكليس ، اما الآخرون فيستحيل عليهم أن يحافظوا على كيانهم » .

هناك اذن مقياس موضوعى يضعه مكيافيللى للتمييز بين أمير مغتصب وامير مغتصب . فالأمير المغتصب الذى ينجز كل ما يحتاج اليه من جرائم فى أجل قصير وبطريقة ناجحة يمكنه أن يجعل رعيته تعيش فى أمن بعد ذلك . هذا الأمير يمكن أن يكتب له البقاء ، وان يتحول شره الى خير . اما الأمير الذى يبتر فى تردد بسبب خوفه أو لسوء المشورة ، فهو يحمل دائما السكين فى يده وهو يجدد دائما جرائمه فلا يعرف طعم الأمان ، وهو معرض للاطاحة به فى اى وقت .

ويختتم مكيافيللى الفصل الثامن من كتاب الأمير بقوله :

« وكما أن كل اعمال التنكيل يجب أن تتم دفعة واحدة حتى يقل غضب الناس منها لأن احساسهم بمذاقها يكون اقل ، فكذلك يجب أن تمنح المنافع مقسطة ، قليلا قليلا ، حتى يحس الناس بمذاقها احساسا اكبر . وفوق هذا وذاك يجب أن يعيش الأمير بين رعيته بحيث لا تغير اسلوبه الأحداث السعيدة او الأحداث السيئة . فعندما تستدعى الضرورة بسبب الشدائد وتعجز عن رد المحن ، فان ما تفعله من خير لا يحسب لك ، لأن الناس سوف تعتقد انك مجبر عليه ولا يشعرون نحوك بعرفان الجميل » .

هناك اذن غاية لكل أمير مغتصب يمكن له بتحقيقها أن يقبل الناس جرائمه فى بداية عهده بشرط أن يحسوا بالأمان طوال سنوات حكمه ، وهذه الغاية عند مكيافيللى غاية دنيوية ، وهى ان يحس الناس بالأمن والرخاء.

وفصل السياسة عن الأخلاق فى تشريح مكيافيللى للسلطة شىء مألوف فى كل العصور يعرفه بالفطرة كل طامع فى الملك أو الرياسة دون حاجة الى تقنين أو تلقين ، ولاسيما اذا كان الساعى الى السلطة من عامة الناس لم يرث منها شيئا يقربه منها غير مواهبه واستعداداته الشخصية . وفى التاريخ الحديث نذكر محمد على ونابوليون ولينين وستالين وموسولينى وهتلر وجمال عبد الناصر وانور السادات ممن استكملوا دورتهم التاريخية ويمكن الحكم عليهم بالنجاح أو الفشل ، بالنفع أو العقم ، حكما تقريبيا . ولا اظن أن فى تشريح مكيافيللى لعلم الحكم اضافة الى ممارساتهم التاريخية .

ولا اظن أن بالمرستون « ١٧٨٤ — ١٨٦٣ » ، رئيس وزارة انجلترا ووزير خارجيتها الشهير فى القرن التاسع عشر كان بحاجة الى نظريات مكيافيللى ليدرك أنه « ليس لانجلترا أصدقاء دائمون أو أعداء دائمون ، وانما لانجلترا مصالح دائمة » ، بحسب قولته الشهيرة .

كذلك لا اظن أن تاريخ البابوات والكرادلة فى العصور الوسطى المسيحية كان يختلف كثيرا عن هذه الممارسات العملية التى تفصل بين الدين والدولة وبين الأخلاق والسياسة . ولكن ينبغى دائما أن نتذكر أن مكيافيللى كان أول من قنن هذا الفصل نظريا فى العالم الحديث .

كان توركويمادا « ١٤٢٠ — ١٤٩٨ » ، رئيس محاكم التفتيش فى أسبانيا ، يبرر احراق مئات « الزنادقة » و « السحرة » على الخازوق — وتعريف الزنادقة والسحرة كان كل منشق على الكنيسة الكاثوليكية أو رافض لها فى العقيدة أو السلوك أو المصالح — بقوله « نحن نحرقك فى الدنيا رحمة بك حتى ننقذك من النار الأبدية فى الآخرة » . هنا تتحول الأخلاق ، بل والدين نفسه ، الى أداة جهنمية لا تقل فظاعة عن دنيوية اسكندر السادس وسيزار بورجيا ونيكولو مكيافيللى .

• • •

SS

٣

« الأمير »
الأسد والثعلب

□ فى الفصل الرابع عشر من كتاب « الأمير » لمكيافيللى يقول مكيافيللى إن « الأمن » يجب ان يكون الشغل الشاغل للأمة وهو يسمى ذلك « الحرب » ولكن سياق الكلام يدل على انه انما يتحدث عن الأمن الداخلى وعن الأمن القومى ، ففى تلك الأيام لم تكن هناك تفرقة واضحة بين الجيش والبوليس كما نعرفهما اليوم .

يقول مكيافيللى :

« ينبغى على الأمير اذن الا يكون له هم غير الحرب ، والا يشغل تفكيره شىء غيرها والا يتخصص فى شىء غير الحرب وقوانينها ونظامها ، لأن الحرب هى الفن الوحيد الذى ينتظره الناس من الآمر فيهم . وفن الحرب فن ناجح لا يقف نفعه عند حماية من يرثون الامارة ، بل يتجاوز ذلك ، فهو الذى يرفع الناس العاديين الى مصاف الأمراء . ونجد على نقيض ذلك فقد لوحظ أن الأمراء الذين انشغلوا بالملذات اكثر من انشغالهم بفن الحرب فقدوا مناصبهم ، وأول ما يجعلهم يفتقدون مناصبهم هو اهمالهم لفن الحرب كما أن أول ما يجعلهم يصلون اليها هو خبرتهم فيه .

« كان فرانشسكو سفورزا مواطنا عاديا ولكن لأنه كان مسلحا فقد أصبح دوق ميلانو . أما أبناؤه فقد فقدوا الدوقية وارتدوا مواطنين عاديين لأنهم تجنبوا مشاق القتال . فمن بين المضار التى يجلبها التجرد من السلاح على المرء أنه يصبح محتقرا ، وهى وصمة ينبغى على الأمير أن يتجنبها » .

باختصار ، الناس تخاف من الأقوياء وتزدرى الضعفاء . هذا هو القانون الذى أوضحه مكيافيللى وبنى عليه فلسفته فى فن الحكم وفى علم الاجتماع وفى علم السياسة .

ومن الناس من يقول : وأى جديد فى هذا ؟ ان أى رجل عملى يستطيع أن يدلك على هذا القانون دون عناء كبير ، فهو بديهية لا تحتاج الى عبقرية لاكتشافها . ولكن المشكلة الحقيقية ليست فى اكتشاف هذا القانون وانما فى الاعتراف به وقبوله أساسا للحياة الفردية والجماعية ، ثم فى اشهاره على الملأ دون حرج كما فعل مكيافيللى ، فقد كان الاعتراف بهذا القانون الطبيعى مناقضا على خط مستقيم للمسيحية التى كانت تبشر بقول المسيح فى موعظة الجبل : « طوبى للمساكين بالروح ، اى البسطاء بمعنى السذج ، لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لانهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاشى الى البر لانهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لانهم أبناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات »

« متى ٥ — ٣ — ١٠ » .

هذه الروح الجديدة التى تمجد القوة وتزدرى الضعف ، أو على الأقل تقبل قانون القوة وتحذر من الضعف ، هى دين الفطرة الجديد الذى استشرى فى أوروبا فى عصر النهضة الأوربية ، وهو فى أوروبا فى عصر يمثل قمة الفصل بين السياسة والأخلاق بل وبين السياسة والدين جملة . فلن نستطيع أن نقول ان مكيافيللى كان من صناع السلام أو من الودعاء أو من الرحماء أو من الجياع أو العطاشى الى البر .

ومع ذلك فقد أججت هذه العودة الى الأخلاق الواقعية أو أخلاق الفطرة حب الحرية والاستقلال وروح الوطنية والقومية وحب السيادة على النفس والتسيد على الدنيا فى اكثر دول أوروبا ودويلاتها فى عصر النهضة الأوروبية ، بدلا من التركيز على طلب الآخرة بالأخلاق الدينية ، كما أججت هذه الفلسفة الدنيوية ، أو « العالمانية » « العلمانية » ، أو الزمنية كما يقولون ، الشوق الى حقوق الانسان بدلا من طلب الفناء فى حقوق الله . وقد جسد الأوربيون هذه الروح الجديدة فى الروح الفاوستية التى بدأت فى وجهها البناء بتحرير الانسان وانتهت فى وجهها المدمر بتأله الانسان .

من اجل هذا يضع مكيافيللى أمام « الأمير » هذا الخيار الأخلاقى الصعب فى الفصل السابع عشر من كتابه ، وعنوانه « فى القسوة والرحمة » . وهو يطرح علينا هذا السؤال المحرج : أيهما أفضل للانسان بصفة عامة وللأمير بصفة خاصة ، أن يكون محبوبا أو أن يكون مرهوبا ؟ وهو لا يتردد فى الاجابة على الوجه التالى :

SS

« اقول ان كل امير ينبغى عليه ان ينشد اعتقاد الناس فيه بأنه رحيم وليس قاسيا ومع ذلك فمن الواجب عليه أن يحذر سوء استعمال الرحمة . فقد كان الرأى فى سيزار بورجيا انه قاس ، ومع ذلك فقسوته هذه هى التى اعادت تنظيم روماجنا ووحدتها وأفاءت عليها بالسلم والولاء . فلماذا كنا نرى هذه مزايا حميدة ؟ لأننا وجدنا انه كان اكثر رحمة من اهل فلورنسا الذين تركوا بيستو تتعرض للتدمير حتى لا يقال عنهم انهم قساة ، لهذا فالأمير لا ينبغى ان يحفل بأن يدمغ بالقسوة فى سبيل الاحتفاظ بوحدة شعبه وولائه . فباستثناء حالات قليلة جدا .. نجد أنه بهذه الشدة يكون أكثر رحمة من أولئك الذين يبالغون فى الرحمة فيتركون الشرور تستمر مما ينجم عنه المذابح والنهب . فالمذابح والنهب تبتليان عادة طائفة كاملة ، اما الاعدام الذى يأمر به الأمير فهو يبتلى رجلا واحدا . ومن الصعب على الأمير الجديد ، من دون سائر الأمراء ، أن يتجنب أن يوصف بأنه قاس ، لأن الامارات الجديدة محفوفة بالمخاطر . فكما يقول فرجيل على لسان ديدو : « ان ظروفى الصعبة ومملكتى الجديدة تجبراننى على فعل هذه الأمور ، وعلى اقامة الحراس على حدودى فى مشارق الأرض ومغاربها » .

« ومع ذلك فالأمير يجب أن يلزم الحذر فى الرأى والحركة ، وأن يتجنب توليد الخوف فى نفسه ، وأن يسلك سبيل الاعتدال بالحكمة والعطف بحيث لا يقلل من حذره الاسراف فى الثقة ولا يجعله الاسراف فى الريبة رجلا لا يحتمل .

« ومن هنا ينشأ التساؤل : أيهما أفضل : أن تكون محبوبا أكثر من أن تكون مرهوبا ، أو العكس ؟ والجواب هو أن المرء ليحب أن يكون محبوبا ومرهوبا معا . ولكن نظرا لصعوبة التوفيق بين هذا وذاك ، فانه أدعى للأمان بمراحل ، ان كان لا مناص من الاختيار ، أن تكون مرهوبا من أن تكون محبوبا، اذ أنه يمكن أن يقال عن الناس بوجه عام : انهم جاحدون ، متقلبون ، مراءون ، ملثمون ، هاربون من الأخطار سباقون الى المنافع،فان اقبلت عليك الدنيا فهم معك قلبا وقالبا يهبونك دمهم ومالهم وأرواحهم وأولادهم كما ذكرنا حين لا تكون بحاجة ماسة اليها فاذا اقتربت حاجتك ازوروا عنك ..

« ورغم كل هذا فينبغى على الأمير أن يجعل نفسه مرهوبا بطريقة تجنبه أن يكون مكروها اذا لم يظفر بحب الناس . فمن الممكن ان يجتمع فى قلوب الناس الخوف مع عدم الكراهية ، والآن يستطيع أن يحقق ذلك اذا تجنب أخذ أملاك مواطنيه ونسائهم . فاذا كان من اللازم حقا أن يقدم أحدا للمحاكمة والاعدام فيجب ان يفعل ذلك حين يكون لديه مبرر كاف وقضية واضحة » .

المهم عند مكيافيللى الا يكون الأمير « مكروها » من شعبه . أما الخوف فلا بأس منه بشرط الا يقترن بالكراهية أو يتحول اليها . بل ان الخوف من الأمير ضرورة فى الدولة ، فكما يقول مكيافيللى فى الفصل السابع عشر،لولا خوف الجند من الأمير لكثر شغبهم وكثرت فتنهم فى السراء والضراء معا ولما أمكنت حماية المواطنين من اذاهم . نعم ، لا بأس بتاتا من أن يشتهر الأمير بالقسوة أو أن يكون مرهوبا .. المهم الا يكون مكروها .

وفى الفصل الثامن عشر يحدثنا مكيافيللى عن صفة الصدق أو الاخلاص أو الوفاء فى « الأمير » فينفى أنها لازمة لزوما مطلقا . وفى ذلك يقول :

« كل الناس تعرف أن قيام حياة الأمير على الاخلاص والصدق وليس على المكر والختل أمر محمود الى أقصى الحدود ، ومع ذلك فنحن نرى من التجربة فى زماننا أن أولئك الأمراء الذين لم يراعوا الاخلاص كثيرا وعرفوا كيف يستهوون عقول الناس بالمكر قد أنجزوا انجازات عظيمة ، واستطاعوا فى النهاية أن ينتصروا على الأمراء الذين أسسوا حياتهم على النزاهة .

« لهذا ينبغى أن تعرف أن هناك طريقتين للقتال ، هما القتال بالقوانين والقتال بالعنف . والأولى أولى بالانسان أما الثانية فهى أولى بالحيوان . ولكن نظرا لأن الأولى ليست كافية فى كثير من الأحيان ، فلا مناص من الاستعانة بالثانية . وهذا ما يجعل من اللازم للأمير أن يعرف معرفة جيدة كيف يتصرف كانسان وكيف يتصرف كحيوان ..

« وبالتالى ، فما دام من اللازم للأمير أن يعرف باتقان كيف يتصرف كحيوان ، فمن الواجب عليه أن يختار من مملكة الحيوان نموذجين هما الثعلب والأسد . فالأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الفخاخ ، والثعلب لا يستطيع أن يحمى نفسه من الذئاب . فمن اللازم له اذن أن يكون ثعلبا حتى يميز الفخاخ ، وان يكون أسدا حتى يخيف الذئاب . ومن يعتمدون فقط على قوة السباع لا يفهمون الأشياء ، بل أن الحاكم الحكيم لا يستطيع ولا ينبغى له أن يراعى الوفاء بعهوده — اذا كان الوفاء ضد مصلحته واذا كانت دواعى العهود قد نقضت . فلو ان كل الناس كانوا أخيارا كان هذا المبدأ خاطئا ، ولكن بما أنهم أشرار ولا يحفظون عهودهم نحوك فليس هناك ما يلزمك بحفظ عهودك نحوهم . ولن تنقص الأمير أبدا المبررات المشروعة لتسويغ هذا الاخلال بالتعهدات . ففى الامكان أن نسوق أمثلة حديثة لا حصر لها من هذا الاخلال ، وأن نوضح كم من المعاهدات ألغيت وكم من الوعود نقضت بسبب نقص الأمراء فى الاخلاص ومن استطاع أن يقوم بدور

الثعلب خرج منتصرا . ولكن لابد للمرء من اخفاء هذه الطبيعة وأن يكون استاذا فى الادعاء الكاذب وأستاذا فى اخفاء ما يضمر . فالناس شديدو السذاجة ويقبلون الضرورات الطارئة أحسن قبول حتى أن المخادع يجد دائما من يصدقون خداعه .

« ...

« فليس اذن من الضرورى للأمير أن يتصف بكل هذه الصفات المذكورة، ولكن من الضرورى له أن يبدو وكأنه يملكها . بل انى اجترىء وأقول ان المرء لو انصف بها وعمل بها دائما فهى تضره . أما اذا بدا للناس أنه يملكها فهى نافعة : أى أن يبدو للناس رحيما ، أهلا للثقة ، عطوفا ، خاليا من الرذائل ، متدينا وأن يكون كذلك بالفعل ، بشرط أن يكون عقله مركبا بطريقة خاصة تجعله قادرا ، اذا ما دعت الضرورة لذلك ، على التغير الى النقيض وعارفا بأساليب التغير . ويجب أن ندرك أن الأمير ، ولاسيما الأمير الجديد ، عاجز عن مراعاة كل هذه الفضائل التى ترى الناس بسببها أخيارا، ذلك لأنه كثيرا ما يضطر ، لكى يحافظ على مركزه ، الى التصرف بما يجافى الاخلاص ويجافى الخير ويجافى الانسانية ويجافى الدين . ومن أجل ذلك فهو بحاجة الى نفس مستعدة لأن تغير ذاتها بحسب ما تجرى به رياح القدر وتحولات الأشياء المسيطرة عليه . وكما قلت آنفا ، الا يبتعد الأمير عن الخير كلما أمكنه ذلك ، ولكن أن يعرف كيف يتحول الى الشر اذا لزم الأمر .

« فليحذر الأمير اذن ، أشد الحذر من أن يتفوه بشىء لا تشيع فيه الصفات الخمس المذكورة فيما سلف ، وليعن عناية فائقة بأن يبدو لناظريه وكأنه الرحمة مجسدة ، والاخلاص مجسدا ، والنزاهة مجسدة ، والانسانية مجسدة ، والدين مجسدا » .

ليس المهم أن يكون الأمير على هذه الصفات ، ولكن المهم أن يبدو كذلك أمام الناظرين . هذا رأى مكيافيللى .. ولكى يدلل عليه نجده يسوق مثل البابا اسكندر السادس الذى كان أعظم أستاذ فى الكذب وأعظم فاسق عرفه التاريخ ، ومع ذلك فقد كان يوهم الناس بأنه ينبوع الفضيلة كما قال مكيافيللى .

ومن أهم المشاكل التى يواجهها الأمير فى بلاطه مشكلة المتملقين الذين تجدهم بغزارة فى بلاط الملوك والأمراء . هؤلاء المتملقون هم الوباء الحقيقى فى كل امارة فى رأى مكيافيللى ، وما أكثر من جلبوا من الكوارث على سادتهم

الأمراء ، ومشكلتهم مشكلة عويصة ولكن لها حلا بيد الأمير . وهذا ما يقوله مكيافيللى فى موضوع المتملقين فى الفصل الثالث والعشرين من كتاب « الأمير » :

« لست أريد أن اغفل موضوعا هاما وخللا يجد الأمراء صعوبة فى وقاية انفسهم منه اذا لم يتصفوا بالحصافة فى حسن الاختيار ، هؤلاء هم المتملقون الذين يغص بهم كل بلاط . فالناس الى حد كبير مغترون بشئونهم المتعلقة بهم ويخدعون أنفسهم بشأنها بحيث يصعب عليهم وقاية انفسهم من هذا الوباء ، ومن حاول منهم وقاية نفسه منه جازف بامتهان نفسه . فلا سبيل الى اتقاء شر المتملقين الا اذا أدرك الناس انهم لا يغضبونك اذا هم صارحوك بالحقيقة . غير انه اذا جاز لكل انسان أن يصارحك بالحقيقة ضاعت هيبتك . ومن هنا فقد وجب على الأمير الحصيف أن يلجأ الى طريق ثالث فيختار لدولته حكماء الرجال ولهؤلاء وحدهم يعطى حرية التقدير فى مصارحته بالحقائق ، ولكن بحيث لا يتجاوزون الموضوعات التى يسألهم عنها ولا يتناولون أى موضوع آخر . ولكن يجب عليه ان يسألهم فى كل شىء وأن يستمع الى اقوالهم ثم يقرر بنفسه بطريقته الخاصة . يجب عليه فى تصرفه مع هؤلاء المستشارين أن يجعل كلا منهم على حدة يعرف انه كلما ازدادت صراحته ازداد قربه من الأمير ، وفيما خلا هؤلاء لا ينبغى للأمير أن يسمع لأحد ، بل يجب عليه أن يلتزم بما اتخذ من قرارات ينفذها فى ثبات. فمن خالف هذه القاعدة اما أن يسقط بسبب المتملقين أو تكثر ذبذبته بين مختلف الآراء ، وهو ما يحط من قدره أمام الناس » .

هذه بعض القواعد الهامة فى الحكم وفى علم السياسة وفى تشريح السلطة كما وردت فى كتاب « الأمير » لمكيافيللى ، ويبقى سؤال واحد اعتقد أن الاجابة عليه تلقى ضوءا كشافا على فكر مكيافيللى وعلى روح عصره ، عصر النهضة الأوروبية ، وتفسر لنا لماذا يحتل فكر مكيافيللى السياسى هذا الموقع المركزى من الموقف الفلسفى الحديث الذى تميز به الفكر الأوروبى فى عصر الرنيسانس .

هذا السؤال هو : لماذا كتب مكيافيللى هذا الكتاب الفظيع الخالى من الأحلام وهو يخطط لسياسة المجتمع التى لم تخل من احلام الفلاسفة فى يوم من الأيام ، منذ اخناتون حتى أنبياء اليهود ، ومن أنبياء اليهود حتى افلاطون ، ومن افلاطون حتى كارل ماركس ، عبر القديس أوغسطين والقديس توماس مور وكمبانيللا وفرانسيس بيكون وفلاسفة التنوير وفلاسفة الثورة الفرنسية .. لماذا ؟

وهو يجيب بنفسه على هذا السؤال بذلك الحلم الوحيد العظيم الذى استسلم له فى كل كتابه فى الفصل السادس والعشرين من كتاب « الأمير » ، وهو حلم تحرير وطنه ، ايطاليا ، وتوحيده بقوة « أمير ، ملك ، قائد ، رئيس الخ » .. جديد قوى يغتصب السلطة فى البلاد بقوة الأسد ودهاء الثعلب ، ويطرد الأعداء الأجانب من ايطاليا التى كانت ترسف فى أغلال الاحتلال الأجنبى الفرنسى والأسبانى والألمانى ، بسبب تفككها الى اقطاعيات مستقلة أمراؤها فى شقاق مستمر ويعتمدون على حماية الدول الأجنبية وعلى الجنود المرتزقة محترفى الجندية من كل بلد الا ايطاليا .

وقد وصف مكيافيللى حال ايطاليا فى عصره أنها « بلا رأس ولا نظام مدحورة منهوبة ممزقة مخربة » حالها كحال فارس قبل قورش وأثينا قبل ثيسيوس وبنى اسرائيل قبل موسى ، وهو يحلم بظهور قورش أو ثيسيوس أو موسى فى ايطاليا ليجمع كلمة أبنائها ويقودهم الى الوحدة والحرية :

« وقد لاح حتى الآن بصيص من الأمل فى أمير من الأمراء أمكن معه أن نحسب أنه مبعوث الله لخلاصها ، ومع ذلك فقد تبين أن القدر قد رماه بسهمه وهو فى أوج جهاده (يقصد سيزار بورجيا) . فايطاليا الآن ، وكأنها فاقدة الحياة ، تنتظر من يطبب جراحها ، ويضع حدا للنهب الذى يجرى فى لومبارديا ، وللجزية التى تدفعها المملكة وتدفعها توسكانيا ، ويبرؤها من عللها التى تنخر الآن فى جسدها منذ زمن طويل . ونحن نرى كيف أنها تصلى الى الله أن يبعث اليها مخلصا ينقذها من هذه القسوة البربرية ومن هذه الغطرسة ، ونراها على استعداد تام ورضا كامل أن تمشى تحت راية واحدة لو وجد فيها من يحمل العلم » .

ان كل شيء فى ايطاليا ينتظر ظهور هذا المخلص : « فالبحر قد انشق للعبور ، والغمامة فوق رأسك تقودك فى الطريق ، والصخرة قد تفجرت منها المياه ، والسماء قد أمطرت هنا المن والسلوى ، وكل شيء قد اتحد لمجدك أيها الأمير .. وما عليك الا أن تفعل الباقى . فالله لا يحب أن يفعل كل شيء ، حتى لا يجردنا من حرية الارادة ومن بعض ذلك المجد الذى هو حق لنا » .

وهكذا علق مكيافيللى آماله على أمير فلورنسا ، لورنزو دى مديتشى الثانى وآله ، لتحرير ايطاليا وتوحيدها بعد أن ضاعت آماله بموت سيزار بورجيا .

والوسيلة ؟ الوسيلة هى الحرب ، فهى تحقق العدالة العظمى : « فالحرب عادلة عند من يحتاجون اليها ، والسلاح مقدس حين تفقد كل امل الا فى السلاح » . الله يبارك حروب التحرير وهى فى رعاية الله .

والسبيل ؟ السبيل هو بناء جيش وطنى من أبناء البلاد بدلا من الاعتماد على الجنود المرتزقة ومحترفى القتال من الاجانب : « فاذا كان آلك الصيد يزمعون اذن ، الاحتذاء بأولئك الرجال الأفذاذ الذين حرروا أوطانهم ، فمن اللازم قبل أى شيء آخر أن توفر لهسا قواتها المسلحة الخاصة بهسا ، بوصفها الأساس الوطيد لكل عمل حربى ، فلن يجد المرء من يتجاوزها فى الاخلاص والوفاء والكفاءة » .

وليكن قوام هذا الجيش الوطنى من الايطاليين : « انظر اليهم فى مبارزاتهم وفى معاركهم الجماعية ، تجد الايطاليين متفوقين على غيرهم فى القوة وفى المهارة وفى الذكاء . فاذا نظرنا اليهم فى الجيوش نجدهم لا يظهرون هذه الصفات ، ففى الجيوش ينبع كل ضعف فى الجنود من ضعف الرءوس . العارفون بفن الحرب لا يجدون من يطيعهم ، وكل من هناك يخيل اليه انه خبير بشئون القتال . فحتى يومنا هذا لم يظهر فينا رجل عرف كيف يرتفع بمكانته عن طريق القوة والاستفادة من الظروف بحيث يخضع له كل الآخرين »

ان أبناء ايطاليا كما يقول مكيافيللى جنود شجعان أكفاء ولكن تنقصهم القيادة الفذة التى يمكن أن تقودهم الى النصر والمجد فى معركة الحرية والكرامة . وهذا هو الأمير المنتظر .

وبعد ؟ اليست هذه نظرية الدوتشى والفوهرر فى منابعها الأولى .

• • •

ss

٤

«أحاديث عن ليفيوس»

في النهضة والانحطاط

□ كتاب آخر لمكيافيللى لا يقل أهمية عن كتاب « الأمير » ، وان لم يشتهر شهرة كتاب « الأمير » ، هو « أحاديث عن ليفيوس » ، وهو عبارة عن تعليقات حول السنوات العشر الأولى فى المدونة التاريخية التى وضعها المؤرخ الرومانى تيتوس ليفيوس . واهمية هذا الكتاب فى أنه يشرح لنا تصور مكيافيللى لنهضة الأمم وانحطاطها ، كما يشرح لنا دور الدين ودور المؤسسة الدينية ودور القواد ودور العلوم والفنون والآداب فى رقى المجتمع وانهياره . وهو فى الفصل العاشر من الكتاب الأول يبوب طبقات المواطنين فيقول :

« من بين اجدر الناس بالثناء نجد أن الناس تختص بالحمد مؤسسى الأديان قبل سواهم ، ويليهم مؤسسو الجمهوريات والممالك ، ويليهم فى الشهرة قواد الجيوش الذين وسعوا أملاكهم أو رقعة وطنهم ، ويلى هؤلاء الأدباء . ولأن هؤلاء الناس من أصناف مختلفة ، فكل منهم يشتهر بحسب مرتبته . اما بقية الناس ، وهم الآحاد بلا عدد ، فلكل منهم نصيب من الثناء بقدر فضله فى فنه ومهنته . وعلى العكس من ذلك نجد أن العار والكراهية هما جزاء محطمى الأديان ومحطمى الممالك والجمهوريات وأعداء الفضائل وأعداء الآداب وأعداء كل فن آخر ينفع الجنس البشرى ويعلى من شرفه ، ومثل هؤلاء أعداء الدين والطغاة والجهال والتافهون والكسالى والجبناء . ولا أحد من الناس سفيها كان أو حكيما ، صالحا كان أو طالحا ، لا يمدح من يستحقون المدح ويذم من يستحقون الذم ، لو ترك له الخيار فى هذا وذاك . ومع ذلك ، فكل الناس تقريبا يخدعهم الخير الزائف والمجد الزائف وينحازون باختيارهم أو بجهلهم لصف من يستحقون القدح لا المدح ، ورغم أن الناس قادرون على تأسيس الجمهوريات والممالك فيعلو بذلك شرفهم ، الا أنهم ينحازون الى حكومات الطغيان .

« فلا يجب أن يخدع أحد بمجد يوليوس قيصر ، ولا سيما حينما نرى المؤرخين يمتدحونه ، فمن يمتدحونه انما ارتشوا من سعد طالعه وارتعبوا من طول أمد الامبراطورية التى اقترن تاريخها باسمه فلم تسمح لأحد من الأدباء أن يتكلم عنه بحرية . أما من أراد أن يعرف ماذا قال الكتاب الأحرار فى يوليوس قيصر فليقرأ ما قالوه عن كاتيلينا . فقيصر أحق باللوم بمثل ما أن فاعل الشر أحق باللوم ممن دبر لفعل الشر . ولينظر ايضا الى ما يسبغونه من تكريم عظيم على اسم بروتوس . فبما أنهم عاجزون عن هجاء قيصر بسبب سطوته ، نجدهم يكرمون غريمه » .

كل هذا الكلام يسوقه مكيافيللى للتدليل على أن احترام الجمهورية والعمل على سعادة مواطنيها بالعدل والحرية والأمان هو سكة السلامة ، بينما اقامة الطغيان ونهب العباد واشاعة الجاسوسية وارهاب الناس بالنفى والمصادرات وسفك الدماء هو سكة الندامة بالنسبة لأى حاكم .

وفى الفصل الثانى عشر من الكتاب الأول من « أحاديث عن ليفيوس »، يضع لنا مكيافيللى المبادىء التى تحفظ الدولة من الفساد .

وأول مبدأ فى نظره هو المحافظة على شعائر الدين . ويبدو من كلامه أنه لا يقصد دينا معينا بالذات ، وانما الدين بصفة عامة . كذلك لا يبدو من كلامه أنه يتحدث عن الشعائر كمجرد مجموعة من الطقوس ، وانما يقصد البنية الأساسية فى كل دين . فهو يقول :

« الأمراء والحكومات الجمهورية الذين يريدون أن يحافظوا على أنفسهم من الفساد ينبغى عليهم قبل كل شىء آخر أن يحافظوا على شعائر دينهم مبرأة من الفساد ، وأن يحترموها على الدوام ، فليست هناك دلالة على خراب دولة أوضح من الاستهانة بقدر العبادات الالهية . ومن اليسير ادراك ذلك اذا عرف المرء على اية قواعد يقوم الدين الذى يولد به هذا الانسان . فكل دين تقوم أركانه على بنية أساسية هامة خاصة به . فحياة الديانة الوثنية كانت مؤسسة على اشارات العرافة ، وعلى جماعة المتنبئين وقارئى الغيب ، فكل شعائرهم واضاحيهم وطقوسهم الأخرى كانت تتوقف على هذه الاشارات ، فقد كان من السهل عليهم أن يعتقدوا أن الله القادر على التنبؤ بالخير أو الشر فى المستقبل قادر ايضا على تحقيقه . ومن هنا كانت القرابين والصلوات وكل طقس أقيم فى اجلال الآلهة . كان هذا أساس عرافة ديلوس ، وكهانة معبد جوبيتر آمون ، وغيرهما من أماكن الوحى الشهيرة التى ملأت العالم بالاعجاب والتمسك بالدين ، فلما بدات هذه العرافات تتنبأ بما يوافق رغبات الأقوياء ، واكتشف الناس هذا

الزيف ، فقد الناس ايمانهم وظهر استعدادهم لنقض كل العادات الصالحة. فواجب من يحكمون الجمهورية أو المملكة اذن هو أن يحافظوا على اسس الدين الذى يتبعونه . فان وفقوا الى ذلك فى أنفسهم أمكنهم فى يسر أن يحافظوا على التدين فى بلادهم ، وان يحفظوا بلادهم فى خير واتحاد . وينبغى عليهم أن يهتموا بكل الأحداث التى يبدو أنها تقوى الدين وأن يضخموا من شأنها ، ولو كانوا يعتقدون أنها كاذبة . وكلما ازداد حرصهم وازداد فهمهم للعلوم الطبيعية ، ازداد التزامهم بالاهتمام بالأحداث التى تدعم الدين . ونظرا لأن هذا كان النهج الذى سلكه الحكماء ، فقد نشأ الاعتقاد فى المعجزات التى تشتهر بها الأديان ، لأن أهل الفطنة يضخمون من شأنها أيا كان مصدرها .

وهكذا تضفى حجتهم على المعجزات مصداقية عند كل الناس » .

هنا يجب أن نكون فى منتهى الحذر فى فهم مكيافيللى حين يتكلم عن الدين .. فظاهر كلامه فى بادىء الأمر يوحى بأنه رجل مؤمن ومتدين بالمعنى المألوف . وهذا التأكيد الشديد على دور الدين فى المجتمع ، وعلى أن خراب الأمم نتيجة الاستهانة بالدين أو فساد الدين يوحى أيضا بأنه رجل مؤمن شديد التدين . ومع ذلك فمن يتأمل كلام مكيافيللى يجد أنه يقول بوضوح ان قضية الدين ليست فى صحته أو زيفه ولكن فى وجوب التمسك به نظرا لوظيفته الهامة فى ضبط المجتمع . وليس من الضرورى أن تكون المعجزات أو الكرامات مثلا صحيحة ، وانما المهم أن يعاملها الحكام على أنها صحيحة ، بل وأن يقووا اعتقاد الناس فيها ، وأن يدعموا فيهم الايمان بالغيبيات ما استطاعوا الى ذلك سبيلا بغض النظر عن صدقها أو كذبها . فدين زائف خير من لا دين على الاطلاق ، كما يقول بعض المفكرين .

هذه النظرة نجدها فيما بعد عند بعض دعاة حق الملوك الالهى من العقلانيين مثل توماس هوبز الذى كان ينظر الى الكنيسة نظره الى مانعة صواعق وظيفتها تفريغ شحنات الغضب واليأس والبؤس والاحباط ، الخ .. فى المجتمع ، أى أنها باختصار مانعة ثورات وضمان للسلام الاجتماعى ، وهى تقيم داخل كل مواطن شرطيا غير مرئى يحفظ الأمن العام دون قهر من الخارج . ومع ذلك فمكيافيللى يحذر رئيس الدولة فى كتاب « الأمير » من استفحال قوة الكنيسة والسلطة الروحية بعامة بما يجعلها قادرة على تحدى السلطة الزمنية « الدنيوية » ، وهو يقول ان هذا مجلبة لخراب الأمم .

متى تنحرف الأمم اذن عن الدين ؟ حين ينحرف عنه رجال الدين ويتحولون الى مجرد أدوات تسوغ للناس ما يفعله الأقوياء وتبرر رغباتهم

بالباطل طبعا . والمهم اذن هو المحافظة على « أسس » الدين الذى تدين به الجماعة ، أيا كان هذا الدين ، والعبث بهذه الأسس من جانب الحاكم ينتهى بالعبث بها من جانب المحكوم . وخير دليل على هذا هو ما نزل بالعالم المسيحى من تفكك فى أواخر العصور الوسطى :

« فلو أن حكام العالم المسيحى حافظوا على دينهم فى صورته التى وضعها مؤسسو هذا الدين لكانت الدول والجمهوريات المسيحية أشد اتحادا وأوفر رخاء مما هى الآن بمراحل . وليس هناك معيار لانهيار المسيحية أصدق من مشاهدتنا أن أقرب الناس للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وهى رأس الديانة ، هم أضعف الناس دينا . وكل من يتأمل أسسها ويرى مدى اختلاف ممارساتها فى الوقت الحاضر عما كانت عليه ، يستطيع أن يجزم دون أدنى شك بأن الاطاحة بها وشيكة أو أن نزول القصاص بها وشيك » .

ونحن حين نتحدث عن عصر النهضة الأوروبية ونقول ان من أهم مقوماته تلك الثورة على الكهنوت Anticlericalism والبابوية ، لن نجد أوضح من تحليل مكيافيللى لفساد القيادة الروحية للعالم المسيحى ممثلة فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى نهاية العصور الوسطى . والواقع ان هذا النقد للكنيسة جاءها من كل اتجاه : من معسكر المؤمنين الصادقين ومن معسكر المنشقين المحتجين ومن معسكر المؤمنين بالدين ، لا فى ذاته ، ولكن من حيث هو ضرورة أخلاقية للعامة ومؤسسة اجتماعية .. وهنا يقترب مكيافيللى من منطق « التكفير » ، اى تكفير المجتمع :

« ولأن الكثيرين يرون أن سعادة مدن ايطاليا آتية من الكنيسة الرومانية ، فانى أحب أن أسوق ما أراه من منطق فى الاتجاه الآخر : سأذكر حجتين غاية فى الصلابة أتصور انه لا سبيل الى دحضهما . الحجة الأولى هى أن هذه البلاد فقدت كل تقوى وكل دين بسبب المثل السيىء الذى يقدمه البلاط البابوى . وقد نجمت عن ذلك اضطرابات وفتن عديدة ، ذلك لأن الناس تسلم بأن كل شىء يقوم على الخير حيثما توفر الدين ، وحين يكون الدين ناقصا انتظر الناس العكس . فنحن — الايطاليين — اذن مدينون فى المقام الأول للكنيسة وللكهنة بأننا أصبحنا مجردين من الدين وأشرارا .

« ولكننا مدينون لهما أيضا بما هو أكثر من ذلك ، وهو السبب الثانى فى خرابنا . وهو أن الكنيسة قد جعلت هذه البلاد مقسمة ولاتزال تجعلها كذلك . ولا شك أنه ما من بلد يكون متحدا أو ينعم بالرخاء اذا لم يكن كله خاضعا لحكم حكومة جمهورية واحدة أو أمير واحد .. كما حدث

لفرنسا ولأسبانيا . والعلة فى ان ايطاليا لم تبلغ هذا الوضع فلا هى تحت حكومة جمهورية واحدة تحكمها ولا هى تحت أمير واحد يحكمها ، العلة فى ذلك هى الكنيسة لا سواها . ذلك لأن الكنيسة رغم أنها متمركزة هنا ورغم أنها تباشر السلطة الزمنية « الدنيوية » ، لم تكن تتمتع بالقوة او الحيوية الكافية بحيث تستولى على السلطة كاملة فى ايطاليا وتصبح بنفسها حاكمة البلاد ، ومع ذلك فهى من الناحية الأخرى لم تكن ضعيفة الى الحد الذى يجعلها تستعين برجل قوى يحميها من كل من تستفحل قوته فى ايطاليا ، خشية ان تفقد املاكها الدنيوية . وقد حدث ذلك فى الماضى مرارا ، حين اعان شارلمان الكنيسة على طرد اللومبارديين الذين كانوا شبه ملوك على ايطاليا . وفى زمننا جردت الكنيسة أهل البندقية من قوتهم بمعونة فرنسا ، ومن بعد ذلك طردت الفرنسيين بمعونة السويسريين » .

بعبارة أخرى ، المهم عند مكيافيللى هو وحدة الدولة ووحدة الأمة ، واستئصال السلطة الروحية كفيل بأن يضعف قوة الدولة .

وهنا نصل الى جوهر الرنيسانس وهو الدعوة الى الهيومانيزم او المذهب الانسانى الذى تضمن الثورة على المسيحية ذاتها كدين وليس على مجرد البابوية والكهنوت . ففى الفصل الثانى من الكتاب الثانى من « احاديث عن ليفيوس » يقول لنا مكيافيللى إن القدماء كانوا اكثر حبا للحرية من معاصريه ، ويسوق الأدلة التاريخية لاثبات رأيه ثم يفسر ذلك بقوله :

« وحين أتدبر كيف حدث أنه فى تلك الأيام الخالية ، كانت الشعوب أكثر حبا للحرية منها فى هذه الأيام ، فانى أعتقد ان سبب ذلك هو عين السبب الذى يجعل الناس اليوم أقل حيوية ، وهو فى اعتقادى الاختلاف بين تعليمنا وتعليم القدماء ، وهو نتيجة للفرق بين ديانتنا وديانة القدماء . فديننا قد كشف لنا عن الحق وهدانا الى طريق الصواب ، وتأسيسا على ذلك جعلنا أقل تقديرا لشرف الدنيا ، بينما نجد أن الوثنيين ، بفضل تقديرهم العظيم للدنيا واعطائهم فيها خير ما عندهم ، كانوا اكثر حيوية فى أعمالهم . وهذا يمكن استخلاصه من العديد من عاداتهم ، بدءا بفخامة قرابينهم اذا هى قورنت بقرابيننا المتواضعة التى تتصف ببعض الجلال ، ولكن دقتها أشد من جلالها ، ولا يداخلها عمل وحشى عنيف . أما قرابين القدماء فلم يكن ينقصها جلال الشعائر ولا فخامة الطقوس ، وانما كان يضاف اليها عملية الأضحى الطافحة بالدم والوحشية ، فقد كانوا يذبحون عددا عظيما من الحيوانات فى هذه الأضاحى . وهذا المشهد الرهيب جعل الناس فى

مثل رهبته . وبالاضافة الى هذا ، فان ديانة القدماء لم تسبغ شرف الألوهة على أحد من البشر الا من جللهم مجد الدنيا ، كقواد الجيوش وامراء الدول . أما ديننا فقد مجد بسطاء الناس واصحاب العقول المتأملة من دون رجال العمل . وديننا اذن قد عظم التواضع والزهد واحتقار الحياة الانسانية ، أما دين القدماء فكان يمجد عظمة العقل وقوة البدن وكان فى كل ما عدا ذلك خليقا بتأجيج حيوية الناس . وحين يطلب منا ديننا أن نتصف بالقدرة الداخلية على الاحتمال فهو يؤثر أن تكون هذه القدرة على احتمال العذاب وليس فى القيام بعمل شىء ايجابى .

« ويبدو أن هذا المنهج فى الحياة اذن قد اضعف العالم وسلمه للأشرار الذين تمكنوا من السيطرة عليه آمنين ، ذلك لأن اكثر الناس يختارون الصبر على ما يحيق بهم من اذى وليس الانتقام له لكى يدخلوا الجنة . ومع ذلك فرغم أن العالم قد غدا مخنثا والسماء لا تحارب دفاعا عن الضعفاء ، فقد وصلنا الى هذه الحالة نتيجة لتفاهة الرجال الذين فسروا ديننا وفقا لروح الخمول وليس وفقا لروح القوة . فلو انهم فكروا فى أن ديننا يسمح لنا بالدفاع عن الوطن وبتوسيع رقعته ، لقدروا أنه يحضنا على حب الوطن واجلاله وأن نعد أنفسنا للدفاع عنه ما استطعنا الى ذلك سبيلا » .

هذا الكلام الهام فيه لبس ينبغى أن يزيله الباحثون :

فبعضه يدل على أن مكيافيللى كان يقف موقف الناقد من الدين المسيحى فى صميمه وينعته بأنه دين الضعفاء ويحمل المسيحية مسئولية انهيار الرومان أمام قبائل البرابرة الذين كانوا لا يزالون يعيشون فى عنفوان البداوة الوثنية الأولى ، بل ويحمل المسيحية مسئولية الرخاوة التى أصابت الأوروبيين نحو الف عام من العصور الوسطى حتى عصره فجعلتهم يرضخون لحكم الطغاة والأشرار والظلمة انتظارا لما وعد به الودعاء فى الجنة .

وبعضه الآخر يدل على أن مكيافيللى لا يقف موقف الناقد من الأخلاق المسيحية نفسها ، وانما يقف موقف الناقد من « المفسرين » والذين شرحوا المسيحية للعالم المسيحى على انها دين الضعف والزهد وانكار الحياة . وما هؤلاء المفسرون الا القديسون والبابوات والكهنة وآباء الكنيسة بوجه عام .

وفى تقديرى أن مكيافيللى كان يقصد الأمرين معا ، على غير ما كان يذهب اليه دعاة « الاصلاح الدينى » الذين سددوا سهامهم للكنيسة الكاثوليكية وحدها ونددوا بتعاليمها ومزقوا شرف رجالاتها وأعادوا فتح

باب الاجتهاد فى اللاهوت المسيحى وفى الأخـلاق المسيحية جميعا بمختلف المذاهب الاحتجاجية والبروتستانتية التى تحاول التوفيق بين الدين والدنيا مثل لوثر « ١٤٨٣ ــ ١٥٤٦ » ، وكالفن « ١٥٠٩ ــ ١٥٦٤ » ، وزوينجلى « ١٤٨٤ ــ ١٥٣١ » ، وسرفيتوس « ١٥١١ ــ ١٥٥٣ » ، وسافونارولا « ١٤٥٢ ــ ١٤٩٨ » ، والسير توماس مور « ١٤٧٨ ــ ١٥٣٥ » ، وكلهم كانوا معاصرين لمكيافيللى .

فالروح الجديدة التى اجتاحت أوروبا فى عصر النهضـة الأوروبية كانت روح الثورة على الروحانيـات المسـيحية .. اما فى ذاتها واما فى تفسيراتها الـكاثوليكية . وكانت قضية القضايا هى محاولة التوفيق بين الدين والدنيا أو على الأصح بين الدنيا والآخرة . ولمـا كان الدين قد التهم الدنيا والآخرة قد التهمت الأولى نحو الف عام من العصور الوسطى ، فقد جاء هذا الصلح آنا بتقليص سلطان الدين على الدنيا بحيث يصبح رياضة شخصية بحتة ، وآنا بالاجتهاد فى تفسير الدين بما يجعله مسايرا للدنيا أو على الأقل غير متعارض معها . وحيث تعذرت اقامة هذا الصلح كثرت الزندقة وكثر الاتهام بالزندقة .

وكان أول مظهر لهذا الصراع بين الدين والدنيا هو ظهور القوميـات الحديثة فى أوروبا كما شرح لنا مكيافيللى ، فقد أصبح الخيار المطروح أمام الأوروبى العادى هو خيار بين الأخـوة فى الدين كما كانت تبشر الـكنيسة الكاثوليكية أو الأخوة فى الوطن كما كان يبشر اكثر مفكرى الرنيسـانس .

غير أن الفصل بين السياسة والأخلاق ، هذا الفصل الذى تجلى فى اكثر ما كتب مكيافيللى ، انما كان فصلا ظاهريا فقط ، فقد حلت محل نظرية حقوق الله وواجبات الانسان فى الدنيا ، وهى جوهر الأخلاق المسيحية ، نظرية أخرى تنادى بحقوق الانسـان فى الدنيا . فما كلام مكيافيللى عن « مجـد الانسان » و « شرف الانسان » و « كرامة الانسان » وحرية الشعوب والعدالة الاجتماعية وحراسة الحرية والعدالة والـكرامة والأمن والحقوق بالقانون وبالقوة المسلحة اذا لزم الأمر ، الا اللبنات الأولى فى أخلاقيات جديدة هى الأخـلاقيات الاجتماعية التى حلت محل الأخـلاقيات الدينية ، كالاحسان والتقوى ومخافة الله والزهد فى نعيم الدنيا طلبا لنعيم الآخرة ، الخ ...

فى سبيل بناء الدولة القومية وتحرير الشعوب من الحـكم الأجنبى ومن الطغاة فى الداخل وتوحيد أبناء الأمة الواحدة حتى تسوسهم حكومة

واحدة أو امير واحد ، برر مكيافيللى سفك الدماء والغدر والـكذب والخداع وتقليم أظافر السلطة الروحية ، ووضع للنـاس كتابا معتما فى الواقعية السياسية هو كتاب « الأمير » .. ولا أظنه كان يقصـد أن يمتد تطبيق تعاليمه اللاأخلاقية الى المعاملات اليومية بين الأفراد . ومع ذلك فينبغى أن نذكر له أنه جعل من القومية ومن الوطنية ينبوع الأخلاق الجديدة .

●●●

لورنزو دى مديتشى
LORENZO DE MEDICI
١٤٤٩ - ١٤٩٢

لعل اشهر اسرتين فى تاريخ ايطاليا كله منذ قياصرة روما العظام هما اسرة مديتشى وأسرة بورجيا . وقد تعاصرت هاتان الأسرتان فى حقبة واحدة نحو عام ١٥٠٠ : آل مديتشى فى فلورنسا ، وكانوا يشتغلون بالمال والفن والسياسة ، وآل بورجيا فى روما ، وكانوا يشتغلون بالدين والحرب والدسائس .

وكان اشهر آل مديتشى هو لورنزو دى مديتشى الشهير « بلورنزو الرائع » أو « لورنزو الباهر » أو « لورنزو الماجد » (١٤٤٩ — ١٤٩٢) ، وكان اشهر آل بورجيا هو سيزار بورجيا الأمير الدساس السفاح (١٤٧٥ — ١٥٠٧) ومعه أبوه رودريجو بورجيا (١٤٣١ — ١٥٠٣) (البابا اسكندر السادس) ، ومعه ايضا أخته بياتريس بورجيا (١٤٨٠ — ١٥١٩) التى جرت فى ذكرها حكايات تشبه الأساطير .

أما اسرة مديتشى ، أو مدسيس كما يسميها الفرنسيون ، فقد انجبت غير لورنزو عاهل فلورنسا اثنتين من اشهر ملكات فرنسا هما :

كاترين دى مدسيس (١٥١٩ — ١٥٨٩) ، بنت لورنزو الثانى عاهل فلورنسا وزوجة هنرى الثانى ملك فرنسا وأم ثلاثة من ملوك فرنسا هم : فرنسوا الثانى وشارل التاسع وهنرى الرابع ، وقد كانت بعد وفاة زوجها وصية على عرش فرنسا أيام شارل التاسع ، وهى التى دبرت مذبحة سان بارثولوميو التى هلك فيها كثير من البروتستانت .

ثم مارى دى مدسيس (١٥٧٣ — ١٦٤٢) ملكة فرنسا بزواجها من هنرى الرابع (١٥٥٣ — ١٦١٠) ، ثم اصبحت بعد وفاة زوجها وصية على عرش فرنسا أيام حكم ابنها لويس الثالث عشر . وهى التى عينت الكاردينال ريشليو ، رجل الدولة الخطير ، رئيسا للوزراء ثم تصارعت معه وماتت فى المنفى .

وتاريخ أسرة مديتشى فى ايطاليا هو تاريخ جمهورية التجار فى فلورنسا فى الانتقال من العصور الوسطى الى عصر النهضة وفى الانتقال من النظام الاقطاعى وحكم الارستقراطية الى النظام الراسمالى وحكم البورجوازية ، وقد استغرق هذا الانتقال أكثر من قرنين ، منذ نحو ١٣٠٠ حتى ما بعد ١٥٠٠ .. قرنان تكونت فيهما أسرة مديتشى واشتغلت بالمال والسياسة حتى آلت اليها مقاليد الحكم فى هذه الدويلة الايطالية .

فليس من سبيل اذن الى فهم الانتقال من العصور الوسطى الى الرنيسانس الا بدراسة ما كان يجرى من تغيرات داخل المدن الكبرى خلال هذين القرنين وما بعدهما ، وحلول البورجوازية محل الارستقراطية فى الحكم حلولا تدريجيا أو حلولاً عنيفا تصاحبه الثورات . كذلك ليس من سبيل الى فهم ما يمثله لورنزو دى مديتشى الا بدراسة تاريخ اسرة مديتشى وارتفاعها وانهيارها عبر قرنين ، ولم وكيف كان ذلك الارتفاع وذلك الانهيار؟.

فلنقل إن تاريخ فلورنسا هو تاريخ النظام المصرفى ونشأة البنوك فيها . ولنقل ان تاريخ النظام المصرفى ونشأة البنوك بدءا مع بداية أول هجمة للاستعمار الأوروبى فى العصر الحديث ، الا وهى الحروب الصليبية فى ثمانى حملات (١٠٩٦ — ١٢٧٠) . وما ينطبق على فلورنسا ينطبق أيضا على البندقية وميلانو وجنوا ونابولى وغيرها من مدن ايطاليا الكبرى التى تحولت الى مراكز ضخمة للتجارة والصيرفة نتيجة للحروب الصليبية .

كانت ايطاليا بسبب طول شواطئها وكثرة موانيها وبسبب موقعها الممتاز فى حوض البحر المتوسط وتوسطها بين أوروبا وأفريقيا والمشرق القريب أشد دول أوروبا تفتحا للعالم الخارجى وأوسعها اشتغالا بالتجارة الدوليـة .

وبينما ظلت أكثر دول أوروبا قائمة فى اقتصادها ونظامها السياسى على العلاقات الاقطاعية : ملوك وأمراء ودوقات وكونتات ومركيزات وبارونات يملكون الأرض ويلتزمون بالدفاع عنها بالجيوش المرتزقة من جهة ، ورقيق يفلحون الأرض من جهة أخرى ، وليس بين السادة النبلاء والرقيق ، وهم سواد الشعب ، الا طبقة رقيقة جـدا من أهل المهن والحرف والتجار ، كانت ايطاليا بسبب كثرة مداخلها من أسبق دول أوروبا الى تنمية تلك الطبقة الثالثة الوسطى ، وهى طبقة الرأسمالية التجارية ثم الراسمالية الصناعية .

وهكذا تبلورت فى ايطاليا قبل غيرها تلك الطبقة الثالثة الوسطى التى تسمى بالطبقة البورجوازية ، وقوامها التجار وأرباب الصناعات وأرباب

المهن والحرف الفنية وكل من يعيش من غير عمله اليدوى . وهم عادة سكان المدن والبنادر .. وهى تسمى « البورجوازية » نسبة الى « البورج » . و « البورج » هو « البندر » أو القرية الكبيرة المحصنة أو المدينة .

فالبورجوازية اذن هى الطبقة الوسطى ساكنة المدن أو التى تعيش على الاقتصاد المدنى . وبنمو المدينة على حساب الريف .. حل الاقتصاد الرأسمالى محل الاقتصاد الاقطاعى ، وسيطرت القيم والنظم والأفكار المدنية على القيم والنظم والأفكار الريفية .

والحق أن البورجوازية ليست طبقة واحدة وسطى بل طبقات متوسطة متعددة ، منها الطبقة المتوسطة العليا أو الكبيرة ، والطبقة المتوسطة المتوسطة ، والطبقة المتوسطة الصغيرة . والحق أيضا أن تعبير « المتوسطة » تعبير مضلل ، لأن هذه الطبقة تضم من روتشيلد وهنرى فورد ، وهما اغنى من الملوك والأمراء ، الى بائعة الفجل وبائع البليلة . وانما تسمى بالطبقة الوسطى لوقوعها بين الارستقراطية بنبالة الأرض والدم ، والبروليتاريا ، الطبقة العاملة بالأجر أو التى لا تملك الا قدرتها على العمل .

بسبب الحروب الصليبية اذن أصبحت ايطاليا معبرا طبيعيا بين أوروبا والشرق الأدنى ، وكثرت تحركات الجنود والحجاج فى الحملات الصليبية المتعاقبة عبر قرنين .. ومن وراء الجنود والحجاج كثر التجار وكثرت عمليات التبادل التجارى ونشط النقل البحرى للناس والسلع من أوروبا الى الشرق الأدنى وبالعكس . وكانت فلورنسا والبندقية ونابولى وجنوا من أنشط مدن ايطاليا فى تنظيم هذه التجارة الخارجية .. فكان تجارها يحملون اليها كل أنواع العملات الأجنبية الحاصلة لهم من مبيعاتهم فى الخارج أو التى يجمعونها لمواجهة مشترواتهم من الخارج .. وكانت كلها عملات معدنية ، غالبا ذهبية وفضية ، بطبيعة الحال لأن العملة الورقية لم تكن معروفة يومئذ .

ونتيجة لكل هذه التحركات البشرية الكثيفة من الجنود والحجاج فى البحر والبر ، امتلأت ايطاليا بالقراصنة الذين كانوا يعترضون طريق السفن لنهب ما فيها من بضائع التجار ولنهب ما يحمله المسافرون عليها من أموال ، وامتلأت طرقات ايطاليا بقطاع الطرق البارونات أو الفرسان اللصوص والنهابين من كل نوع وصنف لقطع الطرق على الحجاج والتجار والمسافرين وتجريدهم من أموالهم .. بل ولخطف الرجال والنساء والأطفال طلبا للفدية .

وقد نجم عن كل هذه الأوضاع شيئان : أولهما أن التعامل بالنقد حل محل التعامل بالمقايضة . وثانيهما أن تجار فلورنسا أصبحوا خبراء

فى العملات الأجنبية المعدنية ، وامتلأت فلورنسا بالصيارفة لتبديل العملات للتجار والحجاج والمسافرين مقابل عمولات طبعا ــ فكانت هــذه بدايات ظهور النظام المصرفى ، اى البنوك .

كذلك ادى اختلال الأمن فى الطرق ووسائل النقل الى ظهور بيوت مالية فى المدن الكبرى يودع فيهــا المسافرون اموالهم بدلا من حملها معهم وتعريضها للضياع ، مقابل صكوك يصدرها البيت المالى ويقدمها المودع لمراسلى هــذا البيت المــالى ، اى وكلائه ، فى المــدن الأخرى داخل ايطاليا أو خارجها فيتقاضى القيمة التى أودعها ، وبهذا يأمن شر اللصوص وحوادث الطريق مقابل عمولة يدفعها للبيت المــالى الــذى قــدم له هــذه الخدمة . وهكذا نشأت خطابات الاعتماد والشيكات السياحية التى نعرفها اليوم ، بل وظهرت الاعتمادات المستندية التى تقــوم عليها التجــارة الدولية فى عالمنا اليــوم .

واقتضى كل هــذا انشاء شبكة من « المراسلين » أو الوكلاء الأكفاء فى أوروبا وخارج أوروبا لمواجهة المدفوعات فى حينها لكل بيت مالى ، كذلك ظهر نظام التأمين على نقل البضائع . باختصار : ظهر البنكير والصراف ، وحل رجل الأعمال محل البائع المتنقل . . وحل التعامل بالصكوك أو الشيكات محل التعامل بالنقد .

وفى الموانى ، ولا سيما فى جنــوا والبندقية ونابولى ، أضيفت عملية ثالثة الى عملية تبديل العملة وعملية قبول الودائع مقابل خطابات الاعتماد . وهذه هى عملية التسليف على الرهونات أو بالضمان والاقراض بالربا المحدد، اى مقابل سعر فائدة ثابت ومضمون ، وعملية الاقراض بالمضاربة اى على أساس المشاركة فى الربح والخسارة وهى تحتمل المجازفة . نشأت مجموعات مالية تقــوم بتمويل الصادرات والواردات ، فتشترك فى تمويل كل عملية أو شحنة من البضائع على حــدة ثم تتقاســم الربح والخسارة مع التجار ، وفى التجارة الداخلية ظهرت « الشركات التجارية » . وكانت هــذه البيوت المالية تستورد المواد الخام للصناعات التحويلية : الســلاح والدروع فى ميلانو والمنسوجات الصوفية والحريرية فى فلورنسا ، مقابل تصدير سلع الترف ، فكانت تجارة رابحة كدست الأموال فى مدن ايطاليا من فائض ميزانها التجارى مع الدول الأخرى . وقد تفوقت فلورنسا بالذات فى هــذا المضمار بسبب يقظة نقاباتها المالية والحرفية لضمان جودة مصنوعاتها .

كذلك ظهر نظام قيام المواطنين العاديين من صغار المدخرين بايداع الودائع فى البيوت المــالية والشركات التجارية للمشاركة فى هــذه المضاربات

التجارية مقابل نصيب نسبى من الربح والخسارة او من الربح فقط . فكانت هذه بداية نظام الأسهم والسندات . غير ان هذا التمويل بالأسهم والسندات كان فى بداياته قبل ظهور البورصة مقصورا على كل عملية تجارية على حدة ، ولم يكن مساهمة فى راس مال البيت المالى او الشركة التجارية بصفة مطلقة .

وكانت الكنيسة الكاثوليكية تحرم على المسيحيين الربا ، وهو الاقراض بالفائدة المحددة المضمونة (الفايظ) ، ولكنها كانت تبيح التجارة . ولذا تركزت أعمال الصرافة والأعمال المصرفية ، ولا سيما التمويل بالفائدة ، فى أيدى اليهود نحو الف عام طوال العصور الوسطى . وكان سعر الفائدة حتى عام ١٥٠٠ قانونيا ٥٪ سنويا ، وكذلك كان العقار الثابت يدر ٥٪ سنويا . أما الشركات المالية فكانت تدر على صغار المدخرين بين ٦٪ و ١٠٪ سنويا . اما الشركاء فى الشركات المالية فكان نصيبهم فى الأرباح فى الربع الأول من القرن ١٤ (١٣٠٠ — ١٣٢٤) ، يتراوح بين ١٥٪ و ٤٠٪ سنويا . وقد استطاع بيت استروتزى فى فلورنسا أن يحقق لشركائه بهذه المضاربات ارباحا تتراوح بين ٣٠٠٪ و ١٠٠٠٪ بين ١٣٣٠ و ١٣٤٠ .. وبسبب هذه الأرباح الطائلة توسعت الشركات المالية (البنوك أو البيوت المالية) فى جمهورية فلورنسا فى الاعتماد على الاكتتاب العام .

واسكرت هذه المكاسب الطائلة كبار البنكيرة فنسوا الحيطة واخذوا يقرضون الملوك والأمراء بسعر فائدة مرتفع يصل احيانا الى (٣ر٣٣٪) ومقابل بعض المنافع كالحصول على تراخيص الاستيراد والتصدير وعلى الاعفاءات الجمركية .. وقد ادى هذا الى افلاس بعض الشركات المالية مثل بيت بيروتزى وغيره عام ١٣٤٣ حين عجز ادوارد الثالث ملك انجلترا عن سداد ديونه التى اقترضها لتمويل حروبه مع فرنسا ، كما عجز روبير دوق انجو ، ملك صقلية عن سداد ديونه ، لهذه البيوت المالية ، فانتهى الأمر بافلاسها . وافلست معها جموع من صغار المدخرين .

وقد حدثت ثورة حقيقية فى الفكر الدينى المسيحى فى الانتقال من العصور الوسطى الى عصر النهضة الأوروبية .. وكانت الثورة على مستويين :

كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلم الناس ان المال من عرض الدنيا الذى ينبغى على المؤمن الصادق أن يعرض عنه بالزهد والتقشف واحتقار لذات الحياة ومباهجها طلبا للنعيم فى الحياة الآخرة .

فأخذ دعاة المذهب الانسانى من جهة ودعاة الاصلاح الدينى من جهة أخرى يعلمون الناس ان طلب المال والجمال والمجد والقوة ليس خطيئة ، بل هو عنوان على كرامة الانسان وشرف الانسان . أما دعاة الاصلاح الدينى فقد ذهبوا يجتهدون فى تفسير المسيحية ، ليثبتوا خطأ تعاليم الكنيسة الكاثوليكية بتحريم الاقراض والاقتراض بالفائدة بوصفه قائما على الربا الذى حرمه الانجيل على المسيحيين ، ويدعون العالم المسيحى ليشارك فى استثمارات التمويل بالاقراض والاقتراض ، حتى لا ينفرد يهود العالم بالنظام المصرفى .. فكانت هذه هى البداية الحقيقية لنشأة النظام الراسمالى داخل اوروبا الاقطاعية .

ومن أراد ان يفهم هذا الوضع على حقيقته فما عليه الا أن يقرأ أو يعيد قراءة مسرحية « تاجر البندقية » (١٥٩٦) لشكسبير (١٥٦٤ ــ ١٦١٦) ومسرحية « يهودى مالطة » (١٥٨٨) لمارلو (١٥٦٤ ــ ١٥٩٣) .

ففى « تاجر البندقية » ، التى اقتبس شكسبير موضوعها عن رواية قصيرة لكاتب ايطالى اسمه جيوفانى فيورنتينو كتبها فى القرن الرابع عشر ولكنها نشرت فى ١٥٦٥ ، نرى تاجرا مسيحيا يقترض من مرابى يهودى مبلغا ضخما من المال لتمويل تجارته مع موانى العالم الخارجى ولكن سفنه تغرق فى البحر فيفلس ويعجز عن السداد فى الموعد المحدد ، وقد كان القرض مشروطا بشرط جزائى جهنمى ، وهو اقتطاع رطل من لحم المدين اذا تخلف عن السداد . فلما احيل الأمر لدوق البندقية أمر بتنفيذ العقد بحذافيره ، ولكن محامى المدين انقذ الموقف فى اللحظة الأخيرة لأنه اشترط أن يقتطع اليهودى الدائن من جسد المسيحى المدين رطلا من اللحم دون ان يسفك قطرة واحدة من الدماء ، لأن العقد لم يعطه الحق الا فى رطل من اللحم ولم يشر الى حقه فى الدماء . وهكذا انقذ الموقف .

ولضمان انتظام هذه الحركة المالية والتجارية النشطة كان لابد من انشاء نظام قانونى مدنى محكم وصارم ومستقر فى فلورنسا وغيرها من المدن الايطالية المشتغلة بالتجارة لحماية الحقوق ولتحديد الواجبات بين المولين والتجار ، ونظام دقيق لتوثيق الملكية وعقود التمويل والتبادل التجارى ، كما نجد فى حكاية الممول شيلوك والتاجر إنطونيو فى « تاجر البندقية » .

كذلك كان هناك نظام سياسى اقتصادى اجتماعى يرتب توزيع السلطة ومصادرها .

SS

ففى القرن ١٢ كانت هناك ست نقابات حرفية كبرى فى فلورنسا هى :

١ ــ نقابة القضاة والموثقين .

٢ ــ نقابة البنكيرات والصيارفة .

٣ ــ نقابة الأطباء والصيادلة والعطارين .

٤ ــ نقابة صناع المنسوجات الصوفية .

٥ ــ نقابة صناع المنسوجات الحريرية .

٦ ــ نقابة الفرائين وصناع الجلود .

وفى القرن ١٣ ظهرت خمس نقابات أخرى للفنون والصناعات :

١ ــ نقابة الجزارين .

٢ ــ نقابة صناع الأحذية .

٣ ــ نقابة الخــدم .

٤ ــ نقابة البنائين ونجارى الأبواب .

٥ ــ نقابة تجار الملابس .

ثم ظهرت تسع أو عشر نقابات للمهن الصغرى ، وهى تشمل :

١ ــ نقابة أصحاب الخمارات وتجار النبيذ .

٢ ــ نقابة أصحاب الفنادق .

٣ ــ نقابة تجار الملح والزيت والجبن .

٤ ــ نقابة الدباغين .

٥ ــ نقابة صناع السلاح .

٦ ــ نقابة صناع الأقفال .

٧ ــ نقابة الحوذية .

٨ ــ نقابة نجارى الأثاث .

٩ ــ نقابة الخبازين .

وبهذا بلغ مجموع النقابات ٢١ نقابة .

وكان يحكم فلورنسا نقباء هذه المهن والحرف وقيادات النقابات ، أما الحرف الصغرى فكان لا يمثلها الا رؤساؤها . وكان من حق كل هؤلاء الاشراف على تطبيق القوانين ومراقبة الغش التجارى والصناعى ومراقبة الكيف والأسعار ومقاييس الانتاج ... الخ.. وفرض الغرامات على المخالفين، بل ومقاضاتهم ومقاضاة أصحاب النشاط غير المشروع كالربا الذى كانت تحرمه الكنيسة . ومنهم كان ينتخب قناصل المدينة أو مستشاروها وقضاتها، كما كان ينتخب منهم المجلس الحاكم الذى يسمى « السنيورية » . وكان أصحاب البيوت المالية مقيدين عادة فى اكثر من نقابة فوق قيدهم فى نقابة البنكيرات والصيارفة ، وكانوا بقوة المال هم حكام فلورنسا الحقيقيون .

اما من الناحية السياسية فقد كان تمزق المدينة الى حزبين منذ القرن ١٣ : حزب « البيض » المعروف « بالجيبلين » وهو الموالى للألمان ، وحزب السود المعروف « بالجويلف » الموالى للفرنسيين . وكان بابوات روما يعادون اباطرة الجرمان ويطلبون القروض من البيوت المالية فى فلورنسا لمحاربتهم ، كذلك كان شارل دوق أنجو (أخو لويس التاسع ملك فرنسا) يطلب من فلورنسا القروض لكى يمول حروبه لانتزاع نابولى وصقلية من ايدى الأباطرة الجرمان . وفى ١٢٦٦ إنتصر حزب « الجويلف » (السود) . ثم تجددت الحرب الأهلية فى ١٣٠٠ ، فانتصر السود مرة أخرى ، وانتهت بنفى العائلات المصرفية الكبرى الموالية للبيض كأسرة بورتينارى ، وهى أسرة بياتريس صاحبة دانتى ، وسيطرت على فلورنسا البيوت المالية الموالية للسود .

وفى نهاية القرن ١٣ استفاد تجار فلورنسا من افلاس تجار المدن المجاورة ولاسيما البندقية ، وبعد أن استولت شركات السود المالية على فلورنسا نشأت فيما بينها منافسات ضارية أدت الى افلاسها الواحدة بعد الأخرى، وكان أبرز انهيار هو انهيار اسرة سكالا عام ١٣٢٦ . ودرءا لهذا الخطر لجأت البيوت المالية الكبرى مثل بيت باردى وبيت بيروتزى الى التفاهم بدلاً من التنافس فتكدست فى أيديها الثروات ، وانتفع من هذا صغار المدخرين الذين كانوا يودعون مدخراتهم عند هذه الشركات المالية لاستثمارها فى التجارة الدولية . وقد أفلس بيت بيروتزى وبيت باردى فى ١٣٤٣ لعجز ادوارد الثالث وروبير دوق أنجو عن سداد ديونهما لهما .

وبعد هذه الافلاسات ، كان الطاعون الرهيب الذى حصد ثلثى سكان فلورنسا بين ١٣٤٨ و ١٣٥٠ فانخفض عددهم من ١٢٠٫٠٠٠ نسمة الى ٤٠٫٠٠٠ نسمة .

ورغم هذه الكوارث عاد النشاط المصرفى الى سابق عهده ، فظهرت بيوت مالية جديدة كان اهمها بيت البرتى وريتشى واستروتزى والبيتزى وسودرين وجواردى ومديتشى . واخذ هؤلاء يدمر بعضهم بعضا بالمنافسة وبلعبة السياسة . وبرز بينها بيت البرتى لأنه أصبح بنك البابا ، وسبب افلاس بيت جواردى فى ١٣٧٠ — ١٣٧١ ، كما حاول تدمير بيت ريتشى وبيت البيتزى . ولكن هزيمة آل البرتى سياسيا انتهت بنفيهم من فلورنسا .

كان فى فلورنسا عام ١٣٧٠ بين ١٥٠ و ٢٠٠ أسرة من بيوت المال والاعمال يبلغ أفرادها بين ١٠٠٠ و ١٥٠٠ رجل يشتغل فعلا بالتمويل والتجارة على نطاق واسع ، وبعد نحو خمسين سنة اى فى ١٤٢٧ كانت فى فلورنسا ١٠٠ أسرة تملك ربع ثروة المدينة ، وهو سدس ثروة اقليم توسكانيا كله (وعاصمته فلورنسا) .

كانت أقدم أسر فى فلورنسا هى باتزى ودوناتى وباردى . ثم استجدت اسر مديتشى والبرتى ولاندو فى النصف الثانى من القرن ١٤ ، وكذا أسرتا روندينيللى وكابونى . وكان المجلس الحاكم (السنيورية) هو مسرح الصراع على السلطة فى فلورنسا . وكان البنكيرة الجدد يشجعون ثورات الفقراء وصغار الحرفيين لانتزاع حق تكوين النقابات من السنيورية للمشاركة فيها بممثلين ، وبهذا تبلور فى فلورنسا حزب جديد يسمى « البوبولانى » ، أى « الشعبى » . ولكن كبار البنكيرة ورجال الأعمال استطاعوا أول الأمر أن يخضعوا هذا التيار الشعبى . وبين ١٣٤٣ و ١٣٦٠ حكم بالاعدام على خمسة من آل مديتشى كما نفى الكثيرون .

ثم نجحت ثورة صغار الحرفيين أول الأمر فى ١٣٧٨ ، ولكن ممثلى البورجوازية بطشوا بالثورة فى ١٣٨٢ ونفوا زعماءها الثلاثة ومنهم سلفسترو مديتشى وأعدموا زعيمها جورجو سكالى .

وكان آل مديتشى أصلا من ابناء البورجوازية المتوسطة ، فقد كانت الحصة المفروضة عليهم فى القرض الوطنى لا تتجاوز ٣٠٤ فلورينات فى عام ١٣٦٤ بينما كانت الحصة المفروضة على آل استروتزى ، وهم من كبار البنكيرة ، ٢٠٦٢ فلورين .

أما مؤسس الثروة الحقيقى فى أسرة مديتشى فهو جيوفانى مديتشى (١٣٦٠ — ١٤٢٩) الذى اشتهر مثل ابيه افيراردو مديتشى ، المتوفى عام

SS

١٣٦٣ ، باسم « بيتشى » ، وهو اسم يهودى معروف فى فلورنسا ، ربما كناية عن بخله الشديد . وعندما مات فى ١٤٢٩ ترك ثروة قدرها ١٨٠٫٠٠٠ فلورين ، بحسب تقدير لورنزو دى مديتشى لتركة والد جـده ، وكانت لمصرفه فروع فى فلورنسا وروما وفينيسيا (البندقية) ونابولى وجايتا . وكان قد بـدأ أعماله بمبلغ ١٥٠٠ فلورين هى دوطة زوجته .

وقد عثر على ثلاثة دفاتر حسابات لأسرة مديتشى عن الفترة من ١٣٩٧ الى ١٤٥١ ، وبفحصها تبين منها أن جيوفانى مديتشى كانت لديه حسابات تحمل أرقاما سرية ، على طريقة الحسابات السويسرية ، ترمز الى ودائع الكرادلة وكبار رجال الكنيسة وكبار الضباط وكبار الموظفين والأعيان .

وكان هناك حظر على أفـراد أسرة مديتشى بشأن تقلد المناصب العامة منذ قلاقل القرن الرابع عشر . ولكن جيوفانى « بيتشى » أصبح منذ ١٤٠٢ عضوا فى الهيئة الحاكمة ، فانتخب عضوا فى السنيورية وساير سياسة كبار الرأسماليين التوسعية التى كانت تعمل على مد تخوم جمهورية فلورنسا وضم ميناء بيزا اليها لكى يكون لفلورنسا ثغر تتاجر منه مع العالم الخارجى بدلا من اعتمادها على موانى ايطاليا المستقلة أو التابعة للغير مثل فينسـيا وجنوا ونابولى . وبهذا أصبحت جمهورية فلورنسا فى مثل قـوة فينيسيا وميلان ونابولى ، وأصبحت قادرة على التصدى للخطر الفرنسى ، خطر دوقات أنجو الطامعين فى نابولى ، وخطر دوقات أورليان الطامعين فى ميلان .

هذه كانت بدايات أسرة مديتشى التى سرعان ما أصبحت أغنى أسرة فى أوروبا ، على الأقل من حيث المـال السائل ، بفضل مواهب كوسيمو « بيتشى » جد لورنزو دى مديتشى . وحين ولد لورنزو دى مديتشى عام ١٤٥٠ كانت أوروبا كلها ، من لندن الى استانبول ، تتحـدث عن ثراء آل مديتشى الخـرافى .

وهكذا ورث لورنزو دى مديتشى المـال عن أسـلافه ، ولكنه أضاف اليه شيئا لا يشترى بالمـال خلد اسمه وجعله علما من أعـلام عصر النهضة الأوروبية ، ألا وهو رعاية الفنون والآداب والفكر الفلسفى بوجه عـام .

اذا كان جيوفانى مديتشى (١٣٦٠ — ١٤٢٩) ، وكنيته بيتشى ، أول من وضع أساس ثروة آل مديتشى وأول من أسس بنك مديتشى عام ١٣٩٧ ، فان ابنه كوسيمو مديتشى (١٣٨٩ — ١٤٦٤) ، وكنيته أيضا بيتشى ، هو البانى الحقيقى لامبراطورية مديتشى المـالية ولهيبتها الاجتماعية ولنفوذها السياسى الخطير فى فلورنسا .

ss

وقد ظل بنك مديتشى فى عهده ينمو وينمو باطراد بين ١٣٩٧ و ١٤٥٥ حتى بلغ قمة مجده واوسع مداه ، وكان مركزه الرئيسى فى فلورنسا ، وكانت له فروع فى ميلان وبيزا والبندقية ونابولى وروما داخل ايطاليا وفروع أوروبية فى جنيف وليون وافنيون وبروج ولندن ، وكان له مراسلون منتشرون فى حوض البحر المتوسط من اسبانيا الى الشام، رغم أنه لم تكن له فروع خارج أوروبا . كذلك كان بنك مديتشى يملك مصنعين كبيرين ، أحدهما للمنسوجات الصوفية والآخر للمنسوجات الحريرية .

وبعد ١٤٥٥ بدأ بنك مديتشى يضمر درجة درجة فى عهد بييرو بن كوسيمو (١٤١٦ — ١٤٦٩) ثم بدأ يواجه متاعب مالية رهيبة فى عهد حفيد كوسيمو ، وهو لورنزو دى مديتشى (١٤٥٠ — ١٤٩٢) ، الشهير « بلورنزو الماجد » (« إل ماجنفيكو » وهو لقب كان يطلق على أعيان المدن الايطالية فى ذلك الزمان ، كما نقول نحن مثلا « الوجيه » فلان أو « معالى » فلان ، ولكن اللقب لازم لورنزو بالذات حيا وميتا) .. ولم يكن لورنزو يهتم بالبنك الا كارها ، بل كان ينظر الى بنك مديتشى على أنه مجرد أداة سياسية لتوطيد سلطانه فى فلورنسا وخارج فلورنسا . وبالفعل أخـــذ البنك يضمر بعد ١٤٧٨ .

ولم يبن الجد كوسيمو امبراطورية المديتشى المـــالية فحسب ، بل بنى أيضا سطوتها السياسية داخل فلورنسا . ورغم انه لم يتقلد سلطة رسمية خاصة فقد كان يسيطر بقوة المـــال وبشبكة اتصالاته وبمناوراته السياسية على كل صغيرة وكبيرة فى جهاز الحكم . وجعل اسرة مديتشى هى الأسرة الأولى واقوى اسرة فى فلورنسا رغم أنها كانت اسرة محدثة النعمة تفتقر الى الحسب والأعراق .

وحتى موت جيوفانى فى ١٤٢٩ ، بل وحتى أصبح كوسيمو الشخصية الأولى فى فلورنسا ، كان آل مديتشى يحسون بأن شيئا ما ينقصهم وهو شرف المحتد ، ولـــذا فقد اهتموا لقرن كامل بتشجيع المؤرخين وكتاب الســير والمشتغلين بالأنساب ليبتكروا لهم انسابا محترمة ، ودأبوا على رعاية الفنانين والأدباء والمفكرين ليذيع صيتهم فى الآفاق ، واشتغلوا بالسياسة اشتغالا عنيفا ليعوضوا بالسلطة السياسية عن اهتـــزاز مركزهم الـــذى لم يكن يستند أولا لغير المـــال .

كل هـــذا بدأه كوسيمو دى مديتشى ، جد لورنزو ، فهو قد بسط رعايته على الفنان المصور العظيم فرا انجيليكو وعلى الفنان المصور العظيم فرا ليبوليبى وعلى الفيلسوف الأفلاطونى مارشيليو فيتشينو وعينه مؤدبا لحفيده لورنزو .

كانت فلورنسا فى زمن جيوفانى وكوسيمو جمهورية تحكم مساحة واسعة من شمال اقليم توسكانيا (١١٫٠٠٠ كيلو متر مربع) ، ولكن هذه الدويلة الجمهورية كانت تحكمها أوليجاركية صغيرة العدد من المولين والتجار بقيادة عائلة البنكير البيتزى التى احتكرت السلطة السياسية فى فلورنسا . وقد حاول جيوفانى كسر هـذا الاحتكار ، فلم ينجح الا جزئيا ، وأتم عمله كوسيمو مديتشى بمناوراته فنفى آل البيتزى ، وبذلك سيطر آل مديتشى على الحكم فى فلورنسا تماما طوال قرن كامل .

كان نظام الحكم يقـوم على ركنين :

الديمقراطية المباشرة ، حيث كان كل المواطنين يجتمعون فى السـوق فى هيئة « برلمنتو » اى برلمان شعبى . وهيئة الأوليجاركية الحاكمة ، وهى مكونة من البنكيرة وكبار التجار وتسمى « رجيمنتو » ، متمثلة فى مجلس المائة والمجلس الحاكم أو « السنيورية » ، وكان هـذا المجلس يتكون من ثمانية اعضاء ينتخبون بالقرعة ويتجدد انتخابهم كل شهرين منعا لاستمرار السلطة فى اسرة بعينها ، وكأنما الحكم تقاسم أسلاب أو استعراض وجاهة . فأنشأ كوسيمو مجلس المائة من اعضاء موالين لأسرة مديتشى وجعل هـذا المجلس يختار مجلس السنيورية بالانتخاب لا بالقرعة ، وبهذا ضمن استقرار الحكم فى أيدى أنصار آل مديتشى ، لأن القرعة تفتح باب التغيير وانتقال السلطة الى الأسر المنافسة . وقد اتهمه أعداؤه باقامة دكتاتورية فى البلاد .

وكانت سياسة آل مديتشى الدائمة تقوم على تدعيم الحلف الايطالى الذى يضم فلورنسا وميلان ونابولى ، وكانوا يعتمدون على جنود ميلان لتحمى فلورنسا من جنود البندقية وفيرارا . فلما سقطت القسطنطينيه فى يد محمد الثانى فى ٢٩ مايو ١٤٥٣ دعا البابا نقولا الخامس فلورنسا وميلان والبندقية وروما ونابولى الى توقيع معاهدة عـدم اعتداء فى لودى عام ١٤٥٥ مدتها ٢٥ سنة . وكان ذلك فى عهد كوسيمو مديتشى .

وقد تسلم كوسيمو بنك مديتشى بعد وفاة أبيه جيوفانى فى ١٤٢٩ فجعل فرع روما هو بنك البابا والكرادلة والحجاج من زائرى الفاتيكان ، فكان يتلقى ودائعهم كما كان يتلقى الأمـوال التى يدفعها المؤمنون للبابا مقابل صكوك الغفران والتبرعات التى كان يدفعها بعض المؤمنين لاشعال الحروب الصليبية من جديد ! وكان كوسيمو دائم الحرص على توطيد صلاته بالكنيسة. وقد زاد من هيبته فى فلورنسا أنـه استضاف يوحنا الثالث الباليولوجى امبراطور بيزنطة وجوزيف بطريرك القسطنطينية ويوجين الرابع بابا روما مع مئات من اتباعهم عندما التقوا فى فلورنسا لعقد مجمع مسكونى عام ١٤٣٩

للتقريب بين الأرثوذكسية والكاثوليكية اســتعدادا لمواجهة زحف الأتراك العثمانيين .

وكانت اسرة مديتشي منذ البداية أسرة مثقفة رغم اهتمامها بالمـال ، احسن تعليمها فى الأديرة ، فكان ابناؤها يعرفون اليونانية واللاتينية ، بل والعربية والعبرية . امـا لورنزو دى مديتشي فقد بدأ يتعـلم اليونانية فى ١٤٦١ وهو فى الحادية عشرة من عمره ، ثم تولى تعليمه الفيلسوف فيتشينو داعية الأفلاطونية الحديثة . وكان فيتشينو (١٤٣٣ — ١٤٩٩) يومئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ، ويعمل فى خدمة كوسيمو مديتشي . وقد تأثر لورنزو بتعاليم فيتشينو تأثرا بالغا حتى ظهر ذلك فى كتاباته الأدبية من شعر ونثر ، فاتبع تقاليد الحب الأفلاطونى الشائعة فى أوروبا منذ الشاعر بترارك وصاحبته لورا ، بل وربما منذ الشاعر دانتى الييجيرى وصاحبته بياتريس . ومن هــذه التقاليــد الاشــتعال بالحب العــذرى المثــالى الرومانسى نحو ملهمة واحدة تكون محـور شعر الشاعر فى كل قصائده وطوال حياته ، صدقا أو كذبا ، فى الحقيقة أو فى الخيال .

وحين مات الجد كوسيمو عام ١٤٦٤ تجمع أعداء آل مديتشي ليحطموا احتكارهم للسلطة فى فلورنسا . وكان سبيلهم الى ذلك هو الغاء دستور ١٤٣٤ الـذى وضـعه كوسيمو للسيطرة على الحكم بالغاء نظام القرعة فى اختيار أعضاء السنيورية ، أى المجلس الحاكم . وبالفعل الغوا دستور ١٤٣٤ فى عام ١٤٦٦ ، فأعادوا الدستور الأصلى ، ظنا منهم أن آل مديتشي قد دالت دولتهم بوفاة عميدهم . وكانت الدعوة الى « برلمنتو » من جميع المواطنين فى ميدان السنيورية بسوق المدينة فى ٢ سبتمبر ١٤٦٦ ، ففوجىء زعماء المعارضة بأن وجدوا ٣٠٠٠ جندى كامل السلاح فى ميدان السنيورية يتقدمهم لورنزو دى مديتشي فى دروعه ممتطيـا جواده ، وكان لورنزو يومئذ فتى فى السادسة عشرة من عمره حين دخل أول امتحان للقوة فى فلورنسا وخرج منه منتصرا باعادة دستور ١٤٣٤ الـذى صاغه آل مديتشي ليسيطروا على الجمهورية من خـلال مجلس المـائة المكون من صنائعهم وأعوانهم .

ولم يحكم بيرو دى مديتشي ، أبو لورنزو (١٤١٦ — ١٤٦٩) غير ثلاث سنوات بعد موت أبيه كوسيمو . لقد انتهت الجمهورية فى فلورنسا وحلت محلها « الامارة » ، لأن لورنزو دى مديتشي ظل سيد فلورنسا ثلاثا وعشرين سنة ، بين ١٤٦٩ — ١٤٩٢ . وعند موت بيرو ترك مداليات وكاميهات قيمتها ٢٫٥٧٩ فلورين ، وفازات فنية قيمتها ٤٫٥٨٠ فلورين ، وفضيات قيمتها ٦٫٧٠٢ فلورين ، وتحف نادرة مثل قرن وحيد القرن الذى قدرت قيمته بمبلغ ٣٠٠٠ فلورين .

هذا ما ورثه لورنزو دى مديتشى وقد أضاف اليه شيئا كثيرا . كذلك ورث لورنزو عددا هائلا من القصور فى المدينة وفى الريف ، داخل امارة فلورنسا وخارجها ، بما فى هذه القصور من سجاجيد وطنافس فاخرة وتحف للزينة مشغولة بالذهب والفضة ، وفضيات واثاث قل نظيره فى قصور الأمراء ، واسطبلات عامرة بكرائم الخيل . اما اللوحات الفنية والتماثيل والتحف الأثرية فهى لا تقدر بثمن . كان هناك قصره فى فيا لارجا ، وقصره فى كاريجى وقصره فى فيزولا وقصره فى كافا جيولو وقصره فى تريبيو وقصره فى بوجيو ، وهذا الأخير بناه وفقا لذوقه فى المعمار .

كذلك كان ما ورثه لورنزو وما اقتناه من العزب يبلغ عددا مهولا . ففى كاريجى وحدها كان يملك ٢٧ حقلا ومعصرة عام وفاته . وكان نموذجا للأمير الذى تخيله مكيافيللى فى شخص سيزار بورجيا مع بعض الفوارق الهامة .. وهى انه كان يستعمل ذهب المعز اكثر مما كان يستعمل سيفه ، ومع ذلك فقد كان لا يتردد فى البطش بأعدائه كلما استدعى الأمر ذلك .

ورغم اضمحلال بنك مديتشى تدريجيا فى أواخر عهد جده كوسيمو ، كان لورنزو لا يزال من اغنى أغنياء أوروبا . ولم تكن ثروته فى بنك مديتشى وحده ، وانما كانت ثروته الحقيقية التى ورثها واقتناها تتمثل فى مجموعات لا تقدر بثمن من اللوحات الفنية ومن التحف الأثرية والمخطوطات النادرة والكتب المخطوطة ، وغير ذلك من أدوات الزينة والترف والخيول الكريمة التى تعمر بها قصور الكبراء .

وفى ١٤٦٥ قدر أبوه بيرو جواهر نساء الأسرة ، من فرع بيرو دى مديتشى وحده ، بمبلغ ١٢٫٢٠٥ فلورين ، ومعها خواتم قيمتها ١٫٩٧٢ فلورين والآلىء قيمتها ٣٫٥١٢ فلورين ، وزيوت وغابات للصيد وأراضى بسور . وكانت له عزبة فى زمام بيزا . فقد كان لورنزو مهتما بشراء العزب خارج فلورنسا وفى كل مكان من ريف توسكانيا ليدعم نفوذه السياسى .

ومن اراد أن يكون فكرة تقريبية عن ثروة لورنزو « الشخصية » المنقولة خارج مصرفه وقصوره واطيانه ولوحاته وتماثيله وخيوله .. الخ . فيكفى أن يعرف أن « الفلورين » كان عملة من ذهب عيار ٢٤ قيراطا ، سكت لأول مرة فى فلورنسا عام ١٢٥٢ وكانت زنتها ٣ جرامات و ٥٣٦٨ من ١٠٫٠٠٠ من الجرام . وقد سكت البندقية على غرارها فى ١٢٨٤ « الدوقية » وكانت لها نفس مواصفات الفلورين فى الزنة والعيار . ومن قبل كان هناك الصولدى الذهبى الرومانى الذى سكه الامبراطور قسطنطين عام ٣١٢ وكانت زنته ٤٫٥٥ من الجرام من عيار ٢٤ ، وقد استمر اصداره فى بيزنطه حتى سقوط

القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وكان يسمى « البيزنطى » ، ولكنه اختفى نهائيا من اوروبا الغربية بعد شرلمان . اما خلفاء بنى امية فقد سكوا نظيرا للصولدى الرومانى فى دمشق وبغداد سموه « الدينار » وكانت زنته ٤ر٢٥ من الجرام الذهب الخالص اى عيار ٢٤ . (وقد اختفت العملة الذهبية من غرب أوروبا بعد شرلمان وحلت محلها العملة الفضية المسماة « دنيير » denier وزنته ١.١ر من جرام الفضة الخالصة . والجنيه أو الليرة اى الرطل كان وحدة نقدية تعادل ٢٠ صولدى أو ٢٤٠ دنيير ، على أساس ١٢ دنيير فى كل صولدى . وكلمة « دنيير » مشتقة من كلمة « ديناريوس » اللاتينية بمعنى « دينار » . وقد جرت تخفيضات مستمرة على قيمة الدنيير . وفى توسكانيا فى القرن ١٣ أصبح الجنيه يساوى ٩٢ر٩٢ جرام من الفضة الخالصة) . وبطبيعة الحال كل هذه الأرقام لا معنى لها الا منسوبة الى القوة الشرائية ، وهى فى تغير دائم .

لم يكن لورنزو دى مديتشى يستخدم بنك مديتشى لتنمية ثروته فقد كان لديه منها الكثير ، وانما كان يستخدمها لتدعيم قوته السياسية فى الداخل والخارج . فمثلا لم يكن لبنك مديتشى فرع فى نابولى منذ اغلاق ذلك الفرع فى ١٤٢٦ ، فأسس لورنزو فى نابولى فرعا فى ١٤٧١ ، لا لأسباب تجارية ، ولكن لتدعيم التحالف بين فلورنسا ونابولى . وكانت مهمة هذا الفرع الأولى اقراض ملك نابولى ونبلائه رغم سوء سمعتهم فى أوروبا كلها بأنهم لا يسددون ديونهم .

وكان بنكيرات فلورنسا جميعا يعرفون منذ افلاس بيت باردى وبيت بيروتزى الحكمة القائلة بإن بداية الخراب المالى هى اقراض الملوك والأمراء ، ومع ذلك فقد أقرض بنك مديتشى ، فرع بروج ، دوق بورجونيا الذى امتنع عن السداد . كذلك أقرض بنك مديتشى ، فرع لندن ، ادوارد الرابع ملك انجلترا لتمويل حرب الوردتين (بين أسرة يورك وأسرة لانكاستر) ، فلما خلع ادوارد الرابع عن عرشه عام ١٤٧٠ ضاعت الديون . وبالمثل فان فرع ميلان أقرض دوق ميلان أموالا ضخمة . ولكن دوق ميلان ماطل فى السداد ، قيل ليفرض تحالف فلورنسا — ميلان على لورنزو دى مديتشى . ورغم كل ذلك لم يمنع هذا لورنزو من اعادة تأسيس فرع نابولى ، لانه كان يرى فى هذه المجازفات المالية استثمارات سياسية محسوبة .

وبالفعل فقد أثمرت هذه السياسة .. فحين تآمرت عائلة باتزى على اغتيال لورنزو دى مديتشى وأخيه جوليانو فى كاتدرائية فلورنسا عام ١٤٧٨ ، بالتواطؤ مع البابا سكستوس الرابع الذى طوقت قواته فلورنسا لتنقل

السلطة من آل مديتشي الى آل باتزى بمجرد اتمام الاغتيال ، قتل جوليانو ونجا لورنزو بجرح فى عنقه ، وتحرك انصار لورنزو فاحبطوا المؤامرة بقوة السلاح ، واعدم عشرات من الأعيان والأساقفة والقواد وأكثر من مائة من أتباع عائلة باتزى وأعتقل الكاردينال ريازيو المبعوث البابوى ثم اعيد الى روما .

ولم ينجل الخطر تماما رغم التفاف الشعب حول لورنزو لأن البابا اصدر عليه قرار الحرمان . وكان هناك خطر الغزو الخارجى ، فانضم جيش نابولى الى جيش البابا سكستوس الرابع ، وانضمت جيوش البندقية وميلان وفرارا الى جيش فلورنسا .

وما أن بلغ نبأ محاولة الاغتيال حتى أرسلت ميلان ثلاثة آلاف فارس لنجدة لورنزو . ولم يكن هذا التضامن الصادق الا نتيجة لدأب لورنزو على توطيد صلاته بالأمراء فى الخارج بالتراسل والهدايا والمجاملات فى المناسبات وبتوفير القروض لطلاب القروض . وكان يتراسل مع سلطان تركيا وسلطان مصر .

كان آل مديتشي اشبه شيء بقبيلة صغيرة داخل فلورنسا ، وفى تعداد ١٤٢٧ كانت تضم ٣٢ فرعا أو أسرة مستقلة اى نحو ١٤٠٠ شخص مترابطين ترابطا قويا بالاضافة الى الأنسباء والأقرباء والأصدقاء والأتباع وعملاء البنك ، مما جعل آل مديتشي أقوياء عددا . كذلك كان لورنزو يأسر الناس بخدماته فيوظف المستوظفين ويرفع النفى عن المنفيين ويتوسط لتخفيف عقوبات القانون العام ويحاول أن يتودد الى الكنيسة . وكان لورنزو يدرك قيمة التأييد الجماهيرى ، فكان دائما يدافع عن الطبقات الشعبية وعن الفقراء ببيعهم القمح من مخازنه فى أيام القحط بأقل من سعر السوق . ولذا فقد كان طاغية شعبيا ، طغيانه من نظامه السياسى الذى ركز سلطة الحكم فى يديه وشعبيته من التفاف الجماهير من حوله .

وقد زاد من قوة لورنزو دى مديتشي زواجه من كلاريس أورسينى عام ١٤٦٨ وهو فى سن الثامنة أو التاسعة عشرة . وقد كانت كلاريس سليلة بيت أورسينى الشهير فى دولة البابوية الغنى بالكرادلة وبالقواد العسكريين وصاحب الصولة فى ايطاليا كلها من البندقية الى نابولى بجيوشه المرتزقة . فكان هذا الزواج السياسى ، بعد انقلاب ١٤٦٦ المجهض ، وسيلة لدعم سيطرة لورنزو دى مديتشي على فلورنسا .

عرف عن لورنزو دى مديتشي أنه كان ، على غير عادة معاصريه وأبناء جنسه ودينه ، متسامحا مع اليهود بما جعلهم يعيشون فى أمان فى فلورنسا .

بل وعرف عنه انه كان حامى اليهود فى ايطاليا كلها . وكان دائما يحتكم الى العقل وضبط النفس ويتوخى الاعتدال الا حيث يتعلق الأمر بأمن الدولة .

وقد ترك لورنزو دى مديتشى بعض الآثار الادبية شعرا ونثرا ، بالعامية الايطالية ، وهى آثار لها مكانتها المعروفة فى تاريخ الأدب الايطالى والفكر الايطالى . غير ان شهرته الاولى جاءت من انه كان راعى الفنون والآداب والفكر الحر ودعوة الهيومانزم فى عصر الرنيسانس ومن المؤرخين من يقول إنه ليس هناك اثر فنى واحد من نحت أو تصوير أو عمارة فى عصره الا وكان لورنزو دى مديتشى وراءه .

ونحن حين نتحدث عن فنانى الكواتروتشننو ، أى القرن الرابع عشر فى ايطاليا ، من مصورين ومثالين ومعماريين ، انما نتحدث عن معاصرى لورنزو دى مديتشى الذين احاطهم برعايته المباشرة وغير المباشرة وكان له فضل اكتشافهم وتشجيعهم : نتحدث عن المصور المثال فيروكيو (١٤٣٥ — ١٤٨٨) ، الذى كان أقرب الفنانين الى لورنزو ، والمصور ساندرو بوتيشيللى (١٤٤٤ — ١٥١٠) ، والمصور المثال بولايولو (١٤٣٢ — ١٤٩٨) ، والمصور المثال المعمارى ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) الذى كان يكبر لورنزو بعامين ، وميكلانجلو (١٤٧٥ — ١٥٦٤) الذى جمع بين الفنون التشكيلية الثلاثة ، ويقال ان لورنزو اكتشف موهبته وهو فى حداثته (كان فى سن ١٧ حين مات لورنزو) . ومثل هؤلاء المصور جورجونى (١٤٧٧ — ١٥١٠) ، والمصور فلبينو ليبى (١٤٥٧ — ١٥٠٤) بن فرا فيليبو ليبى (١٤٠٦ — ١٤٦٧) ، وهو مصور أقدر فنا من ولده ، كان يرعاه كوسيمو دى مديتشى مع المصور فرا انجيليكو (١٤٠٠ — ١٤٥٥) . كل هؤلاء كانوا من فلورنسا .

أما رفاييل (١٤٨٣ — ١٥٢٠) ، فقد كان من أوربينو وكان معاصرا للورنزو الثانى ، وفيرونز (١٥٢٨ — ١٥٨٨) ، كان من فيرونا ، والمصور كرافاجيو (١٥٧٣ — ١٦١٦) ، وهو من كارافاجيو ، والمثال تشلليني (١٥٠٠ — ١٥٧١) ، كذلك كان المصور أندريا ديل سارتو (١٤٨٦ — ١٥٣٠) ، وهو من فلورنسا ، فقد كان طفلا فى عهد لورنزو دى مديتشى وعاش وانتج فى عهد لورنزو الثانى .

كذلك قيل ان لورنزو كان اول من خطط شوارع فلورنسا على اساس الخطوط المستقيمة . وقد استخدم فيروكيو وبوتيتشيللى وبولايولو لتصميم الأعلام والدروع والشارات واقواس النصر،وفى انشاء القبور وتجميل القصور والكنائس ، وهو الذى أوصى بأن يدعى بوتيتشيلى الى روما لتجميل محراب السستين فى الفاتيكان . كذلك أوصى ملك المجر وملك البرتغال وملك نابولى

والبابا اينوتشنتو الثامن والكاردينال كارافا وغيرهم كثيرون بدعوة فنانى فلورنسا العظام لتجميل الكنائس والقصور ، ولاسيما بولايولو وفيلبينو ليبى.

نجم عن كل ذلك ازدهار عظيم فى كافة الفنون التشكيلية التصوير والنحت والعمارة ، بعد أن مات التصوير والنحت نحو الف عام طوال العصور الوسطى ، ولم يبق من الفنون التشكيلية الا فن العمارة لبناء الحصون والكاتدرائيات . (الواقع أن احياء فن التصوير بدأ منذ الفنان الايطالى جيوتو، (١٢٦٦ — ١٣٣٧)) .

شيئان جديدان بعثا الحياة فى فن التصوير وفى النحت بعد الف عام من موتهما فى العالم المسيحى .

الشيء الأول هو أن الفنان المسيحى نتيجة لانتشار الهيومانزم وتمجيد الانسان ، ونتيجة لاحياء ثقافة الجاهلية اليونانية والرومانية ، بدأ يصور أنبياء الكتاب المقدس ومشاهده كما كان اليونانى أو الرومانى يصور آلهته وأعمالها بالخط واللون والحجر ، وقد غزت روح الهيومانزم الكنيسة الكاثوليكية نفسها فقبلت أن يكون الدين موضوعا للفن لتزيين الكاتدرائيات والكنائس والأديرة والقصور بالصور والفريسكات والرسوم الحائطية الفيجوراتيف (اى التجسيدية او التشخيصية) ، دون تخوف من عودة الوثنية وعبادة الأصنام .. ولا شك أن هذا ما كان ليتم لولا تأثير المستنيرين من دعاة المذهب الانسانى والعلوم الانسانية من أمثال لورنزو دى مديتشى .

أما الشيء الثانى فهو أن فنان عصر النهضة الأوروبية أصبح لا يجد حرجا فى أن يستوحى الأساطير الوثنية ذاتها كما كان يستوحى القصص الدينى باعتبار أن الأساطير الوثنية جزءا لا يتجزء من تراثه الثقافى .

خذ مثلا بوتيتشيللى ، كان وسط كل رسومه الدينية وصور أعلام عصره يجد مجدا فى أن يرسم لوحة « مولد فينوس » ولوحة « مارس وفينوس » ولوحة « الربيع » ولوحة « بالاس أثينا والقنطور (الانسان الحصان) » .. الخ .. ومثله فيلبينو ليبى ، الى جانب ما ترك من لوحات دينية ، ترك أيضا « القنطور الجريح » و « أبولو وبان » و « تضحية اللاوكون » و «لغز الحب» و « لغز الموسيقى » .. الخ .. وفى فيروكيو نجد « حاملة الباقة » .

وقد ورث لورنزو دى مديتشى عن أبيه مائة كتاب فأضاف اليها الفا كان من بينها كثير من المخطوطات النادرة . وكان له وكلاء ، مثل لاسكاريس ، يشترون له المخطوطات من شرق أوروبا . وقد جمع له لاسكاريس أكثر من

٢٠٠ مخطوط منها ٨٠ مخطوطا لم تكن معروفة من قبل . وكان لورنزو يكلف الخطاطين المشـــهورين فى البندقية ونابولى وفيرارا وبادوا وروما بنسخ المخطوطات النادرة .

وكان جوتنبرج (١٣٩٤ — ١٤٦٨) قد اخترع المطبعة حديثا فى ١٤٤٠ وكان أول ما طبعه هو الكتاب المقدس فى ١٤٤٨ ، ولكن أوروبا كانت لا تزال فى عصر المخطوطات وبدايات الطباعة أيام لورنزو دى مديتشى .

وقد شارك كوسيمو دى مديتشى جد لورنزو ، فى حركة جمع المخطوطات اليونانية واللاتينية لاحياء تراث أوروبا الجاهلى . وكانت فى فلورنسا جامعة تسمى « الاستوديوم » أنشئت منذ أيـــام دانتى اليجيرى ، وكانت تعلم فيها اليونانيـــات . وكان بترارك لا يحسن قـــراءة هوميروس ، ولكن الاهتمام باليونانيات شاع بين المثقفين حتى صـــار جزءا لا يتجزأ من ثقافة الصفوة نحو ١٤٠٠ .

وحتى حين دخل كوسيمو دى مديتشى فى صراع مع أساتذة الأستوديوم من دعاة المذهب الانسانى ونفاهم واغلق جامعة فلورنسا ، استمر تعليم اليونانية عند المدرسين الخصوصيين طوال القرن الخامس عشر ، واستمر جمع المخطوطات اليونانية ونسخها . وقد استطاع كوسيمو أن يجمع من هذه المخطوطات ٢٠٠ مخطوط أشرف الوراق (الـــكتبى) فسبازيانو على نسخها فى أقل من عامين نحو ١٤٥٠ بمعاونة ٤٥ خطـــاطا . وبســـقوط القسطنطينية عام ١٤٥٤ فى أيدى الأتراك العثمانيين فر علماء بيزنطة الى غرب أوروبا ، ولا سيما ايطاليا حاملين معهم كنوز الثقافة اليونانية القديمة .

بل أن البيزنطيين منذ انعقاد المجمع المسكونى فى فلورنسا عام ١٤٣٩ ، جاءوا الى فلورنسا بخلافاتهم الفكرية العميقة ، فكانت منهم شيعتان : شيعة تتبع ارسطو وتضع الله خارج الـــكون ، وتفترض أن الانسان خلق عاقلا وقادرا على التمييز والاختيار ولذا يمكن حسابه وثوابه وعقابه ، وشـــيعة تتبع أفلاطون وتضع الله داخل الـــكون وتفترض أن فى العالم المـــادى أو الطبيعة روحانية تكسر بحضورها الدائم قوانين المادة وتعطلها .

وقد كان زعيم الأفلاطونية معلما يدعى فليثون تجاوز الأفلاطونية الى الأفلاطونية الجديدة ، أى فلسفة أفلوطين ، بل وتجـــاوز افلاطون فدعـــا الى فلسفة الهرامزة ونبيها هرمز « المثلث العظمات » ، كما يسمونه . فاستدعى الى القسطنطينية واتهم بالزندقة ، وبعد موته فى ١٤٥١ أحرقت بعض كتبه .

واستأنف دعوة فليثون فى فلورنسا المفكر الايطالى مارسيلو فيتشينو (١٤٣٣ — ١٤٩٩) وهو من فلورنسا . وكان فيتشينو ابن طبيب كوسيمو دى مديتشى ، وقد جعله كوسيمو مؤدبا لحفيده لورنزو دى مديتشى منـذ صباه . وكان أصلا من شيعة أرسطو ولـكنه تحول الى الأفلاطونية وترجم أفلاطون الى الايطالية . وأعاد فيتشينو افتتـاح « أكاديمية » أفلاطون فى قصر كوسيمو دى مديتشى ، مع آخرين من مفكرى عصره ، وكان يحتفلـون كل ٧ نوفمبر بذكرى ميلاد أفلاطون وذكرى وفاته ، تماما كما كان يفعـل أفلوطين وبورفير (فرفريوس) وتلامذة أفلاطون العظام ، فكانوا يجلسون حول مائدة عليها مصباح . وكان لورنزو الصبى يشارك فى هذه الاحتفالات والطقوس . وبتشـجيع من كوسيمو أصبحت الأفلاطونية الحـديثة هى الفلسفة الرسمية لآل مديتشى . ولا غـرابة فى ذلك ، فقـد اقترن ظهور البورجوازية الأوروبية بالثورة على العقل وبالقلق الوجودى وبرفض المنطق الصورى وكل فلسفة تنادى باستقرار قوانين الوجود واستقرار العلاقات بين البشر على غرار ما كانت تفعل الارستقراطية .

ولـما بلغ لورنزو دى مديتشى مبلغ الشـباب ، أصدر قرارا فى ٢٢ ديسمبر ١٤٧٢ بنقل جامعة فلورنسا القديمة (الاستوديوم) الى بيزا ، ثانى مدن أقليم توسكانيا ، وعين نفسه أحد خمسة أعضاء فى مجلس الجـامعة لتصريف شئونها ، كل ذلك مع اتصال رعايته لأكاديمية فلورنسا التى كان يرأسها فيتشينو . وقد أنفق لورنزو على الجامعة وعلى الأكاديمية الكثير من ماله الخاص .

أما أعمال لورنزو دى مديتشى فهى بالايطالية ، فهو لم يكتب شـيئا باللاتينية ، وهى ديوان « أمبرا » ، وديوان « غابـات الحب » ، وديوان « أغانى الرعاة » . وقد استوحى فى هـذه الدواوين أسـاطير اليونان والرومان ، واشعار أوفيد وستاتيوس . وله أيضا ديوان « المجادلات » (١٤٧٣) ، الذى يسمى أحيانا ديوان « الملك الصالح » .

وديوان « المجادلات : أو الملك الصالح » قصيدة مطولة من سـتة أقسام ، حيث يسمى الشاعر نفسه « لورو » أى صاحب الغار ، ونجده يفر من مضايقات المدينة ويعتزل فى الريف ، حيث يلتقى بالراعى الفيو . وفى الحوار نسمع حـديثا عن مباهج المدينة ومساوئها ، وعن مبـاهج الريف ومساوئه ، دون أن نخرج بنتيجة محددة . وفى القسم الثانى الى الخامس من هذه القصيدة نجد الفيلسوف فيتشينو ينضم الى الشـاعر والراعى ، ويشترك الثلاثة فى حوار فلسفى حول معنى السعادة الحقيقية فى الحيـاة .

وفى هذا الحـــوار نسمع فيتشينو يقول ان السعادة المادية زائلة ، لأن القوة والصحة والجمال كلها اشياء زائلة . اما الســـعادة الروحية فهى نوعان : سعادة مستمدة من الحواس ، وهذه زائلة . وسعادة مســـتمدة من العقل ، وهذه دائمة . والسعادة العقلية نوعان : فطرى ومكتسب . والفطرى أرقى من المكتسب . والفضائل المكتسبة نوعان : عملى وتأملى ، والتأملى أرقى من العملى . الفضائل التأملية هى التى تؤدى الى السعادة الحقيقية ولبلوغها يجب فصل الروح عن المادة ، والسعادة الحقيقية هى فى تأمل الله ، وهذا التأمل يحتاج الى الارادة والى الحب . فالموازنة بين الريف والمدينة عبث فى عبث ، لأن سلام النفس يأتى من السمو الذاتى سواء اكنا فى الريف أو فى المدينة . وقد كان هذا الديوان مجرد أصـــداء لرسالة كتبها فيتشينو « فى السعادة » ، ولـــكن بلغة غنائية تعطيه طعما خاصا وقيمة خاصة .

كذلك اكتشفت حديثا (فى ١٨٦٤) فى أرشيف دولة فلورنسا مخطوط روايتين قصيرتين يظن أن لورنزو دى مديتشى كتبهما عـــام ١٤٧٠ ، وهما رواية « يعقوب » ورواية « جينرفا » . والروايتان من نوع « ديكاميرون » بوكاشـــيو .

وموضوع « يعقوب » هو أن شـــابا من فلورنسا أسمه فرانشسكو كان يدرس فى سيينا عشق فتاة اسمها كاساندرا (٢٥ سنة) متزوجـــة من تاجر مسن ثرى عمره ٨٠ سنة . وابتكر فرانشسكو حيلة تجعله يعاشر كاساندرا بموافقة زوجها ، فاتفق مع غانية أن تعيش معه على أنها زوجته ثم تغوى الغانية التاجر العجوز ، وبعد ذلك تتظاهر بالندم وبرغبتها فى التكفير ، وتقنع الغانية العجـــوز بنفس الشىء ، ويعترفان أمـــام قس فرانسسكانى متواطؤ فيدل القس التاجر على طريق التـــكفير ، وهو أن يسمح التاجر للشاب فرانشسكو أن يضاجع زوجته ، وهكذا ينتقل الشاب الى منزل التاجر العجوز ليقيم معه ! .

أما رواية « جينرفا » فيسيطر عليها أسلوب بترارك فى الحب العذرى: جينرفا فتاة عمرها ١٥ سنة تعيش فى قصر ابيها فى بيزا ، واسم ابيهـــا جريفى . ويعشقها شاب اسمه لويجى من أسرة لانفرانكى العريقة ويدخل لويجى بيت الفتاة عن طريق صديق له اسمه مافيو جريمالدى . ويتوقف المخطوط بعد أن يقتحم الشاب غرفة محبوبته الجميلة ، وهنا تبدأ التنهدات والعبرات الساخنة وعهـــود الحب الملتهب بالأســـلوب الشـــاعرى الذى استقر فى أدب فلورنسا منذ دانتى فى ديوان « الحياة الجديدة » وبترارك

فى « الأغانى » ، وهو « الأسلوب الحـــلو الجديد » كما كانوا يسمونه فى انتقال التعبير الأدبى من اللاتينية الى عاميتها الايطالية .

وربما كان أدب لورنزو دى مديتشى أدبا من الدرجتين الثانية أو الثالثة، ولـــكن الذى لا شـــك فيه أن لورنزو كان حلقة هـــامة فى تاريخ حركة الرنيسانس بفضـــل رعايته للفنـــون والآداب فى عصره ولتراث اليونـــان والرومان القدماء وكافة ما يسمى العلوم والدراسات الانسانية ، وكذلك بفضل رعايته لجامعة بيزا وحمايته لحرية الفـــكر ، فهو الذى فتح قصره للمفكر بيكو ديللا ميراندولا وحماه من غضب البابا ، كما فتح قصره للمفكر فيتشينو ومريديه من مجددى مدرسة الأفلاطونية الحديثة فى عصر النهضة الأوروبيـــة .

لقد كان لورنزو دى مديتشى رغم كل دعاواه بزوال المـــادة وبخداع الحواس عاشقا للحياة وللجمال ولمجد الانسان .

●●●

SS

سافونارولا
SAVONAROLA
١٤٥٢ - ١٤٩٨

١

الثيوقراطي الأول

□ اقترن عصر النهضة الأوروبية بحركة متميزة فيه تعرف بحركة الاصلاح الديني . وكانت حركة الاصلاح الديني حركة احتجاج على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وممارسات باباواتها وكرادلها ورجالها من جهة وحركة احتجاج على الدعوة الانسانية أو المذهب الانساني (الهيومانزم) من جهة أخرى .

وكان أول من بدأ حركة الاصلاح الديني في ايطاليا راهب اسمه سافونارولا من مدينة فيرارا ، وكان من نقائض الأمور أن هذا الراهب الذي كان يبشر « نظريا » بنفس التعاليم التي تبشر بها الكنيسة الكاثوليكية كان أكبر مندد بفساد هذه المؤسسة الدينية في زمانه وباقبالها على الدنيا بدلا من تجردها لعبادة الله وتفرغها للعمل الصالح . بل ولقد أتهم سافونارولا الكنيسة الكاثوليكية بالجاهلية والوثنية لاهتمامها بالطقوس والشعائر أكثر من اهتمامها بالروحانيات ، ولاهتمامها بعلوم القدماء وآدابهم وفنونهم أكثر من اهتمامها بالانجيل .

وبمثل هذه الضراوة هاجم سافونارولا العلوم والآداب والفنون الدنيوية ، وهاجم الفلاسفة والشعراء والناثرين القدماء منهم والمحدثين ، من أفلاطون وارسطو الى شيشرون وفرجيل وهوراس الى بترارك وبوكاشيو .. هاجم كل هؤلاء لأنهم يلهون الناس عن ذكر الله . وبمثل هذه الضراوة هاجم سافونارولا رجال الدولة وأعيانها ومن يجمعون كنوز الدنيا واتهمهم بالطغيان والفساد وبتزيين الترف والرذيلة للرعية .

ومن فيرارا نزل سافونارولا على فلورنسا . نزل عليها كالاعصار في أواخر عهد لورنزو دي مديتشي . وما أن مات لورنزو حتى حكم سافونارولا

فلورنسا ، حكمها ملكا غير متوج ، حكمها من منابر الكنائس ، حكمها من صومعته فى دير سان مارك ، حكمها سبع سنوات من ١٤٩٢ الى ١٤٩٨ ، حين تكاثر عليه أعداؤه فصدر عليه قرار الحرمان وحاكموه ، وحكموا باعدامه شنقا وحرقا .

ولد جيروم سافونارولا فى ٢١ سبتمبر ١٤٥٢ ، فهو بذلك كان يصغر لورنزو دى مديتشى (١٤٤٩ — ١٤٩٢) بسنتين أو بثلاث سنوات ، ونشأ وتعلم فى موطنه فيرارا . وكان جده ميشيل سافونارولا طبيبا نابها وعالما معروفا يعمل استاذا بجامعة فيرارا ، وكان الطبيب الخاص لدوق إستا ومؤدب ولى عهد فيرارا . أما أبوه نيكولو سافونارولا فقد كان رجلا خامل الذكر له ثلاثة أولاد ، اشتغل أكبرهم بالجندية ، وكان أوسطهم خاملا كأبيه، أما أصغرهم وهو جيروم فقد ظهرت عليه علامات النجابة فكفله جده الطبيب حتى سن السادسة عشرة .

وكان الجد يريد لحفيده أن يكون طبيبا مثله ، ولكن الفتى جيروم كان محبا للعزلة مقبلا على الأدب الدينى ، شديد التقوى ، وقد اخذ تقواه عن جده ولكنه بالغ فيها . فبدا عليه الضيق من اقبال شباب جيله الطائش على الترف والملذات .

وذات يوم اختفى الشاب جيروم سافونارولا من فيرارا فى ٢٦ أبريل ١٤٧٥ ، وكان عمره يومئذ اثنتين وعشرين سنة ، ودخل دير سان دومنيك فى مدينة بولونيا ، بعد أن ترك لوالده خطابا يفسر فيه تصرفه بأنه فرار من « شقاء العالم ومن فساد البشر » ، كما أرسل لوالده كتابا كان قد ألفه بعنوان « احتقار الدنيا » . قال سافونارولا فى رسالة الوداع التى تركها لأبيه ان عصره قد هبط الى الحضيض بحيث لم يجد فيه شخصا واحدا قادرا على فعل الخير . لقد كان يصغى كالمسحور لكلام جده التقى وهو ينعى على شباب العصر خفته وطيشه ، فالشباب يبادرون الى أغانى الغرام بدلا من أن يقصدوا الى الكنيسة ليرتلوا المزامير فى صلاة المغرب . لقد تركت تقوى الجد أثرا عميقا فى نفس الحفيد ، فلم يعد يرى عاصما من شرور الدنيا الا الارتماء فى أحضان الدين .

وقبل أن يدخل سافونارولا الدير توفى جده ، فانتقل الاشراف على تعليمه الى ابيه وأدخله أبوه الجامعة وهو فى الثامنة عشرة من عمره . وثار سافونارولا على أساتذته لكثرة ما رآه من منافسات وشحان ، وللطاعة العمياء التى كانوا يفرضونها على تلاميذهم ليرددوا آراءهم ، ولأنهم كانوا

لا يتقنون الا البلاغة الجوفاء وأساليب الجدل الأجوف . فقطع سافونارولا دراسته الجامعية وعاد الى دار أبيه فى فيرارا .

وكانت اسرة سافونارولا اسرة معلقة بين الارستقراطية والبورجوازية . فقد كان جده مؤدب ولى عهد دوقية استا . وكان سافونارولا الشاب يخالط اقرانه من الشباب الماجن فى بلاط كورسو دوق استا ، ولكنه لم يكن يجد متعة فى لهوهم وسمرهم ومجونهم . وقد زاد من عقده انه لم يكن وسيما ولا نبيلا بالمولد ولا مثقفا واسع الثقافة . فانسحب من البلاط كما انسحب من قبل من الأكاديمية أو من الجامعة .

وزاد الامر تعقيدا انه ذات يوم سكنت بجوار دار سافونارولا فى فيرارا اسرة البنكير الشهير استروتزى التى جاءت منفية من فلورنسا فى عهد لورنزو دى مديتشى . وكانت لاستروتزى بنت شابة غير شرعية تقيم معه ، نفاذة العطر فاتنة الثياب ، ويبدو أنها استطاعت أن توقع سافونارولا الشاب فى حبائلها ، فقد كانت نافذتها قبالة نافذته فى حارة ضيقة من تلك الحارات التى اشتهرت بها المدن فى العصور الوسطى . ويتيم سافونارولا بحبها . وذات يوم عرض عليها الزواج من النافذة ، فأشاحت بوجهها فى اعراض واستكبار ، وغضب سافونارولا غضبا أعمى وصاح فيها : « يا ابنة الزنا » ! ثم اغلق نافذته بحدة شديدة .

ثم تدهورت أحوال الأسرة المادية ، فأخذ أبوه يشكو من الضائقة المالية . وكانت له أختان لا تملكان بائنة (دوطة) للزواج . أما أمه فكانت تحتفظ بكبرياء المال الذى كان ولم يعد . وبعد عام كامل من المداولات النفسية اتخذ جيروم سافونارولا ذلك القرار الذى كان يعلم انه لا رجعة فيه : قرار دخول الدير .

ومع ذلك فمنذ ذلك الخطاب الأول الذى تركه سافونارولا لوالده معتذرا عن اختفائه الفجائى ومفسرا قراره بدخول الدير ، نلاحظ بعض العبارات غير المألوفة التى توحى بأننا بازاء شخصية غير مألوفة .

فهو فى مكان ما من الخطاب يقول لوالده : « من اجل هذا اناشدك يا أبى العزيز أن تضع حدا لأحزانك والا تسبب لى مزيدا من الاحزان والأشجان فوق ما اعانى منه الآن . وليس ذلك لندمى على ما فعلت ، فأنا لن اغير مما فعلت شيئا ، ولو اعتقدت انى سأكون أعظم من قيصر ، ولكن لانى مثلك مخلوق من لحم ودم » . والفكرة هنا غريبة ، أن يتصور سافونارولا الشاب فى هذا السياق انه كان يمكن أن يتجاوز قيصر فى عظمته لو انه

عدل عن تخصيص حياته لخدمة الله . ومن يعرف شيئا عن المسيحية يعرف أن المقابلة تجرى دائما بين ملك قيصر فى الأرضين وملك الله فى الأعالى . هناك اذن ما يوحى بأن هذا الفتى الغريب الأطوار انما كان منذ البداية يحلم بامبراطورية فى الأرض أو فى السماء ، بل هناك ما يوحى بأن حلمه بامبراطوريته الروحانية ليس الا بديلا عن حلمه بامبراطوريته المادية ، وهذه درجة متقدمة من الاحساس بالعظمة الذى يسميه علماء النفس « الميجالومانيا » أو جنون العظمة ، وهو ملازم لأكثر العباقرة وقادة البشر مهما استخفى تحت أقنعة التواضع والزهد فى الحياة ومجدها .

وفى هذا الخطاب نفسه يقول الفتى سافونارولا :

« اهدنى يا الله الى الطريق الذى ينبغى على أن اسلكه حتى استطيع أن ارتفع بروحى اليك » .

« عندئذ هدانى الله وقت أن اذنت مشيئته الى الطريق برحمته اللانهائية ، وتلقيت الوحى رغم انى لم أكن أهلا له » .

ما هذا الكلام ؟ اهو حقيقة أم مجاز ؟ ثم كيف يتاح لبشر — داخل الاطار الدينى التقليدى الذى كان يتحرك فيه سافونارولا — أن يرتفع بروحه الى مقام عرش الله الا أن تكون به درجة من درجات التأله ؟ ثم ما هذا الحديث عن وحى يوحى لمجرد دخول رجل صومعة الدير ؟ أم ترى سافونارولا يتوهم نفسه نبيا جديدا ؟ لو أنه شاعر أو صوفى لقبلنا منه كل هذه الرموز . ثم ما هذه الفكرة الملحة فى هذا الخطاب ، فكرة الاستشهاد فى سبيل المسيح . « ان المسيح قد تنازل واختاره ليجعل منه احد فرسانه المجاهدين » . و « هو يؤثر أن يموت الف مرة قبل أن يخذله » و « هو سيقدم جسده قربانا للمسيح » وهكذا .

ويعلن سافونارولا لأبيه « أولا : ان الدافع الذى يدفعه للاعتصام بالدين هو : الشقاء العظيم فى الدنيا وظلم الناس للناس والشهوانية وجرائم الزنا واللصوصية والكبرياء والوثنية والتجديف الفظيع من كل ما لوث العصر وجعل من المحال أن نجد فيه رجلا قادرا على فعل الخير » و « لذا فأنا كثيرا ما أردد كل يوم وسط عبراتى بيت فرجيل القائل : اهرب من الدنيا الخ .. ومن أجل هذا لم اعد احتمل عدوان شعوب ايطاليا العمياء القلوب ، ولا سيما حين أبصرت كل الفضائل تداس وكل الرذائل تعظم » .

وهكذا دخل جيروم سافونارولا دير سان دومنيك فى بولونيا بايطاليا وأصبح واحدا من الرهبان الدومنيكان بعد سنتين من دخوله (١٤٧٧) . وهناك عرف عنه انه كان يتعمد اذلال نفسه لسحق كل مظهر من مظاهر الكبرياء ، فكان يختار من الواجبات أقساها على النفس مثل خدمة الرهبان على المائدة وغسل الصحون والكنس وتنظيف المراحيض وغسل أقدام الرهبان المسنين . وكان سلك الرهبان الدومنيكان معروفا فى أوروبا كلها بأنهم من أوسع فرق الرهبان علما ومعرفة بالعلوم الفلسفية كالميتافيزيقيا والمنطق واللاهوت واصول الدين ، بل ومن أوسعهم علما بالعلوم الطبيعية. فكان يقول : أنا لم أدخل الدير لكى استبدل بأرسطو الصومعة أرسطو الجامعة » .

ولأنه كان متعلما فقد كانت له صومعته الخاصة به ، ومع ذلك فقد كان لا يقرأ الا الكتاب المقدس وسير القديسين وكان يستنكر فى اخوانه الرهبان اقبالهم على دراسة علوم الدنيا أو تبحرهم فى الفلسفة . وصدمه أن وجد رؤساءه فى الدير لا هم لهم الا توسيع سلطات الدير وزيادة ثروته والارتقاء بالعلم فنيه ، وكان دائم المقارنة بين حالهم هذا وحال حوارى المسيح البسطاء وآباء الكنيسة الأولين .

لقد كان يعد نفسه ليكون واعظا يهدى الناس من المنبر الى طريق الله والفضيلة والحياة الأخرى . ولذا فمن أكبر الخطأ أن نتصور أن سافوناورلا كان رائدا من رواد حركة الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية ، فقد كان على العكس من ذلك قمة العصور الوسطى الأوروبية بما كانت تمثله من انصراف كامل عن الحياة الدنيا واعداد كامل للحياة الآخرة وسحق كامل للانسان ومجد الانسان . واذا كان سافونارولا قد دخل فى تناقض ثم فى صراع مع بابا روما والكنيسة الكاثوليكية ، فما ذلك الا لما رآه من انحراف الكنيسة عن طريقها القويم ومن تنكر الكنيسة لمبادئها الأساسية ، وما ثورته الا ثورة الأصولية الدينية على « المؤسسة » الدينية أو ثورة السلفية الفتية على السلفية الهرمة .

وبعد ست سنوات من الحياة فى الدير بين بولونيا وفيرارا بدأ سافونارولا حياة الواعظ . وكانت بداياته فاشلة ، فقد كان صوته ضعيفا وعباراته متلعثمة من فرط الخجل ، ولكنه فى النهاية سيطر على فن الخطابة بعد تجارب مريرة . وقد كان أمامه طريقان : أن يعمد الى فن المثل ليسيطر على جمهوره ، وأن يختار من الموضوعات لمواعظه ما يجعله يلتهب روحا وجسدا كما كان يفعل الأنبياء الوعاظ كلما تحدثوا عن يوم القيامة ، فاختار هذا الطريق الأخير . فكان دائم النظر فى « سفر الرؤيا » وفى أسفار العهد القديم التى تنذر بالغضب الالهى .

كان فى التاسعة والعشرين من عمره حين اغلق دير الدومنيكان فى فيرارا بسبب نعرض المدينة للغزو ، فنقل من فيه من الرهبان الى أديرة شتى . وكان من نصيب سافونارولا أن ينتقل الى دير سان مارك فى فلورنسا عام ١٤٨١ .

وكان وعاظ فلورنسا أساتذة متقفين فى علم البلاغة ، وكان زعيمهم راهبا يدعى الفرير (الأخ) ماريانو طبقت شهرته الآفاق ، يأسر ألباب الناس بالبلاغة والمنطق وكان سافونارولا ظاهر العجز أمامه لأنه كان لا يتقن الا لغة البساطة والصدق فأكب على سفر « الرؤيا » يدرسه ويتمثله ويقلب معانيه . وما أدراك ما سفر « الرؤيا » فهو ذلك السفر الذى ينذر البشر باقتراب علامات الساعة بسبب كثرة ذنوبهم واوزارهم ، ويتوعد الخطاة بنهاية العالم بالكوارث الكونية الرمزية ويفتح أمامهم هاوية الجحيم بعد أن يرفع الله الأبرار الى الملكوت مع المسيح القادم فى آخر الزمان كما جاء فى العقيدة المسيحية .

ووجد سافونارولا فى هذا الموضوع المثير حلا لجميع مشاكله . وهكذا بدأ فى فلورنسا تلك السلسلة العاصفة من المواعظ التى خبا أمام وهجها ضياء الفرير (الأخ) ماريانو ، وانتهت به الى أن اصبح ملكا غير متوج على فلورنسا يكاد يعبده الكثيرون من دون الله ، يقيم من الحكام من يشاء ويسن من الشرائع ما يشاء ويحكم فلورنسا بقوانين حديدية استمدها من الكتاب المقدس أو استوحاها من روحه بوصفها قوانين الهية . فكان سافونارولا أول مؤسس للثيوقراطية فى العالم المسيحى ، ومعناها الحرفى « حكومة الله » ، حتى دالت دولته بعد ست سنوات وأعدم وأحرقت جثته مع راهبين من اتباعه المخلصين فى ١٤٩٨ .

نعم هذا ما دعا له سافونارولا : لقد فسد العصر وسبب فساده هو فساد الكنيسة التى نخر السوس فى عظامها فلم يعد يرجى لها علاج . فما الذى كان يجذب الناس الى الكنيسة ؟ الطقوس والبلاغة والموسيقى والمناظر الشبيهة بمناظر النياترو . ولماذا يهتم الناس بالدين ؟ من اجل المنافع والرخاء والنفوذ السياسية — لقد مات الايمان وقاتله هو الكنيسة نفسها . وكيف كان ذلك ؟ لأن مادية العصر سممت كل شىء فيها . من الجذور حتى أطراف فروعها .

كانت الفضائح فى روما مركز البابوية تزكم الأنوف . الأصل فى العقيدة الكاثوليكية أن رجال الدين لا يتزوجون ، وأن الرهبان ومنهم الكرادلة والبابوات ، ينذرون لله ثلاثة نذور يوم يدخلون باب الدير : نذر العفة

ونذر الفقــر ونذر الطــاعة . وها نحن نرى البابا اسكندر الســادس (١٤٣١ ــ ١٥٠٣) جهارا نهارا له ثلاثة أولاد غير شرعيين هم : سيزار بورجيا دوق أوربينــو (١٤٧٥ ــ ١٥٠٧) ولوكريس بورجيا (١٤٨٠ ــ ١٥١٩) ودوق كانديا ، وها نحن نرى البابوات يبيعون صكوك الغفران ، وها نحن نرى البابوات يرهبون مخالفيهم بقرارات الحرمان ، وها نحن نرى رجال الدين من راس الــكنيسة الى أصــغر كاهن يكنزون المــال ويقتنون الضياع .

لقد ساءت سمعة الــكنيسة فى عصر سافونارولا حتى غدا الناس يتندرون بقولهم عن قسيس « إن ســمعته الطيبة تتنــافى مع انتســـابه للــكنيسة » . وكان اسم رجال الدين مرادفا للطفيلية والــكسل . وكانت العامة تقلد صوت اجراس الأديرة قائلة « داندو ! داندو ! » ، أى هات ! هــات !

●●●

وبدا سافونارولا يرى الرؤى فى نوبات من البحران وفى المنــام . وذات يوم خيل اليه أنه يرى السماء تنشق فوقه وتوهم أنه سمع صوتا يأمره بأن يعلن فى الناس أن الله سوف يرسل ضرباته على العالم ليقتص من فساد الــكنيسة . وروى هذه الرؤيا على تلميذ من تلاميذه فى الدير يدعى الفرير سلفستر ماروفى كان هو نفسه مصابا بمرض السير فى النوم ، فارتاع لهذه الرؤيا وحذره من مغبتها . ولكن تجاوبا قويا حدث بين هذين الرجلين المصابين بمرض الهلوسة أو انكشاف الحجاب .

وقبل أن يعود سافونارولا الى الاستقرار فى فلورنسا نجده يجوب أرجاء لومبارديا سنوات واعظ أرياف لأنه لم يكن بعــد مهيــأ لفلورنســا المثقفة العقل والقلب أو لم تكن فلورنسا بعد مهيأة للقاء هذا المتنبى النذير بعظائم الأمور .

فى ١٤٨٢ أوفده دير ســان مارك الى ما يشــبه مؤتمر الدومنيكان فى ريجيا أميليا حيث استلفت سافونارولا الأنظار بكلامه العنيف عن فســـاد الــكنيسة . وكان الفيلسوف الشاب الكونت بيكو ديللا ميراندولا ، صديق لورنزو دى مديتشى ، عاهل فلورنسا حاضرا هذا الاجتماع فلاحظ شــدة الحماسة وقوة اليقين التى كان يتحدث بهما سافونارولا . وقــد كان هــذا اللقاء هو بداية سيرة سافونارولا فى فلورنسا بعــد طوافه ســنوات فى لومبارديا ، لأن بيكو ديللا ميراندولا توسط عند لورنزو دى مديتشى لدعوة سافونارولا الى دير سان مارك من جديد بسبب شدة افتتانه به .

سبع سنوات قضاها سافونارولا يجوب قرى توسكانيا لومبارديا واعظا ومنددا بفساد الكنيسة ، وكأنه زعيم من زعماء التكفير والهجرة . فى ١٤٨٤ و ١٤٨٥ نراه فى سان جيمنيانو يتنبأ بأن الغضب الالهى سوف يحيق بالكنيسة وشيكا وبأن الكنيسة سوف تتجدد وتعود اليها نضارتها . وفى ١٤٨٦ نجده فى بريشيا يتنبأ بتدمير هذه المدينة ونزول القصاص الالهى على ايطاليا كلها ، فلما احتل الفرنسيون بريشيا وخربوها تذكر الناس نبوءة سافونارولا .

ووصل سافونارولا من لومبارديا الى دير سان مارك فى فلورنسا بدعوة من عاهل فلورنسا لورنزو دى مديتشى ، بناء على تزكية من بيكو ديللا ميراندولا .. وصل الدير سيرا على الأقدام مئات الأميال وفى حالة اعياء تام بسبب كثرة الصوم واجهاد الطريق . ومرض بضربة الشمس فقادوه الى خان فى الطريق واسعفوه حتى استطاع أن يواصل سفره الى فلورنسا .

وفى دير سان مارك وجد كل شيء على حاله ، ووجد الأخ (الفرير) سيفلستر الذى كان يشاركه رؤاه وتنبؤاته . وبدأ موعظته الأولى بعد غيبته الطويلة ، فكان موضوعها : ضياع الايمان وظلم العالم وفساد الكنيسة . وكان سافونارولا فى فترة غيبته قد اكتسب شهرة واسعة ، فتجمهر الناس ليسمعوه حتى ملأوا كنيسة سان مارك وملأوا معها حديقة الدير . واخذ آية من سفر الرؤيا وبنى عليها موعظته : أن القصاص سينزل بالكنيسة ، وأن الكنيسة سوف ترد اليها روحها ويتجدد شبابها ، وأن كان ذلك سوف يتم فى أجل وشيك .

وتدفق سافونارولا فى الارتجال مشتعلا عنيفا هائجا متوعدا كأنما استولت عليه روح شيطانية . لم يعد ذلك الراهب الشاب الخجول المتلعثم الذى سبق أن سمعه أهل فلورنسا قبل ذلك بسنوات فى كنيسة سان مارك وانفضوا من حوله مللا . لقد تحول سافونارولا الى مبشر جماهيرى أشبه شيء بخطباء الرعاع الذين يسيطرون باللا عقل على العامة والبسطاء بقوة مغناطيسية لا تقاوم : يزفرون لهبا فتتقد القلوب فى الصدور ويندبون مصير البشرية الأليم فتنهمر من العيون العبرات ويذكرون الناس بيوم الحشر فتتخلع الأفئدة هلعا . وبنفس هذه الدورة المغناطيسية دخل هو أيضا نفس المجال ، فسيطرت عليه الجماهير كما سيطر هو على الجماهير .

وكانت هذه بداية مجده الحقيقى .

وكان ذلك فى أول أغسطس ١٤٨٩ .

SS

٢

تكفير المجتمع

□ كان لورنزو دى مديتشى ، عاهل فلورنسا ، لا يزال حيا حين عاد سافونارولا الى دير سان مارك بفلورنسا وبدأ « جهـــاده » المسيحى ، « بطريقة الرسل أو حواريى المسيح ، وبلا تنميق ، وبلا ايفيهات مسرحية ، وبلا طرح للقضايا » ، ومع ذلك فقد كان يكهرب جمهوره بعاطفته الجياشة الصادقة وبتنبؤاته .

وضاقت كنيسة سان مارك ومعها الدير عن استيعاب جمهوره فكان يعظ أهل فلورنسا فى « الدوم » أى « القبة » فيخاطب جمهورا من عشرة آلاف شخص ، ومهما كان فى هذا التقدير من المغالاة فهو يعطينا فكرة عامة عما كان يجرى فى فلورنسا فى تلك الأيام .. فقد كان الناس يتجمعون منذ الفجر ليحظوا بمكان قريب من المنبر ، أما العقلاء فقد كانوا يرون فيه مجرد دجال وخطيب رعاع وشحاذ للعواطف . وهذا نموذج من موعظـــة له فى أسبوع الآلام :

« ابك يـــا قلبى ، ابك يا روحى ، واذرف يا عينى دموعا من دموع الروح والقلب ــ ابكوا معى كبارا وصغارا ، نساء ورجالا ، خطـــــاة وصالحين ، أغنياء وفقراء ، كهنة ومدنيين ، إبكوا جميعا على هذا الموت الفاجع ، انتحبى أيتها النجوم ، وانتى أيتها الأرض انتحبى ، ولتنتحب كل عناصر الطبيعة وكل مخلوقات العالم لموت فادينا ومخلصنا المسيح » .

ومثل هذا كثير ، حتى سماه أعداؤه « البكاء » . وكان مكيافيللى الشاب «١٤٦٩ ــ ١٥٢٧» يستمع اليه فى استخفاف ويسميه «قربة من الكلام» . ومع ذلك فقد كان كلما خطب يجعل الناس يتحسرون وينشجون ندما على ذنوبهم وخطاياهم ويرتعدون خوفا من مواجهة ربهم يوم القيامة . وكان كلما صعد المنبر يتقمصه روح هائج يسميه « روح الله » يحل عقدة لسانه ويجعلـــه يصب حمم الغضب الالهى على آثام البشر . فان نضب ما لديه من حمم عمد

الى التنبؤ وأحاديث الرؤى ليسيطر تماما على جمهوره . وكان جمهوره يؤم مواعظه كما يؤم المسرح طلبا للانفعال . وبعد أن يجهدهم الانفعال يتفرقون ليجددوا حيويتهم فى الحانات والخمارات .

كان سافونارولا يندد باستمرار بنقائص الرجال التى تهدم الأسرة : يندد بالسكر والميسر والانحلال الجنسى وما شاكل ذلك ، فوجد فى نساء فلورنسا عضدا قويا . كذلك كان دائم التنديد بالربا وبالجشع للمال وبالاقبال على ملذات الحياة وعلى حياة الترف بين المواطنين ، ودائم التنديد بانحلال رجال الدين بل واباحيتهم وطمعهم فى مغانم الدنيا واتجارهم بالدين واهتمامهم بالطقوس أكثر من اهتمامهم بجوهر الايمان . ثم دخل سافونارولا منطقة المحظورات ، فكان يندد باستمرار فى مواعظه بطغيان الحكام وبفساد الطبقة الحاكمة وبالاستبداد السياسى وبالمظالم الواقعة على الفقراء . وهنا دخل فى تناقض مع « لورنزو دى مديتشى » والحزب الكبير الموالى له الذى اتهم سافونارولا بأنه تحول من واعظ اخلاقى الى مهيج سياسى ديماجوجى يؤلب الرعاع على النظام القائم فى فلورنسا باسم الديمقراطية .

ولكى يزيد سافونارولا فى سيطرته على الناس أخذ يتوهم أو يوهم الناس بأنه موحى اليه وان الكلام الذى يجرى على لسانه من عند الله . قال لصاحبه الفرير « سيلفستر » إنه يشعر بأن الصليب واسم الله منقوشان على صدره . وكذبه الأخ سيلفستر أول الأمر رغم انه كان من السائرين نياما ، ولكنه لم يلبث أن صدقه حين توهم أنه رأى فى الرؤيا الملائكة تقول له ان سافونارولا « حبيب الله » فهو صادق فى كلامه . وكان هناك راهب آخر من تلاميذ سافونارولا اسمه الأخ « دومنيك » ، وكان يؤمن به ايمانا أعمى فى كل ما يقول . أما أهل فلورنسا فقد انقسموا فى أمره : البسطاء آمنوا بملكاته الخارقة والعقلاء رأوا فيه دجالا خطيرا .

مثلا ، قال سافونارولا فى احدى مواعظه التى هاجم فيها رجال الدين : « أنا لم اكن أريد أن أتكلم باسمك يا الهى ، ولكنك كنت أقوى منى فسيطرت على وصارت كلمتك مثل لهب يحرق نخاع عظامى ، ولهذا أصبحت موضع احتقار الناس وبغضهم . ولكننى رغم هذا أنادى الله ليلا ونهارا وأقول لكم ان الفجر الجديد وشيك البزوغ » .

ويبدو أن سافونارولا كان يدرك خطورة ادعائه بأنه شبه نبى يوحى اليه ، فقد كتب قائلا : « اذكر أنى كنت أعظ فى القبة عام ١٤٩١ وكانت موعظتى قد بنيت على هذه الرؤى ، وفكرت فى العدول عنها وفى الامتناع نهائيا فى المستقبل عن استخدام هذا الموضوع . والله شهيد على انى صليت

وصليت طوال النهار وطوال الليل حتى مطلع الفجر من أجل ذلك ، ولكن كل المسالك وكل الأفكار سدت أمامى . ونحو الفجر كنت مكدودا ضيق النفس بسبب طوال السهاد ، وسمعت صوتا يجيب على صلاتى بقوله : يا مجنون ! الا ترى ان الله يأمرك بأن تواصل السير فى نفس الطريق » .. وفى ذلك اليوم القيت موعظة رهيبة » .

وحين كثر تنديد سافوناروﻻ بالطغيان دعوه ليلقى موعظته فى قصر الحكومة فى فلورنسا على أعضاء السنيورية . وكانت موعظته حول واجبات الحاكم وواجبات المحكومين ، ولكنها سرعان ما تحولت الى تنديد بالطغاة والطغيان ، وكان سافوناروﻻ محددا فى كلامه فكان واضحا انه يتحدث عن لورنزو دى مديتشى .

ولم يغضب لورنزو ، فقد كان سياسيا متمرسا ، فتجاهل الاهانات المسددة اليه بالايحاء ، وحين نبهه أعوانه الى خطورة سافوناروﻻ والى وقاحته لم يزد تعليقه عن قوله انه على استعداد لأن يغفر له سوء أدبه اذا استطاع ان يصلح من اخلاق اهل فلورنسا وانه يتمنى له التوفيق فى عمله . لقد كان واضحا له أن سافوناروﻻ كان يخالط أعداء آل مديتشى السياسيين ويستقى منهم فكرته عن البيت الحاكم فى فلورنسا . لقد كان اجنبيا من فيرارا وﻻ يعرف الكثير عن سراديب الحياة السياسية فى فلورنسا ، ولم يكن هناك من داع للاشتباه فى تواطؤه مع اعداء لورنزو دى مديتشى .

وفى يوليو ١٤٩١ انتخب سافوناروﻻ رئيسا لدير سان مارك . ولما كان سان مارك قد بنى بأموال آل مديتشى ويعيش على دعمهم المادى المستمر ، فقد جرت العادة أن يقوم كل رئيس جديد للدير بزيارة مجاملة لرئيس الدولة . ولكن سافوناروﻻ رفض أن يخضع لهذا التقليد قائلا : « أنا مدين بانتخابى ولن أقدم فروض الاحترام لغير الله . ولم يغضب لورنزو دى مديتشى لذلك وانما عده مجرد نقص فى التربية . وكان دائما يشير الى سافوناروﻻ بقوله « هذا الأجنبى » الوافد من فيرارا .

كان هناك صراع صامت بين الرجلين لم يظهر على السطح ابدا . كان لورنزو رجلا متواضعا فى رفعة ﻻ افتعال ، لطيف المعشر يصعب على اى انسان ان يقاوم سحره ورقته . وكان يريد أن يتعرف الى سافوناروﻻ لسبر غوره ولكن دون حرج ، غير أن عناد الراهب وقف دائما حائلا بينهما . كان لورنزو يذهب الى دير سان مارك ليتنزه فى حديقته آملا ان يخرج سافوناروﻻ للقائه ، ولكن سافوناروﻻ كان يقبع فى صومعته ﻻ يريم . وكان لورنزو يملك ان يرسل اليه من يستدعيه ، ولكنه كان يتحرج من اى مظهر

من مظاهر الاكراه . وكان سافونارولا يراه ويسأل « هل أرسل فى طلبى ؟ » فيقال : « لا » . فيقول : « فليتنزه كما يشاء » . المشكلة كانت : من منهما يسعى الى الآخر قبل صاحبه .

ولم يكرر لورنزو هذه التجربة ، وانما جرب شيئا آخر . وضع لورنزو فى صندوق نذور الفقراء الخاص بالدير خمسمائة من الفلورينات الذهبية ، وكان مستشار لورنزو قد انتحى جانبا ليشهد الموقف ، وفوجىء الرهبان بسافونارولا يفرز النقود الذهبية من النقود الفضية والنحاسية ويرسل بالقطع الذهبية الى جمعية خيرية لتوزيعها على الفقراء . وبعد فترة وجيزة اهدى بيكو ديللا ميراندولا مبلغا سخيا لدير سان مارك فقبله سافونارولا . وهنا فقط امتعض لورنزو دى مديتشى وبدأ يتحدث علنا عن عجرفة الراهب وعما يشيعه من الفضائح عنه وسط العامة . لقد كان سافونارولا يتصور أن لورنزو دى مديتشى كان يحاول أن يرشوه ليسكت عنه .

وكان الموضوع الذى لا يفتأ سافونارولا يردده فى خطبه هو طغيان لورنزو دى مديتشى . ولم يكن لورنزو طاغية بالمعنى المألوف . كانت فلورنسا جمهورية محافظ على هذا الاطار الشكلى اسوة بما فعله اسلافه من آل مديتشى ، ولم يعلن نفسه أميرا او دوقا ليجعل الملك وراثيا فى بيته بقوة القانون مكتفيا بأنه كان كذلك بقوة الواقع بحكم امبراطورية المال التى ورثها عن اجداده . كان لورنزو مجرد المواطن الأول فى جمهورية فلورنسا كما كان جده كوسيمو دى مديتشى ، ولكن سلطاته فى هذه الدويلة كانت بالفعل مطلقة لأن آل مديتشى كانوا بالفعل يسيطرون بنفوذ مالهم وحزبهم على انتخاب مجلس المائة والمجلس الحاكم ، فكانت السنيورية اداة طيعة فى ايديهم . ولكن لورنزو شخصيا لم يكن له حجاب وكان يمكن لأى مواطن أن يجذبه فى الشارع من ردائه ليستوقفه ويناقشه .

أما أن آل مديتشى قد جمعوا ثروتهم الطائلة من الربا فهذا لم يكن وقفا عليهم وانما من طبيعة النظام المصرفى الذى استقر فى المدن الايطالية منذ الحروب الصليبية ، وبغيره ما كان يمكن لتجارة او صناعة أن تقوم فى ايطاليا بأى معنى جاد . وكل التغيير الذى حدث هو أن البيوتات المسيحية بدأت تشارك فى عمليات التمويل بالربا وانشاء المصارف رغم التحريم الكنسى بعد أن كان ذلك وقفا على اليهود .

لهذا بدت حملة سافونارولا على آل مديتشى حملة ظالمة . وربما كان هناك وجه حق فى اشتباه البعض فى أن خصوم لورنزو السياسيين والماليين قد استغلوا سذاجة هذا الراهب « الأجنبى » وحماسه الأهوج

لتطبيق شريعة الدين المسيحى فى فلورنسا لاقامة مدينة الله على الأرض .

وأوفد لورنزو الى سافونارولا وفدا من خمسة اشخاص لتحذيره من اقحام الدين فى السياسة ، وأشاروا له من طرف خفى أن نفيه من فلورنسا أمر وارد اذا دأب على مهاجمة «الطاغية»، فكان جواب سافونارولا انّ أعلام القديسين : القديس دومنيك والقديس أنطونيوس والقديسة كاترين وغيرهم كانوا جميعا يتدخلون فى الحياة الدنيوية ، ثم أضاف : « قولوا للورنزو أن يتوب عن ذنوبه لأن الله لا يخشى أحدا ولن يستثنى من عقابه الحاكمين فى الأرض .. أما النفى فأنا لا أرهبه أبدا فمدينتكم هى مجرد « حبة عدس » على وجه الأرض ، وسوف تنتصر الدعوة الجديدة وتندثر الدعوة القديمة .. وأما كونى أجنبيا وكونه مواطنا ، بل والمواطن الأول فى المدينة ، فأنا باق هنا وهو راحل . نعم ، أنا باق وهو راحل » . وبعد ذلك بأيام أعلن سافونارولا نبوءته بموت لورنزو والبابا وملك نابولى فى أجل قريب وقد كان .

ولم يلتق الرجلان الا ولورنزو على فراش الموت . كان لورنزو بالفعل مريضا فلما دنت منيته تناول الأسرار المقدسة ثم أرسل فى طلب الراهب الرهيب فى ٨ ابريل ١٤٩٢ بأمل أن يصالحه ، ولكن سافونارولا أجاب بأن كلامه سوف يسوء لورنزو ولن يجدى شيئا . وارسل لورنزو مرة أخرى فى طلب « الراهب الوحيد الأمين الذى عرفه » وهنا وافق سافونارولا على زيارته . وكان المفكر بوليتيانو صديق لورنزو ، حاضرا فى هذا اللقاء وقال ان لورنزو ابدى رغبته فى الاعتراف فشجعه سافونارولا وصلى معه . وفى تلك الليلة مات لورنزو .

كان هذا المشهد الأخير فى حياة لورنزو دى مديتشى بمثابة انتصار أدبى لسافونارولا ، زاد من قوته وشهرته وأسبغ عليه نوعا من الاعتراف من جانب الدولة . أما من ناحية سافونارولا فقد أخذ يشهد بعظمة لورنزو دى مديتشى قائلا انه أكثر من عرف من الحكام تمرسا بالأمور الدنيوية . فلما مات البابا اينوتشنتو الثامن (١٤٣٢ — ١٤٩٢) الذى اعتلى الكرسى البابوى منذ ١٤٨٤ ، لما مات البابا بعد ثلاثة شهور من موت لورنزو ثبت فى روع العامة أن سافونارولا مكشوف عنه الحجاب وانه قادر على التنبؤ بالغيب .

وكانت خلافة البابا اينوتشنتو الثامن فاقعة الفساد كولاية خلفه زير النساء البابا اسكندر السادس أو روديريجو بورجيا (١٤٣١ — ١٥٠٣) . فقد اشتهر اينوتشنتو الثامن بأنه كان رجل المحسوبية وخراب الذمة ، كما

انه كان أول بابا يعترف علنا بأبنائه غير الشرعيين ، وكان دابه توسيع أملاك أسرته . وقد جرت كل هذه الرذائل مجرى التقاليد فى البلاط البابوى حتى أن تغير أسماء البابوات لم يعد يعنى شيئا فكلهم كان سواسية فى شهوة السلطة والتملك والاقبال على الملذات .

وهذا ما ركز سافوناروﻻ على مهاجمته ، وكان يفسر انحطاط الكنيسة الكاثوليكية بأنه نتيجة لانتقال السلطة الزمنية (الدنيوية) اليها منذ أن قيل ان الامبراطور قسطنطين تنازل لبابوية روما ، وهى كرسى القديس بطرس ، عن السلطة الدنيوية فى الامبراطورية الرومانية الى جانب سلطتها الدينية . قال سافوناروﻻ ان السلطة السياسية هى التى سممت الكنيسة بالأطماع والمصالح الدنيوية فأضاعت منها سلطتها الأخلاقية التى هى سر قوتها .

والحل ؟ الحل عند سافوناروﻻ هو العودة الى فجر المسيحية أيام الرسل أو حواريى المسيح حين كانت الكنيسة خالصة فى بساطتها وحين كان المؤمنون يعيشون بالايمان فى المدينة الفاضلة المؤسسة على القوانين الالهية . وفى ١٤٩٢ أعلن سافوناروﻻ على أهل فلورنسا انه رأى فى الرؤيا علامة فى وجه السماء الغاضبة فيها سيف معلق فوق روما وصوت يهدر وسط هزيم الرعد قائلا : « انظروا ، فهذا سيف الله العاجل ينزل على الأرض فجأة » ، وفى سماء روما طاف سيف أسود نقشت عليه بحروف من كبريت عبارة لاتينية هى : « هذا صليب غضب الله » ، والصوت المنادى بين الرعود يدعو الناس للتوبة . ثم رأى سافوناروﻻ الرؤيا الثانية ، وهى صليب أبيض معلق فوق سماء القدس كتب عليه باللاتينية : « هذا صليب رحمة الله » . نعم .. المجتمع كله يعيش فى الجاهلية ولا خلاص له إلا بالتوبة والعودة الى القوانين الإلهية .

وبدأ اصلاحه الدينى بدير سان مارك فأبطل بعض ما كان يجرى فيه من طقوس الرهبان التى تدخل فى باب البدع لحفلات استقبال الرهبان الجدد التى كان يقوم فيها راهب جديد بدور مريم العذراء ويناديه الرهبان المجتمعون من حوله باسم « ماما » . وقاطع سافوناروﻻ اللحم تماما وكان لا يأكل من الخبز الا الكسر ، ويقتصر فى نومه على أربع ساعات. وفرض على نفسه أدنأ أعمال العمل اليدوى كالكنس ومسح البلاط وتنظيف المراحيض ليعطى القدوة لغيره من الرهبان . ويبدو انه بمقدار ما كان غضوبا حين يعتلى المنابر كان وديعا وحليما فى حياته الخاصة . كذلك نجح سافوناروﻻ فى اقتناع الفاتيكان بضرورة انهاء تبعية دير سان مارك للومبارديا وحصوله على استقلاله الذاتى بالتبعية لفلورنسا .

وما ان استقل سافونارولا بديره حتى بدأ اصلاحاته الأساسية وفى مقدمتها تحريم حيازة المال او الأملاك على الدير ورهبانه ، فقد كان القديس دومنيك مؤسس فرقة الرهبان الدومنيكان متشددا فى نذر الفقر لله وكان يلعن كل من يدخل المال فى فرقته . فبدأ سافونارولا حربه ضد التملك وباع املاك الدير وحرم قبول الرهبان العطايا وفرض على الرهبان أن يعملوا ليكسبوا قوتهم على أن تكون مكاسبهم على المشاع لاطعام الجميع ، فكانوا يزاولون الأعمال اليدوية كنسخ المخطوطات أو زخرفتها أو الرسم أو النحت ، وكان القادر يعول العاجز والكثرة العاملة تعول قلة من الموهوبين انقطعت للوعظ أو لدراسة اللاهوت وعلم الأخلاق والفلسفة واللغات كاليونانية والعبرية والتركية والكلدانية . وكان الرهبان الناشئون يقومون بالأعمال الكريهة . وهكذا تحول دير سان مارك فى فلورنسا من مجتمع رهبان شحاذين الى ما يشبه الكومون الشيوعى حيث كل يعطى حسب قدرته وكل يأخذ حسب حاجته .

ومع ذلك أو بسبب ذلك ، كانت دعوة سافونارولا دعوة معادية للثقافة وللمذهب الانسانى لأنه كان يرى أن كل شىء ينبغى أن يبدأ بالالهيات وينتهى بالالهيات ، والالهيات عنده كانت الايمان والتقوى والعمل الصالح دون تفلسف كبير ولا مجال عنده للنظر فى اى علم أو فن أو فكر دنيوى . انظر اليه يقول فى احدى مواعظه :

« امض اذن الى روما وستفاجئهم هناك يقرءون كتبهم القائمة على المذهب الانسانى ، جالبين على انفسهم اللعنة بتوجيه أرواحهم الى فرجيل وهوراس وشيشرون . وهم ينادون مع افلاطون وارسطو وفرجيل وبترارك بأهمية الكلمات ويهملون صحة الروح . لماذا لا يكتفون بشرح ذلك الكتاب الذى يشتمل وحده على قانون الحياة وجوهرها ، الا وهو الانجيل ، بدلا من شرح كل هذه الكتب الكثيرة ، أيها المسيحيون ! يجب علينا أن نحمل معنا الانجيل باستمرار ، لا الكتاب نفسه ولكن روح الكتاب . ان العمل الصالح ليس فى الورق . ومؤلفات المسيح الحقيقية هم الرسل والقديسون ، والعلم الحقيقى يتمثل فى تقليد حياتهم » .

« ان الكنيسة الأولى لم تعرف تيجان البابوات ولا طيالس الكرادلة والأيباقفة ولا الصوالج النفيسة ولا الأوعية المقدسة الذهبية . فقد كان اكثر حواريى المسيح من الصيادين ومن بسطاء الناس وكل مظاهر الأبهة والفن هذه من آثار الوثنيات الأولى . والى أن تعود الكنيسة الى بساطتها الأولى ويتوب الناس عن المعاصى فغضب الله قادم لا ريب فيه » .

وكثر أتباع سافونارولا فى فلورنسا ولاسيما من النســـاء الناضجات اللواتى كثر ترددهن على كنيسة سان مارك . وكانت فى فلورنسا موجة من التضخم الخانق بعد الازدهار الكبير فى عهد لورنزو دى مديتشى . وشـــاع الرعب فى المدينة من اقتراب غزو شارل الثامن ملك فرنسا لايطاليا بجيش جرار كان يعد يومئذ أكبر قوة ضاربة فى أوروبا ، لضم نابولى ، واعـــلان سيادته على « الصقليتين » . فلما تحققت نبوءة سافونارولا الثالثة ومات فيرانى ملك نابولى فى يناير ١٤٩٤ شاع الذعر فى فلورنسا من الاقتحـــام الفرنسى الوشيك .

واستغل سافونارولا هـــذا الذعر العـــام ليعود الى نبوءاته القديمة ووعيده بالويل والثبور . وفى عيد القيامة من عام ١٤٩٢ كان قد أعلن فى الناس أن طوفانا دونه طوفان نوح سوف يغرق فلورنسا . قال : « فليسرع كل الى فلك الله ، فنوح اليوم يدعو كل العـــالم اليه ، وباب الفلك سيبقى مفتوحا على مصراعيه ، ولكن سوف يأتى يوم يغلق فيه الباب فلا ينفـــع ندم ولا توبة » . وبالفعل كان شارل الثامن على أبواب فلورنسا فى نوفمبر ١٤٩٤ . قال الفيلســـوف بيكوديللا ميراندولا ان ســـافونارولا خطب فى ١٧ نوفمبر فى الدوم (القبة) فوقف شعر رأسه . أما الجموع التى كانت تستمع الى سافونارولا فقد تفرقوا شاحبة وجوههم « أقـــرب الى المـــوتى منهم الى الأحياء » كما جاء فى وصف أحد المعاصرين . وساد فى المدينة الصـــاخبة صمت رهيب وتردد فى أجوائها صوت ينادى « توبوا الى الله ! » .

●●●

SS

٣

المطوعون

☐ كانت سياسة فلورنسا التقليدية منذ لورنزو دى مديتشى وأسلافه الحفاظ على صداقة فرنسا وعلى صداقة دوقية ميلان فى ايطاليا صيانة لتوازنها مع نابولى من جهة ومع البندقية من جهة أخرى . فلما مات لورنزو وخلفه ولده بييرو دى مديتشى فى مكان الصدارة فى فلورنسا تخاصم مع شارل الثامن ملك فرنسا ومع لودوفيكو سفوزا دوق ميلان ، الملقب بالمغربى .

وكان لويس الحادى عشر (١٤٢٣ — ١٤٨٣) ، والد شارل الثامن (١٤٧٠ — ١٤٩٨) ، أول من وضع حدا لفوضى أمراء الاقطاع فى فرنسا ووحد بلاده فى ظل ملكية قوية مطلقة ، فترك لولده قوة عسكرية ضارية يخشاها جيرانه الأوربيون . وكانت للملك الشاب شارل الثامن أحلام توسعية محورها الاستيلاء على نابولى ، واستخدامها قاعدة لتوسع استعمارى جديد باسم تجديد الحروب الصليبية .

غير أن الشعور القومى الذى كان يتبلور فى ايطاليا أدى الى تجمع الدويلات الايطالية فيما يسمى « الرابطة الايطالية » ، وهى عبارة عن حلف عسكرى دفاعى يضم البندقية وميلان وفيرارا وجنوا ونابولى والكرسى البابوى أى دولة الفاتيكان ، ولم يبق الا أن تنضم فلورنسا الى هذا الحلف لتبدأ الوحدة القومية الايطالية . وحين ظهر تعاطف بييرو دى مديتشى مع نابولى ، زحف شارل الثامن على فلورنسا وخربها بعد أن سلخ منها بيزا ولوكا ، وفقد بييرو دى مديتشى مكانه ففر الى روما .

كانت هذه لعبة ايطالية مألوفة فى العصور الوسطى ، أن يتحالف أمراء الاقطاع فى دويلات ايطاليا مع دولة اجنبية أو اخرى لرد عدوان جاراتها أو للعدوان على جاراتها ، فلما نما الشعور القومى فى ايطاليا ونما معه شعور الوحدة ، ازداد احساس الايطاليين بخطر وجود الجيوش

الأجنبية على الأراضى ، مما نجد صداه فى كتابات مفكرى عصر الرنيسانس الايطالية من بترارك وبوكاشيو الى مكيافيللى . حتى البابوية التى كانت تقليديا تشجع استقلالية أمراء الاقطاع لتستفيد من لعبة التوازنات بينهم فى توسيع دائرة نفوذها على حساب تناقضاتهم، وكانت تعرقل الوحدة القومية فى كل دولة خشية ظهور الملكية المركزية القوية التى تفرض سلطانها على الكنيسة وتقلص من نفوذها .. حتى البابوية كانت فى عهد اسكندر السادس (بورجيا) تتبنى فكرة الدولة القومية وتتخوف من تدخلات الجيوش الأجنبية. وهذا ما جعل أكثر المؤرخين يصفون البابا اسكندر بورجيا بأنه كان أقرب الى روح الرنيسانس منه الى بابوات العصور المظلمة .

●●●

طلب شارل الثامن حق المرور البرىء لجيوشه فى أراضى فلورنسا ليزحف على نابولى .. فرفض بييرو دى مديتشى أن يمنحه ما أراد . وهكذا احتل شارل الثامن فلورنسا « ليحررها » من طغيان آل مديتشى . وفر بييرو دى مديتشى الى روما ومعه أخوه الكاردينال . وكان طغيان آل مديتشى حقيقة موضوعية ، فقد سيطروا على أداة الحكم فى فلورنسا بأموالهم وحكمتهم نحو قرن كامل ، مما جعل كل خصومهم السياسيين يتألبون عليهم من عهد بييرو دى مديتشى الذى لم يكن طاغية ولا حكيما كأسلافه ، بل كان مجرد حاكم تافه ورث السلطة عن اسلافه الأقوياء .

ووجد هؤلاء فى سافونارولا حليفا نافعا . ووجد سافونارولا فى شارل الثامن حليفا نافعا لتخليص فلورنسا من آل مديتشى فكان يخطب فى الناس لتهدئة الخواطر قائلا : « يا قوم . ان الله قد استجاب لصلواتكم فحققت ثورة عظمى لم تسفك فيها دماء . فيا اهل فلورنسا ثابروا على العمل الصالح ، وثابروا على السلام . فلو أردتم أن يثابر الله فى رحمته ، فكونوا أنتم رحماء باخوتكم .. رحماء بأصدقائكم .. رحماء بأعدائكم ! . فان فقدتم الرحمة فسوف تنزل عليكم الضربات التى أعدها الله لايطاليا كلها » .

بعبارة أخرى كان سافونارولا يحض أهل فلورنسا على أن يقبلوا شارل الثامن وجيشه الفرنسى الغازى بوصفه محرر جمهوريتهم من الطغيان . فلم تحدث الا قلاقل بسيطة . وأوفدت حكومة فلورنسا سافونارولا ليفاوض شارل الثامن فى الجلاء عن فلورنسا فنجح ومعه المجلس الحاكم فى هذه المهمة .. وجلا شارل الثامن عن المدينة حاملا لقب « حامى حريات فلورنسا » مع وعد بأن يرد بيزا الى فلورنسا بعد انجاز مهمته فى ايطاليا وعودته الى فرنسا .

والسؤال هو : لماذا اتخذ سافونارولا هذا الموقف الغريب من شارل الثامن والغزو الفرنسى لايطاليا ؟ والجواب المعقد هو انه وجد فى شخصية شارل الثامن ومشروعاته ما يحقق أحلامه هو ومخططاته .

كان بين الرجلين حلم مشترك وهو حلم تجديد الحروب الصليبية التى كانت قد انتهت بعد ١٧٤ عاما بفشل الحملة الثامنة فى ١٢٧٠ .. حملة لويس التاسع .. وقد أعلن شارل الثامن أن هدفه من ضم نابولى وصقلية .. هو استخدامهما كقواعد لحملته الصليبية المزمعة . ورغم فتور الفرنسيين أنفسهم نحو هذا المشروع فقد تحمس له سافونارولا . واخذ ينظر الى شارل الثامن على انه مبعوث العناية الالهية لاحياء المسيحية المتآكلة حتى فى العالم المسيحى نفسه .

كذلك حين عرف شارل الثامن بتضامن البابا اسكندر السادس مع ملك نابولى والرابطة الايطالية لمواجهة كل غزو لايطاليا ، اعلن انه بمجرد دخوله روما سوف يعمل على اصلاح الكنيسة وتطهيرها من الفساد . وكان هذا بمثابة انذار بفتح ملفات البابوات والكرادلة والأساقفة بل وكل رجال الدين المنحرفين الذين كان همهم الأول ارضاء شهواتهم وتوسيع أملاكهم . وهكذا وجد سافونارولا الذى لم يكن يكف عن التنديد بمفاسد الكنيسة وتحذير رجالها من الغضب الالهى الوشيك .. وجد فى شارل الثامن أداة العناية الالهية لتطهير الكنيسة وتقويم اعوجاجها . واخيرا فلأن سافونارولا كان أجنبيا فى فلورنسا .. قادما من فيرارا . فهو رغم نفوذه الروحى الواسع لم يكن يملك السلطة المادية الكافية لبسط سلطانه الفعلى على المدينة أو خارج المدينة . ولذا فهو قد رأى فى هذا الملك الغازى الأجنبى سيف الله المسلول لتمكينه من بث التقوى فى قلوب العباد واعادة الايطاليين الى حظيرة الدين .

وهذا يدل على أن سافونارولا لم يكن فى حقيقته يكتفى بدور المصلح الدينى الداعى الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .. وانما كان يبتغى السلطة الدنيوية ليضع القوانين الالهية موضع التنفيذ . وهذه هى « الثيوقراطية » التى يتحدثون عنها .. أو « حكومة الله » .. فهى ليست بالضرورة حكومة دينية أو حكومة من رجال الدين .. ولكن حكومة القانون فيها هو الشريعة الإلهية . حكومة تضع الشريعة الإلهية موضع التنفيذ .

هذه الثيوقراطية تبدو بجوارها سلطة الكنيسة فى أوج العصور الوسطى سلطة باهتة شاحبة لأن الخلافة البابوية كانت تكتفى بسيادة

السلطة الروحية على السلطة الزمنية (الدنيوية) واعطائها التفويض فى الحكم الدنيوى ، وتعترف بقوانين قيصر الى جوار قوانين الله .

كل هذا يجعل من سافونارولا .. رغم دعوته الى الاصلاح الدينى والتقائه فى بعض المبادىء بدعاة الاصلاح الدينى فى عصره وبعد عصره .. أقرب الى العصور الوسطى منه الى عصر النهضة الأوربية . فالروح القومية التى بدات تجتاح شعوب أوروبا وتجعل منها أمما مستقلة قائمة على وحدة الوطن (التاريخ والجغرافيا) والجنس واللغة والثقافة والمصالح الاقليمية .. كانت من أهم خصائص عصر النهضة الأوربية ، وهى التى جعلت الانجليزى يحس بانجليزيته والفرنسى يحس بفرنسيته والألمانى يحس بألمانيته والايطالى يحس بايطاليته .. الخ .. بعد أن كان كل هؤلاء يعيشون فيما كان يسمى « بالعالم المسيحى » الخالى من كل « هوية قومية » بالمعنى المفهوم لدينا الآن ، بل حيث الدين هو القومية والقومية هى الدين .

هذا الاحساس بالانتماء الدينى من دون الانتماء القومى أو الوطنى هو الذى سوغ لسافونارولا الايطالى أن يحل مشاكل ايطاليا والكنيسة الايطالية بالاستعانة بملك اجنبى غاز لبلاده . ويقاوم الى آخر رمق فى حياته انضمام فلورنسا الى « الرابطة الايطالية » التى كانت نواة القومية الايطالية والوحدة الايطالية .. وقد كان هذا الموقف معاديا لحركة التاريخ فى زمانه . وفى اعتقادى أنه كان من الدوافع الهامة التى دفعت بسافونارولا الى الهاوية ولم يتم خمس سنوات فى حكم فلورنسا .

● ● ●

ودعى سافونارولا عام ١٤٩٤ الى المشاركة فى اعادة صياغة نظام الحكم فى فلورنسا بعد رحيل بييرو دى مديتشى .. وهكذا دخل الراهب الواعظ عالم السياسة المليء بالأخطار والمحاذير . وكان هدفه تسخير سلطة الدولة فى فرض الفضيلة وعقاب الرذيلة بالقانون . قال سافونارولا فى احدى خطبه إن الله أراد أن يعطى فلورنسا سيدا جديدا « وهذا السيد هو يسوع المسيح ، فهو الذى سيكون ملكهم » .

كانت فلورنسا قد اعتادت لقرون خلت أن تقيم كرنفالا سنويا حافظ على كثير من العادات الوثنية الصارخة . وبتوجيه من سافونارولا تحول هذا الموكب الوثنى الى موكب مسيحى . فتوقف الرقص فى الشوارع والأعمال البهلوانية والملابس المزخرفة والأقنعة واحتساء الخمر والبذاءات الجنسية . وتحت اشراف الأخ دومنيك سار آلاف الأيفاع يرتلون الترانيم الدينية ويهتفون « عاش المسيح ملكنا » . ومشى الرجال صفا واحدا

والنساء صفا واحدا فى موكب دينى يطوف بالمدينة ويحج الى دير سان مارك .

استغل سافونارولا حيوية صبية المدينة وشبابها فحولهم الى قوة اخلاقية ضاربة . فجعلهم يترددون بانتظام على الكنيسة ويمتنعون عن الرقص ويقاطعون الموسيقى ويتركون مدارس الشيش ويقصون شعرهم قصيرا وينصرفون عن سباق الخيل وعن الحفلات العامة . وقسمهم الى خمس فرق هى : فرقة « المصالحين » الذين يفضون المشاجرات ، وفرقة « المصلحين » الذين يعاقبون الرذيلة كالمطوعين ، وفرقة « المفتشين » الذين يبحثون عن رذائل الناس وعوراتهم ، وفرقة « جامعى الصدقات » ، وفرقة « المنظفين » الذين يبيضون بالجير الأماكن القذرة .

وبعد تنظيمهم تحول هؤلاء الصبية والشبان الى قوة مخيفة ، ولاسيما بعد أن رخصت لهم الحكومة مزاولة هذا الارهاب المقدس . فكانوا يلاحقون النساء فى الشوارع وينزعون عنهن حليهن بالرضا أو بالاكراه . وكانوا يجدون متعة فى « اصلاح » الكبار . وفى مواسم الصيام كانوا يهاجمون محلات الحلوى ويحطمون المعروضات . وبالمثل تخصصوا فى مهاجمة الحانات ومطاردة لاعبى الميسر . ولم يقف امامهم اى عائق فكانوا ينتهكون حرمة المساكن ، ويجعلون الخدم يتجسسون على رذائل سادتهم ويبلغون عنها .. بل لقد كان هؤلاء الصغار يجدون تشجيعا على التجسس على آبائهم وأمهاتهم . كل هذا بموافقة الحكومة وتحت جناحها بأمر من الفرير سافونارولا . ولم يجد احتجاج المواطنين على هذا العدوان على الحرية الشخصية . فان وجد بين المواطنين من يرد عدوانهم أرسلت الحكومة مندوبا لحماية هؤلاء المطوعين والمفتشين .

فسافونارولا كان من أسبق من اكتشفوا ما فى الصبية والمراهقين والشباب الغض من حيوية مدمرة وعدوانية يمكن تسخيرها فى الدين والسياسة . وكان يقول لهم انه يبدأ بهم لأنهم الجيل الجديد الذى لم يفسده بعد ضلال الآباء والأمهات . اكتشف ذلك أكثر من اربعة قرون قبل أن ينظم الفاشيست الطليان « الباليلا » من تلاميذ المدارس وصغار الحرفيين ويلبسوهم القمصان السوداء ويخرجوا بهم فى استعراضات الشوارع . وهم النموذج الذى بنى عليه « الشباب الهتلرى » فى المانيا أيام النازى ، وكل الجماعات شبه العسكرية كالكشافة والجوالة والقمصان الخضر والزرق ومحطمى الحانات والكاباريهات ونوادى الأعداء العقائديين .

علم سافونارولا « غلمان الفرير » .. كما كانوا يسمونهم فى فلورنسا .. أن كل مظهر من مظاهر الترف خروج على الدين .. فكانوا يغزون بيوت

المواطنين دوريا ويجردونها من التحف وادوات الترف والشعر المستعار .. وغالى الثياب وادوات التجميل واللوحات الفنية والمؤلفات الأدبية والفلسفية التى لم تستلهم الدين موضوعا لها . كما كانوا يجمعون روايات بوكاشيو وامثالها كأعمال بترارك ودواوين الشعر الذى يتحدث عن الغرام والهيام وكتب الدعوة الانسانية . وبعد أن يجمعوا كل هذه الأشياء الثمينة فى اكوام فى ميادين فلورنسا كانوا يضرمون فيها النار . وكانوا يجلدون النساء المتبرجات . وهكذا اكتسب حكم سافونارولا منذ البداية طابع الوندالية والبربرية رغم ما كان فيه من بعض الميادين الاصلاحية .

وتطبيقا لمبادىء الشريعة المسيحية حرم سافونارولا الربا الذى كان يرادف عنده الاقراض والايداع بالفائدة ، فقضى بذلك على النظام المصرفى . ولكنه احل محله « بنك التسليف على الرهونات » أو ما يسمى «بنك التقوى» الذى كان يقرض على الرهون بسعر ٦٪ سنويا بدلا من البيوت المالية التى كانت تبلغ الفائدة فيها ٣٢٪ سنويا . وكان الأصل فى بنك التقوى أن التسليف فيه على أساس الاحسان أو القرض الحسن ، اى بلا فوائد ، والنسبة الصغيرة المذكورة للمصروفات .

واعترض يهود فلورنسا على هذا النظام الجديد الذى ابطل حرفتهم .. وكانت سلطات فلورنسا من قبل ترى أن اليهود حشرات سامة ولكن لا غناء عنها لاقتصاد المدينة . أما سافونارولا فقد أصدر قانونا يوجب نفى كل يهودى يقرض المال بالربا بمجرد انشائه بنك التسليف على الرهونات الذى كانت تموله حكومة المدينة . ولكن ما لم يحسب سافونارولا حسابه هو أن البيوت المالية العتيدة فى فلورنسا التى كانت تمول التجارة والصناعة بالفائدة كان أكثرها فى يد العائلات المسيحية التى تجمعت لتواجه هذا الاعصار الدينى الذى كاد يعصف بالحياة المدنية .

واصدر سافونارولا .. أو على الأصح صدر بوحيه .. عددا من القوانين الاخلاقية مثل تعليق الزانى للمرة الأولى فى الميادين واحراق الزانى اذا تكررت الجريمة .. ونفس الأمر بالنسبة للشذوذ الجنسى .. كذلك صدر قانون باغلاق الحانات وتحريم الرق .. وهذه قوانين أقرب الى نصوص التوراة منها الى نصوص الأنجيل .. وربما كانت هذه من دواعى تلقيبه « باليهودى » من جانب اعدائه .

ولم يكن لسافونارولا مركز رسمى فى الدولة ولكنه كان فى الواقع يحكم فلورنسا من دير سان مارك بقوة سيطرته على الشارع وعلى السنيورية معا ، فقد جعل من نفسه همزة الوصل بين الحكومة والشعب ..

وقد اجرى من التعديلات فى نظـام الحكم ما حطم به احتكار الاوليجاركية (القلة) للسلطة السياسية فى فلورنسا ، اتقاء لدكتاتورية الراسماليين . ولكن تنظيمه فتح الباب امام دكتاتورية الرعاع ، رغم أنه كان دائم التمجيد للديمقراطية ، دائم التنديد بحكم الصفوة .

وكانت نساء فلورنسا تساهم فى الحياة العامة . فتشارك فى الاجتماعات السياسية وتشارك فى المواكب وجمع التبرعات .. ولكن سافونارولا أمرهن أن يقرن فى بيوتهن ولا يشاركن فى اهتمامات الرجال ولاسيما السياسة .

وفى عهد سافونارولا كانت عقوبة من يكنز الذهب أن يشنق فى ميدان عام .. وبالفعل نفذت هذه العقوبة فى بعض الناس ومنهم من ظلت جثته معلقة نحو اسبوعين ثم القيت فى النهر .. وكاد سافونارولا أن يهلك شخصيا بتهمة اكتناز الذهب .. فقد أخفى الكاردينال دى مديتشى أو أودع كنزا من الذهب فى دير سان مارك قبل فراره من فلورنسا .. فلما اكتشفت الحكومة الكنز إتهم البعض سافونارولا باخفائه فاضطر للتنصل من هذه التهمة علنا فى موعظته من فوق المنبر .

●●●

كان سافونارولا اذن يرى فى شارل الثامن وجيشه الفرنسى الغازى اداة ربانية لتجديد الحروب الصليبية .. ولاصلاح البابوية الفاسـدة .. ولعقاب شعب فلورنسا والشعب الايطالى على فسقه وانصرافه عن الدين . ولتثبيت سلطته فى المدينة وحمايته من بطش الكنيسة .. فوقف وحده مستميتا فى الدفاع عن الفرنسيين وفى ابعاد فلورنسا عن الرابطة الايطالية .

وهكذا وقف اعضاء الحلف الايطالى .. وهم ميلانو والبندقية وجنوا ونابولى وروما والدويلات البابوية ومعهم اسبانيا وامبراطور النمسا فى جانب مقاومة الفرنسيين . ووقفت فلورنسا وحدها بتأثير سافونارولا فى جانب الفرنسيين . وكان سافونارولا لا يفتأ يكرر أن الغزو الفرنسى هو عقاب الله لايطاليا وللكنيسة على فسادهما . ورغم انه نجح سنوات فى عزل فلورنسا عن بقية دويلات ايطاليا ، الا أن تمسكه بحياد فلورنسا الب عليه اعداءه فى الداخل والخـارج .

●●●

SS

٤

الحبل والمحرقة

□ وتحرك فى فلورنسا أعداء الراهب الرهيب : حزب آل مديتشى وحزب « الارابياتى » أى « المسعورين » .. وهم حزب (الأقلية) من كبار الأثرياء .. الرافضين لحكم الشعب ولحكم الفرد معا .. وانصار الحلف الايطالى .. وفرق الرهبان المنافسة للدومنيكان مثل الرهبان الفرنسيسكان ... الخ . بل وبعض الدومنيكان المعارضين لسافونارولا فى دعوته ومنهجه.

وبدءوا مهاجمته فى المجلس الحاكم بتهمة خلط الدين بالسياسة .. فأجابهم بأن عديدا من القديسين ورجال الدين خلطوا الدين بالسياسة .. وبأن الدين لا يناقش فى مجلس الوزراء . بدءوا يستجوبونه : « أجبنا صراحة . هل كلامك من عند الله ؟ أجب بلا أو نعم » . فرفض الاجابة قائلا انه قال ما قاله علنا وعلى رءوس الأشهاد وليس لديه ما يضيفه وخرج من الاجتماع .. ثم اخذوا يعيرونه بأن الزحف الفرنسى قد اضاع بيزا من فلورنسا وطالبوا بالانضمام الى الرابطة الايطالية . واعتدى عليه فى الشارع فصار لا يسير من غير حرس .

ولم يقو من سلطة سافونارولا الا ان أعداءه كانوا متباغضين .. فالمسعورون يمقتون حزب آل مديتشى ويخشونهم . كما أن الخائفين من جيوش شارل الثامن كانوا اكثر من الوطنيين المقاتلين فى سبيل الوحدة القومية .. بعبارة اخرى اقل كياسة ، كان سافونارولا يحكم فلورنسا بذراع الرعاع وتحت ظل شارل الثامن .

وكان الثعلب الأسبانى ، البابا اسكندر السادس ، فى روما يراقب نشاط سافونارولا فى فلورنسا عن كثب ويمتعض من عدائه للرابطة الايطالية، فكتب اليه يقول فى دبلوماسية شديدة :

« ولدى الحبيب ، السلام عليك وعليك البركات الرسولية . لقد جاءنا انك بين العاملين فى حديقة كروم الرب من اخلصهم جهدا ، وهو ما يبتهج له

قلبنا ونشكر عليه الله العلى القـــدير . كذلك جاءنا أنك تزعم أن تنبؤاتك بالمستقبل لا تأتى منك وانما تأتى من الله . ولهذا السبب نرغب ، بما تمليه علينا رسالة الراعى نحو رعيته ، فى الالتقاء بك حتى نستنير عن طريقك بمشيئة الله فنتمكن من تحقيقها . ونحن نرجوك أن تبادر على وجه السرعة بالحضور الينا بما يمليه عليك واجب الطاعة المقدسة ، ولسوف نستقبلك بكل محبة واحســـان » .

ودخل سافونارولا فى ورطـــة ، فقد كان يخشى الطـــاعة ويخشى العصيان . وحل مشكلته مؤقتا بأن رد ردا مهذبا يعتذر فيه عن الحضـــور لانه لا يزال يمر بفترة نقاهة بعد مرض شديد ، وبأنه جنب فلورنسا سفك دماء غزيرة ، فأعداء الحرية فيها كثيرون فى الداخل والخارج ، وبأن القوانين المقدسة التى سنها للمدينة جعلت أعداءه يطلبون دمه فهو لا يستطيع أن يغادر المدينة او يقيم فيها الا تحت حراسة مشددة ولو أنه ترك فلورنسا لانهارت كل اصلاحاته لأنها لا تزال هشة الجذور .

وكان هذا الاعتذار رغم سلامة عبارته بمثابة عصيان للأمر البابوى . فأصدر البابا أمرا بالغاء القرار الـــذى كان سافونارولا قد حصل عليه من حكومة فلورنسا بفصل دير سان مارك عن ولاية الكنيسة فى اقليم لومبارديا حتى يستقل فى فلورنسا عن كل تدخل أو توجيه خارجى وحتى تنتهى تبعيته لكاردينال لومبارديا . ومع هذا الأمر جاء الانذار بقرار الحرمان لكل من يعصى تنفيذ أمر الغاء الفصل . وهكذا أطاح البابا باستقلال سافونارولا بدير سان مارك فى فلورنســـا .

وللمرة الثانية عصى سافونارولا الأمر البابوى ، محتجا بأنه سيجعل من رئيس لومبارديا الروحى « خصما وحكما » بالنسبة لرهبان سان مارك وما يدعون اليه . وهو « لم يزعم بالضبط أنه نبى » ، كما يتهمه خصومه ، و « مع ذلك فحتى هذا ليس فيه ما يشكل الزندقة » ، فبحسب القانون الكنسى لابد أن يثبت من يدعى الوحى من الله أدعاءه بأتيان المعجزات وبدليل من الكتب المقدس ، وأعداؤه يريدون أن يثبتوا عليه هذه التهمة . غير أن سافونا رولا حتى هذه المرحلة كتب للبابا مناورا : « وانا اكرر ما سبق أن قلته دائما ، انى أخضع بشخصى وبكتاباتى للتصحيح من كنيسة روما » .

ولم يصدر البابا اسكندر السادس قرار الحرمان فورا على سافونارولا ، بل أظهـــر الأنـــاة لأن سمعة ســـافونارولا الدينيـــة والأخلاقية كانت بلا شائبة مهما اختلف الناس حول أفكاره السياسية وتطرفه الاجتماعى .. واتخاذه سمت الكهان الملهمين فى كثير من الأحيان . ولذا اكتفى البابا بمنعه

من الوعظ اتقاء لبلبلة الخواطر : « فنحن ايمانا منا بانك قد اخطأت لا عن تجديف مقصـــود ولكن عن اسراف فى السذاجة ، نرد مرة اخـــرى على خطاباتك ونأمرك بحق الطاعة المقدسة أن تكف عن الوعظ ، ليس فقط أمام الجماهير ولكن أيضا فى مجالسك الخاصـــة » . كذلك امر البابــا أن يلتزم سافونارولا بهذا المسلك حتى يتاح له المثول أمامه ووعد بأن يستقبله استقبالا أبويـــــا .

وكان رد سافونارولا على ذلك خطبة نارية عن فســـاد الفاتيكان ورذائل البابوات وضرورة اصلاح الكنيسة .

ورد فى هذه الخطبة : « ان البابا لا يستطيع ان يأمرنى بعكس ما يقول به الانجيل أو بعكس ما يأمر به الخير · ولا أظن أن البابا فاعل هذا فى يوم من الأيام ، ولكن لوأنه فعله لقلت له : أنت لم تعد راعى المؤمنين ، أنت لم تعد كنيسة روما ، أنت تضل » .

وجاء فيها : « لو ظهر لى بوضوح أن ترك مدينة سيفضى الى خراب أهلها روحيا وماديا فلن أطيع من يأمرنى بمغادرتها ، لأن هذا سيكون مخالفا لأمر الله » .

وجاء فيها : « أى روما ! استعدى لأن عقابك سيكون عظيما . سوف يطوقك الحديد ، سوف تخترقك السيوف ، سوف تلتهمك النـــار واللهب .. أى روما : لقد أصابك سهم المنون . لقد اعتلت صحتك . لقد انصرفت عن سبيل الله . لقد أفسدتك الذنوب والشـــدائد . فاذا شئت أن تبرئى من أسقامك فغيرى من نظامك : كفى غرورا ، كفى طمعا ، كفى زنا وكفى جشعا ، فهذا هو النهج الذى أسقمك وقادك الى الهـــلاك .. قال الرب : مادامت ايطاليا مليئة بالمظالم وبالبغايا وبقطاع الطرق وبالنصابين فسوف أمحق أمراءها وأحطم كبرياءها وأقود اليها أحط شعوب لتحكمها فتستولى على محاريبها وتدنس كنائسها التى غدت مرتعا للبغـــايا .. أى ايطاليـــا ! سوف تتعاقب عليك الكوارث : الحروب بعد المجاعات ، والأوبئـــة بعـــد الحـــروب » .

كل هذا وصبيته وفتيته يجوبون شوارع فلورنسا جماعات هاتفين : « عاش المسيح ملكنا » . ونقشوا هذا الشعار على قصر الحكومة .

لقد بلغ سافونارولا بهذه الثورة الدينية نقطة اللاعودة مع الكنيســـة . منذ أن شبت الثورة فى فلورنسا بقيادة سافونارولا عام ١٤٩٤ على بييرو دى مديتشى وأنتهت بخلعه وفراره ، تدهورت أحوال فلورنسا اقتصاديا وسياسيا . فاقتصاديا شلت التجـــارة والصناعة وانتشر الفقر والبطالة

وانكمشت موارد الدولة حتى بلغت عشر قيمتها الأصلية وشاع الجوع وأطل الطاعون برأسه من جديد . أما سياسيا فقد أدى ضياع بيزا من فلورنسا بسبب التدخل الفرنسى .. الى زعزعة مركز سافونارولا ، وأرسلت حكومة فلورنسا حملة فاشلة لاسترداد بيزا .

وفى خريف ١٤٩٦ تجمهرت على جيش فلورنسا المهلهل قوات أعضاء الرابطة الايطالية لمساعدة أهل بيزا فى رد جيش فلورنسا : مولت البندقية جيوش الحلف الايطالى ، وأرسل لودوفيكو سفورزا دوق ميلان مددا لنجدة بيزا ، وأرسل البابا اسكندر السادس اليها ابنه الأكبر ، دوق كانديا ، على رأس قوات وفى صحبته بييرو دى مديتشى . فاستنجدت فلورنسا بشارل الثامن ملك فرنسا مرة أخرى ، وحين فشا النبأ بأن الفرنسيين عائدون ، عبر مكسيميليان ، امبراطور النمسا ، جبال الألب قاصدا الاستيلاء على فلورنسا ليحول دون التوسع الفرنسى ، ودخل بيزا وحاصر ليفورنو .

ودعيت حكومة فلورنسا مرة أخرى للانضمام الى الرابطة الايطالية ، ولكنها رفضت من جديد بضغط من سافونارولا وأنصاره . ولم يبق أمام أهل فلورنسا الا الصلاة والضراعة فى الكنائس أن يرفع الله عنهم هذا البلاء . أما سافونارولا فمضى يفسر للناس كل هذه الشدائد كعادته بأنها القصاص الالهى يحل على المدينة لأن أهل فلورنسا لم يغيروا ما بأنفسهم ، وأنه لا سبيل للنجاة الا سبيل التوبة عن المعاصى . وكان ينظم المظاهرات الدينية ويفرض الفضيلة بالارهاب . فحرم الرقص والغناء حتى فى الريف قائلا : « لأن هذا ليس أوان الرقص والغناء ، بل أوان التوبة والدموع » . وتشدد فى فرض الصيام على الناس ، وكان صياما بلا نهاية ، وأغلق الحانات وحرم سباق الخيل وعلق المقامرين على عجلة التعذيب . وحدد أقصى دوطة لبنات العائلات بمبلغ خمسمائة دوقية ، وأغلق كل المحلات يوم الأحد باستثناء صيدلية أو صيدليتين وأخذ يجلد كل امرأة تتبرج أو تلبس غالى الثياب ، أو يسجنها فى حالة العودة . وجمع بغايا فلورنسا أمام قصر الحكومة ثم أصدر أمرا بنفيهن من المدينة .

كل هذا لم يحل مشاكل فلورنسا فبقيت المشاكل بغير حل .. وربما ساعدت الدعوة الى التقشف والزهد على قبول الوضع الاقتصادى المتردى بين أنصار سافونارولا ، ولكن الاضطراب الاجتماعى والغليان الاجتماعى بقيا على حالهما ، وكان هناك نوع من التهكم الباطنى فى قرار البابا الجديد بضم أديرة توسكانيا ، وعاصمتها فلورنسا ، الى أديرة روما وضم رهبانهما فى سلك واحد يتلقى أوامره من الرئاسة الروحية فى نابولى . وكان القصد طبعا اجراء تجربة جديدة فى القضاء على استقلال دير سان مارك وسافونارولا

بعد أن فشل فى توحيد توسكانيا ولومبارديا . والمعنى المتضمن فى هذا القرار الأخير هو تشديد الرقابة على سافونارولا ، أما المعنى الظاهر فهو الآتى : ما دمت تزعم انك نجحت فى اصلاح اخلاق أهل فلورنسا والتقريب بينهم وبين الله ، فتعال هنا الى روما لتزيد من تقوى أهلها الفاسدين وتملأ قلوبهم بالايمان . فخ جديد نصبه البابا لسافونارولا . وأعلن سافونارولا عصيانه لهذا القرار البابوى . انه لن يفرط فى استقلاله ولو صدر ضده قرار الحرمان .

زاد الاضطراب فى المدينة ، وحاول بييرو دى مديتشى محاولة أخيرة فى ٢٢ أبريل ١٤٩٧ لاقتحام فلورنسا ، ولكن حزب « المسعورين » انضم الى حزب سافونارولا لدرء خطر المديتشى . ثم انقلب « المسعورون » على سافونارولا ، وبدءوا يناوئونه بعدوانية ، فلطخ له شبابهم منبر الكنيسة بالبراز ودقوا له المسامير فى درابزين المنبر ، ولكن أنصاره أصلحوا ما افسده « المسعورون » . وكثر الشغب فى المدينة ، فأغلق المجلس الحاكم الكنائس بحجة انتشار الطاعون ليمنع تجدد الصدام . وكان هناك اقتراح بنفى سافونارولا ولكن الاقتراح رفض . وكتب زعماء المسعورين الى روما يطالبون بصدور قرار الحرمان على الراهب الرهيب .

وفى ١٨ مارس ١٤٩٧ أصدر البابا اسكندر السادس قرار الحرمان على سافونا رولا وجاء فيه :

« لقد جاءنا من عدة أشخاص جديرين بالثقة أن راهبا يدعى جيروم سافونارولا ، يبدو انه يشغل الآن منصب رئيس دير سان مارك ، قد نشر دعوة ضارة تؤذى أرواح البسطاء وتضللهم .. ورغم تسامحنا معه تسامحا عظيما الا أنه أصر على عناده ، وبالتالى فهو قد استحق العقاب .. لذلك فنحن نأمركم بأن تعلنوا فى حضور الشعب أن الأخ جيروم المذكور قد صدر عليه قرارنا بالحرمان ويجب عليكم معاملته كمحروم لانه خرج على تنبيهاتنا وأوامرنا الرسولية . وبموجب هذا القرار نفسه ، فان كل من يحاول أن يساعده أو أن يخالطه أو أن يمتدحه سواء بالقول أو بالفعل سوف يحرم وتوجه اليه شبهة الزندقة » .

وأذيع قرار الحرمان فى الكنائس الست الرئيسية فى فلورنسا شهرا بعد صدوره أى فى ١٨ يونيو ١٤٩٧ وسط كل طقوس الموت الروحى . فدقت أجراس الكنائس ، وأوقدت الشموع . ولما أعلن القرار اطفىء لهيبها وحل الظلام وساد الصمت الرهيب كأنما روح سافونارولا وقفت على حافة الهلاك الأبدى .

وعاد كل شيء فى فلورنسا سيرته الأولى ، ففتحت الحانات أبوابها وعاد الناس الى الرقص والموسيقى وسباق الخيل وانتشرت فى المدينة الأغانى البذيئة للسخرية من الراهب المتزمت . ولم يبق لسافونارولا غير دير سان مارك يقيم فيه قداسه . وأطلق سافونارولا شائعة تقول انه سيدعو لعقد مجلس مسكونى للنظر فى أوضاع الكنيسة ومفاسدها ، كما انه كتب « رسالة احتجاج على قرار الحرمان » .

وكتب رهبان دير سان مارك عريضة للبابا يتشفعون فيها للأخ سافونارولا ويشهدون له بالاستقامة ويعلنون ولاءهم له بالاجماع « رغم أنه أجنبى » عن فلورنسا وينسبون الحملة عليه أنها من دسائس بعض أحزاب فلورنسا . وكانت هناك نسخة أخرى من هذه العريضة جمعت عليها توقيعات ثلاثمائة مواطن فى فلورنسا من أصحاب النفوذ . وهنا ثارت ثائرة المعارضة وتجدد الشغب فى المدينة واتهموا دير سان مارك بأنه لم يعد ديرا وانما تحول الى ناد سياسى وطالبوا بتطبيق عقوبة الخيانة العظمى على أنصار سافونارولا ، ولكن المعتدلين هدأوا الأمور ، ووضع انتشار وباء الطاعون نهاية مؤقتة لهذا الاضطراب .

واعتكف سافونارولا فى الدير أكثر من ستة شهور لا يخالط المدنيين أو يشتغل بالسياسة وساعده على ذلك أن انصاره من المدنيين كانوا لا يزالون يسيطرون على المجلس الحاكم بفضل تحالفهم مع حزب المديتشى . وكانوا يبعثون بالرسل والرسائل الى روما باستمرار طالبين العفو عن سافونارولا والغاء قرار الحرمان ، وكانت هناك محاولات أخيرة . قالت روما : الحرمان كان للعصيان ، فاذا جاء سافونارولا الى روما وخضع لنظام توحيد رهبان توسكانيا مع رهبان روما ، اعتبر هذا اعلانا بالخضوع . لا خضوع لا غفران . وكتب سافونارولا للبابا اعتذارا ذليلا ، ولكن البابا تمسك بحضوره .

ورفض سافونارولا الامتثال ، فكان ذلك بداية مأساته . ربما كان خائفا على حياته من روما ودسائسها الكثيرة . ربما كان مشفقا من التراجع عن مبادئه أو مشفقا على أتباعه أن تتزعزع عقيدتهم اذا ما خضع هو وتصالح مع الشر ، أو ما كان هو ينادى دائما بأنه يمثل الشر . ربما كان سبب عناده هو مجرد الكبرياء أو الامتلاء بالنفس أو جنون العظمة . أو ربما كان فى سافونارولا شوق عارم دفين لأن يموت ميتة الشهداء . أيا كانت أسباب رفض سافونارولا المثول أمام البابا فقد كانت هذه بداية النهاية .

ولكن الذى عجل بالنهاية كان تحرك الفرنسيين الذى جدد الآمال فى نفس سافونارولا . قيل ان شارل الثامن سيحضر فى سبتمبر .

وتجدد أمل سافونارولا فى عقد مجلس مسكونى يعرض عليه قضيته ليحكم بينه وبين البابا . كان شارل الثامن من قبل ذلك قد أعلن أنه سيتولى تطهير كنيسة روما من الفساد المتأصل فيها ، وهو الآن قد قدم الى جامعة السوربون ثلاثة أسئلة وطلب الاجابة عليها :

١ — هل البابا ملزم بموجب قرارات مجمع بازل ومجمع كونستانس أن يدعو للانعقاد مجمعا عاما مرة كل عشر سنوات ، وهل تجوز مطالبته أن يدعو الآن للانعقاد مجمعا عاما نظرا للاضطرابات الخطيرة التى تسود الكنيسة ؟

٢ — هل يجوز لأقطاب الكنيسة فى حالة رفض الكرسى البابوى ، أن يعقدوا مثل هذا المجمع بمعونة أمراء العالم المسيحى ؟

٣ — اذا رفض بقية الأمراء أن يتدخلوا ، فهل يجوز لملك فرنسا أن يتدخل وحده ؟

وأجابت السوربون بالايجاب ، أما الفاتيكان فقد قابل هذه التساؤلات بامتعاض . وبدأ سافونارولا يحلم مرة أخرى بشبح جيش فرنسى يفرض الاصلاح الدينى على كنيسة روما بحد السيف . ونشط انصاره فبدءوا يعدون العدة لعودته ، وسكوا لتكريمه ميدالية برونزية تحمل صورته فىوجه منها، وفى الوجه الآخر نقشت باللاتينية عبارة : « سيف الله فوق الأرض قاطعا وعاجلا » . وفى عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) من عام ١٤٩٧ أقام سافونارولا القداس فى دير سان مارك وناول ثلثمائة شخص . وفى ٦ ينساير ١٤٩٨ (عيد التجلى) حضر أعضاء « السنيورية » القداس جماعة وقبلوا يده عند الهيكل . لقد بدأ جهاد فلورنسا ضد رومـا .

وذهل الأصدقاء قبل الأعداء من هذا الاجتراء . وابتعد المعتدلون وسقط حزب سافونارولا فى أيدى المتطرفين . وكانت شجاعتهم من شجاعة اليائسين فبدأوا يكثرون من الأخطاء : استأجروا على مسئوليتهم ميليشيا من الجنود المرتزقة الذين رفضت المدينة أن تستأجرهم ، بل ومولوا أجور هذا الجيش من بنك القرض الحسن أو « بنك التقوى » بدون اذن من الحكومة ولكن بضمان بعض سراتهم . وتوالت العرائض والمواكب طالبة عودة « الأخ » سافونارولا الى منبر الوعظ فحددت الحكومة يوم ١١ فبراير موعدا لعودته حتى يؤثر ذلك فى نتائج الانتخابات .. وكانت كل الكنائس مغلقة باستثناء « القبة » . وهنا تدخل كبير اساقفة فلورنسا واوصد المنبر وحرم على رجال الدين الحضور الى الكنيسة ولوح للمدنيين بتطبيق قرار الحرمان عليهم .

فتحدته السنيورية أن يسحب انذاره فى خلال ساعتين والا صدر الأمر بنفيه من فلورنســـا .

هذا هو الجو العاصف الذى عاد فيه سافونارولا الى القاء أول خطبة بعد صدور قرار الحرمان عليه . وفى الواقع كان هناك حـــزبان كبيران فى المدينة ، كما كان الحال أيام صراع « البيض » (انصار التحالف مع الجرمان) و (الســـود) (انصار التحالف مع الفرنسيين) فى زمان دانتى اليجييرى . او فلنقل : كان هناك فى فلورنسا حزبان كبيران : حزب يدعو للوحدة القومية فى ايطاليا ، وحزب يدعو لوحدة العالم المسيحى ووحدة الكنيسة الجامعة . والغريب فى الأمر أن البابا اسكندر السادس بالذات كان يبارك حزب الوحدة الايطالية ، ربما خوفا من التوسع الفرنسى وربما خوفا من فتـــح دفـــاتر الفاتيكان العطنة اذا انتصر الفرنسيون وربما تمهيدا لتنصيب ابنه سيزار بورجيا أميرا أو ملكا على ايطاليا الموحدة كلها ، وربما لكل هـــذه العوامل مجتمعـــة .

والمؤرخ الذى لا يكتفى بسطح الأمور يجد مجالا خصبا للبحث فيما اذا كان سافونارولا مخلب قط استخدمته بعض شرائح الطبقـــة المتوسطة ذات المصلحة فى التعاون مع فرنسا ولو على حساب الوطن الايطالى ، أم انه كان فاعلا أصليا فى الثورة على فساد الكنيسة الرومانية وداعية مثاليا لتجديد شباب المسيحية بالعودة الى بساطة الكنيسة الأولى أيام حواريى المسيح والى الطهر والنقاء والاعراض التام عن زخرف الدنيا الى حد اعتبار الحياة الدنيا مجرد معبر للآخرة .

وكانت أول خطبة لسافونارولا فى قاعة « القبة » أو « الدوم » . ولم يتطرق فى هذه الخطبة الراعدة الى السياسة ولكنه ركز على موضوعه الدائم وهو فساد كنيسة روما : أن روما هى مصدر كل الفجور ، فمنذ أن أصدرت عليه قرار الحرمان عاد كل شىء سيرته الأولى : عادت الحـــانات وعادت الرذيلة وعادت كل الموبقات . اذا كانت روما قد لعنته فهو أيضا يلعن روما . انها تطلب منه الاستغفار ، أما هو فيجيب أن قاضيه هو المسيح : « ويارب! لو أنى طلبت الغفران لرفع هذا الحرمان فلتحل على اللعنة » .

ثم يعود سافونارولا الى ما دأب عليه فى الماضى من مفاجأة ســـامعيه بالصدمات الكهربائية : ان الله يرسل الاشارات الالهية لعقاب المعتدين ، فهناك فى روما من فقد ابنه وهنا فى فلورنسا من فقدوا حياتهم (هو يشير الى أن البابا اسكندر السادس كان قد فقد ابنه الأكبر دوق كانديا فى اليوم التالى

لصدور قرار الحرمان ، وقد انتشلت جثته من نهر التيبر فى الموقع الذى تلقى فيه قمامة المدينة ، وحامت الشبهات تباعا حول أسرة اورسينى ثم الكاردينال سفورزا وجيوفانى سفوزا وهو من انسباء البابا ، ثم حول ابنه الثانى سيزار بورجيا الذى قيل إنه كان ينافس أخاه دوق كانديا على عشق أختهما بياتريس بورجيا) . نعم اذا احتاج الأمر لحدوث معجزة لنصرة الحق فان الله سوف يحقق معجــزة .

وانتظر البسطاء حدوث معجزة ، ولكن لم تحدث معجزة . وفتر حماس الناس ثم أصيبوا بالسلبية ، فلما كانت انتخابات السنيورية لمارس وابريل فاز « المسعورون » بالاغلبية . كذلك كانت لهم الاغلبية الساحقة فى مجلس العشرة وفى مجلس الثمانين .

وكان لعودة سافونارولا للحياة العامة رغم اعلان « موته الروحى » اسوأ الأثر فى الفاتيكان . فأرسل البابا الى حكومة فلورنسا يطلب تسليم سافونارولا للفاتيكان « لهديه لا لقتله » . وحـــاولت حكومة فلورنسا مرة أخرى أن تتوسط لدى البابا لسافونارولا ، وهنا هدد البابا بحسم أن يصدر على مدينة فلورنسا كلها قرار « التحريم » ، أى تحريم اقامة الشعائر الدينية فيهـــا وتحريم التعامل معها ، حتى تكف عن الايمان بهذا الراهب العـــاصى « ابن الضلال » ، لأنه يعتبرها مسئولة عن تشجيعه على تحدى الـــكرسى البابوى . وهنا فقط احست فلورنسا بالخطر .

وعقد اجتماع فى السنيورية فى ١٤ مارس ١٤٩٨ طرحت فيه مشـــكلة سافونارولا وحظر قيامه بالوعظ والشعائر الدينية ، وأسفر الاجتماع عن ثمانية أصوات فى جانب سافونارولا وسبعة عشر صوتا ضده وسبعة أصوات حائرة . واراد اعداء سافونارولا أن يطرحوا الأمر على الاستفتاء العام فى المدينة ، ولكن أنصاره خافوا من هزيمة ساحقة تقضى على مستقبلهم نهائيا فتدخلوا لسحب الاقتراح . وكان هناك اقتراح باغلاق دير سان مارك جملة لتجريد سافونارولا حتى من هذا النطاق الضيق ، ولكنه أجل للابقـــاء على الدير . وفوتح سافونارولا فى أن يعلن باختيـــاره التوقف عن الوعظ واقامة الشـعائر الدينية حتى تمر الأزمة بسلام ، ولكنه رفض . ثم تعقدت الأمور حين ابلغ رسميا بقرار الحظر . قال سافونارولا لمستشار السنيورية الذى حمل اليه القرار « أنت قادم من عند أسيادك . طبعا . وأنا ايضـــا يجب أن استشير سيدى » (يقصد الله) . وارجأ الرد لليوم التالى ، واعتكف سافونارولا فى صومعته طوال الليل يقلب النظر فى سيرة النبى أرميا الذى تخلى عنه الله وقذفه الناس بالحجارة .

وفى ١٨ مارس ١٤٩٨ ألقى سافونارولا خطبته الاخيرة : نعم أنه سيكف عن الوعظ لأنه لا يستطيع انقاذ الناس ضد ارادتهم . ولكنه يحذر كل من أراد به سوءا انه سيهلك بالسيف أو سيهلك بالطاعون . ان الله معه « وكلمة الرب قد صارت فى هذا المكان مثل لسان من لهب آكل » . وهكذا عـــاد سافونارولا الى تنبؤاته والى نبرته النبوية التى توحى بأنه يتلقى الوحى : « ان الله معى ! ... يا الهى ! اليس من حقى أن اقول هذا ؟ نعم ، بغير شك . لهذا اقولها .. بكل ثقة : لو اننى كنت مخطئا فلأنك يا يسوع المسيح قدتنى الى الخطأ ! .. لو اننى كنت مخطئا فلأنك أيها الثالوث المقدس قدتنى الى الخطأ ! وأنتم ايها القديسون فى الفردوس ، لو اننى كنت مخطئا فأنتم الذين قدتمونى الى الخطأ » . وبهذا ختم سافونارولا موعظته الأخيرة .

وباعتزال سافونارولا هدأت الأمور نسبيا فى رومـــا لفترة وجيزة . ولكن سافونارولا لم يهدأ . ارسل رسالة الى البابا اسكندر السادس فى الظاهر « لاثبات صحة مبدأى وبراءتى وخضوعى » ، ولكن وراء ادبهـــا الظاهرى تهديد باطنى بأن الله نصير الضعفاء سوف يقتص من كل من انزلـــوا به الاضطهاد : « أما انا فلا أبغى اى مجد دنيوى بل انتظر الموت انتظار المشتاق . وانى أرجو لقداستك الا تهمل العناية بصحتك اكثر من ذلك » . وفهم البابا ما وراء هذه الدعوات الصالحات من تهديد خفى بقرب حلول ضربة من الله تترك البابا حطاما .

وكتب سافونارولا خطابا الى كل من ملوك فرنسا وانجلترا واســـبانيا والنمسا والمجر يطلب فيه عقد مجمع مسكونى فورى للنظر فى أحوال الكنيسة . ولم يكن هذا الخطاب فى الواقع الا دعوة لمحاكمة البابا اسكندر السادس وخلعه من كرسى الخـــلافة الرسولية . كذلك أرسل خمســـة من أصدقاء سافونارولا الى اصدقائهم فى بلاطات هؤلاء الملوك لتهيئة الجو .

وكانت الدعوة الى عقد هذا المجمع المسكونى تستند الى قرارات مجمع كونستانس (١٤١٤ — ١٤١٨) التى نصت على أنه فى حالة اضطراب أحوال الكنيســة اضطرابا صارخا او عند سوء سلوك رئيسها يجوز عقد مجمـــع مسكونى بغير موافقة البابا . والمطلوب بحثـــه الآن هو هل يجـــوز عزل « خليفة المسيح » من كرسى الخلافة بقوة سلطة اخرى غير سلطته . هـــذا الاحتمال لم يكن واردا عند اى مؤمن خاضع لكنيسة روما ولكن كان يشتم منـــه رائحة السياسة الفرنسية التى شقت الكنيسة الكاثوليكية الى شقين حين تبنت بابوية موازية بأفنيون فى بروفانس بجنوب فرنسا نحو سبعين عاما بين ١٣٠٩ و ١٣٧٨ . فالقضية المراد طرحها على المجمع المسكونى اذن هى قضية سيادة

البابا على العالم المسيحى ، وهل يجوز عزله أم لا يجوز . ويدخل فى هذا طبعا موضوع عصمة البابوات .

فالقضية اذن منذ البداية قضية متفجرة وكفيلة بتبادل اتهامات الكفر والزندقة ، ولا سيما لأن سافونارولا وانصاره كان لهم رأى معروف فى البابا اسكندر السادس . كان لابد من اقتناع ملوك اوربا وامرائها أولا بأن هناك فعلا ما يدعو لعقد هذا المجمع ، ثم كان لابد ثانيا من اقتناع المجمع بحجج لا تقبل المناقشة بضرورة عزل البابا . لم تكن سيرة البابا الشخصية الفاضحة ولا أطماعه الدنيوية ولا دسائسه .. الخ بكافية كأسباب توجب العزل ، لأن البابا كان « رمزا » للايمان المسيحى وللعقيدة المسيحية . وهذا الرمز يبقى دائما محصنا ما لم توجه اليه تهمة « الالحاد » . وهذا ما بنى عليه سافونارولا وحزبه الأمل فى معركته الضارية مع البابا اسكندر السادس .

وفى احد خطاباته لملوك اوروبا كتب سافونارولا يقول :

« أشهد باسم الله أن اسكندر هذا ليس البابا ولا يمكن اعتباره كذلك ، فحتى لو طرحنا جانبا خطيئته الكبرى وهى الاتجار بالمقدسات ، فهو قد اشترى الكرسى البابوى ويبيع يوميا المنافع الكنسية لمن يعرض أعلى ثمن ، وبالاضافة الى رذائله الواضحة ، فانى أؤكد انه ليس مسيحيا وأنه لا يؤمن بالله ، وهذا ما يتجاوز كل حدود الكفر » .

كذلك كتب سافونارولا الى مكسيمليان امبراطور النمسا يذكره بواجباته المقدسة نحو حماية المسيحية . وكتب الى فرديناند وايزابيلا ملكى اسبانيا يناشدهما أن يكفا عن اضاعة وقتهما فى قتال المغاربة وطردهم من اسبانيا « بينما أسس الكنيسة خربة فى الداخل » . وهذا الخطاب الأخير لم يقدر له أن يصل الى ملكى اسبانيا لأن جواسيس لودوفيكو دوق ميلانو استوقفوا الرسول وجردوه من رسالته الخطيرة التى أرسلت للتو الى البابا فى روما .

وقبل أن يتحرك البابا اشتعلت النار فى فلورنسا لتعجل بنهاية سافونارولا . فقد تحولت فلورنسا فجأة الى مستشفى مجاذيب. تقدم راهب فرانسيسكانى اسمه فرانشسكو دا بوليا يتحدى سافونارولا — بعد أن انتهى عصر المعجزات — أن يجرب معه امتحان النار لاثبات صحة دعاواه ومبادئه ، وهو أن يدخل الرجلان معا محرقة من النيران ، فمن كان منهما صحيح العقيدة خرج من النار سليما ، غالبا اسوة بسيدنا ابراهيم الذى كانت النار بردا وسلاما عليه لأنه كان صحيح الايمان ، أما الفاسد العقيدة فهو حتما سيهلك فى النار . وكان الراهب الفرانسيسكانى على استعداد فعلا

لأن يضحى بحياته ليخلص الناس من الدجال سافونارولا . وكان « المسعورون » يلهبون حماس هذا الراهب المتهوس حتى يتخلصوا من سافونارولا .

ولكن سافونارولا اكتفى بتجاهل هذا التحدى . واذا بالأخ دومنيك ، وهو أخلص اتباعه ، يقبل التحدى . ويزجره سافونارولا على هذا الطيش ، ولكنه لا يتراجع ، فقد سرى الخبر فى المدينة واشتعلت النفوس شوقا الى معجزة من السماء لتفصل لهم فى امرهم بعد ان حرك الراهب الرهيب فيهم لسنوات طويلة النزوع الى الخرافات بكثرة كلامه عن الرؤى والنبوءات، فارتدوا كما انسان الغاب يلتمسون العلامات فى خوارق الأمور .. أم تراها كانت شهوة الاستشهاد اختلطت بشهوة سفك الدماء ؟

وحين عجز سافونارولا عن احتواء الأمر وأحس بالفرانسيسكان ومحركيهم من الارستقراط يتراجعون ويتلاعبون شدد عليهم النكير فاشترط أن تكون المحرقة بلا مخرج . فلا تراجع ولا فرار . واستولت الهستيريا على المدينة فتطوع ثلاثمائة من رهبان سافونارولا لكى يخوضوا هذا التحدى مع الرهبان الفرنسيسكان ، أسوة بالأخ دومنيك ، وفى الكنيسة برز للتحدى بامتحان النار الكثيرون من الرجال والنساء ، كأنما كانت فى المدينة رغبة جماعية فى الانتحار .

وكانت الحكومة قد وافقت فى بداية الأمر على هذه المبارزة الانتحارية ، ولكن حين رأت انتشار الهوس الى حد الانتحار الجماعى أدركت أن ما بدأ أشبه باللعبة أوشك ان يفضى الى مأساة . وفى ٧ أبريل ١٤٩٨ ، اليوم المحدد للمواجهة ، اجتمع فى الميدان الكبير أمام قصر السنيورية آلاف من المشاهدين وجند كثير للمحافظة على النظام . وفى العصر جاء الفرنسيسكان فى جماعات صغيرة ، ثم جاء الدومنيكان ، ثلثمائة راهب فى مسوحهم يسيرون فى طابور حاملين الشموع يرتلون التراتيل يقودهم سافونارولا ، وفى مقدمتهم الأخ دومنيك لابسا مسوحا حمراء . واحتج الأخوة الفرنسيسكان على لون مسوحه قائلين انها رداء مسحور . فدخل القصر واستبدل ثيابه ثم خرج . وكانت راكية الخشب معدة وسط الميدان . والكل ينتظر الأمر باشعال الراكية وبدء امتحان النار . وحين اقترب المساء جاء أمر الحكومة بايقاف هذه المهزلة الفاجعة وحظر الوعظ على كل الرهبان الدومنيكان .

هذا ما انتهت اليه فلورنسا باستماعها لكلام الرهبان أكثر مما ينبغى .

وبعد أربع وعشرين ساعة كان أحد السعف ، وحاول أحد الرهبان الدومنيكان الوعظ فى قاعة الدوم أو القبة فى المساء ، ولكن الحرس الفرسان

ss

اقتحموا الكنيسة وشتتوا المصلين . ثم اتجه الفرسان الى دير سان مارك فى مهبط الليل ومعهم جمع غاضب غفير وحاصروا الدير . وكان الأخ سيلفستر ومعه خمسة عشر راهبا وثلاثون من المدنيين قد كدسوا الأسلحة ووزعوا على الرهبان القوس والنشاب . ومن الخارج علا صوت المنادى يأمر سافونارولا بقرار الحكومة أن يغادر أراضى فلورنسا خلال اثنتى عشرة ساعة .. وبدأ اشتباك مسلح فأحرق المحاصرون أبواب الدير واقتحموه وجرت معركة على ضوء المشاعل بين الرهبان والحراس . واستمر الحصار والقتال اكثر الليل .

وفى الثالثة صباحا استسلم سافونارولا بعد سبع ساعات من الحصار . فجره الجمع فى الشارع وفى الحوارى وأوسعوه لكما واهانة . وانقذه الحراس من الجمهور حتى لا يفتك به أو يشنقه دون محاكمة ، وقادوه الى قصر السنيورية ووجد المحققين فى انتظاره ، لجنة من ستة عشر محققا اكثرهم من أعدائه . وبدات المحاكمة قبل أن تستأذن الحكومة البابا فى محاكمة رجل من رجال الدين . هكذا كان هياج الرأى العام على سافونارولا شديدا . وأخيرا ورد أن البابا مشترط ان يكون فى لجنة التحقيق قسيسان لتمثيل الكنيسة وأن يسلم الى ممثلى الكرسى البابوى بعد انتهاء التحقيق الجنائى .

واستمرت محاكمة سافونارولا أربعين يوما استخدمت فيها كل أنواع التعذيب ، وخصصت الأيام الثلاثة الأخيرة للمحاكمة الدينية ، وكانت هناك تهم عديدة بعضها يخص الدولة وبعضها يخص الدين . وكان التركيز على ادعائه النبوة أو تلقى الوحى من الله . وبعد عشرة أيام من التعذيب انهار سافونارولا « فاعترف » بأنه كان نبيا كذابا ، وانه كان يدعى ما يدعيه من اجل المجد والشهرة . بعد هذا صار كل شىء يسيرا . لم تكن فلورنسا تحاكم رجلا من رجال الله ، وانما كانت تحاكم دجالا .

ووقع سافونارولا أمام خمسة من رهبان دير سان مارك على اعترافه رغم اعتراضه على ما جاء به من اضافات ، وقرىء الاعتراف أمام المجلس الكبير ، وصدر الحكم بالاعدام شنقا فى الميدان الكبير . وكان مع سافونارولا أوفى تابعين من اتباعه وهما الأخ سيلفستر والأخ دومنيك . أما الأخ سيلفستر فذهب يردد أنه برىء . وأما الأخ دومنيك فقد طلب — أن يحرق بدلا من ان يشنق . وقد استجابت فلورنسا لطلبه فأقامت تحت المشانق الثلاث راكية كبيرة من الخشب والحطب ، كأنما الاعدام مرتين : الحبل من الدولة والمحرقة من الكنيسة .

وهكذا انتهى الراهب الذى قتلته الفضيلة لأنه جعـــل من الصليب هراوة يضرب بها أعداء الله ، أو على الأصح يضرب بها أعــــداءه ، ففى الكلام عن عظماء التاريخ كثـــيرا ما يصعب أن نميز بين همس الله وهمس الشيطان ، ولكن نهايته لم تكن نهاية دعوته بحال من الأحوال ، بل على العكس من ذلك ، كانت فى بعض وجوهها بداية حركة الاصلاح الدينى التى اجتاحت أوربا منذ القرن الخامس عشر .

●●●

SS

٥

انجيل الموت

□ كان سافونارولا نصف مثقف ، ولكنه مع ذلك كان عدوا للثقافة . وكان خطيبا من خطباء الرعاع ، لا يخاطب عقول النـــاس ولكن يخاطب عواطفهم وميلهم الفطرى الى الخرافات . كان عدوا للثقافة لأنه كان قادرا على أن يقول للعلماء والجهلاء معا سخيف الأقوال ، مثل : « وما نفع أرسطو اذا كان لا يستطيع أن يثبت حتى وجود الروح ؟ » أو مثل : « ان امرأة عجوزا ساذجة تعرف عن الايمان أكثر مما يعرف أفلاطون ! » .

ولا شك أن فى أفلاطون وارسطو كما فى كل فيلسوف فى تاريخ الفكر البشرى مواطن قصور تستوجب التنديد والتصويب .

وكل من درس تاريخ الفكر المسيحى فى العصور الوسطى يعرف كيف كان فقهاء المسيحية يستخدمون منطق أرسطو فى السفسطة اللاهوتية ، حتى قبل مدرســـة القديس توماس الاكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) وجمـــاعة « الاسكولائيين » أو « المدرسيين » التى كانت تؤسس كل شىء فى الدين والحياة على أن « الله عرفوه بالعقل » وبلغت مبلغ السفسطة فى الكلام عن الروح والملائكة والمعجزات وكافة الغيبيات ، وبلغت مبلغ السفسطة فى تشريح الفضائل والرذائل والصلة بين الدين والحياة .

كذلك انتهـــى الاحتجـــاج على العقـــل منذ القـــديس أوغســـطين (٣٥٤ — ٤٣٠) حتى القديس برنارد (١٠٩٠ — ١١٥٣) ، غالبا بتأثير أفلاطون وأفلوطين ، الى ظهور الوان متطرفة من الفكر الصـــوفى جعلت من الدين مسرحا للشطحات التى لا يقرها العقل .

ولكن فى الحالين ما بهذه البساطة تهدر الأفلاطونية أو الأرسطاطاليسية كما فعل سافونارولا .

ss

والسؤال الآن هو : الى أى مدى يمكن اعتبار سافونارولا من رواد حركة الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية ؟ والاجابة على هذا هى أنه بجميع المقاييس الا مقياسا واحدا كان سافونارولا عدوا لأكثر المبادىء التى تجسدت فى عصر النهضة الأوربية .

كان سافونارولا اكبر عدو لمذهب « الهيومانزم » أو المذهب الانسانى الذى كان يدعو الى تمجيد الانسان والحياة الانسانية بما فيها من علوم وفنون وآداب ونشاط حيوى وطلب للقوة والمجد والسعادة الدنيوية،ولا يرى ان فى كل هذا تعارضا مع طلب الآخرة ، كما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلم الناس فى العالم المسيحى طوال العصور الوسطى . وقد بدأ حياته وهو لايزال فى العشرين من عمره بكتاب « احتقار الدنيا » وختمه بكتابه المسمى « النتائج » ، واسسها فى كل مواعظه-الراعدة بالدعوة التى لا تعرف المهادنة الى سحق الجسد والاعراض عن كل القيم الدنيوية واعداد الروح فى كل لحظة للانتقال الى العالم الآخر ، وكان شعاره الدائم : « هيا ! هيا ! أهرب من أرض الظلمات ، أرض الشهوات » ، تشبها ببيت فرجيل : « هيا أهرب من الأرض الوحشية ، أهرب من تلطيخ الشهوات » .

فهو من هذه الناحية لم يغير شيئا فى موقف الكنيسة الكاثوليكية التى كانت تعلم أوروبا المسيحية طوال العصور الوسطى ان الحياة الدنيا مجرد عرض زائل وأن كل وجود فى الزمن ، أى كل وجود مادى ، وهم زائف زائل وأن الموت باب الحياة ، وملأت أوروبا بالأديرة والرهبان . بل على العكس من ذلك ، فقد اجتذب سافونارولا الى دير سان مارك بالذات والى غيره من الأديرة مئات من الرهبان والراهبات وحاول تحويل فلورنسا كلها الى دير كبير ، ولو أتيح له لجعل من ايطاليا كلها معبدا للصوم والصلاة .

حمل سافونارولا حملة شعواء على احياء آداب اليونان والرومان وفنونهم وفلسفاتهم وعلى الاهتمام بالشعر والفنون ، لما فيها من وثنية ومن صرف للناس عن عبادة الله الى عبادة الجمال ، وكانت حملته هذه حديث الأوساط الأدبية فى فلورنسا فاتهمه المثقفون بالجهل والبربرية ، فكتب بحثا سماه « اعتذار عن الشعر » يشرح فيه آراءه ، وجاء فيه :

« لم يكن فى نيتى مطلقا ادانة فن الشعر ، وانما ادانة اساءة استعماله التى نلمسها فى أعمال الكثيرين ... فالبعض يزعم أن الشكل هو الأساس الوحيد للشعر ، وهذا خطأ جسيم ، فجوهر الشعر هو فكر الشعراء وفلسفتهم ، حيث أنه لا وجود لشاعر أصيل بدونهما ... ولأن روح الانسان تكمل تماما بالأغانى وبالموسيقى فقد اخترع القدماء وزن الشعر ليقودوا الناس

SS

الى الفضيلة بمزيد من اليسر . ففى الحقيقة ما نفع هذا الاسلوب فى البلاغة اذا لم يحقق الغرض المنشود منه ؟ ما نفع السفينة الملونة المزينة اذا لم تمخر من أعالى البحار لتصل الى الميناء ؟ ما نفعها اذا كانت تبعد الناس أكثر وأكثر عن بر الأمان ؟ الحق أن الروح لفى خسر اذا وقف الأمر عند طرب الأذن ، واحساس المرء غرورا بأنه مجيد كالآلهة ، والتشدق بملء الفم بكلام الفلاسفة ، والترنم عبثا بشعر الشعراء ونسيان انجيل المسيح أو تذكره فى لحظات نادرة » .

فالشعر الذى يستحق الابقاء عليه عند سافونارولا هو الشعر الدينى فحسب ، أما الشعر الذى يتناول أغراضا دنيوية فهو مرفوض . وهو يحمل على حركة احياء آداب اليونان والرومان بقوله :

« ولدينا فصيلة زائفة من الشعراء المزعومين الذين لا هم لهم الا أن يلهثوا وراء اليونان والرومان وأن يكرروا أفكارهم وأن يقلدوا قوالبهم وأوزانهم ، وأن يناجوا الآلهة ، كأنما القدماء لم يكونوا بشرا مثلنا ولهم عقول تشبه عقولنا ، وهذا ليس مجرد تصور خاطىء للشعر وانما هو سم زعاف يدس للشباب .. فما قولنا اذا كان القدماء انفسهم قد أدانوا الشعراء ؟ ألم يكن أفلاطون نفسه ، الذى يرفعه اليوم كل الناس الى أعلى مقام ، هو الذى سن قانونا لنفى الشعراء من المدينة (الفاضلة) ، لأن الشعراء بوحى من الآلهة الفاسدة وتشبها بها ، وبسحر الشعر الفاسد ، يملئون الناس بالرغبات المخجلة ويقودونهم الى دمارهم الخلقى . وماذا يفعل أمراؤنا المسيحيون اليوم : لماذا يهملون هذه الشرور ؟ لماذا لا يسنون قانونا للنفى يطبق ، لا على الشعراء المزيفين وحدهم ، ولكن على دواوينهم وكذلك على كتب القدماء التى تعالج الموضوعات المضللة وتمجد الآلهة المزيفة ؟ ما أعظم سعادتنا لو أن كل هذه الكتب دمرت ولم يبق من الكتب الا ما يدعو الناس للفضيلة » .

ونحن لسنا بحاجة الى أن نقول ان معارف سافونارولا عن أفلاطون كانت معارف سطحية ، لأن أفلاطون لم ينف الشعراء من جمهوريته لمجرد تزيينهم للرذيلة ولكن لأسباب فلسفية مدارها بعد الشعر عن « الحقيقة » بدرجتين . ومن السهل أن نرى أن سافونارولا كان لا يقل ضراوة عن الكنيسة الكاثوليكية فى تحريم العلوم والآداب والفنون الانسانية وفى احياء آثار اليونان والرومان ، بل لقد كان أكثر منها ضراوة فى التحريم . وكلامه لا يقل بشاعة عما نقرؤه عن مطاردة محاكم التفتيش لكل ما هو خارج عن اطار الفكر والسلوك فى مسيحية العصور الوسطى على أنه من عمل السحر

ومن التعامل مع الشيطان ولذا وجب تدميره واحراقه . فبهذا المعنى كان سافونارولا أكثر سلفية واشد رجعية من الكنيسة الكاثوليكية .

قال سافونارولا في احدى مواعظه :

« اذهب اذن الى روما والى كل العالم المسيحى ، فلن تسمع فى دور أقطاب رجال الدين واقطاب رجال الدولة الا الشعر والفن ونثر الخطباء . أقول اذهب هناك لترى بنفسك وسوف تفاجئهم وهم يقرءون نصوص أدبائهم الانسانيين محاولين توجيه عقول الناس وفقا لأقوال فرجيل وهوراس وشيشرون . وهم يفرضون على أسماع الناس افلاطون وارسطو وفرجيل وبترارك ، ويهملون صحة النفوس .. الخ » .

فهو اذن يندد بالكنيسة الكاثوليكية لأنها انجرفت فى تيار عصر النهضة وشاركت فى الاحتفال بآداب اليونان والرومان .

وقد كان لسافونارولا تأثير قوى فى بعض أعلام الفنانين فى عصره وبعد عصره ، مثل ميكلانجلو (١٤٧٥ — ١٥٦٤) وبوتيتشيللى (١٤٤٤ — ١٥١٠) وكراناك (١٤٧٢ — ١٥٥٣) وفاسارى (١٥١١ — ١٥٧٤) . ومنهم من تبعه الى الدير مثل الفنان أندريا ديللا روبيا (١٤٣٥ — ١٥٢٨) والفنان ديللا بورتا الذى عزف عن الرسم أربع سنوات حزنا على موت سافونارولا . وكان ميكلانجلو فى شيخوخته الكئيبة دائم القراءة فى مواعظ سافونارولا باحثا عن سلام نفسه .

كان كل هؤلاء الفنانين يدعون لمبادىء سافونارولا ، أو على الأصح يدعون لانجيل الموت الذى كان يبشر به ، وقد تجلى اثره العميق فى اعمالهم الفنية.. قال ميكلانجلو لفاسارى : « أنا لا تمر بخلدى فكرة واحدة إلا وكانت مدموغة بطابع الموت » . وكان يجهز نفسه دائما للموت ، لذا كثر فى فنه وفن معاصريه تصوير عذابات « يوم القيامة » . وهذا كله بتأثير سافونارولا الذى كان لا يكف عن تذكير الناس بيوم الحساب . وآية ذلك « يوم القيامة» لميكلانجلو التى دخلت الفاتيكان فكانت نوعا من الانتصار لسافونارولا.

كان الفنانون المصورون يرسمون صورة العذراء فى أزهى الوان وفى أحسن هندام .. فكان سافونارولا يقول لهم : « انكم تدخلون فى الكنيسة كل مظاهر الزينة والغرور . أتحسبون أن العذراء كانت تكتسى برداء شبيه بما تصورون ؟ أنا اقول لكم إنها كانت ترتدى أسمال شحاذة » .. ترى هل كان سافونارولا يخلط بين الفن والحياة ولا يفهم أن الفن « اختيار » كما

كان ارسطو يقول ، أم انه كان فاقد الحساسية الفنية تماما عديم الادراك لمعنى « الشكل » فى التشكيل ؟

كذلك كان سافونارولا يلوم الفنانين لانهم كانوا يستخدمون الموديلات لرسم موضوعاتهم الدينية وأشخاصهم الدينيون .. فكان يقول : « ويمضى الشبان يقولون عن هذه المراة أو تلك : هذه هى مريم المجدلية ! هذه هى العذراء ! هذا هو يوحنا المعمدان ! ذلك لأنكم رسمتم صورهم فى لوحاتكم وفى الكنائس فأفسدتم الأمور الالهية فسادا عظيما . ان فنانيكم المصورين يسيئون اساءات بالغة ، ولو عرفتم ما أعرفه أنا من الفضائح التى تخلقونها لتوقفتم عن اتيانها » .

وختام هذه الفقرة يوحى بصدق الشائعة التى راجت عن سافونارولا ورهبانه من انهم كانوا يستغلون أسرار الاعتراف التى يأتمنهم الناس عليها بحكم وظيفتهم الدينية لارهاب أهل فلورنسا وارغامهم على الخضوع لهم .

ويمضى سافونارولا فيقول : « ما سر الجمال ؟ أهو فى الألوان ؟ كلا .. أهو فى الملامح ؟ كلا .. الجمال صفة تنتج من الانسجام والتوافق بين كل أعضاء الجسم وأجزائه .. وما مصدر الجمال ؟ لو بحثتم جيدا لوجدتم أن هذا الجمال ينبع من الروح .. خذوا إمرأتين على مستوى واحد من الجمال، احداهما طيبة وطاهرة ومحترمة ، أما الأخرى فغانية .

« ففى الأولى ترون اشعاع جمال يوشك أن يكون ملائكيا ، بينما الثانية فهى لا تقارن بالأولى مهما تكن متقنة التكوين . وسوف ترون ان المرأة الشريفة أشد اثارة للحب وللاعجاب حتى عند الرجال الشهوانيين .. فهل ترى هذا راجع الى أن الخير يشارك فى جمال الله ويشيع جمال الله فى الجسد .. ؟ فيا أيتها النساء المتباهيات بشعركن وبجمال أيديكن ، ها أنذا أقول لكن : أنتن جميعا دميمات . تأملوا امراة تقية وهى تصلى ، تأملوها كيف تشتعل بحرارة الجمال الالهى . تأملوها وهى عائدة من صلاتها تروا جمال الله يتلألأ فى ملامحها وتروا وجهها شبيها بوجوه الملائكة » .

كل هذا الكلام الساذج لا يصلح لأن يكون نظرية فى علم الجمال ، وانما يفسر كيف سيطر سافونارولا على فلورنسا باقناع السذج والنساء المتدينات . وهو ان دل على شىء فهو يدل على ذوق سافونارولا الخاص فى النساء . ومع ذلك فقد تركت تعاليم سافونارولا أثرا عميقا فى بعض فنانى عصره . ويكفى أن نذكر ما فعله بوتيتشيللى بربة الحب والجمال فى

لوحته « مولد فينوس » ، فقد جعل بوتيتشيللى من فينوس وهى خارجة من محارتها نموذجا لصبية فلورنسية تفيض بالبراءة رغم عريها ، خالية تماما من ايحاءات الشبق الجسدى والخصوبة الحيوانية التى اقترنت دائما بصورة فينوس فى الفن والأساطير عبر العصور : انها فينوس أورانيا أو فينوس السماوية .

فسافونارولا اذن كان عدوا للثقافة الانسانية ، عدوا للفنون والآداب والعلوم الدنيوية ، عدوا لكل فكر أو فلسفة لا تلتهب بالشعور الدينى وذكر الموت والبعث فى الأصباح والامساء . فاذا تذكرنا أن الفنون التشكيلية (التصوير والنحت والعمارة والزخرفة) كانت من أعظم ما ازدهر خلال عصر الرنيسانس ، كان موقف سافونارولا من كل هذه الأشياء مضادا لحركة التاريخ معاديا للحضارة . بل ان موقف الكنيسة الكاثوليكية كان أكثر تقدما من موقفه فى هذا الصدد بالذات لأنها حاولت أن تتعايش مع الفنون التشكيلية والموسيقية وترعاها لتخدم الكنيسة ، بل ان من رجال الكنيسة من حاول أن يتعايش مع المذهب الانسانى .

كذلك كان سافونارولا معاديا لحركة التاريخ لأنه كان معاديا لتبلور الروح القومية ، معاديا لاتجاه الوحدة القومية الذى كان من أهم سمات عصر النهضة الأوروبية . فبانحيازه الكامل الى شارل الثامن ملك فرنسا وقف وحده يناجز كل دويلات ايطاليا فى سعيها للتحالف والاستغناء نهائيا عن الجيوش الأجنبية لحفظ التوازن بين دويلات ايطاليا . ان فكرة الدولة القومية فكرة دنيوية .. والمسيحى لا يعرف الا الأخوة فى المسيح رابطا بين الانسان والانسان ورابطا بين الانسان والله . هذا ما قامت عليه بشارة حواريى المسيح وآباء الكنيسة الأولين فى عصرها الذهبى . وسافونارولا حافظ لرسالتهم أكثر من البابا الداهية الفاسق اسكندر السادس الذى كان يجنح الى تغذية الروح القومية فى ايطاليا رغم أنه كان رمز المسيحية الجامعة فى كل العالم المسيحى .

بعد كل هذا ، ماذا يربط سافونارولا بعصر الرنيسانس أو عصر النهضة الأوروبية اذا كان الأساس فى دعوة سافونارولا هو العودة الى المسيحية فى نقائها الأول أو الى المدينة الفاضلة والله فيها ملك ، ولا حواجز هنالك بين الله والانسان .

هذا بالذات ما يربط سافونارولا بعصر النهضة الأوروبية ، انه كان رائدا من رواد حركة الاصلاح الدينى التى كانت ، بخيرها وشرها جزءا لا يتجزأ من عصر النهضة الأوروبية . وقد كان الركن الركين لحركة

الاصلاح الدينى ثورتها على المؤسسة الدينية الكاثوليكية الفاسدة والدعوة الى العودة الى المسيحية فى نقائها الأول أو الى المدينة الفاضلة حيث لا ملك الا الله ولا حواجز بين الله والانسان . كان سافونارولا يرى ان الكنيسة الرسولية الجامعة (الكاثوليكية) فاسدة من قمة الراس الى أخمص القدم وأنه لا أمل هناك فى اصلاحها لانها انحرفت بكليتها الى الدنيوية .. فرجال الدين فاسدون والعلمانيون شكاكون وحرية التفكير قد قوضت كل شىء .

حتى الكنيسة نفسها بنت نفسها على فلسفة دينية تنتهى الى تدعيم هذا الفساد أو تبريره . الأساس فى العقيدة الدينية هو الايمان ، هكذا يقول فقهاء الكنيسة الكاثوليكية : جوهر العقيدة هو الايمان . وليس العمل الصالح ، ومهما حاول الانسان بلوغ الخلاص الروحى (أى دخول الجنة) بالعمل الصالح وحده فجهده ضائع لأن الخلاص لا يكون الا بنعمة الايمان .. ونعمة الايمان لا تحل على الانسان الا اذا احس على الدوام بأنه مخلوق ضعيف خطاء ، وبالتواضع لله تأتى نعمة الايمان ، وبهذا الاحساس بالضعف والاستعداد للسقوط يتعلق الانسان بالله الغفور الرحيم تعلق الغريق بقارب النجاة . ويأتى العمل الصالح فى المقام الثانى ، وهو ليس جوهريا لخلاص الانسان ، مهما كان العمل الصالح من ثمار الايمان الصادق . بل ان اعتماد المرء على قوة الأخلاق قد يكون عقبة فى طريق الانسان اذا أحله المرء محل التسليم بالنقص الأصيل فى جبلة الانسان ، أو ما يسمى فى المسيحية بالخطيئة الأولى .

فالذى أضافه سافونارولا هو ان الايمان وحده لا يغنى عن الفضيلة . أما البابا اسكندر السادس فكان لا يخلط بين الايمان والأخلاق الفاضلة ، وربما كان ينتقل من فراش الرذيلة الى ابتهالاته المخلصة للسيدة العذراء دونما حرج ، وهو صادق الشعور فى الحالين . كان عميق الاحساس بضعف الانسان عميق الايمان بأن الله غفور رحيم . لقد كانت هذه « التطهرية » والتزمت الأخلاقى فى سافونارولا واشياعه شيئا جديدا فى أوروبا فى نهاية العصور الوسطى ، ولم يلبث الرجل ، حتى بعد هزيمته ، أن تحول الى حركة أو تيار دينى اهتزت له المسيحية الاوروبية . بدأ الناس يتجادلون فى طبيعة العلاقة بين الايمان والعمل الصالح وكان هذا من بدايات حركات الاصلاح الدينى .

كان سوء سلوك رجال الدين يزعزع ايمان الناس بالكنيسة الكاثوليكية، بل ويزعزع ايمانهم الدينى جملة ، فكانت الحجة التى تستخدمها الكنيسة لابقاء الناس فى حظيرتها هى التالية : لا تنظر الى ما يفعله رجل الدين وانما انصت الى أقواله . فطالما انه يدعو الى سبيل الله فاتبعه ولو قبحت أعماله.

العصمة لله وحـــده فكلنا خطاءون .. البابا من حيث هو رمز للمسيحية وللعالم المسيحى معصوم من الخطأ ، أما من حيث هو بشر فهو قابل للزلل .

ورغم هذا المنطق المتماسك فى مظهره ، كانت أصوات الاحتجاج على تجاوزات الكنيسة الكاثوليكية تتصاعد فى كل مكان لتدين قرارات الحرمان الجهنمية التى كان يجردها البابوات على نقادهم ونقاد أعوانهم من الأمراء، ولتدين اقبال رجال الدين على عرض الدنيا من مال وملذات جسدية ، وتدين الأبهة التى ترفل فيها الكاتدرائيات ومن فيها من الكرادلة والأساقفة ، وتدين انحياز الكنيســـة الدائـــم الى الاقوياء والأغنياء وانحيازها الدائم ضـــد المستضعفين فى الأرض ، وتســـخيرها للدين لترويض الجمـــــاهير على الخضوع للطغاة وللظالمين .

كذلك ارتفعت أصوات الاحتجاج فى كل مكان على اتجـــار البابوات الفاسدين وسماسرتهم من رجال الدين فى صكوك الغفران وبيعها للموسرين من الزناة والقتلة ومرتكبى الموبقات من الرجال والنساء .

ولم تمر عشرون عاما حتى اندلعت فتن الانشـــقاق البروتستانتى فى كل مكان .

ولكن سافونارولا ، رغم أنه كان يسمى حركته فى فلورنسا « ثورة دينية » ، لم يكن داعية انشقاق فى المذهب والعقيدة ، بل ظل الى آخـــر لحظة يحاول أن يعمل داخل اطار الكنيسة الكاثوليكية ، مع تحفظ واحـــد وهو أنه كسر عهد الطاعة الذى يرتبط به الرهبان عند ارتدائهم المســـوح ، واسس ذلك على المبدأ القائل انه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، كما نقول نحن فى لغتنا .

●●●

SS

بيكو ديللا ميراندولا

PICO DELLA MIRANDOLA

١٤٦٣ - ١٤٩٤

□ كان بيكو ديللا ميراندولا يسمى فى زمانه « العقل المعجزة » أو بالتعبير الحرفى « عنقاء العقول » . وكان بعض المحدثين مثل والتر باتر يسميه « أمير الرنيسانس الساحر » . وفى الحالين نجد أنفسنا بين أوصاف مستمدة من عالم الأساطير . ومن تاريخ ميلاده ووفاته نستطيع أن نرى بسهولة أنه مات فى شرخ شبابه ، فهو لم يعش الا احدى وثلاثين سنة .

وفى هذه الحياة القصيرة استطاع بيكو أن يكتسب صيتا واسعا فى ايطاليا كلها بل وفى أوروبا كلها ، بأنه كان من أوسع أهل عصره ثقافة وأعمقهم تأملا . وكان وسيم الهيئة واسع الثراء عريق الحسب بالاضافة الى علمه الغزير فحق له أن يسمى مجازا « الأمير الساحر » .

وقد ولد جيوفانى بيكو كونت ميراندولا فى ميراندولا من أعمال فرارا ، لأسرة مبتوتة الصلة تماما بالثقافة . فقد كان آله لأجيال طويلة سادة ميراندولا ، يتوارثون مهنة الحرب ، فكانوا قادة فرقة من الجنود المرتزقة يبيعون خدماتهم العسكرية للملوك والأمراء ، وقد ظلوا أجيالا فى خدمة الأباطرة الألمان من أسرة هوهنشتاوفن (١١٣٨ — ١٢٥٤) ومن أسرة هابسبورج بوصفهم قواد فرق من الجنود المرتزقة ، وهم القواد الذين يسمون بالايطالية « كوندونييرى » . وكان أبوه يمتهن ايضا مهنة القتال التى ورثها عنه أخوا بيكو ، جاليوتو وانطونيو . ورغم أن بيكو نشأ فى حضن الأسرة وسط السلاح والخيل والدروع الا انه لم يظهر اى اهتمام بمهنة أسرته المتوارثة ، وبينما كان أخواه يتشاحنان على خلافة أبيهما فى مهنته بعد وفاته كان جيوفانى بيكو يدرس فى هدوء اليونانية واللاتينية والموسيقى .

وكانت أمه تريد له أن يكون قسيسا ، فدخل جامعة بولونيا وهو فى سن الرابعة عشرة حيث درس القانون الكنسى أى « الشريعة المسيحية » .

فلما ماتت أمــه اهمل هــذه الدراسة واقبل على العلوم والآداب الدنيوية يلتهمها التهاما . وفى ١٤٧٩ دخل جامعة فيرارا وهو فى سن السادسة عشرة ليدرس الآداب والفلسفة . وقــد حــدث لبيكو ديللا ميراندولا عكس ما حدث لجيروم سافوناروﻻ تماما ، فقد كان سافوناروﻻ قبل دخول بيــكو جامعة فيرارا بأربع سنوات يدرس الآداب والفلسفة ثم انصرف عنهما ليتفرغ للدين كراهب دومنيكانى .

ولم يبق بيكو فى جامعة فيرارا غير عــام واحــد ، ثم انتقل الى جامعة بادوا (١٤٨٠ — ١٤٨٢) ليتبحر فى اليونانية ، وفى جامعة بــادوا درس ايضا العبرية والعربية والأرمية والكلدانية .. وقــد درس الشــعر العربى على راموزيو ، مترجم ابن سينا ، واشترك فى المعركة الفلسفية التى ثارت فى جامعة بادوا بين انصار ابن رشــد وخصوم ابن رشد . وقد اجتذبته فلسفة ابن رشد بفضل حماس ايليا ديل مديجو ، أستاذه اليهودى فى العبرية لهذه الفلسفة . وكان هناك من أعلام الأساتذة من امثال باربارو من يتحمس للتوفيق بين الأفلاطونية والأرسطاطاليسية . اما ملكة بيكو ديللا ميراندولا على الاستيعاب فقد كانت مذهلة سواء بالنسبة للغات وآدابها وللمدارس الفلسفية ، حتى شهد له جهابذة العلماء بأنه يضاهيهم علما وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره ، وهكذا لقبوه « بعنقاء العقول » ، لأن العنقاء لا تتجدد من رمادها الا مرة كلمائة عــام .

ولم يكن بيكو ديللا ميراندولا شابا مدفونا بين اكداس الكتب يعيش عيشة جافة معزولة عن الحياة ، بل كان يحيا حياته وحياة عصره كاملة ، يلهو ويسمر مع الشبان والفتيات ، وكان رجل مجتمع ورجل بلاط يتقن آداب السلوك بين ابناء الطبقة الراقية ، وكان غاية فى الأناقة .. ومع حياة المجتمع وحياة الفكر الفلسفى وحياة الوجدان العاطفى كانت فيه ايضا ميول روحية دينية من رواسب تلقين امه المتدينة أيام صــباه الباكر . وبسبب تعدد هذه الاتجاهات فى نفسه وتضاربها أحيانا ، كان به نازع دائم الى بناء سلامه النفسى على التوفيق بين هــذه المتناقضات وايجــاد التجانس فيما بينها داخل نظام فلسفى واحــد .

كان هناك أولا التناقض بين المسيحية ووثنية اليونان والرومان ، وكان بيكو محبا للمسيح ومحبا لأفلاطون فى وقت واحد . فما الحل ؟ الحل هو رفض هذه المواجهات المستمرة بين المسيحية والوثنية ومحاولة التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية .. نفس الأمر بين ارسطو وافلاطون .

بدأ بيكو ديللا ميراندولا حياته الفكرية أرسطاطاليسيا متحمسا وكتب ينتقد أفلاطونية فيتشينو . فلما انتقل الى فلورنسا عام ١٤٨٤ فى سن الحادية والعشرين التقى بفيتشينو وبدأ يعيد النظر فى موقفه من الأفلاطونية وانضم الى حلقة فيتشينو فى بلاط لورنزو دى مديتشى التى كانت تسمى « اللواء » بمعنى الفرقة العسكرية ، وهنا بدأت محاولاته للتوفيق بين ارسطو وافلاطون .

وفى ١٤٨٥ دعى بيكو الى جامعة باريس ، وفى هذه الفترة دخل فى مغامرة عاطفية فهرب عام ١٤٨٧ مع سيدة متزوجة من سيدات آل مديتشى ، وكاد الأمر أن ينتهى الى مأساة لولا أن تدخل لورنزو وحل الموضوع بسلام . وفى هذه الفترة أيضا تعلم بيكو « الكاباláه » ، وهو علم الاتصال بالأرواح والتعامل مع الجن ، وهو أصلا نوع من السحر عند اليهود يقوم على تفسير التوراة تفسيرا باطنيا .. (و « كابالاه » فى العبرية كلمة تعنى أصلا « التقاليد » ..) .

وفى نهاية ١٤٨٦ وضع بيكو ديللا ميراندولا كتابا سماه « النتائج التسعمائة » ويشتمل على ٩٠٠ قضية فلسفية يحاول فيها بيكو أن يفسر المسيحية تفسيرا فلسفيا ، وأرسل مؤلفه الى البابا أنوتشنتو الثامن الذى كان جالسا على الكرسى البابوى من ١٤٨٤ حتى ١٤٩٢ . وأعلن استعداده للدفاع عن قضاياه فى روما فى مناظرة عامة . ودرس البابا هذه القضايا فوجد سبعا منها تنطوى على زندقة وستا منها يداخلها الشك .. وبالفعل عرض بيكو قضاياه ودافع عنها فى روما فأدانها البابا بتهمة الزندقة وأمر بايقاف المناظرة فى ١٤٨٧ .. وصدر أمر بالقبض عليه ففر الى فرنسا . وهناك تعقبه رسل البابا فقبض عليه وسجن فى فانسين خارج باريس . ثم أفرج عنه بعد تدخل عديد من أمراء ايطاليا ، وتوسط له لورنزو دى مديتشى فقبل البابا أن يعيش بيكو فى فلورنسا ، وأحله لورنزو دى مديتشى فى قصره بفيزولا مع بقية أعضاء « اللواء » أو الاكاديمية الأفلاطونية تحت حمايته مع الفيلسوف فيتشينو والمفكر بوليتزيانو وغيرهما كثيرين من الشعراء والأدباء والفنانين . وبهذا انقذ لورنزو بيكو ديللا ميراندولا من محاكم التفتيش .

ثم كتب بيكو كتابه المسمى « هبتابلوس » أو « أيام الخليقة السبعة » (١٤٨٩) .. وأهداه الى لورنزو دى مديتشى . وفى هذا الكتاب حاول أن يجد توافقا بين ما ورد فى سفر التكوين فى التوراة وما ورد فى محاورة « تيماوس » لأفلاطون عن خلق العالم . وفى هذه الرسالة ينتفع بيكو من تفقهه فى اليونانية وفى العبرية ليعقد المقارنات ويحلل الاشارات ويفك الرموز الخبيئة فى كل من النصين . وليس المهم فى كل هذا أن يكون بيكو قد أصاب

او أخطأ فى تصوراته . وانما المهم هو هـذا الحماس الـذى تجلى فى بعض دعاة الهيومانزم أو المذهب الانسانى فى عصر الرنيسانس للتوفيق بين الدين والفلسفة حفاظا على الايمان أو حتى لا يفقدوا الايمان . وقد كان بيكو ديللا ميراندولا واحدا من هؤلاء المفكرين المؤمنين بالانسان .

وفى ١٤٩١ كتب بيكو ديللا ميراندولا كتابه « فى الجوهر الواحـد » الذى حاول فيه التوفيق بين أرسطو وافلاطون .. وكان آخر كتاب كتبه ونشر بعد وفاته كتاب اسمه « تسفيه التنجيم » يهاجم فيه التنجيم والمنجمين ويرد على مزاعم القائلين بأن قدر كل انسان محدد منذ مولده بالأفـلاك ومسارها وبروجها ، وإن الانسان مجرد من الارادة ، أو مسير لا مخير كما يقولون ، بسبب سيطرة النجوم على حياته وعلى مصيره . وقـد كان هذا الكتاب سببا فى اقـدام البابا اسكندر السادس على رد اعتبار بيكو ديللا ميراندولا اليه فى ١٤٩٣ ، عاما واحدا قبل وفاته فى ١٧ نوفمبر ١٤٩٤ ، عام اقتحام شارل الثامن مدينة فلورنسا .

لماذا يعد بيكو ديللا ميراندولا قطبا من اقطاب عصر النهضة الأوربيـة وقطبا من أقطاب حركة الهيومانزم ؟

هو يعد كذلك لأن جوهر فلسفته يقوم على ثلاثة مبادىء :

١ ـــ الايمان بكرامة الانسان وعـزة الانسان ونبل الانسان وبأن للانسان قيمة فى ذاته وبأن للحياة الانسانية قيمة فى ذاتها ويجب اثراؤها بكل ما فى الطبيعة والعالم المـادى من فكر ونشاط وعلوم وفنون وآداب .

٢ ـــ بأن الانسان سيد مصيره فى هـذا العالم وان انسانيته مقترنة بقدرته على الاختيار .

٣ ـــ ان الحضارات الوثنية الأولى كانتتنطوى على حكمة عميقة أهدرها العالم المسيحى . ولـذا فكل نهضة يجب أن تقوم على استيعاب التراث الوثنى عند اليونان والرومان وغيرهما من شعوب العالم القديم .

وقد كان من المفارقات الغريبة أن صاحب هـذه الدعوة للاحتفال بالحياة الدنيا يؤخذ كالمسحور حين سمع موعظة لسافونارولا عـام ١٤٨٢ فى الحلقة التى عقدها الرهبان الدومنيكان فى ريجيا اميليا ، لأن سافونارولا هو أولا وأخيرا صاحب كتاب « احتقار الدنيا » وصاحب فلسفة الموت الذى قضى حياته فى اعداد الناس للاعراض عن هـذا العالم وتجهيز أرواحهم للعالم الآخر . ولعل الـذى سحر بيكو ديللا ميراندولا فى هـذه الموعظة

كان شجاعة سافونارولا فى التنديد بمفاسد الكنيسة فى عصره . وبعد سبع سنوات من هــذه الحلقة ظل بيكو ديللا ميراندولا يغرى لورنزو دى مديتشى فى ١٤٨٩ باعادة سافونارولا الى فلورنسا حتى استجاب له لورنزو عــام ١٤٩٠ وبذلك تغير تاريخ هــذه المدينة .

● ● ●

حين عرض بيكو « النتائج التسعمائة » فى روما واراد ان يدافع عنها علنا فى مجمع الكرادلة عام ١٤٨٧ . قدم لها بمقدمة ضافية تسمى « الخطبة » . وقد اهتم معاصرو بيكو ودارسوه بتحليل هذه الخطبة الضافية لمـا اشتملت عليه من مبادىء اساسية توضح كثيرا من جوانب أصحاب الفلسفة الانسانية فى عصر الرنيسانس . غير ان بيكو لم يستطع القاء « الخطبة » بسبب صدور قرار البابا بتجريم القضايا التسعمائة جملة وايقاف المناظرة . فكتب بيكو « الدفاع » (الابولوجيا) ليشرح وجهة نظره . اما « الخطبة » فهى تنشر عادة تحت عنوان « فى كرامة الانسان » .. فهذا موضوعها . ويعدها اكثر مؤرخى الفكر بمثابة « مانيفستو » أو « بيان » باعادة اكتشاف الانسان فى عصر النهضة الأوروبية يمثل رأى دعاة المذهب الانسانى .

وتبدأ الخطبة على الوجــه الآتى : الانســـان هو عجيبـــة العجـــائب فى الخليقة وهـــو أحــق المخلوقـــات بالاعجـــاب والتمجيد . فالله خلق كافـــة الكائنـــات من جمـــــاد ونبـــــات وحيـــوان . بل وخـــلق الملائكة . وحـــدد لـــكل مخلوق طبيعـــــة ثابتـــة ومكانة ثابتـــــة . الا الانسان الــذى خلقه الله وأودع فيه القدرة على اختيار طبيعته وتشكيلها بنفسه . الله وضع فى الانسان بذور كل أشكال الحياة وهو يستطيع أن ينمى من هــذه البذور ما يختاره لنفسه . فى استطاعته أن يصبح جمادا أو نباتا أو حيوانا أو ملاكا أو جرما من اجرام السماء ، بل وان يصبح « ابن الله » متجاوزا كل المخلوقات فى الاتحاد مع الله . وقدرة الانسان الخارقة هذه على تشكيل نفسه وفق ارادته هى وراء معتقدات الشعوب ورموزها فى مختلف الثقافات والديانات منذ القدم . وفى « الخطبة » سرد لكـلام الله لآدم يبلغه فيه بهذا الامتياز على كافة المخلوقات وهو يذكرنا بما ورد فى القرآن الكريم عن المكانة المتميزة التى حبا بها الله آدم على الملائكة وسائر المخلوقات منذ الخلق الأول .

كان تمجيد بيكو ديللا ميراندولا للانسان استنادا لهذه الحيثيات الدينية عملا مرفوضا بالنسبة للكنيسة التى كانت تركز على قدرة الانســـان على السقوط منذ العصيان الأول بدلا من أن تركز على قدرته على الكمال . وكان قول بيكو إن الانسان حر فى أن يختار طبيعته بنفسه ، وإنه ســـيد نفسه

ومصيره ، وان عمل الانسان ونشاطه هما اللذان يسيران به الى الرقى أو الانحطاط ، بمثابة تجديف لأنه يلغى دور العناية الالهية أو التدخل الالهى أو « النعمة » الالهية فى انقاذ الانسان من السقوط وتمكينه من العمل الصالح ومن استحقاق الخلاص فى الدار الأخرى سواء بالايمان أو بالمعمودية أو بهما معا .. كما أن فى ايحاء بيكو ان فى امكان الانسان أن يصبح « ابن الله » زندقة واضحة بالمقياس المسيحى لأنه بمثابة غض من الوهية المسيح وافتراض واضح لطبيعته البشرية وفهم للاهوت المسيحى و « الكريستولوجيا » على انهما مجرد مجموعة من الرموز الاسطورية السامية لا تختلف فى كثير عن قصة ارتقاء هرقل الى مصاف الآلهة بأعماله الصالحة او قصة آلام بروميثيوس من أجل انقاذ البشرية عند اليونان .

فنظرية بيكو ديللا ميراندولا بتمام حرية الارادة الانسانية فى تشكيل طبيعة الانسان أفضت الى مجموعة أخرى من النتائج منها اعادة تعريف العلاقة بين الله والانسان واعادة تعريف العلاقة بين الانسان والعالم . وكانت أكمل تعبير عن روح « الفردية » المطلقة الى حد التأله التى تميز بها عصر النهضة الأوربية ، وأكمل تعبير عن روح « الحرية » و « التمرد » العبقرى التى شاعت فى كل وجه من وجوه الحياة فى عصر الرنيسانس ، وأكمل تعبير عن روح « الحرية » و « التحدى » و « الثورة » و «المغامرة»وكل هذه المعانى التى تبلورت فى « الشخصية الفاوستية » . وهى التجسيد الأمثل لشخصية الانسان فى الحضارة الأوربية الحديثة بداية من ماركو بولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) حتى رواد الفضاء واللاعبين بالرءوس النووية .

أما حركة صعود الانسان فقد قسمها بيكو ديللا ميراندولا الى ثلاث مراحل هى : تطهير الروح بالفلسفة الأخلاقية وبالجدلية ، وتنوير الروح بالفلسفة الطبيعية وهى تشمل طبعا العلوم والفنون والآداب ، وبلوغ الروح مرتبة الكمال باللاهوت أو الالهيات . ففى فلسفة بيكو ديللا ميراندولا مكان حقا للالهيات فى أعلى السلم من العقل الانسانى ، ولكنها ليست بالضرورة الالهيات التقليدية التى أسست عليها العقيدة المسيحية الكاثوليكية أو غير الكاثوليكية .

خذ مثلا نماذج من « النتائج التسعمائة » التى رفضتها الكنيسة جملة ونوهت بزندقة ثلاث عشرة قضية منها :

هناك قول بيكو إن المسيح « لم يدفن فى العالم السفلى » بمعنى انه لم يدفن فى القبر ، وهذا يوحى بأن بيكو ديللا ميراندولا كان مطلعا على

القرآن الكريم فى نصه العربى لأنه كان يتقن العربية أو على بعض التفاسير الاسلامية للقرآن الكريم . وأنه كان مقتنعا بأنهم « ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وان الله رفع المسيح « مكانا عليا » . وعلى كل فقد كان مثقفو العالم المسيحى فى عصر النهضة الأوربية ، ولاسيما فى الأوساط الجامعية ، على علم كاف بأساسيات العقيدة الاسلامية والفكر الاسلامى والفلسفة الاسلامية من خلال تشتت علماء الأندلس فى عديد من جامعات أوربا .

وهناك أيضا قول بيكو فى « النتائج التسعمائة » إن الصليب والصور الدينية لا ينبغى أن تقدس بنفس الطريقة التى يقدس بها الله .. وانزعاج الكنيسة الكاثوليكية من هذا المبدأ لا تفسير له الا انها اشتمت فيه اتهاما لها بأنها قد انحدرت الى الوثنية .

وهناك أيضا رأى بيكو أن الكبائر أو ما يسمى فى العرف الكاثوليكى « بالخطايا السبع القاتلة » كالقتل والزنا والطمع والكبرياء .. الخ . لا يمكن أن تستحق العقاب بالجحيم الأبدى لأنها ترتكب فى حياة الانسان المحدودة بالزمن . فما كان محدودا لا يمكن عقابه باللا محدود .. وهنا أيضا يبدو أن بيكو كان متأثرا بالعقيدة الاسلامية والفكر الاسلامى . فالله فيهما يمكن أن يغفر كل ذنب فيما خلا الشرك .

كذلك هناك أكثر من قضية فى « نتائج » بيكو تتعلق بالقربان المقدس عند المسيحيين وتحول لحم المسيح ودمه الى الخبز والنبيذ .

وليس من الضرورى أن نفترض أن مصادر فكر بيكو كانت كلها اسلامية أو عربية فهناك من فقهاء الدين المسيحى أمثال أوريجن الاسكندرى (١٨٣ — ٢٥٤) الذى ذهب الى نظرية الغفران الشامل فى الآخرة ، وكان ينزع مثل بيكو الى فهم المسيحية فهما مجازيا ، وقد رفضت الكنيسة الغربية تخريجاته . وهناك أريوس الاسكندرى (٢٥٦ — ٣٣٦) الذى أنكر وحدة الثالوث وبالتالى انكر الوهية المسيح . وقد رفضت الكنيسة رأيه فى مجمع نيقية عام ٢٣٥ . كما انه كان يرى أن المسيح لم يصلب الا فى الظاهر فقط ، وهو نفس ما قاله بيكو ديللا ميراندولا بتفسيره الرمزى للعقيدة المسيحية . وقد ذكر بيكو أوريجن بالفعل بين مصادره وطالب الكنيسة بالاعتراف به . ومع ذلك فقد كانت المصادر الاسلامية والمصادر المسيحية المرفوضة من الكنيسة كلها متاحة أمام بيكو فى عصره الذى كان يموج بالأفكار الجديدة والقديمة الخلاقة .

وقد انقرضت اكثر اعتراضات بيكو على اللاهوت المسيحى . ولكن بقيت بعض هذه الاعتراضات وغدت جزءا لا يتجزأ من المعارك الفكرية واللاهوتية التى اقترنت بحركة الاصلاح الدينى فى عصر النهضة الأوربية ، واقترنت بظهور المذاهب البروتستانتية المختلفة . مثال ذلك معركة الجبر والاختيار ، ومعركة الصور والتماثيل ، ومعركة « اليوخاريست » أو العشاء الربانى وتحول جسد المسيح الى الخبز والنبيذ .

حتى مشكلة اللغة التى اثارها بيكو ديللا ميراندولا فى كتاباته كانت وجها هاما من معركة لغة التعبير التى لازمت خروج أوربا من عصرها الوسيط الى عصرها الحديث . فقد كان بيكو ديللا ميراندولا من دعاة كتابة البحوث الفلسفية واللاهوتية بلاتينية مبسطة سهلة الفهم على المثقف العادى. وكانت تعرف فى عصره «بأسلوب باريس» .. بينما كان كرادلة روما يتشيعون للاتينية الكلاسيكية الفصحى العالية البلاغة .. أو ما كان يسمى يومئذ « أسلوب شيشرون » ، بل وكانوا يتعصبون لهذه اللغة الفصحى ويعدونها لازمة لاكتمال الايمان .

ونحن اليوم نربط بيكو ديللا ميراندولا بحركة الهيومانزم او المذهب الانسانى .. وهى حركة تمثل فى جوهرها التيار العلمانى فى عصر النهضة الأوربية .. باستثناء عدد محدود من كبار المفكرين مثل إرازموس والسير توماس مور الذين اقترنت اسماؤهم بما يسمى « الهيومانزم المسيحى » ممن دعوا لتمجيد الانسان وعلومه وفنونه وآدابه ولكن رفضوا تمزيق العروة الدينية التى قامت عليها الكنيسة الجامعة (اى الكاثوليكية) وتمسكوا بوحدة العالم المسيحى .

ولكن معاصرى بيكو ديللا ميراندولا الذين كتبوا عنه قبل وفاته وبعد وفاته .. مثل باولو كورتيزى مؤلف كتاب « اعلام العلماء » فى ١٤٩٠ و « كتاب الحكم » (جمع حكمة) فى ١٥٠٤ وكتاب « الكاردينال المثالى » فى ١٥١٠ .. كانوا لا يرون فيه كل هذه العلمانية التى ننسبها اليه . وانما كانوا يرون فيه مفكرا دينيا فى المقام الاول ، بل ويدافعون عن صحة تأملاته اللاهوتية . وقد حاول كورتيزى أن يصوره فى صورة « الكاردينال المثالى » بالرغم من اتهام الكنيسة اياه بالزندقة . وهو نفس راى السير توماس مور فيه .

كان الكاردينال المثالى عند كورتيزى هو فقيه الدين الذى يعمل العقل فى الدين ليتغلب على كل ما يتحدى العقل فى الدين .. وربما كان هذا الموقف

من بيكو ديللا ميراندولا هو التقدير الصائب لفلسفته حول الله والانســـان التى يمكن أن تكون تعبيرا عن محاولته التوفيق بين افلاطون وارسطو .

وبذلك لا تبقى الا نقطة محيرة واحدة . وهى انجذاب أكبر مدافع عن شرف الانسان انجذاب المسحور الى اكبر داعية لاحتقار الدنيا ، فقــد أوشك سافونارولا أن يقود بيكو ديللا ميراندولا الى عتبة دير سان مارك فى فلورنســـا .

●●●

SS

ليوناردو دافنشى
LEONARDO DA VINCI
١٤٥٢ - ١٥١٩

□ كما نقول إن عصر النهضة الايطالية بدأ فى الأدب بالشاعر دانتى ، كذلك فلنقل انه بـدأ فى الفنون التشكيلية بالفنان جيوتو (١٢٦٦ — ١٣٣٧) الذى كان معاصرا لدانتى . وكما نقول ان ادب دانتى كان يمثل عصر الانتقال من العصور الوسطى الى بدايات العصر الحديث . فلنقل ايضا ان فن جيوتو كان يمثل هذا الانتقال ، من حضارة العصور الوسطى الى حضـارة الرنيسانس ، ففيه من هذه وتلك شىء كثير .

هذا القلق الحضارى الذى تجلى — ولا يزال — فى كل وجه من وجوه الحياة الأوربية منذ نحو ١٣٠٠ بدأ بالميلاد الجديد لفن التصوير بظهـور جيوتو ، ثم بالميلاد الجديد لفن النحت ، ثم بالتحول العميق الذى اصاب فن العمارة فتطورت من الطراز القوطى الى الطراز الكلاسيكى الجديد .. عبر « الكواتروتشنتو » ، اى من ١٤٠٠ الى ١٤٩٩ ، اى القرن الخـامس عشر ثم عبر القرن السادس عشر ، الى أن تصدعت الكلاسيكية الجديدة وحلت محلها مدرسة الباروك ، أو مدرسة « الإغراب » .

كان جيوتو يقف مثل دانتى بين عالمين : كان ينتمى الى العصـور الوسطى لأن الهامه كان الهاما دينيا محضا لا مكان فيه للتصوير الدنيوى ، ولأن اكتشافه للبعد الثالث او ما يسمى بالمنظور ، وهو العمق الذى به تتجسم المرئيات والصور والتماثيل وكل كتلة تقع عليها عين الانسـان ، كان اكتشافا تقريبيا لا يقوم على اسس علمية .

كانت أوربا قد نسيت نحو الف عام فن التجسيد أو التشكيل حيث تبدو المرئيات مجسمة كما هى فى الطبيعة . نسيت التجسيد او التشـكيل بسبب الحضارة المسيحية التى سـادتها اكثر من عشرة قرون . ولأنهـا دخلت فى معارك حياة او موت مع الحضارات الوثنية السابقة على ظهور التوحيد . عاشت فى جزع قاتل من كل ما هو مجسد فى الفن أو فى الحياة .

وبعد أن دمر المسيحيون الأول كل ما وصلت اليه أيديهم من أصنام الآلهة والبشر وصورهم خشية عودة الوثنية ، انقرض فن النحت تماما . ولم يبق من فن الرسم الا الزخارف التجريدية من الأمشاق الهندسية المتكررة أو أمشاق الأزهار وأوراق الشجر ، والا بعض الصور المقدسة (لدى المسيحيين) المسطحة ذات البعدين بالفسيفساء الشائعة فى الفن البيزنطى ، أو بالزجاج الملون المعشق بالرصاص الشائع فى نوافذ الكاتدرائيات القوطيـــة فى أوربا الغربية .. ولم ينج من هذا الاضطهاد الا فن العمارة لحاجة الدين اليـــه فى بناء دور العبادة ، ولحاجة الأمراء اليه لبناء الحصـــون والقـــلاع والقصـــور .

كان البعد الثالث أو العمق مرادفا للوجود فى المكان والزمان . والمكان والزمان هما دار الفناء . والاستعداد للحياة الأبدية يقتضى التجـــرد من الجسدانية الفانية أو من الحياة الدنيا . لهذا فقد كان مجرد اشتغال جيوتو بالتصوير التجسيدى « الفيجوراتيف » أى بالبعد الثالث ، مهما كان اجتهادا فى البدايات .. حدثا ضخما لأنه كان بمثابة التقاء الدين والدنيـــا . لقد كسرت الحواجز التى كانت قائمة بين الدنيا والآخرة .

ومنذ ذلك التاريخ اصبح ممكنا أن نخلد ذكرى العظماء بالتماثيـــل والصور ونحيى ذكرى الأحباء بالرسوم والأيقونات دون أن نتهم بالوثنية .. لأننا ندرك أن رموز الفن ورموز العقيدة مستويان مختلفان . بل مستويات مختلفة .. فى الادراك الانسانى .. ومنذ ذلك التاريخ أصبح ممكنا للفن أن يقلد الطبيعة والحياة أو أن يبدع منهما ابداعا خلاقا دون أن يتهم الفنان بالشرك أو الردة الى اقامة الأصنام . وكان كل ذلك انتصارا للانسان .

وبازدهار العلوم والآداب والفنون الانسانية . ذلك الازدهار الذى اقترن باحياء حضارة اليونان والرومان .. استوحى فنانو عصر النهضـــة الأوربية فنون النحت والتصوير والعمارة عند القدماء شكلا وموضـــوعا . أما من حيث الشكل فقد سيطرت قوانين التجسيد والتكوين والحركة درجة درجة على مصورى عصر النهضة الايطالية ومثاليه حتى بلغت أوجها بعد قرنين من التطور التدريجى فى فن الأقطاب الثـــلاثة : ليـــوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) ورفاييل (١٤٨٣ — ١٥٢٠) وميكلانجلو (١٤٧٥ — ١٥٦٤). أما من حيث الموضوع فقد شاع فى فن عصر النهضة استحياء الأســـاطير والموضوعات اليونانية والرومانية الى جانب اســـتحياء القصص الدينى المسيحى والموضوعات الدينية المسيحية . وشاع الاهتمام بتصوير الطبيعة والحياة .. وشاع الاهتمام بتصوير أعلام الناس رجالا ونســـاء أو نحت تماثيلهم .. وشاع الاهتمام بتصوير أجسام الرجال والنساء بدقة تضاهى

دقة الطبيعة .. وبوجه عام كان فنانو الرنيسانس ـــ كما كان فنانو اليونان القديمة .. يرون فى كمال أجسام الرجال جمالا يفوق جمال أجسام النساء .

وقد أدت الرغبة فى تقليد الطبيعة والحياة الى اكتشاف قوانين التجسيد من جهة ، والى الاهتمام بدراسة التشريح من جهة أخرى . وكانت أكبر ثورة قام بها فنانو الرنيسانس هى اكتشاف أهم قانون من قوانين التجسيد ، الا وهو قانون « المنظور » الذى به تأخذ المرئيات بعدها الثالث الا وهو « العمق » (أو الارتفاع) .. فلا تبدو المرئيات مسطحة بالطول والعرض وحدهما . وأساس هذا القانون هو أن الأجسام تبدو أصغر وأصغر ببعدها أكثر وأكثر عن خط النظر ، وأن الخطين المتوازيين يبدوان أضيق فأضيق ببعدهما عن خط النظر حتى أنهما يلتقيان بالوهم فى عين الناظر اذا امتدا بالدرجة الكافية . (أما فى علم الهندسة فالخطان المتوازيان لا يلتقيان مهما امتدا) . ولم يكن الأقطاب الثلاثة ، ليوناردو دافنشى ورفاييل وميكلانجلو أول من اكتشفوا أهمية البعد الثالث أو التشريح ، ولكنهم كانوا أول من بلغوا بهما حد الكمال .

●●●

ولد ليوناردو دافنشى فى ١٥ أبريل ١٤٥٢ فى قرية انكيارى بالقرب من بلدة فنشى فى ريف مقاطعة توسكانيا بجوار مدينة فلورنسا . وكان ابنا غير شرعى لمحام ورجل أعمال ناجح يعمل موثقا للعقود اسمه بييرو دافنشى، من فتاة ريفية فقيرة تدعى كاترينا . وقد تزوج الأب فى نفس عام ميلاد ليوناردو من فتاة من نفس مركزه الاجتماعى . أما الأم فلم تلبث أن تزوجت بعد انجاب ليوناردو من رجل رقيق الحال من بيئتها . وقد قبلت ليوناردو الصغير منذ مولده أسرة أبيه ، وتم تعميده فى حضور الأسرة وعشرة أشخاص آخرين . وتولت تربية ليوناردو امرأة أبيه ، ولكن الأب تزوج بعد ذلك ثلاث مرات وأنجب أبناء كثيرين بلغ عددهم عشرة .

ولا نعرف الكثير عن حداثة ليوناردو غير أنه عاش فى فنشى حتى سن الثالثة عشرة أو السابعة عشرة ، وأن تعليمه الابتدائى كان بسيطا ، الا أنه أظهر استعدادا واضحا للرياضيات وللهندسة وللفنون التشكيلية ، وأنه لم يتعلم اللاتينية فى صباه ، ولكنه علم نفسه اللاتينية قراءة وكتابة بدرجة كافية حين بلغ سن الأربعين . كذلك نعرف عن الصبى ليوناردو أنه كان شديد الالتصاق بأبيه ، ولكنه كان يقضى أكثر وقته خارج البيت ، غالبا

للتآلف مع الطبيعة أو لعله كان حائرا بين ابيه وامه .. كذلك لوحظ عليه انه كان محبا للوحدة .

ويبدو أن ليوناردو كان فى فنشى وحيدا بلا أصدقاء . ولكنه لم يكن يتململ من ذلك أبدا . وقد كتب يقول : « اذا كنت وحيدا ملكت نفســك » . وهناك احتمال أن يكون وضعه كابن غير شرعى قد سبب له المتــاعب فى حداثته سواء فى البيت أو فى المدرسة أو فى مجتمع فنشى الريفى الصغير ، فأدى ذلك الى انطوائيته وعزوفه عن مخالطة الناس .. بل والى عقــده النفسية الكثيرة التى انتهت به الى الخوف من المــرأة رغم أنه كان بشهادة كل معاصريه بالغ الوسامة والرشاقة والأناقة .. بل وانتهت به الى الشذوذ الجنسى غالبا حتى لا يكرر غلطة أبيه .

أما أمه فقد انقطعت أخبارها . غير أننا نسمع أن ليوناردو حين بلغ سن الأربعين كان يقيم فى ميلان وكان يستخدم مدبرة منزل اسمها كاترينــا توفيت غالبا أثناء العمل عنده . وقد دفنها على نفقته . وقيل إنها أمه .

وكان لليوناردو أخ اسمه فرانشسكو أنجب غلاما فكتب اليه ليوناردو يقول « أنت سعيد لأنك خلقت لنفسك عدوا حريصا على استخلاص حريته التى لن ينالها منك قبل موتك » . فاذا كانت هذه العبارة تعبر عن شــعور ليوناردو نحو أبيه فى مكنونات عقله الباطن .. شعور البغض الدفين بين الولد والوالد ، وربما بين الوالد والولد ، فربما أمكن بذلك تفســير شذوذ ليوناردو الجنسى على غرار ما حاول فرويد أن يفعله فى بحثه عن ليوناردو دافنشى .

وهناك وثيقة تثبت أن الوالد بييرو دافنشى عين رسميا موثق عقــود السنيورية فى فلورنسا عام ١٤٦٩ .. ومن هذا نستدل على انه انتقــل الى فلورنسا فى تلك السنة حين كان ابنه ليوناردو فى السابعة عشرة من عمره .. وقد أثرى بييرو من زبائنه الخصوصيين حتى أنه امتلك شــقة فى قصر البوديستا فى فلورنسا واستأجر بيتا آخر فى المدينة كما انه امتلك فيللا فى بلدة فنشى . ولا نعرف ان كان الأب قد اصطحب ابنه الى فلورنسا مع انتقاله اليهــا .

ولكننا نعرف ان الأب لاحظ نجابة ابنه فى فن الرسم منذ أن كان غلاما فى فنشى يرسم المناظر الطبيعية .. فعرض بعض رسومه على الفنــــان الشهير أندريا ديل فيروكيو (١٤٣٥ — ١٤٨٨) .. وهو رسام نحات ومعمارى فى وقت واحد ، فقد كانت عادة الفنانين فى تلك الأيام أن يشتغلوا بالفنون التشكيلية جميعا فى وقت واحــد .. وكان ذلك فى فتــرة ما بين ١٤٦٤

و ١٤٧٠ .. فقبله فيروكيو تلميذا فى مرسمه . وفى ١٤٧٢ قبل ليوناردو دافنشى عضوا فى « جماعة سان لوكا » ، وهى نقابة الفنانين التشكيليين فى فلورنسا .

كذلك نعلم أن فيروكيو احتفظ بليوناردو دافنشى مساعدا له لمدة خمس سنوات بعد دخول ليوناردو دافنشى نقابة الفنانين التشكيليين .. ونعلم ان ليوناردو دافنشى كان فى ١٤٧٦ يقيم مع فيروكيو . ومعنى هذا ان ليوناردو دافنشى ظل على صلة وطيدة بأستاذه فيروكيو ، تلميذا ومساعدا سبع سنوات على الاقل من ١٤٧٠ الى ١٤٧٧ ، أى بين سن ١٨ و ٢٥ . وقد اعترف فيروكيو فيما بعد بأن تلميذه تفوق عليه . وكان رأى ليوناردو دافنشى الذى دونه هو قوله : « من لا يتفوق على أستاذه فهو تلميذ متخلف » .

وفى ١٤٧٦ .. أى حين كان ليوناردو دافنشى فى الرابعة والعشرين من عمره .. اتهم مع عدد من شبان فلورنسا بالشذوذ الجنسى . ولكن بعد جلستين من المحاكمة حفظت القضية لعدم كفاية الأدلة . غير أن أكثر الباحثين فى سير الأعلام يجمعون على صحة هذا الاتهام . ولفرويد بحث هام فى هذا الموضوع .

●●●

كانت لفيروكيو وليوناردو دافنشى اهتمامات مشتركة غير التصوير والنحت والعمارة والموسيقى .. كانا يهتمان بالرياضيات والهندسة والتشريح . وقد ترك لنا ليوناردو دافنشى مئات من الرسوم التشريحية التى يعدها البعض دراسات فى علم التشريح .. ولكن اكثر هذه الرسوم لا تتجاوز التسجيل الظاهرى .. أى تسجيل الفنان لا الطبيب . ومع ذلك فقد تجاوز ليوناردو دافنشى فى بعض هذه الدراسات التشريحية اهتمامات الفنان ودخل منطقة العلم المتخصص .

ويقال إن أول من علم ليوناردو دافنشى علم التشريح كان الفنان فيروكيو . ويقال أيضا ان ليوناردو دافنشى درس التشريح دراسة منظمة فى فلورنسا مع طلبة الطب .

ولما كنا نعرف أن لورنزو دى مديتشى نقل جامعة فلورنسا ، وفيها كلية الطب ، الى بيزا بمجرد انتقال ليوناردو الى فلورنسا فيمكن ان نستخلص أن ليوناردو دافنشى لم يتعلم التشريح مع طلبة الطب الا فترة وجيزة . وعلى كل فقد كتب ليوناردو نفسه يقول « وقد رأيت تشريح من

نفذ فيهم حكم الاعدام شنقا » ، وهو هنا غالبا يشير الى من جرى اعدامهم فى مؤامرة باتزى عام ١٤٧٧ . وهناك كتاب لمؤلف مجهول معاصر يقـول ان ليوناردو قام بتشريح جثث كثيرة فى مستشفى سانتا ماريا الجـديدة ، ولكن هـذا يشير الى تاريخ اقامته الثـانية فى فلورنسـا وليس الى فترة التـكوين .

كان التشريح معروفا عند اليونان ثم فى مدرسة الاسكندرية ثم عنـد العرب . ويقول أرسطو فى « خلق الحيوانات » (٧/١) إن تعليم التشريح ينبغى أن يتم برسوم ايضاحية . وكان هيروفيلوس واراسيستراتوس ، عالمـا التشريح فى مدرسة الاسكندرية يستعملان الرسوم الايضاحية عند شرح تشريح جسم الانسان . وكان علم التشريح أولا يوضح بالصور خمسة أشياء : العظام والعضلات والأعصاب والأوردة والشرايين ، ثم أضيف الى ذلك منظر المرأة الحامل ومنظر الأعضاء التناسلية عند الرجل وعند المرأة . وهذه هى التقاليد التى ورثها العرب ثم أحياها الأوربيون وجددوها وأضافوا اليها منذ عصر النهضة الأوربية .

وبضمور الحضارة الأوربية مات علم التشريح طوال العصور الوسطى، ولم يبق منه الا تشريح الحيوانات ، لأن الكنيسة حرمت تشريح الجثث الآدمية خوفا من آثار التشريح الوخيمة على البعث فى الدار الأخرى . وفى ١٣٠٠ أصدر البابا بونيفاتشيو الثامن مرسوما اسمه « موضوع القبـور » يعلن فيه تطبيق قرار الحرمان على كل من يخلى عظام ميت ولاسيما من المشاركين فى الحروب الصليبية لتيسير حفظها ونقلها لتدفن فى وطن صاحبها . وكان أول ذكر لعملية التشريح فى ايطاليا عام ١٢٨٦ ، وكانت محاولة لمعـرفة أسباب وفاة رجل توفى بالطاعون .. وكانت هذه ارهاصة ببداية البحث العلمى الموضوعى الذى أدى ازدهاره الى نهضة أوروبا فى العصر الحديث . وفى ١٣٠٢ جرت فى بولونيا محاولة أخرى بالتشريح لمعرفة سبب وفاة رجل اشتبه انها جنائية ، وهو شىء قريب مما يفعله الطب الشرعى فى العـالم الحـديث .

وكانت أول محاولة علمية فى الموضوع ظهرت فى أوروبا الحديثة هى كتاب موندينوس (١٢٧٠ — ١٣٢٦) ، « علم التشريح» (باللاتينية) ، عام ١٣١٦ ، وهو كتاب متأثر الى حد كبير بعلم الطب عند العرب ، والـكتاب يتناول تكوين جسم الانسان ووظائف أعضائه . وقد اعترفت جامعـة فلورنسا بعلم التشريح فى ١٣٨٧ ثم اعترفت به جامعة بولونيا فى ١٤٠٥ ، ثم جامعة بادوا عام ١٤٢٩ ، ومع ذلك فقد ظلت الرسوم الخمسـة أو الستة المتوارثة كشرح لعلم التشريح سائدة حتى القرن السادس عشر .

ss

وحين كتب فيزاليوس كتابه الشهير « اللوحات التشريحية » فى ١٥٣٨ لم يضف جديدا وانما قدم المتوارث ولكن فى اتقان شديد .

وكان الأطباء من قبل يحتقرون عادة هذه الشروح المصورة التقليدية لرداءة رسومها ، ويرون أنها لا تناسب الا حلاقى الصحة . ولكن الفنانين بدءوا منذ جيوتو يهتمون بهذه الرسوم التشريحية ليستعينوا بها فى تصوير الجسم الانسانى بواقعية شديدة . بل ان الفنانين فى فلورنسا ، المصورين والمثالين ، انضموا منذ ١٣٠٣ الى نقابة الصيادلة والأطباء بسبب هذا الاهتمام بالتشريح ، وكان اهتمامهم بالتشريخ لبلوغ الكمال فى تقليد الطبيعة كلما تصدوا لرسم الأجسام العارية .

ثم بدأ الفنانون يقومون بالتشريح بأنفسهم ، وكان من أسبقهم الى ذلك المثال دوناتيللو (١٣٨٦ — ١٤٦٦) . وروى عن الفنان انطونيو بولايولو (١٤٣٢ — ١٤٩٨) أنه كان يسلخ الجلد من الجثة ليدرك العرى الحقيقى ، وله صورة « معركة العرايا العشرة » ، التى تعد أهم دراسة فى التشريح الظاهرى قبل ليوناردو دافنشى ، ولاسيما من حيث تكوين العضلات . وبالمثل اهتم فيروكيو ، تلميذ دوناتيللو وبولايولو واستاذ ليوناردو دافنشى بعلم التشريح ، وعنه أخذ ليوناردو هذا العلم . كذلك روى عن الفنان لوكا سنيويللى (١٤٤٢ — ١٥٢٤) انه كان يزور المقابر بحثا عن اشلاء يدرس عليها علم التشريح . وربما كانت هناك مبالغات فى هذا الصدد لأن بعض الفنانين يعدون من شواذ الناس ، أو ربما رغبة من أعداء الفنون الجميلة فى التشهير بالفنانين واظهارهم فى صورة شيطانية . ومع ذلك فالثابت أن فيزاليوس علامة الطب ، كتب فى ١٥٤٦ يقول ان المصورين والمثالين كانوا يتجمهرون حوله اثناء اجرائه لعمليات التشريح .

غير أننا بوجه عام نستطيع أن نقول ان اهتمام الفنانين كان بسطح الجسم وليس بالتشريح الحقيقى . فاهتمامهم الأول كان بالعظام والعضلات والأوعية الدموية الظاهرة وبلون الجلد وبلون اللحم الحى وبكل ما يدخل فى باب التكوين . وقد كان ليوناردو دافنشى أقرب الفنانين الى دراسة التشريح بوصفه علما وفنا .

لا نعرف كيف تعرف ليوناردو دافنشى على لورنزو دى مديتشى .. ولكننا نقرأ فى المؤلف المعاصر المجهول أن لورنزو حين اكتشف موهبة ليوناردو جعله يعمل فى حديقته فى ميدان سان ماركو وربما تدخل لتكليفه برسم الصورة فى المذبح فى كنيسة السنيورية عام ١٤٧٨ . كذلك نقرأ قول ليوناردو دافنشى فيما بعد : « لقد بنانى آل مديتشى وحطمونى » ،

فنعرف أنه مدين بشيء كثير للورنزو دى مديتشى ولكننا نعرف أيضا أن البابا ليو العاشر ، وهو من آل مديتشى ، كان يضع امامه العراقيل ايام اقامته فى روما ، ويقدم عليه المصور رفاييل .

وكان أول عقد فنى وقعه ليوناردو دافنشى فى ١٤٧٨ وهو فى سن السادسة والعشرين . ولكنه كان دائما يتوخى الكمال فى عمله ، ولذا فقد كان بطيئا فى عمله وكثيرا ما لا ينجز ما بداه . ولهذا قل زبائنه وشاع عنه أنه لا يعتمد عليه . حتى لورنزو دى مديتشى الذى كان معجبا بفنه لم يكلفه بأى عمل له . وكان ليوناردو نفسه لا يكتم سخطه على لورنزو وعلى حلقة المثقفين المتعلقين بأهدابه ويترفع عليهم ويصفهم بأنهم من طلاب المنافع .

وفى ١٤٧٨ كان ليوناردو دافنشى لا يزال فى فلورنسا عندما جرت مؤامرة باتزى التى استهدفت اغتيال لورنزو دى مديتشى واخوه جوليانو والاطاحة جملة بآل مديتشى وبحكمهم ، ولكنها لم تنجح الا فى قتل جوليانو ، وخرج منها لورنزو أقوى مما كان . وفى ديسمبر رسم ليوناردو جثة احد القتلة وهو باندينو بارونتشيللى ، مشنوقا من نافذة قصر السنيورية . وقد تعرف ليوناردو فى ١٤٧٨ على عاهل ميلانو ، لودوفيكو سفورزا ، حين زار فلورنسا ليهنىء صديقه لورنزو بسلامة النجاة وليعزيه فى موت أخيه جوليانو . وكان لورنزو هو الذى عرف ليوناردو بأمير ميلانو ، وقد افضى ذلك الى ان ليوناردو دافنشى انتقل الى ميلانو فى فترة ما بين ١٤٨١ و ١٤٨٣ ، ليلتحق ببلاط الدوق لودوفيكو سفورزا حاكم ميلانو .

هكذا قضى ليوناردو دافنشى الفترة الأولى من حياته فى فلورنسا ، اكثر من عشر سنوات ما بين ١٤٧٠ و ١٤٨٠ ، قبل انتقاله الأول الى ميلانو . قضاها تلميذا للفنان فيروكيو ثم مساعدا له . فماذا اضاف ليوناردو للفن خلال هذه السنوات العشر ؟

هناك من فترة التلمذة جزء من صورة رسمها فيروكيو اسمها « يوحنا يعمد المسيح » ، وقد رسم ليوناردو فى ركنها الأيسر صورة ملاك بالغة الاتقان جعلت فيروكيو يقسم انه سيهجر الرسم بعد ظهور هذا الفنان المعجزة ، وبالفعل انصرف فيروكيو بعد ذلك الى فن النحت .

كذلك تنسب الى ليوناردو دافنشى فى فترة فلورنسا الأولى صورة « بشارة مريم » التى رسمها اثناء عمله فى أتلييه فيروكيو . وتتميز هذه الصورة بالتفصيل الشديد فى رسم جناحى الملاك ، على غير الأسلوب

التقليدى فى القرن الخامس عشر . كذلك نجد ثوب المادونا ، أى مريم العذراء ، يتميز بشدة الواقعية والمطابقة للقماش الحقيقى الذى كانت تصنع منه الاثواب ، وقد كان الرسامون التقليديون يرسمون الثياب من الخيال . وشاع أن ليوناردو الشاب كان يستعمل موديلات حقيقية من الحياة ، يرسمها اولا بالتفصيل قبل ان ينقلها بالزيت على القماش او على الكرتون او على الجدران ، كما كان يدرس طيات الثياب وطريقة سقوطها عند الجلوس او الوقوف وفى مختلف الأوضاع . كان المهم عند ليوناردو دافنشى هو تقليد الطبيعة بأقصى دقة ممكنة . وقد قلده معاصروه فى ذلك تقليدا حرفيا . ولم ينبغ منهم حقا فى حياة ليوناردو غير رفاييل وميكلانجلو .

ومن آثار فترة فلورنسا الأولى « المادونا ذات الزهرية » (ربما من لوحات ١٤٧٠) . ومثلها صُورة سيدة اسمها جينرفا وهى من عائلة بنشى المعروفة فى فلورنسا ، وتسمى فى تاريخ الفن « جينرفا دابنشى » . وهى غالبا من حصاد ١٤٧٤ . وتعد هذه الصورة المقدمة التمهيدية للصورة النصفية التى نعرفها فى اشهر نموذج لها ، وهى صورة « الموناليزا » المعروفة بالجيوكوندا . وهى الآن فى متحف اللوفر بباريس .

وفى ١٤٨١ رسم ليوناردو دافنشى صورة « ملوك المجوس يعبدون المسيح » ، وهى صورة ناقصة بعض الشىء ، ومع ذلك فعظمتها الفنية تسطع ، لانها رغم تعدد الاشخاص فيها ، بل تكدسهم ، تجعل مريم والطفل فى بؤرة المنظر ، كما ان الملوك الثلاثة واضحون تماما وسط حشد الشباب والشيوخ والخيل والفرسان والخلفية من العمارة المتداعية .. وقد توصل ليوناردو دافنشى الى ابراز العمق الواضح فى الصورة عن طريق التكوين الهرمى ، كما ان التعبيرات على وجوه الناس آية فى الدقة .

ثم جاءت مرحلة ميلان الأولى التى امتدت نحو ثمانية عشر عاما ، من نحو ١٤٨٢ حتى نهاية ١٤٩٩ ، فقد أرسل لورنزو دى مديتشى ليوناردو دافنشى ، وقد قارب الثلاثين من عمره الى صديقه وحليفه لودوفيكو سفورزا عاهل ميلان حاملا اليه هدية هى عود مصنوع من الفضة ، وكانت هذه طريقة لبقة لتزكية ليوناردو عند حاكم ميلان .

ولا احد يعرف لماذا « تنازل » لورنزو ، وهو الحريص على تجميع المواهب ورعايتها فى فلورنسا ، لصاحبه لودوفيكو عن ليوناردو دافنشى بهذه السهولة رغم ايمانه بعبقريته . اما التفسير المألوف فهو لأنه وجد ان فلورنسا كانت متخمة بالعبقريات الفنية بينما ميلان بحاجة اليها . وهو تفسير غير كاف لأن ميكلانجلو كان يومئذ لا يزال فى السادسة من عمره ،

ولورنزو دى مديتشى لم يتبن ميكلانجلو الا يافعا . ثم ان مدرسة فيروكيو (١٤٣٥ — ١٤٨٨) ودوناتيللو (١٣٨٦ — ١٤٦٦) من قبله ، كانت فى سبيلها الى الانقراض أو انقرضت بالفعل ولكن ، هناك احتمال أن فضيحة الشذوذ الجنسى التى ثارت حول ليوناردو أثناء اقامته مع فيروكيو عام ١٤٧٦ جعلت لورنزو دى مديتشى يتحرج من ضم ليوناردو رسميا الى بلاطه كما فعل مع ميكلانجلو .

وهناك خطاب كتبه ليوناردو دافنشى فى تلك الفترة موجها الى لودوفيكو سفورزا يشبه طلبات الاستخدام ويعدد فيه ليوناردو مواهبه وقدراته كمهندس عسكرى وعالم رياضى ومهندس معمارى ومثال ، ولا يذكر صفته كفنان مصور الا فى آخر القائمة .

وفى ١٤٨١ استولى الدوق لودوفيكو سفورزا على السلطة فى ميلان بموجب انقلاب قام به على الحاكم الشرعى ، وهو ابن أخيه . فقد كان يحكم ميلان أصلا الدوق جالياتزو ماريا ، وبعد اغتياله كان وريثه فى الحكم جيان جالياتزو ، وكان عمره سبع سنوات ، فكان رسميا تحت وصاية أمه بونا دى سافوى ، ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد سكرتير الدوقية السابق، وتدعى سيمونيتا ، فقام الدوق لودوفيكو سفورزا بانقلابه الذى أطاح فيه بنظام الوصاية واصبح هو الحاكم الحقيقى لميلان بوصفه حامى الدوق الصغير ، ثم انفرد هو بالحكم رسميا رغم أن جيان جالياتزو عاش حتى ١٤٩٤ .

وقد أدى هذا الانقلاب الى ظهور حلف نابولى وميلانو وفلورنسا الذى انضمت اليه فيرارا . وكانت البابوية والبندقية تعترضان على هذا التحالف بعدوانية ، ولكن رغم انسحاب البابوية والتصالح مع البندقية ، استمرت الفتن الاقطاعية فى ايطاليا بتشجيع من البابوية . وبدأت فرنسا تطالب بحقها الوراثى فى ملك نابولى ثم فى ميلانو ، وقويت مشكلة التدخل الفرنسى المسلح للاستيلاء على هاتين الدويلتين .

وواضح أن خطاب ليوناردو دافنشى الى لودوفيكو سفورزا ، الذى يعرض ليوناردو فيه كفاءاته كمهندس وخبير فى بناء الاستحكامات قبل كفاءاته كفنان ، قد كتب فى هذا الجو المشحون بنذر الحرب . وهكذا دعى ليوناردو دافنشى للعمل فى بلاط دوق ميلان ، فاشتغل بين ١٤٩٢ و ١٤٩٨ كمهندس استحكامات وكمهندس للديكور الداخلى .

وفى ميلان تعرف ليوناردو دافنشى الى رجلين من أهم رجالات عصره ، هما عالم الرياضيات لوكا باتشيولى والمهندس المعمارى دوناتو دانيولو

الشهير باسم برامانتى (١٤٤٤ — ١٥١٤) ، وهو الذى بنى كاتدرائية القديس بطرس فى روما ، وكان برامانتى هذا يشارك ليوناردو دافنشى حبه لعلم الميكانيكا الى حد الهوس . وحين انتقل ليوناردو الى بافيا مع الدوق لودوفيكو سفورزا أقام مع الدوق فى حصن المدينة ، وكانت به مكتبة هائلة فعكف ليوناردو على دراسة التشريح مع أستاذ معروف يدعى مارك انطونيو ديللا طورا ، وعلى دراسة الرياضيات مع كاردانو أستاذ الرياضيات بجامعة بافيا وقد اطلع فى هذه المكتبة على بعض الكتب العربية المترجمة الى اللاتينية فى التشريح والرياضيات .

وفى ١٤٩٢ دعا لودوفيكو سفورزا شارل الثامن لغزو ايطاليا والاطاحة بالفونسو دى اراجون ، ملك نابولى الطامع فى عرش ميلان بسبب زواج ابنته من جيان جالياتزو الوريث الشرعى لعرش ميلان . وبالفعل اجتاح شارل الثامن من ١٤٩٤ ايطاليا كلها بتواطؤ ميلان . وهنا أدرك لودوفيكو سفورزا خطأه فى الاستعانة بقوات أجنبية لتثبت عرشه فى ميلان ، فانضم الى التحالف المقدس فى ١٤٩٥ مع البندقية والبابوية واسبانيا ومكسمليان امبراطور النمسا لطرد الفرنسيين . ولكن بعد موت شارل الثامن غزا خلفه لويس الثانى عشر ملك فرنسا ميلان من جديد فى ١٤٩٨ ، واستولى عليها فى ١٤٩٩ ، وكان معجبا بفن ليوناردو دافنشى فعرض عليه العمل فى بلاطه ولكن ليوناردو اعتذر وترك ميلان فى نفس العام مع المهندس برامانتى والفنان كاراسو والعالم باتشيولى وغيرهم . أما لودوفيكو سفورزا فقد وقع فى الآسر وكان معتقلا فى فرنسا عام ١٥٠٠ .

وبعد رحيل ليوناردو دافنشى من ميلان قضى فى التجوال نحو ست سنوات (١٥٠٠ — ١٥٠٦)،فقصد أولا الى مانتوا بدعوة من حاكمها الدوق فرانشسكو جونزاجا وزوجته الدوقة ايزابيللا ديستا التى اشتهرت برعايتها للفنون . ولم تطل اقامته فى مانتوا فقصد الى البندقية حاملا خطاب توصية من حاكم ميلان الفرنسى يقول انه خبير فى اقامة الاستحكامات وصناعة السلاح ، فقد كانت البندقية تتوقع غزو تركيا ، ولكن الغزو لم يتم ، فعاد ليوناردو الى فلورنسا فى ١٥٠١ ، ولكنه انتقل فى ١٥٠٢ لخدمة سيزار بورجيا فترة وجيزة كمهندس معمارى وعسكرى .

وفى ١٥٠٣ ترك ليوناردو خدمة سيزار بورجيا قبل اغتياله بفترة وجيزة.

ولم تشتهر « موناليزا » لجمال صاحبتها ولا لرفعة قسماتها فهى أشبه شىء بربة أسرة عاطلة من كل امتياز فهى خفيفة الحواجب سميكة الجفنين طويلة الأنف ولكن نصف الابتسامة الملغزة فى ركن من فمها وعينيها

المغرورقتين بندى خفيف توحى بأن الوانها الزينية الغائمة ليست منقوشة على اللوحة بل مفروشة عليها بأنفاس الفنان . وبموت سيزار بورجيا والبابا اسكندر السادس عاد الهدوء الى فلورنسا .

وعاد ليوناردو الى فلورنسا حيث رسم صورة « الجيوكوندا » أو « موناليزا » التى تعد اشهر صورة فى تاريخ الفن فى العالم ، وقد أتمها ليوناردو فى ١٥٠٣ ، وهى صورة امراة من نابولى تدعى موناليزا ديللا جيوكوندا أو مادونا ليزا كانت زوجة موظف أو تاجر من أثرياء التجار فى فلورنسا وقد كلف ليوناردو برسمها فى ١٥٠٢ . وقد أقام ليوناردو فى فلورنسا حتى ١٥٠٦ ثم عاد الى ميلان بدعوة من حاكمها الفرنسى . واسم ليزا جيوكوندا الأصلى هو ليزا جيزاردينى وقد تزوجت من ديل جيوكوندا فى ١٤٩٥ .

وهكذا انتهت اقامة ليوناردو دافنشى الثانية فى فلورنسا وبدات اقامته الثانية فى ميلان ، وقد امتدت من ١٥٠٦ الى ١٥١٣ .

فماذا حقق ليوناردو دافنشى فى مرحلة اقامته الأولى فى ميلان ؟

فى مرحلة ميلان الأولى التى امتدت من نحو ١٤٨١ الى ١٤٩٩ ، رسم ليوناردو دافنشى صورة « مادونا الصخور » أو « عذراء الصخور » عام ١٤٨٣ ، وهى الآن فى متحف اللوفر ، وهناك صيغة أخرى منها فى المتحف القومى بلندن . ومن هذه الفترة ايضا فى متحف الأوفيس فى فلورنسا « دراسة لرأس امراة » .

وكان من اهم الأعمال التى صممها ليوناردو دافنشى ونفذها بين ١٤٨٦ و ١٤٩٣ تمثال ضخم لفرانشسكو سفورزا ، والد الدوق لودوفيكو سفورزا ، راكبا جواده ، قد استغرق صنعه سبع سنوات على الأقل بعد محاولات فاشلة فى التصميم او بعد تردد شديد بين أوضاع الجواد . وقد كان ارتفاع هذا التمثال الهائل ٧ر٢ متر ، وقد صنعه ليوناردو دافنشى من الصلصال وكساه بالجبس حتى يمكن تفريغ الصلصال من الداخل وصب البرونز مكانه ، وقد قدرت زنة البرونز المنتظر بمائة رطل . وقد فرغ منه فى ١٤٩٣ واقامه فى ساحة الحصن أو قصر الدوق فى ميلان تحت قوس النصر ، ولكن بعد ان استولى الفرنسيون على نابولى وفلورنسا وظهر خطرهم على ميلان عام ١٤٩٥ عدلت حكومة ميلان عن صب التمثال فى البرونز نظرا لحاجتها الى البرونز فى صناعة المدافع والأسلحة . وحين احتل الفرنسيون الغزاة ميلان فى ١٤٩٩ استخدمه جنودهم هدفا للتدريب

على اطلاق النار . وقد ظل التمثال قائما فى ميدان الحصن حتى ١٥٠١ ولكنه تحطم بهذا التخريب المتواصل وبفعل الرياح والأمطار ولكنه ظل سنوات رائعة من روائع الفن وشاهدا على عبقرية ليوناردو دافنشى التى بهرت كل معاصريه .

ولم يصبح ليوناردو دافنشى رسميا فنانا فى بلاط لودوفيكو سفورزا الا بعد ثمانى سنوات من نزوله الأول فى ميلان ، وظل طول هذه السنوات يقيم فى استوديو خاص شاركه فيه فنان آخر يدعى امبروجيو دى بريديس . ثم انتقل ليوناردو للاقامة فى قصر لودوفيكو سفورزا .

أما الرائعة الباقية من مرحلة ميلان الأولى فهى الصورة الحائطية الشهيرة ، صورة « العشاء الأخير » (بالزيت) التى بدأها ليوناردو فى ١٤٩٦ أو قبل ذلك بتكليف من لودوفيكو سفورزا ، وهى قائمة الآن فى قاعة الطعام بدير سانتا ماريا ديللا جراتزيا ، وهى ايضا مثل الجيوكوندا من أشهر الصور فى تاريخ الفن ونحن نعلم انه كان يعمل فيها فى ١٤٩٧ .

ويبدو أن ليوناردو دافنشى كان شديد البطء فى العمل طلبا منه للكمال حتى أثار حفيظة رئيس الدير الذى كان يستحثه للانجاز . وكان ليوناردو يذهب الى الدير كل صباح للعمل فى « العشاء الأخير » وكان يتأمل الصورة نصف ساعة ثم يضيف بريشته نحو عشر لمسات وبعدها ينصرف بقية النهار ليعود فى اليوم التالى . وحين أظهر رئيس الدير ضيقه من ذلك ، أجابه ليوناردو بأنه يحاول أن يخلق تعبير الدناءة على وجه يهوذا ، ولكن اذا كان رئيس الدير متعجلا فهو فى امكانه أن يضع صورته مكان صورة يهوذا .

ويلاحظ فى الصورة التقليدية « للعشاء الأخير » أن الصورة مكونة من المسيح ومن حوله الحواريون الاثناعشر نصفهم يجلس عن يمينه ونصفهميجلس عن شماله وكل منهم مستقل عن الآخرين فى وضعه وفى تعبيراته وكأنهم غرباء لا يعرفون بعضهم بعضا ، أما فى «العشاء الأخير » لليوناردو دافنشى فنجد كل مجموعة من الحواريين تنقسم الى مجموعتين على اليمين ومجموعتين على الشمال وكل مجموعة من ثلاثة ، وكل ثلاثة منهمكون فى الحديث أو التفكير أو فى تخمين مقاصد المسيح من عباراته المبهمة الأخيرة ، الا يهوذا الذى اختفى وجهه فى الظل .

ويلاحظ من النادرةالمروية عن ليوناردو دافنشى ورئيس دير سانتا ماريا ديللا جراتزيا أن الفكرة الشائعة عن الفنان المصور يومئذ كانت انه اشبه شىء بالنقاش الذى ينقش الجدران حسب الطلب . هكذا كان تصور

رئيس الدير .. اما فكرة الفنان المتأمل الخلاق الشبيه بالشاعر الملهم فكانت شيئا جديدا غير مألوف وهو ما استجد فى نظرية الفن فى عصر الرنيسانس . كذلك نلاحظ الاحساس بالعمق او بالبعد الثالث الذى يجسم المرئيات نتيجة لتطبيق نظرية المنظور المدروس فى رسم القاعة والأبواب والعروق الخشبية فى سقف الغرفة..

وفى ميلان ايضا رسم ليوناردو فى مرحلته الأولى صورتين لاثنتين من عشيقات لودوفيكو سفورزا وقد دمرتا ، وصورة « ذات الجبين المرصع »، وصورة لودوفيكو سفورزا وهى فى متحف اللوفر ، وصورة « موسيقى » . وفى مانتوا بدأ صورة للدوقة ايزابيلا ديستا ولكنه لم يتمها . أما فترة عمله مع سيزار بورجيا فكانتمستغرقة فى بناء الاستحكامات ودراسة الطبوغرافيا ولم تدم أكثر من سنة واحدة هى سنة ١٥٠٢ . وفى مكتبة الامبروزيانا بميلان صورة بريشة ليوناردو ويقال انها صورة بيانكا ماريا سفورزا أخت لودوفيكو .

وقد ظلت العلاقة بين لودوفيكو سفورزا وليوناردو دافنشى علاقة بالغة الجودة حتى ١٤٩٧ حين توقف لودوفيكو عن دفع مرتب ليوناردو بسبب اضطراب أحواله المالية نظرا لظروف الحرب فساءت هذه العلاقة نوعا ما . ولكن آخر عمل قام به لودوفيكو سفورزا قبل فراره من ميلان كان اهداءه حقلا من حقول العنب فى ضواحى ميلان الى ليوناردو دافنشى . واضطر ليوناردو بسبب سوء حالته المالية أن يغادر ميلان فى ديسمبر ١٤٩٩ ، وكان عمره يومئذ ٤٧ سنة ، فنانا ذائع الصيت ولكنه قليل المال ، فلم يكن قد ادخر طوال هذه السنوات غير ٦٠٠ فلورين أودعها فى فلورنسا وكان يسحب منها باستمرار . غادر ليوناردو ميلان مع عالم الرياضيات لوكا باتشيولى بحثا عن عمل جديد ، واهمل دراساته التشريحية وتفرغ للفن . وفى ١٥٠١ و ١٥٠٢ كان يعمل فى صورة « سانتا آنا » (القديسة حنة) ولكنه لم يتمها ، وهى الآن فى متحف اللوفر .

فلما عاد الى فلورنسا فى ١٥٠٣ اعاد قيد اسمه فى سجل نقابة الفنانين فى المدينة وكلفته السنيورية (المجلس الحاكم) برسم فريسكو على حائط فى قاعة المجلس الكبرى فى « القصر العتيق » (بالاتزو فيكيو) يصور « معركة انجيارى » بين فلورنسا وميلان فى ١٤٤٠ ، فبداه ولكنه لم يتمه رغم أنه تعهد بانجازه فى فبراير ١٥٠٥ وبدلا من ذلك ذهب فى ١٥٠٥ الى فييزولى ، وهناك انقطع لدراسة حركات الطيور فقد كان مستغرقا فى فكرة اختراع طائر وبعد ذلك بعام كلفت السنيورية ميكلانجلو برسم فريسكو يصور « معركة كاشينا » التى تسمى أحيانا معركة بيزا .

ss

لم تكن لدى ليوناردو خبرة كافية بفن الفريسكو فاستعمل تكنيكا جديدا بالشمع ، ولكن الشمع ساح وافسد الفريسكو .

وقد نقل روبنز نسخة من هذا الفريسكو التالف وبهذا حفظ لنا سماته الأساسية . كانت معركة ميكلانجلو عبارة عن استعراض لكمال أجسام الرجال المحاربين فهى دراسات فى الأجسام العارية (الجنود يخرجون من نهر الأرنو على نداء النفير ويهرعون الى السلاح) ، أما معركة ليوناردو دافنشى فكانت تصور جنون الرجال المتقاتلين الذى امتد الى خيلهم فجعلها أيضا تقتتل فى جنون ومحور الصورة اربعة فرسان يقتتلون لينتزعوا علما . وتوقف العمل فى لوحة ليوناردو فى ١٥٠٥ ، فقد كان لابد أن يبدأها من جديد بعد فسادها .

وفى أثناء اقامة ليوناردو الثانية فى فلورنسا تعقدت حياته بعض الشىء، فقد مات أبوه فى ١٥٠٤ وحاول اخوته حرمانه من حقه فى الميراث بحجة أنه ابن غير شرعى ، فلجأ الى القضاء ، وحكم القضاء لصالحه فى ١٥٠٦ .

كذلك أوصى له عمه ببعض المال ، فلما مات فى ١٥٠٧ حاول أخوته حرمانه من التركة فرفع عليهم دعوى واستمر نظر القضية حتى ١٥١١ ، فاضطر ليوناردو ان يلجأ الى رعاية الماريشال شارل دامبواز حاكم ميلان الفرنسى بل والى لويس الثانى عشر ملك فرنسا وغيرهما حتى يتدخلوا لانهائها وقد كان ، وكان كل ذلك يقتضى من ليوناردو أن يتنقل بين ميلان وفلورنسا .

كان ليوناردو دافنشى قد تقاضى من السنيورية فى فلورنسا مبلغا طائلا مقابل رسم فريسكو « معركة انجيارى » وكان موضع رعاية لويس الثانى عشر وحكام ميلان ، فقرر العودة الى ميلان فى ١٥٠٦ ولكن حكومة فلورنسا اعترضت على رحيله حتى يتم فريسكو « معركة انجيارى » فكتب على نفسه تعهدا بالعودة الى فلورنسا لاتمام الفريسكو . واحتاج الأمر الى ضغط من حكومة ميلان حتى توافق حكومة فلورنسا على الانتظار الى أجل غير مسمى .

وهكذا بدأت مرحلة ميلان الثانية فى حياة ليوناردو دافنشى ، وقد امتدت من ١٥٠٦ الى ١٥١٣ . بدأت بضغط لويس الثانى عشر ملك فرنسا على فلورنسا لكى تعير ليوناردو دافنشى الى ميلان الى أجل غير مسمى . وفى ١٥٠٧ أصدر لويس الثانى عشر مرسوما بتعيين ليوناردو دافنشى فنانا

مصورا ومهندسا معماريا فى البلاط الفرنسى ولكن ليوناردو لم ينتقل الى فرنسا بل بقى فى ميلان .

وفى ١٥٠٧ تعرف ليوناردو فى ميلان على فرانشيسكو دى ملزى الذى لازمه بقية عمره وحفظ كل أوراقه . وكان فرانشيسكو دى ملزى غلاما موهوبا فى فن الرسم فتتلمذ على ليوناردو الذى كان يقيم فى منزل جيروم دى ملزى والد الغلام ، فى ضاحية خارج ميلان . وفى ١٥١٢ انسحب الفرنسيون من ميلان وعاد الحكم الى آل سفورزا ، فتولى السلطة ماسيميليانو سفورزا بن لودوفيكو سفورزا . وانتقل ليوناردو دافنشى الى روما فى ١٥١٣ ومعه فرانشيسكو دى ملزى .

ورغم أن حكم آل سفورزا دال فى ١٥١٥ وسيطر الفرنسيون مرة أخرى على ميلان ، الا أن ليوناردو أقام فى روما حيث كان البابا ليو العاشر من آل مديتشى ، فهو أصلا جيوفانى دى مديتشى بن لورنزو العظيم . وأقام ليوناردو فى قصر البلفدير فى الفاتيكان ولكن راعيه الحقيقى وصديقه كان جوليانو دى مديتشى أخا البابا ، لأن البابا نفسه كان أكثر حماسا للفنان رفاييل منه الى ليوناردو . أما جوليانو فكان يشارك ليوناردو شغفه بعلم الكيمياء وكانت فى قصر البلفدير مكتبة ضخمة جذبت ليوناردو الى دراساته العلمية من جديد ، فانقطع لدراسة البصريات والتقطير وعاد الى دراسة التشريح فى مستشفى الروح القدس .

ودس له البعض عند البابا واتهمه بالتجديف وبتشريح الجثث ، فغضب عليه البابا وحرم عليه دخول مستشفى الروح القدس . وفى ١٥١٦ مات صديقه جوليانو دى مديتشى فعاد الى ميلان فى نفس العام . فعينه فرانسوا الأول ملك فرنسا فنانا مصورا فى البلاط الفرنسى وأجرى عليه معاشا سخيا واصطحبه الى فرنسا وأنزله قصر كلو فى امبواز على نهر اللوار ، حيث أقام ليوناردو مع فرانشيسكو ملزى ثلاث سنوات فى رعاية الملك الشخصية حتى مات فى ٢ مايو ١٥١٩ . وقد أوصى ليوناردو فى وصيته لفرانشيسكو ملزى برسومه وأوراقه ومذكراته .

وقد حافظ ملزى على كل ما تركه له ليوناردو دافنشى حتى مات فى ١٥٧٠ ، وكان يرفض كل ما يأتيه من عروض لشراء الرسوم أو المخطوطات، ولكن بعد موت ملزى انتقل هذا التراث الى أيد عديدة . وكان بينها ١٣ مجلدا آلت الى مكتبة امبروزيانا فى ميلان عن طريق الاهداء فى ١٦٣٦ ، ومن هذه المجموعة مجلد به ١٧٠٠ رسم ايضاحى ويسمى مجموعة الأطلسى. وقد بقيت كل هذه المجلدات فى ميلان حتى استولى عليها بونابرت فى حملته

الايطالية ونقلها الى المكتبة الأهلية بباريس والى مكتبة المجمع الفرنسى بها. وبعد سقوط نابوليون أعيد الى مكتبة ميلان مجلد واحد هو « مجموعة الأطلسى » عام ١٨١٥ بناء على طلب ايطاليا . ورغم موافقة فرنسا على اعادة بقية المجلدات الا انها تجاهلت الأمر واحتفظت بها .

وقد انتهت مذكرات « تحليق الطيور » الى مكتبة تورينو فى ايطاليا ومذكرات الرسم بالزيت الى مكتبة الفاتيكان . كذلك حصلت انجلترا على بعض المذكرات ، ففى انجلترا ما يعرف « بمجموعة وندسور » و « مجموعة المتحف البريطانى » ومجموعة فورستر فى متحف فكتوريا والبرت ومجموعة ليسير بنورفولك ومجموعة اكسفورد « مكتبة كرايستس تشيرش » . وكل هذه المذكرات منشورة ، وهى تتناول ملاحظات ليوناردو دافنشى فى فنون المعمار والتصوير وفى علوم الطب والتشريح والهندسة والميكانيكا ، والجيولوجيا والفيزياء ، الخ ..

وقد ضاعت أكثر لوحات ليوناردو دافنشى ، وان كنا نعرف أسماء بعضها من كتابات المعاصرين ، مثل صورة « ليدا » و « بومونا » (فى أساطير اليونان والرومان) . ولم يبق من تراثه الفنى الا خمس عشرة صورة منها ، الى جانب ما تقدم ذكره ، صورة « يوحنا المعمدان » و « يوحنا جالسا » وهما فى متحف اللوفر ، وهذه الأخيرة تعرف أيضا بصورة « باخوس » رب الخمر عند القدماء . وبوجه عام نستطيع أن نقول ان ليوناردو دافنشى كان شحيحا فى انتاجه الفنى منذ مرحلة ميلان الثانية ، أى ابتداء من ١٥٠٦ ، أما مرحلة روما (١٥١٣ — ١٥١٦) فقد كانت مرحلة عقم فنى وانصراف كامل الى الدراسات العلمية .

وقد اقترن اسم ليوناردو دافنشى بمدرستين : المدرسة الطبيعية فى الفن ، ومدرسة الخيال العلمى فى الحياة . أما المدرسة الطبيعية فقد كان أساسها تقليد الطبيعة فى قدرتها على الابداع وقد اقتضى هذا دراسة مفصلة لعلم التشريح ولعلم البصريات ولعلم الجيولوجيا . أما مدرسة الخيال العلمى فقد اقتضت من ليوناردو دافنشى أن يدرس دراسة مفصلة قوانين الرياضيات والميكانيكا والطبيعة والكيمياء ليعرف أسرار الحركة والسكون ومراكز الثقل والقدرة والمقاومة فى اليابسة والماء والهواء .

وقد كان شغف ليوناردو دافنشى بالعلوم وبالمنهج التجريبى يضاهى شغفه بالفن ، فترك لنا فى مذكراته دراسات حول مركز الثقل والروافع والقوة والمقاومة والقصور الذاتى فى السكون والحركة قبل أن يكتب جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) فى هذا الموضوع وقبل أن يضع نيوتن (١٦٤٣ — ١٧٢٧)

قوانينه المشهورة فى القصور الذاتى وفى الفعل ورد الفعل — وكذلك ترك ليوناردو دراسات عن بعض قوانين الجاذبية وبعض قوانين الاحتكاك وبعض قوانين الصلابة ، ودراسات فى تخطيط المدن ، ودراسات فى الكبارى .

ففى تخطيط المدن كتب ليوناردو يقول : « دع الشارع يتخذ عرضا مساويا للارتفاع الاجمالى للمنازل » وذلك لمنع التكدس السكانى المؤدى الى انتشار الأوبئة . وتصور ليوناردو مدن المستقبل من مستويين : العلوى للمشاة والسفلى للعربات ، وهما يتصلان بسلالم وكبارى والشوارع مغطاة بالبواكى مع نظام خاص للمجارى .

أما دراسات ليوناردو عن الكبارى فتناولت العقود الرومانية (نصف الدائرية) والعقود القوطية المدببة (ذات الأقواس المكسورة) ، واكتشف أن مركز الثقل فى العقد نصف الدائرى لا يقع فى منتصف العقد كما كان التصور قبله ولكن يقع فى طرفى الارتكاز . وفى ١٥٠٣ كتب ليوناردو الى بايزيد الثانى يقترح عليه انشاء كوبرى حجرى عبر القرن الذهبى طوله حوالى ٢٤٠ مترا فى هيئة قوس واحد منفرد .

واكتشف ليوناردو قياس المساحة بطريق حساب المثلثات من نقطتين مرتفعتين لعمل الخرائط المساحية .

وفى معدات القتال وضع ليوناردو تصميم مدفع ينطلق بضغط البخار ، ومدفع يحشى من الخلف ، كما وضع تصميم رشاش به ٣٣ ماسورة مركبة على ٣ صفوف ، وكل صف ينطلق تباعا . كذلك وضع تصميم الكبارى العسكرية السهلة التركيب والفك . واخترع قوس باليستا وهو نوع من المنجنيق لاطلاق القذائف الحجرية زنة ٤٥ كيلو جراما مشدودا بحبل طوله ٤٠ مترا ، وكان القوس معروفا أيام الرومان ولكن ليوناردو طوره . واخترع الدبابة والمصفحات وهى مركبة مغطاة لوقايتها من القذائف ومجهزة بمدافع للهجوم .

وكذلك وضع تصميم الغواصة وهى سفينة مزدوجة الجدار صعبة الاختراق تغوص لخرق قاع سفن الأعداء بسلاح حاد يدار بقوة البحارة . واخترع بدلة الغطس بأنبوبة هوائية بدلا من انبوبة الأوكسجين وفى البدلة حاجز شفاف امام العيون .

ولاستيلاد القوة الميكانيكية طور ليوناردو تصميمات توربينات الماء والهواء والهواء المضغوط بالمنفاخ وقد كانت معروفة فى العالم القديم منذ اليونان والفرس لادارة الطواحين وتكلم عنها المسعودى (المتوفى فى ٩٤٧)

والقزوينى (١٢٠٣ — ١٢٨٣) وابو طالب الدمشقى (١٢٥٦ — ١٣٢٧). وبالمثل اخترع ليوناردو الفرملة الميكانيكية لايقاف طواحين الهواء ، والسلاسل لنقل القدرة كالجنزير . ووضع تصميم الكوريك الرافع والوينش وتصميم الكراكات لتطهير الترع ، وماكينات لرفع المياه ، ولخراطة الخشب والمعادن وللقطع كالمناشير ، وللغزل تغزل وتلف الخيط معا ، وللطباعة تكون فيها التغذية بالورق آلية ، وللتجليخ والشحن والدرفلة ، كما وضع دراسات مستفيضة فى التروس للاستفادة منها على اكمل وجه فى ميكانيكا الساعات وغيرها ، وانشأ أفرانا وأنابيب للتقطير .

وكان من أهم ما اخترعه ليوناردو دافنشى ماكينة للطيران على هيئة أجنحة وذيل تركب على الطيار ، وكان روجر بيكون قد تنبأ بهذا الاختراع فى ١٢٥٠ ولكن تجربة ليوناردو فى الاعتماد على قوة الطيار العضلية فشلت لعدم اكتمال دراساته . وكذلك وضع ليوناردو تصميم الباراشوت والهليكوبتر أو الطائرة العمودية .

أما فى علم التشريح فقد ترك لنا ليوناردو دافنشى منذ ١٤٨٧ رسوما تشريحية ساذجة يمكن أن يكون قد استقاها من جالينوس وموندنيوس وابن سينا . وقد كان ليوناردو يقتنى فى مكتبته كتابا فى الصحة لأبى بكر الرازى (٨٦٦—٩٢٤) باللاتينية اسمه «الكشكول» ، وفى ليوناردو اشارات عديدة الى معرفة بعض مؤلفات ابن سينا ورسائل الكندى المتوفى عام ٨٧٣ . وعلى كل فقد كان كتاب « القانون فى الطب » لابن سينا (لعله « الشفاء ») المرجع الأول فى جامعات أوروبا منذ نشره باللاتينية عام ١٤٧٣ حتى منتصف القرن السابع عشر ، ويسمى باللاتينية الكتب الخمسة . ولكن معرفة ليوناردو بالتشريح الظاهرى بلغت حد الكمال فى دراسة العظام والعضلات والأوعية الدموية والأعصاب وقد انعكس ذلك فى أعماله الفنية.

أما فى علم البصريات فقد قرأ فى مكتبة بافيا كتاب « الذخيرة فى عالم الاوبطيقى » للحسن بن الهيثم مترجما الى اللاتينية عام ١٢٦٠ ، وكان الأوربيون يسمونه « الهايزن » أو « الهاشم » ، وكان فى متناول يده مترجما الى اللاتينية كتاب « الحاوى » فى الطب العربى لأبى بكر الرازى وكتاب « الزيج » للخوارزمى (المترجم فى ١١٢٦) وكتاب « الجبر والمقابلة » للخوارزمى (المترجم فى ١١٤٥) .

●●●

SS

رفـــايــــيـــل
RAPHAEL
١٤٨٣ - ١٥٢٠

□ كان أقطاب الفن الثلاثة فى عصر النهضة الأوروبية هم : ليوناردو دافنشى وميكلانجلو ورفاييل . وكان أصغرهم جميعا رفاييل الذى ولد فى اوربينو فى ٦ أبريل ١٤٨٣ ومات فى روما ٦ أبريل ١٥٢٠ ، فهو اذن قد توفى عن سبع وثلاثين سنة . وهو يسمى أحيانا رفاييل سانتى أو رفاييل سانتزيو لأن اباه كان يدعى جيوفانى سانتى أو جيوفانى سانتزيو ، وقد قرأت فى احـــدى توقيعات رفاييل على احدى لوحاته اسم « رفاييل سانكتى » ، وهذا هو الاستثناء لا القاعدة .

وكان الأب جيوفانى سانتى يعمل فنانا مصـــورا وشـــاعرا فى بلاط اوربينو ، وهو بلاط الدوق فريديريكو دى مونتيفلترو الذى كان يجمـــع فى بلاطه ، كعادة امراء عصره فى الدويلات الايطـــالية ، كوكبة من الفنـــانين والأدباء والمفكرين والمثقفين ، وكان أعظم فنـــان فى بلاطه هو بيرو ديللا فرانشيسكا الذى كان علما من اعلام عصره . أما جيوفانى سانتى ، الذى ولد عام ١٤٤٠ فقد عرف بين رسامى أوربينو بأنه شـــاعر وعـــرف بين شعرائها بأنه رسام . باختصار : كان جيوفانى سانتى فنانا تافها واديبـــا تافها ، ولم يكن له شىء من عبقرية ابنه العظيم رفاييل ، ومع ذلك فقد كان مرسم الأب هو أول مكان تعلم فيه الابن بدايات الفن .

وقد فقد رفاييل أمه ، ماجياتشيارولا وهو فى الثامنة من عمره، وتزوج أبوه بسرعة فاضحة . ثم مات أبوه فى ١٤٩٤ حين كان سن رفاييل فى الحادية عشرة من عمره ، فكفله اعمامه وتولت تربيته أرملة ابيه . وتتلمذ رفاييل على الفنان الكبير بيروجينو فى الفن والفلسفة — وكان المعتقد ان هـــذه التلمذة بدأت عام ١٤٩٥ ، غير أن بعض نقاد الفن اكتشفوا أن بيروجينو كان قد انتقل الى فلورنسا بين ١٤٩٣ و ١٤٩٩ ، فالأرجح اذن أن تلمذته على بيروجينو امتدت من ١٤٩٩ حتى ١٥٠٤ ، عام رحيله الى فلورنسا. ولكن الذى لا شك فيه هو أن الفنان المصور الكبير بيرو ديللا فرانشيسكا كان من

أكبر المؤثرات فى تكوين رفاييل لأنه كان المسيطر على الجو الفنى فى أوربينو عندما كان رفاييل فى يفاعته وشبابه الباكر . ولابد أن رفاييل درس كتاب بيرو ديللا فرانشيسكا الهام المسمى « المنظور فى الرسم »وتعلم منه نسبيه المساحات والمسافات فى فن التصوير . ومع ذلك فقد كان اقوى مؤثر فى فن رفاييل فى صدر شبابه هو الفنان بيروجينو أنجب تلميذ لبيرو ديللا فرانشيسكا .

وفى ١٥٠٠ تلقى رفاييل أول تكليف فى حياته الفنية برسم صورة لمذبح كنيسة سان نيكولا ، ونجحت هذه الصورة فانهمرت عليه التكليفات وهو لايزال فى السابعة عشرة من عمره تلميذا لبيروجينو .. وفى الواقع أن قصة حياة رفاييل كانت من بدايتها الى نهايتها قصة نجاح متصل ، فكان يسير من نجاح الى نجاح ، ولم يتعثر فى حياته قط أو يتعرض لعواصف الحياة كما حدث لليوناردو ولميكلانجلو . كان فتى من أسرة طيبة ميسورة الحال تعيش متعلقة ببلاط أوربينو وكان رضى الخلق رضى النفس محبوبا موفقا فى حياته المادية فقد جمع من فنه مالا كثيرا ، يحسن الاستفادة من كل أسلوب عظيم ، وبسبب شمائله الارستقراطية كان مقربا الى البابوات والنبلاء حيثما ذهب .

ولكن هذا لا يمنع طبعا أنه بطريقته الهادئة هذه كان وراء كثير من المتاعب التى واجهها ليوناردو دافنشى وميكلانجلو مع البابوات فى روما والنبلاء فى أوربينو ، وقد اتهم رفاييل أنه كان يدس لهما فى الفاتيكان وفى بلاط أوربينو مع صاحبه المهندس الكبير برامانتى ، مؤسس كنيسة القديس بطرس الجديدة فى الفاتيكان . أما نحن فينبغى أن ننظر الى كل هذه الأمور على أنها من تحاسد الفنانين الأنداد ، بحيث لا نحكم من هو الجانى ومن هو المجنى عليه .

والاعتقاد الشائع أن رفاييل تعلم فن الفريسكو بعمله مع أستاذه بيروجينو فى تصوير الفريسكات الحائطية فى « قاعة الكامبينو » فى مدينة بيروجيا بين ١٤٩٦ و ١٥٠٠ . وكان عمر رفاييل عندما شارك فى هذا العمل سبعة عشر عاما . ومعنى هذا أنه لم يشارك فى هذا العمل الا قرب نهايته. وقد كانت أهم خصائص بيروجينو التى تأثر بها رفاييل ولازمته حتى فى مرحلته الرومانية ، الاعتماد على موتيفات الزينة كمجرد ملحقات اضافية لموضوع الصورة وليس كالموضوع الرئيسى للصورة واستخدام الصور المعمارية كالأعمدة والبواكى وواجهات المعابد كخلفية لصوره لاشاعة التوازن والرسوخ فى الصورة ولتحديد نسب الأشخاص والأشياء ، مع استخدام

ظلال الأشخاص والأشياء على مساحات واسعة لاشاعة جو من الهدوء فى صوره . وهذا بعض ما بقى من بيروجينو فى فن رفاييل الذى نراه فى الفاتيكان ونموذجه فريسكو « مدرسة أثينا » الشهير .

ويبدو أن رفاييل أدرك بحاسة الفنان العظيم أن جو اقليم أومبريا لم يعد فيه شيء يمكن أن يتعلمه ، فانتقل الى فلورنسا فى ١٥٠٤ وأقام فيها أربع سنوات حتى ١٥٠٨ ، أى بين سن الحادية والعشرين والخامسة والعشرين ، ولكنه كان قبل انتقاله الى فلورنسا قد اشتهر كأعظم فنان فى إقليم أومبريا ، وكان من فلورنسا يقوم بزيارات قصيرة الى اوربينو وبيروجيا وسيينا لينفذ بعض تعاقداته .

كان رفاييل قبل انتقاله الى فلورنسا قد رسم فى ١٥٠٢ صورة القديس سباستيان التى نجدها فى أكاديمية كارا فى برجامو ، وفى ١٥٠٣ رسم « تتويج العذراء » ، وهى فى متحف الفاتيكان ، وفى ١٥٠٣ — ١٥٠٤ رسم لوحات « الثالوث » و « خلق حواء » ، وهما فى متحف تشيتادى كاستيللو ، و « زواج العذراء » ، وهى فى اكاديمية بريرا فى ميلان ، و « الصلب » ، وهى فى المتحف القومى بلندن ، و « المسيح على الصليب » ، وهى فى متحف ددلى وورد فى لندن ، و « قيامة المسيح » ، وهى فى متحف الفن فى سان باولو بالبرازيل . ومن أعماله الباكرة أيضا « العذراء بين القديس فرنسيس والقديس جيروم » ، و « العـذراء حاملة الكتاب » ، وهى الآن بمتحف الأرميتاج فى لينينجراد ، ومن اقدم لوحاته التى تؤرخ عادة فى ١٥٠١ « المادونا » .. أى العذراء فى مجموعة سولى .. وهى الآن فى متحف الدولة ببرلين . ولعل أعظم عمل لرفاييل فى حياته الباكرة هو لوحة «تتويج العذراء» التى رسمها رفاييل أصلا للقديس فرنسيس فى بيروجيا وهى الآن محفوظة فى متحف الفاتيكان ، وهى تنسب عادة الى عام ١٥٠٣ .

وكانت فلورنسا لاتزال أعظم مركز للفنون التشكيلية ، فلما انتقل رفاييل من بيئة أومبريا المحدودة الى بيئة فلورنسا الرحيبة وجد الكثير مما يمكن أن يتعلمه من فن ليوناردو وفن ميكلانجلو وفن فرا بارثولوميو الذى كان مثله تلميذا لبيروجينو . وكان رفاييل أصلا يقلد فن أستاذه بيروجينو ومدرسة أومبريا تقليدا حرفيا ، ولكنه بعد ذلك اخذ يقلد مدرسة فلورنسا ويستوعب تقاليدها ، فلما انتقل الى روما بعد ذلك أصبح لا يعترف بشيء الا فن قدماء الرومان ، وقد قيل فى ليوناردو دافنشى انك لا تستطيع أن تميز رسوم شبابه من رسوم شيخوخته ، أما رفاييل فهو نموذج أعلى للفنان الذى تطور درجة درجة . كان ليوناردو يمثل الفطرة العبقرية ، أما رفاييل فكان يمثل الدراسة المنهجية التى تبلغ بصاحبها درجة الكمال .

وفى فلورنسا انضم رفاييل الى جماعة الافلاطونية الحديثة التى أعيد تشكيلها بعد انقشاع ظل سافوناروﻻ . وفى فلورنسا رسم رفاييل مجموعة كبيرة من صور « المادونا » (العذراء) و « العائلة المقدسة » وكانت أعظم هذه الصور « مادونا بلاكين » . واصبح رفاييل أهم فنان مصور فى فلورنسا نظرا لغيبة ليوناردو دافنشى فى ميلان وميكلانجلو فى روما أكثر الوقت . واحتذى الفنانون الشبان ، من امثال أندريا ديل سارتو ، حذو رفاييل ، كما تعلم رفاييل عن ميكلانجلو القوة والجلال وتعلم عن ليوناردو ذلك الأسلوب الغائم الذى اشتهر فى الجيوكوندا واشتهرت به الجيوكوندا ، وهو نشر طبقة خفيفة من الضباب الشفاف على سطح الصورة ، وهو الأسلوب الـ « سفوماتو » كما يسميه فنانو ايطاليا . ولكن رفاييل أطلع على دراسات العرى التى كان يقوم بها ميكلانجلو وليوناردو وبولايولو فى فلورنسا .

وفى أثناء اقامة رفاييل فى فلورنسا كان يقوم بزيارات قصيرة لأومبريا ، بعضها لبروجيا وبعضها لأوربينو ، وفى هذه الفترات أنجز « حلم الفارس » فى ١٥٠٤ التى نجدها الآن فى المتحف القومى بلندن ، و « دفن المسيح » فى ١٥٠٨ ، وهى الآن فى متحف بورجيزى بروما ، وأتم فريسكو موضوعه « المسيح فى جلاله مع القديسين » لكنيسة سان سيفيرو فى بيروجيا ، و « مادونا انسيداى » (١٥٠٤ — ١٥٠٦) ، وهى الآن فى المتحف القومى بلندن ، و « العائلة المقدسة » لدوق ريبالدا . ولعل أهم ما رسمه رفاييل فى زياراته لأوربينو كان صورة « مار جرجس على جواد » فى ١٥٠٦ ، وهى الآن فى متحف الأرميتاج فى لينينجراد ، وصورته الذاتية و «صورة امرأة» اللتين نجدهما فى متحف الأوفيتزى فى فلورنسا .

وفى مرحلة فلورنسا ظهر تأثير فن ليوناردو وميكلانجلو فى فن رفاييل فتخلى عن المعالم الواضحة التى تعلمها من أستاذه بيروجينو كما فى صورة « حلم الفارس » ، وازداد احساسه بالجو العام فى الصورة فلم يعد الأشخاص فى مجموعاته منفصلين انفصالا تاما كما كان الحال فى صوره الأولى ، وكان هذا بتأثير ليوناردو الذى علم معاصريه ضرورة وجود علاقة عضوية أو حوار نفسى بين أشخاص مجموعاته كما فى « العشاء الأخير » . ومن أروع صور فترة فلورنسا صورة « مادونا الغراندوق » وهى من أعمال ١٥٠٤ — ١٥٠٥ ، وهى الآن فى متحف بالاتزو (قصر) بيتى فى فلورنسا ، وتذكرنا بالموناليزا ، ولكن بغير لغزها ، و « البستانية الجميلة » (١٥٠٧) ، وهى الآن فى متحف اللوفر ، وهى آية فى ابداع التكوين وتذكرنا بالتكوين الهرمى فى « سيدة الصخور » لليوناردو دافنشى ، وفيها نجد

المادونا مع الطفلين يسوع ويوحنا ، والحوار النفسى قائم بين الأشخاص الثلاثة ، وبين المادونا وخلفيتها من الطبيعة الفسيحة القائمة وكأنها همزة الوصل بين الأرض والسماء . ومن آثار مرحلة فلورنسا صورة « كاترين قديسة الاسكندرية » (نحو ١٥٠٩) ، وفيها نرى سانت كاترين وقد غمرها الوجد الإلهى تتطلع فى استسلام الى السماء قبل تعذيبها وكأنها تتوق الى الاستشهاد .

وتعد فترة ١٥٠٧ — ١٥٠٩ نقطة تحول فى حياة رفاييل جعلته يترك فلورنسا وينتقل نهائيا الى روما فى أواخر ١٥٠٨ وقد تعددت الآراء لتفسير هذا الانتقال . قيل انه كانت فى صالونات القصر العتيق فريسكات ناقصة بريشتى ليوناردو وميكلانجلو وكان رفاييل يأمل أن تسند اليه السنيورية امر اتمامها ولكنها لم تفعل ذلك فغضب رفاييل . وقيل ان رفاييل احس بدنو أزمة سياسية وشيكة يمكن أن تنزل بفلورنسا . والأرجح أن رفاييل ترك فلورنسا لانه أحس بأن فلورنسا لم يعد فيها ما يمكن ان يتعلمه .

على كل فقد انتقل رفاييل الى روما فى اواخر ١٥٠٨ حاملا خطاب توصية من المهندس برامانتى مصمم كاتدرائية القديس بطرس فى روما ، ودخل رفاييل فى رعاية البابا يوليوس الثانى رساما للبلاط البابوى فى ١٥٠٩ ، وفى ١٥١١ بدأ رفاييل فى تجميل بعض أجنحة الفاتيكان .

وفى حياة البابا يوليوس الثانى ، اى حتى ١٥١٣ اتم رفاييل بحماس عظيم أول قاعتين مخصصتين فى الفاتيكان لهذا البابا ، وهما قاعة السيناتورا (أى « التوقيع » ، الذى يبدو انه كان يحتوى مكتبة البابا ومكتبه) ، وقاعة الهليودوروس .. ومن الطريف أن يوليوس الثانى ما أن رأى فى بداية عمل رفاييل موهبة رفاييل الساطعة حتى استغنى عمن كان يستخدمهم من الفنانين لتزيين جناحه الخاص .. وكان من بين هؤلاء بيروجينو نفسه ، أستاذ رفاييل . أما بقية القاعات فقد أتم رفاييل رسمها فى عهد خلفه البابا ليو العاشر ، ولكن فى فتور واضح ، وظل يعمل فيها بقية حياته .

ومن ١٥٠٩ الى ١٥١١ رسم رفاييل الفريسكو الشهير « مدرسة اثينا » الذى يغطى جدران قاعة السيناتورا فى الفاتيكان ، وموضوعه هو تمجيد « العقل » والبحث عن الحقيقة من خلال اكبر فيلسوفين فى العالم القديم ، وهما أفلاطون وارسطو اللذان يتوسطان الفريسكو ، ومن حولهما بعض أعلام الأثينيين الذين يمثلون العلوم النظرية والعلوم التجريبية ، مثل فيثاغورس واقليدس ، وقد اقدم رفاييل فى هذا الفريسكو على تجربة تعد ثورة

فى مبادىء التكوين وهى وضع صـــورة شخصين فى منطقة البؤرة فى اللوحة الفنية ، وقـــد جرى العرف على وضع صورة شخص واحد فى منطقة البؤرة ، والشخصان طبعا هما أفلاطون وأرسطو .

والأرجح أن رفاييل فعل ذلك رمزا لالتزامه بالحيدة بين هذين الحكيمين المتعارضين ، أو بين فلسفة أفلاطون المثالية وفلسفة أرسطو المادية . وفى الفريسكو نرى أفلاطون حاملا كتابه « تيماوس » ، ونرى أرسطو حاملا كتابه « الأخلاق » ، أما الخلفية من وراء مجموعات الفلاسفة والحكماء والعلماء والتلاميذ اليونان فكانت تمثل معمارا كلاسيكيا رومانى السمات . والعمل الفنى كله يعد تحية الفن لحركة الهيومانزم واحياء العلوم والفنون والآداب اليونانية والرومانية التى اجتاحت أوروبا فى عصر الرنيسانس .

والفريسكو فى قاعة السيناتورا يمثل فى مجموعه وجـــوه المعـــرفة الأربعة ، وهى اللاهوت والفلسفة والقانون والفن ، لكن أروع جانب منه هو الجانب الـــذى يمثل الفلسفة كما عبر عنه فى « مدرسة أثينا » .

ومن ١٥١١ الى ١٥١٤ رسم رفاييل فريسكو القاعة الثانية التى تسمى قاعة هليودوروس فى الفاتيكان .وفى هذه القاعة رسم رفاييل مايسمى«تحرير القديس بطرس » .. من سجنه ، وفى هذا الفريسكو نشاهد من خـــلال القضبان أربعة أنـــواع من النور : هى نـــور القمر ونور الفجر ونور المشعل ونور الملاك المضىء .

كان ميكلانجلو فى تلك الفترة يرسم فريسكو سقف محراب السستين ، فتبين أن رفاييل ند له . وكلف البابا يوليوس الثانى رفاييل برسم صورة زيتية تسمى « مادونا (عذراء) السستين » فأنجزها رفاييل فى ١٥١٢ــ١٥١٣، وهى الآن فى متحف درسدن بألمـــانيا الشرقية . وفى الفن الدينى رسم رفاييل صورة « النبى أشعياء » لكنيسة سان أجوستينو . وفى نفس الوقت كان يضع تصميم محراب سانتا ماريا دل بوبولو بتكليف من البنكير كيجى .

وكان ميكلانجلو وهو يرسم فريسكات محراب السستين فى الفاتيكان شكاكا فى كل الفنانين ،يخشى أن يطلع أحدهم على منهجه أو أسلوبه فى العمل فيسرق منه ألوانه أو موضوعاته أو رؤيتـــه ، ولهـــذا فعل ميكلانجلو كل ما يستطيع لحجب فريسكات السستين عن رفاييل ، ولكن رفاييل استطاع بوسائله الخاصة أن يطلع على عمل ميكلانجلو وأن ينتفع منه فعلا ، وكان أكثر ما أخـــذه رفاييل عن ميكلانجلو هو عنصر القـــوة والصلابة الـــذى تجلى فى الصراعات البطولية التى كان ميكلانجلو يصورها فى فريسكاته .

وكانت فى روما ، وفى بلاط الفاتيكان بالذات ، حلقة من انصار الأفلاطونية الحديثة ، منهم الكاردينال بمبو ، وكاستليونى رجل البلاط المشهور ، وانجرامى ، فانضم رفاييل الى هذه الحلقة . وقد ظهر اهتمام رفاييل بالأساطير اليونانية فى أنه رسم فى ١٥١١ — ١٥١٢ فريسكو لفيلا يملكها فى روما البنكير كيجى ، وموضوعها « انتصار جالاتيا » ، وكان هذا الفريسكو ترجمة بالخط واللون لقصيدة شاعر فلورنسا بوليتزيانو حول هذا الموضوع .

كذلك رسم رفاييل فى ١٥١٤ — ١٥١٥ صورة رائعة لرجل البلاط كاستليونى صاحب كتاب « رجل البلاط » ، الذى يعد ، بعد كتاب « الأمير » لمكيافيللى ، أهم كتاب فى فن الحكم فى الرنيسانس . وصورة كاستليونى موجودة الآن فى متحف اللوفر . وهى تمثل نموذجا رائعا فى الاعتدال والتوازن فى ذلك العصر الهائج المائج الملىء بالتطرف والمتناقضات. وبعد موت البابا يوليوس الثانى فى ١٥١٣ استمر خلفه البابا ليو العاشر ابن لورنزو دى مديتشى فى رعاية رفاييل . وبموت المهندس برامانتى فى ١٥١٤ عين ليو العاشر رفاييل مكانه كبيرا لمهندسىكاتدرائية القديس بطرس الجديدة، فأصبح رفاييل بمعنى الكلمة الدكتاتور الفنى فى الفاتيكان ، مما دفع ميكلانجلو الى الانسحاب الى فلورنسا . كذلك وصل ليوناردو دافنتشى الى روما فى تلك الفترة ، فأهمله البابا ليو العاشر ولم يكلفه بعمل ما واكتفى بأن أنزله ضيفا فى قصر بلفدير فى الفاتيكان ثم انقلب عليه بحجة اشتغاله بتشريح الجثث مما جعل ليوناردو يقبل دعوة ملك فرنسا الى أن يقيم معه فنانا فى البلاط الفرنسى .

وكان ذلك عصر الكشوف الأثرية والتنقيب عن آثار روما القديمة الذى اقترن بحركة الهيومانزم واحياء آداب اليونان والرومان وفنونهم وعلومهم . ومنذ عهد البابا اسكندر السادس اكتشفت الرسوم الحائطية الرومانية واكتشف تمثال أبولو بلفدير . وفى عهد يوليوس الثانى اكتشف تمثال « اللاوكون » وتمثال فينوس الفاتيكان كما اكتشف تمثال كليوباترا النصفى ، وفى ١٥١٦ عين ليو العاشر رفاييل مديرا للآثار فى روما ، فقد كان ليو العاشر من اشد المتحمسين لاحياء أمجاد روما القديمة وفى عهده امتلأت قصور النبلاء والكرادلة بالتماثيل والتحف الأثرية ، وكلف ليو العاشر رفاييل بأن يعد له تقريرا عن عمائر روما القديمة وفنونها ، فقدم رفاييل تقريره عام ١٥١٨ أو ١٥١٩ ، قيل بمساعدة كاستليونى ، عن آثار روما المطمورة تحت خرائبها وتلالها .

ولم يعش رفاييل بعد ذلك طويلا فقد اصيب بحمى لم تمهله غير اسبوع

فمات فى ٦ أبريل ١٥٢٠ فى عيد ميلاده السابع والثلاثين ودفن فى البانتيون (مقبرة الخالدين) فى احتفال مهيب ، وكان قبره تحت صورة « التجلى »، وهى صورة غير مكتملة بدأها رفاييل عام ١٥١٧ .

والناس اليوم تتحدث كثيرا عن ليوناردو وعن ميكلانجلو لأن حياتهما كانت عاصفة ومليئة بغرائب الأمور ، ويتحدثون قليلا عن رفاييل لأن حياته كانت سلسة من بدايتها الى نهايتها وليس فيها شىء فاجع الا موته المبكر . ولكن بعض نقاد الفن يرون أن فن رفاييل كان النقطة العليا فى فن الرنيسانس وأنه جمع بين ملحمية ميكلانجلو ودرامية ليوناردو واضاف اليهما غنائية من عنده وصفاء عظيما . وربما كان فى هذا نوع من المبالغة ، لأن عصر الرنيسانس كان كل هؤلاء مجتمعين .. واكثر .. وربما كان رفاييل اكثر الثلاثة انضباطا وصفاء ، ولكن ميكلانجلو كان اكثرهم قوة وشموخا ، بينما كان ليوناردو اشدهم حيوية واقربهم الى الطبيعة البكر .

●●●

ميكلانجلو
MICHELANGELO
١٥٦٤ - ١٤٧٥

١

□ وهذا ثالث الثلاثة الذين لا يذكر الفن فى عصر النهضة الأوروبية الا وذكرت أسماؤهم مجتمعة ، وهؤلاء هم ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) ورفاييل (١٤٨٣ — ١٥٢٠) وميكلانجلو (١٤٧٥ — ١٥٦٤) . وقد مات ليوناردو عن ثمانية وستين عاما قضى اكثرها فى « الكواتروتشينتو » أى فى «الأربعمائة» (بعد الألف) ، من ١٤٠٠ الى ١٤٩٩ (القرن الخامس عشر) ، ومات رفاييل فى شرخ شبابه عن سبعة وثلاثين عاما قضى منها سنوات التكوين فى « الكواتروتشينتو » ، أما ميكلانجلو فقد مات طاعنا فى السن عن نحو تسعين عاما فتكون فى « الكواتروتشينتو » ولكنه عاش حتى يرى ظهور مدرسة فنية جديدة هى مدرسة « الباروك » أو مدرسة « الإغراب » التى ربما كانت احدى نتائج فنه العظيم بعد ان خبا نور الالهام العظيم .

وكان اسم عائلة ميكلانجلو بوناروتى ، أو بوناروتى سيمونى ، فقد كان هو يحب أن ينسب عائلته الى آل سيمونى كونت كانوسا الذى جاء الى فلورنسا فى ١٢٥٠ وكان رأس هذه العائلة وزعيما لحزب « الجويلف » ، أو « السود » أو أنصار التقارب مع فرنسا والبابا ، فى ١٣٩٢ . أما بوناروتى سيمونى ، الأب ، وأولاده فى زمن ميكلانجلو فكانوا من أوساط الناس ، وربما من صغار أوساط الناس . وكان أخوه الأكبر ليوناردو من أشياع سافونارولا وبالفعل دخل بتأثيره دير سان مارك فى ١٤٩١ وظل به حتى ١٥١٠ . أما ميكلانجلو نفسه فقد كان موزعا بين اعجابه بسافونارولا ، وولائه لأسرة مديتشى صاحبة الفضل عليه وعلى أكثر فنانى عصره .

وقد كان ميكلانجلو تلميذا مستعصيا فتعلم الايطالية ولكنه لم يتعلم اللاتينية ، وكان دائما يهمل دروسه ليرسم أو ليصنع التماثيل ، فكان أبوه أو عمه يضربه عقابا على ذلك . ولما يئس منه ابوه أرسله ليتعلم الفن فى مرسم الفنان المعروف جيرلاندايو لمدة ثلاثة أعوام ، ولكنه لم ينتفع

ss

كثيرا من جيرلاندايو فتمرد عليه كما تمرد بيتهوفن على استاذه هايدن . وكان ميكلانجلو يتصور أن استاذه يغار منه كما أنه كان سليط اللسان فى نقد استاذه ، وكان يتقاضى منه بوصفه « صبياً للأوسطى » ستة فلورينات فى السنة الأولى وثمانية فلورينات فى السنة الثانية وعشرة فلورينات فى السنة الثالثة .

وبعد ان تعلم ميكلانجلو الرسم واللون فى مرسم الفنان جيرلاندايو ، تجلت موهبته العظيمة فى فن النحت ، فصنع من الرخام حيوانا خرافيا من اساطير اليونان فى حديقة لورنزو دى مديتشى .. وما أن رأى لورنزو التمثال حتى قرر أن يبسط رعايته على ميكلانجلو ، فأرسل الى أبيه يدعوه لمقابلته . وادرك الوالد مراد لورنزو دى مديتشى فأجاب بأنه لا يريد لولده أن يكون « حجارا » وعلق بأن لورنزو يريد أن يقود ابنه ميكلانجلو فى طريق الغواية . ولكن الأب ، لودوفيكو بوناروتى ، اقتنع أو اقنع أخيرا فقابل عاهل فلورنسا وسلمه ولده ميكلانجلو ليرعاه عام ١٤٨٩ ، وكان ميكلانجلو يومئذ فى الخامسة عشرة من عمره . واستمرت هذه الرعاية ثلاث سنوات حتى وفاة لورنزو دى مديتشى فى عام ١٤٩٢ حين بلغ ميكلانجلو سن الثامنة عشرة .. وكذلك عين لورنزو أباه ، لودوفيكو بوناروتى موظفا فى جمرك فلورنسا ليعينه على الحياة .

تبنى لورنزو دى مديتشى الفتى ميكلانجلو وعامله كولد من أولاده ، فأقام ميكلانجلو فى قصر آل مديتشى بفلورنسا حيث خصصت له حجرة محترمة وكان لورنزو يجالسه دائما على مائدة الطعام فيجلس بين أهل البيت وبين ضيوف العاهل من كبار رجال الدولة ومن الشعراء والفلاسفة . وكان من عادة لورنزو أن يجالس ضيوفه على العشاء بحسب ترتيب قدومهم لا بحسب أصول البروتوكول ، وكثيرا ما احتل ميكلانجلو الفتى المقعد المجاور لرب البيت فكان أدنى الى لورنزو من بنيه . وكان الشاعر بوليتزيانو ، وهو من أعلم أهل عصره فى الآداب القديمة والحديثة ومن أشعر شعراء فلورنسا باللغة الايطالية (العامية) ، مؤدبا لأولاد لورنزو دى مديتشى فشمل بتأديبه الفتى ميكلانجلو . وهكذا قضى ميكلانجلو فترة التكوين من حياته فى أزهر مكان فى فلورنسا يوم أن كانت فلورنسا اعظم مصدر للاشعاع الثقافى فى أوربا كلها وكانت تذكر العالم بمجد أثينا الثقافى فيما بين الحروب الفارسية وحروب البلوبونيز . كذلك كان لورنزو يجرى على ميكلانجلو خمس دوقيات شهريا كمصروف جيب ويتكفل بكسوته .

اما ميكلانجلو الفتى فقد عرف عنه أنه كان محبا للوحدة والتأمل ، لا يأنس الى الناس ، غضوبا كثير الشجار مع جيرانه ، لاذع التهكم بزملائه

من الفنانين . وقد جرت عليه سلاطة لسانه شجارا انتهى بكسر أنفه رغم أنه كان لا يحب الشحان الجسدى . وكان يشارك فى الكرنفالات التى تميزت بهـا فلورنسا فى عصره وكان يغذيها لورنزو دى مديتشى ليلهى الناس عن السياسة بالماسكات أى الاقنعة (و « الماسكيرا » هى « المسخرة ») ، وبالأغانى والرقص والاستعراضات فى شوارع المدينة . وكان لورنزو نفسه ينظم لهم الأغانى مثل اغنية : « ياشباب ويابنات ، انعموا باليوم فلا أحد يعرف ما يأتى به الغد » فيكرر الناس هـذا القرار وهم يحتفلون بالمهرجان .

كل هـذا انتهى بموت لورنزو دى مديتشى فى ١٤٩٢ وباحتلال شارل الثامن فلورنسا بجيوشه الفرنسية فى ١٤٩٤ ، وبطرد بييرو دى مديتشى ابن لورنزو من فلورنسا وطلب رأسه مقابل جائزة مالية . حتى هـذا الازدهار الفكرى الـذى عرفته فلورنسا بـدأ ينقرض سريعا : ففى ١٤٩٤ مـات بوليتزيانو وبيكو ديللا ميراندولا ، وفى ١٤٩٩ مات الفيلسوف فيتشينو . كل هذا الازدهار الثقافى انقرض بتولى سافونارولا زمام الأمور فى فلورنسا . حتى الازدهار الفنى اخـذ ينقرض بهجـرة كبار الفنانين الى روما .

وكان ميكلانجلو احـد هـؤلاء الفنانين المهاجرين من فلورنسا الى روما رغم اعجابه بسافونارولا واستماعه على الدوام لخطبه منذ ١٤٩٤ فى ميدان الدومو (القبة) وفى دير سان مارك . وفى هـذه الفترة تفرغ ميكلانجلو لدراسة التشريح كمقدمة أساسية للاحاطة بتكوين جسم الانسان قبل رسمه أو نحته . وفى ١٤٩٤ غادر ميكلانجلو فلورنسا قاصدا بولونيا حيث نحت تمثال « كوبيد نائما » فى الرخام وباعه لتاجر تحف فى روما لقاء ٣٠ دوقية . وكان هـذا التمثال شبيها بآثار القدماء فباعه هـذا التاجر الى الكاردينال رياريو على أنه تحفة أثرية وتلقى منه مقدما قـدره ٢٠٠ دوقية ، غير أن الكاردينال اشـتبه فى هـذا التزييف فأوفد رسـولا الى فلورنسا لتقصى الحقيقة فاهتدى الرسـول الى ميكلانجلو واصطحبه الى روما . وغضب الكاردينال رياريو ورد التمثال الى التاجر واسـترد منه ما دفع . وانتهى التمثال الى سيزار بورجيا بعد استيلائه على دوقية أوربينـو ، ثم أهداه سيزار بورجيا الى المركيزة دى مانتوا فى ١٥٠٢ . وكان هذا التمثال بداية شهرة ميكلانجلو فى روما التى قضى فيها أكثر حياته المديدة .

وفى ١٤٩٥ عاد ميكلانجلو من بولونيا الى فلورنسا وفيها نحت تمثال « يوحنا المعمـدان » ، وظن الناس زمنا ان هـذا التمثال الـذى نحته ميكلانجلو وهو فى سن العشرين من عمل دوناتيللو (١٣٨٦ — ١٤٦٦) ، شيخ مثالى فلورنسا فى عصره وهو الآن فى متحف برلين .

وانتقل ميكلانجلو الى روما عام ١٤٩٦ . وفى روما نحت ميكلانجلو فى الرخام تمثال « باخوس » (ديونيزوس) رب الخمر عند اليونان والرومان ، واشتراه منه بنكير فى روما من رعاة الفن اسمه يعقوب جابو ، والتمثال موجود الآن فى متحف بارجيللو ، كما نحت تمثال «كوبيد» (ربالحب) وهو الآن فىساوث كنسجتون بلندن . وقد صور ميكلانجلو باخوس فى هيئة شاب مرح يترنح سكرا حاملا كأسا على غير عادة القدماء — فقد كان القدماء لا يمثلون باخوس منتشيا وانما ينسبون النشوة أو السكر الى أتباعه من العذارى المعروفاتباسم « الباكانتى » ، أى « عذارى باخوس » ، ومن التيوس التى كانت تمثل عندهم الشهوانية الحيوانية . أما باخوس نفسه فقد كان يمثل عندهم النشوة الروحية كذلك .

وفى فترة اقامة ميكلانجلو الأولى فى روما تعاقد فى ١٤٩٨ مع الكاردينال دى سان دنيس على اقامة تمثال من الرخام اسمه « الرحمة » (البييتا) مقابل ٤٥٠ دوقية ذهبية من عملة الفاتيكان خلال سنة من تاريخ العقد ، وضمن البنكير جالو ميكلانجلو فى تنفيذ هذا العقد فقد كان ميكلانجلو حتى ذلك التاريخ غير معروف بالدرجة الكافية . والتمثال يمثل جسد المسيح الجريح بالحجم الطبيعى ملقى على حجر مريم العذراء . وبدت العذراء فى هذا التمثال شابة فانتقده النقاد قائلين انه كان ينبغى أن تبدو فى سن أم المسيح ، ورد عليهم ميكلانجلو بقوله ان النساء لا تهرم ملامحهن الا نتيجة للمعاشرة الجنسية ، وهو ما لا ينسب لمريم ، والتمثال موجود الآن فى الكنيسة القديمة من كاتدرائية القديس بطرس بروما فى محراب « المادونا ديللا فيبرى » ، أى « العذراء الحامية من الحمى » ، وهناك دفن البابا اسكندر بورجيا عام ١٥٠٣ .

وفى روما نحت ميكلانجلو أيضا فى الرخال تمثال « مادونا بروج » ، أى مريم العذراء حامية مدينة بروج ، والتمثال قائم الآن فى محراب صغير بكاتدرائية بروج ، وهو من طراز تمثال الرحمة أو « البييتا » ، وفيه نرى العذراء جالسة على كتلة من الحجر صارمة الملامح فى اعتزاز يوشك أن يبلغ مبلغ الكبرياء ، وفى حجرها يسوع الطفل يهم بالنزول الى الأرض . وقد كان المفترض أن يشحن هذا التمثال الى بروج ، ولكن هناك وثائق تدل على أن ميكلانجلو أخفاه فى بيت أبيه فى فلورنسا .

وبهذه التماثيل الثلاثة « باخوس » و « مادونا ديللا فيبرى » و « مادونا بروج » أصبح ميكلانجلو أشهر مثال توسكانى . بل أشهر مثال ايطالى وكان عمره يومئذ ستا وعشرين سنة .

وعاد ميكلانجلو الى فلورنسا حيث اقام من ١٥٠١ الى ١٥٠٤ . وكانت أسرته تعانى من ضائقة مالية شديدة لأن أبـــاه فصـــل من وظيفته فى الجمرك بعد طـــرد آل مديتشى من فلورنســـا . وظل ميكلانجلو يعين أسرته — أباه واخوته الأربعة — ماليا حتى آخـــر يوم فى حياته ، بل وظل يساعدهم على اقتناء الأملاك فى فلورنسا ليرفع من شأن الأسرة . وكان كلما أعطاهم طالبوا بالمزيد . وازداد جشعهم حتى ساءت العلاقات بينه وبينهم ، ومع ذلك فقد ظل يساعدهم بقية عمـــره . أما ميكلانجلو نفسه فقد كان طـــوال حياته يعيش فى زهـــد وتقشف رغم ضخامة موارده وشاع عنه البخل ولكن الأرجح أنه كان لا يحفل بالمـــال ، فقد كانت تأتيه العروض السخية فلا يقبلها وانما يعمل دائما بوحى من إلهامه واستجابة لمشاعر المودة .

وقبل أن ينتقل ميكلانجلو نهائيا الى روما ، وقع فى فلورنسا عقدا فى ١٦ اغسطس ١٥٠١ مع لجنة الأشغال بالمدينة بأن ينحت لمدينة فلورنســـا تمثالا للنبى داود من رخام ، تعهد بأن ينجزه خـــلال سنتين من تاريخ توقيع العقد ، مقابل ستة فلورينات ذهبية شهريا عـــلاوة على تكاليف الخامات والأدوات ومكافآت الأسطوات المساعدين والعمال . ونص العقد على أنه عند اكتمال التمثال يترك للجنة الأشغال أن تقـــرر ان كان ميكلانجلو يستحق مكافأة اضافية أم لا ، وكان الأمـــر متروكا لضمائر أعضاء اللجنة . وفى ٢٨ فبراير ١٥٠٢ كان العمل فى التمثال قد تقـــدم بدرجة كبيرة حتى أن اللجنة قدرت لميكلانجلو ٤٠٠ فلورين ذهبى . وقـــد اشـــتهر هـــذا التمثـــال فى فلورنسا باسم « العملاق » ، وكان أصلا كتلة ضخمة من الرخام من كارارا أساء قطعها مثال آخـــر فأصبحت لا تصلح لشىء . وقد أقيم تمثال « داود » بعد مداولات طويلة عند مدخل القصر العتيق « بالاتزوفيكيو » لمـــدة ثلاثة قرون ، ثم نقل فى ١٨٧٣ الى قـــاعة « الأكاديمية ديل بللارتى » (أكاديمية الفنون الجميلة) ، لمزيد من صيانته .

وتمثال « داود » فى فلورنسا من أهم الروائع التى خرجت من يـــدى ميكلانجلو ، وقـــد وضـــعت فى مكانه الأصلى ، أمام البوابة الكبرى لقصر الســـنيورية ، نســـخة منه طبق الأصل . والتمثال نمـــوذج حى لأسلوب ميكلانجلو فى فن النحت الـــذى يتميز بالقوة والجـــلال ، بل والرهبة الباعثة على « الرعب » ، كما أجمع كافة نقاد الفن على توصيفه وتوصيف شخصية صاحبه ، فهو تمثال مخيف ، وفى التصور العام حرارة واندفاع . غير أن بعض نقاد الفن قد لاحظوا أن رأس « داود » كبير وغير متناسب مع جسمه ، وكذلك اليدان والقدمان . ويبدو أن الموديل البشرى الـــذى اتخذه ميكلانجلو

نموذجا لتمثاله كان بحاجة الى سنتين من النمو لتنضج رجولته ويتناسب تكوينه التشريحى .. ومع ذلك فهناك فى التمثال اعتزاز عظيم .

وقد ترك لنا كاتب فرنسى معاصر من القرن السادس عشر راى ميكلانجلو يعمل وصفا لطريقته فى العمل : قال انه رآه فى حالة هياج وهو ينحت « داود » .. قال إنه رآه يكسر بمطرقته من الرخام فى ربع ساعة أكثر مما يكسره ثلاثة حجارين فى قمة فتوتهم فى أربع ساعات ، وكان يتصور حين رآه أن كتلة الرخام كلها ستنفلق فى يده ، لكنه كان يعمل فى دقة عجيبة فلا يتجاوز شعرة عن المراد قطعه والا تلف الرخام ، فالخطأ فى الرخام لا يمكن اصلاحه . ولم يكن أمام ميكلانجلو الا نموذج من الشمع من تصميمه .

وفى ١٥٠٥ استدعى البابا الجديد ، يوليوس الثانى ، خليفة اسكندر السادس (او رودريجو بورجيا) ، ميكلانجلو الى روما وكلفه ببناء مقبرة خاصة به تقام فى كاتدرائية القديس بطرس بروما ، وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حياة ميكلانجلو .. مرحلة العمل الذى لا ينقطع لتحقيق أحلام سلسلة من البابوات المتعاقبين ، وقد امتدت هذه المرحلة الى نهاية عمره . وبدأت بما يسمى فى تاريخ الفن « مأساة مقبرة يوليوس » ، وتلتها مرحلة مشروعات التحجير وشق الطرق التي تبناها البابا ليو العاشر ، ثم مشروع تجميل كاتدرائية سان لورنزو بفلورنسا حيث مقبرة آل مديتشى ، ثم المشروعات الهندسية الخارجة عن اختصاصه .

وكان البابا يوليوس الثانى (١٤٤٣ — ١٥١٣) رجل سياسة ورجل حرب لا رجل روحانيات ، وكان يرعى الفنانين لمجده الشخصى ولمجد الفاتيكان الدنيوى . كان يتصرف كأمير دنيوى لا يهدف الى توحيد ايطاليا بقدر ما يهدف الى اخضاع دويلاتها ووضعها تحت سيطرة البابا الدنيوية فى روما وتوسيع نفوذ البابوية الدنيوى . وكان يستعمل فى ذلك سلاح الحرب ويخرج بنفسه للمعارك على رأس جيشه فكان كل هذا غريبا فى رئيس روحى . وقد جلس على الكرسى البابوى من ١٥٠٣ الى ١٥١٣ ، وكان أهم من رعاهم من الفنانين المعمارى الشهير برامانتى والمصور رفاييل والمثال ميكلانجلو .

تعاقد البابا يوليوس الثانى مع ميكلانجلو لبناء مقبرته ، فوضع ميكلانجلو تصميما للمقبرة غاية فى الفخامة فكانت فى شكل بناء رخامى ضخم مستطيل ذى أربع واجهات ، به أكثر من أربعين تمثالا من الرخام وعلى سطحه ملائكة

يحملون التابوت الرخامى . ووضع البابا لحساب ميكلانجلو فى بنك سلفياتى فى فلورنسا ۲۰۰۰ دوقية تحت حساب المقبرة ولكن دون تحــديد لمرتبه فيما خلا نفقات اكله وشربه ومسكنه ، وأوفده الى كرارا لأكثر من ثمانية شهور لقطع الرخام اللازم للمقبرة ، فشحن بالبحر الى روما أكثر من ٣٤ عربة محملة بالرخام ، ومعها حمولة ١٥ عربة أخرى .

●●●

ss

٢

الفن يغزو الكنيسة

وعاد ميكلانجلو الى روما وبدأ العمل فى أواخر نوفمبر ١٥٠٥ ، ولكن المقبرة لم تستكمل الا فى ١٥٤٥ ، أى بعد أربعين عاما ، رغم أن يوليوس الثانى توفى فى ١٥١٣ ، وتعاقب بعده من البابوات : ليو العاشر ، الذى جلس على الكرسى البابوى بين ١٥١٣ و ١٥٢١ ، وادريان السادس ، الذى جلس بين ١٥٢١ و ١٥٢٣ ، وكلمنت السابع ، الـذى جلس بين ١٥٢٣ و١٥٣٤ ، وبول الثالث الذى جلس بين ١٥٣٤ و ١٥٤٩ ، .. الخ .. وبتعاقب البابوات كان لكل منهم رأى فى التصميم ، ومع كل تعديل كان ميكلانجلو يوقع عقدا جديدا بمواصفات جديدة كلها تتجه نحـو اختصار الفخامة وضغط النفقات ، حتى بلغ عـدد العقود التى وقعها ميكلانجلو خمسة عقود — بل لقد انتهى الأمر بتغيير مكان المقبرة ذاتها فأقيمت المقبرة فى كنيسة القديس بطرس فى فينكولى بدلا من كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان . وكان المقدر أولا للمقبرة أنها كانت ستتكلف ١٦ر٥٠٠ دوقية ذهبيـة ، ولكن النفقات اختصرت فى النهاية فلم يتسلم ميكلانجلو فى ثـلاث سـنوات من ١٥١٤ الى ١٥١٦ سوى ٦١٠٠ دوقية ذهبية من ليـو العاشر ، ثم شحت الاعتمادات المخصصة للمقبرة كلما تعاقبت السنون على رحيل صاحبها .

كان البابا يوليوس الثانى عدوانيا فى موته كما كان عدوانيا فى حياته لأن تنفيذ تصميم مقبرته على صورتها الأصلية الضخمة كان معناه ازالة العديد من قبـور أسلافه البابوات فى الفاتيكان ليحتل هو مكانهم ، ولعل هـذا كان سبب كثرة التعديلات التى طرأت على تنفيذ مشروع مقبرته .

ولم يبق من ذلك التصميم الضخم الا مقبرة ذات واجهة واحدة صغيرة الحجم تحف بها ستة تماثيل ، كان أحدهـا تمثال « موسى » ، وهو من أعظم التماثيل التى نحتها ميكلانجلو بيده من البداية الى النهاية ، أما الخمسة الأخرى ، وهى تمثال « المادونا والطفل » وتمثال « حياة العمل » وتمثال « حياة التأمل » وتمثال « نبى » وتمثال « عرافة » ، فقد أتمها ميكلانجلو بيده ولكن عهد بتشطيبها الى مثال آخر . وكل هـذه التماثيل قائمة الآن فى كنيسة القديس بطرس فى فينكولى .

وقد كان فى التصميم الأصلى طائفة من التماثيل التى استبعدت من التصميم الأخير ، منها تمثال « الأسيرتان » ، وهما فتاتان فى الأغلال تمثلان الفنون والآداب وقد وقعتا فى الأسر بعد وفاة البابا يوليوس الثانى ، وقد أهدى ميكلانجلو هذا التمثال لصديقه البنكير استروتزى ، والتمثال موجود الآن فى متحف اللوفر • ثم هناك تمثال « أدونيس » وهو الآن فى المتحف القومى بفلورنسا . ثم هناك تمثال « ليا وراحيل » وهو فى كنيسة القديس بطرس فى فينكولى ، وتماثيل أخرى متفرقة فى أماكن أخرى .

وحتى فى حياة البابا يوليوس الثانى شجر خلاف بين البابا وميكلانجلو ، قيل لان البابا لم يف بتعهداته المالية ، وقيل بسبب دسائس الفنان رفاييل والمعمارى برامانتى اللذين كانا يقومان ببناء الكنيسة الجديدة للقديس بطرس داخل الفاتيكان • فعاد ميكلانجلو الى فلورنسا سنوات واستدعاه يوليوس الثانى مرارا لاتمام عمله ولكنه رفض ، وكان يخشى أن يغتال فى روما بالسم أو بالخنجر . وأخيرا كتب البابا الى « السنيورية » (المجلس الحاكم) فى فلورنسا يطالب بابعاد ميكلانجلو وتسليمه اليه . فعاد ميكلانجلو الى روما بعد أن زودته السنيورية بخطاب للبابا يؤمنه على حياته ، ويقول ان أى عدوان عليه يعد عدوانا على فلورنسا .

وفى أثناء اقامة ميكلانجلو فى فلورنسا أتم فريسكو (رسما حائطيا ملونا على الجبس قبل جفافه) عن معركة بيزا وهو يصور الجنود عرايا يستحمون فى نهر الأرنو فلما نادى النفير هرعوا للسلاح وهم عرايا . وهذا الفريسكو موجود فى قصر مديتشى ولكن لم يبق منه شىء مذكور •• وكان لليوناردو دافنشى فريسكو فى قاعة البابا بكنيسة سانتا ماريا نوفيللا بفلورنسا •

وقبل عودة ميكلانجلو الى روما أقام فترة فى بولونيا ، وهناك صنع تمثالا من البرونز للبابا يوليوس الثانى بضعف الحجم الطبيعى تقريبا . وكان قد تلقى من البابا ١٠٠٠ دوقية مقدما .

هذه قصة « مأساة مقبرة يوليوس الثانى » فى ايجاز شديد : لم يبق من تماثيلها فى المقبرة نفسها الا تمثال امرأتين ، احداهما تمثل « حياة العمل » والأخرى تمثل « حياة التأمل » ، ويتوسطهما تمثال « موسى » جالسا ، وهو التمثال الذى أفاضت فى وصفه كتب الفن واتخذه النقاد ، كتمثال « داود » فى فلورنسا وكتمثال « الرحمة » فى محراب السستين فى كنيسة القديس بطرس بروما ، عنوانا على عبقرية ميكلانجلو ونموذجا أعلى لأسلوبه الفنى فى عصر الرنيسانس . هذه التماثيل الثلاثة من صنع يد ميكلانجلو من الألف الى

الياء ، أما بقية تماثيل المقبرة فقد نحتها ميكلانجلو فى أساسها ثم عهد لغيره من المثالين بتشطيبها بسبب كثرة التزاماته نحو بابوات روما .

ولعل من سخرية التاريخ الا يشغل ميكلانجلو نفسه فى تخليد ذكرى هذا البابا الغريب الأطـــوار الا بهذه الجوانب الثلاثة من شخصية يوليوس الثانى . فقد كان هذا البابا المحارب أقرب الى القائد العسكرى المستغرق فى « حياة العمل » منه الى الأب الروحى المستغرق فى « حياة التأمل » . وقد تجسد هـــذان الرمزان فى شخصية موسى كما تجلت فى سفر خروج بنى اسرائيل فى « التوراة » .

ثم عاد ميكلانجلو الى روما ليبدأ العمل فى نقوش محـــراب السستين الفريسكية وتمثال « الرحمة » فى المحراب ، ثم انتقل الى فلورنسا ليجدد كنيسة سان لورنزو ومقابر آل مديتشى ، ثم عـــاد الى روما ليتم عمله فى كاتدرائية القديس بطرس بالفاتيكان ، كل ذلك بحسب نزوات البابوات أو حبهم للفنون ، فأصابت الكنيسة رواء ما بعده رواء ، واصاب ميكلانجلو مجدا لا يبلى مع الأيـــام .

فى روما بـــدأ ميكلانجلو يرسم صـــور فريسكات محراب السستين فى كاتدرائية القديس بطرس بالفاتيكان بتكليف من البابا يوليوس الثانى . والفريسكو هو الرسم الملون على الجدران أو على السقف قبل أن يجف الطلاء أو الملاط أو الجبس أو المصيص .

بدأ بفريسك القبة فى ١٠ مايو ١٥٠٨ وانتهى منه فى أكتوبر ١٥١٢ ، فكأن ميكلانجلو كسا قبة محراب السستين بالنقوش التصويرية فى أربع سنوات ونصف . ويقال انه تقاضى عن ذلك ٣٠٠٠ دوقية ذهبية عن فريسكات قبو محراب السستين . وكان يعمل بمفرده .

واستمر ميكلانجلو يضيف الفريسكات على جـــدران محراب السستين بصورة متقطعة ، ولم يفـــرغ منه تماما الا فى ديسمبر ١٥٤١ ، وبهذا يكون العمل فى نقوش السستين قد استغرق نحو ٣٣ سنة متقطعة .

وقد صور ميكلانجلو فى فريسكات محراب السستين قصـــة الخليقـــة وسقوط آدم وحـــواء وقصة الطوفان وقصـــة المسيح حتى يوم القيامة كما استوحى هذه القصص من أسفار التوراة والانجيل ، ومع هذه القصص صور بابوات روما .

ومحراب السستين محراب فى الفاتيكان بناه فى ١٤٧٣ معمارى من فلورنسا اسمه باتشيوبونتيللى للبابا سكستوس الرابع ، ولذا عرفه بالسكستين أو السستين . وطول المحراب ٣٩ مترا و ٦٠ سم وعرضه ١٣ مترا و ٢٠ سم وارتفاعه ٢٠ مترا و ٤٠ سم . والمحراب تنيره ١٢ نافذة فى كل جانب . وقد كان على الجانبين قبل ميكلانجلو ١٢ فريسكو تمثل موضوعات دينية مثل سيرة موسى وسيرة المسيح وغيرها ، وهى بريشة أعلام الفنانين فى القرن الخامس عشر مثل بوتيتشيللى وسنيويللى وروسيللى وبيروجينو وجيرلاندايو . وعلى الجدار الشرقى رسم بوتيتشيللى صفا من البابوات عددهم ٢٨ بابا ، أما الجدار الغربى فقد كساه بيروجينو بثلاث فريسكات تمثل « صعود العذراء » يتوسط صورة « العثور على موسى » وصورة « ميلاد المسيح » .

وقد هدم ميكلانجلو فريسكات بيروجينو على الحائط الغربى وكسا الحائط الغربى بفريسك جديد يصور « يوم القيامة » . وفى سقف القبو رسم ميكلانجلو تسعة مشاهد من قصة خلق الكون وطرد آدم وحواء من الجنة وقصة الطوفان .

وكان أسلوب ميكلانجلو يسمى « الأسلوب الجديد » . فقد كان الفنانون المصورون من قبله فى القرن الخامس عشر يتوسعون فى الاعتماد على الزينة فيما يرسمون من موضوعات مقتبسة من الكتاب المقدس أو من أساطير القدماء ، أما ميكلانجلو فقد تجنب رسم مناظر الطبيعة والأشجار والأزهار والطيور والحيوانات كما تجنب رسم أوراق الشجر والفاكهة والأرابيسك والشمعدانات وتجنب رسم المجموعات الثانوية من الأشخاص لمجرد ملء الفراغ ، باعتبار أن كل هذه كانت موتيفات وسفاسف رخيصة يستجدى بها الفنان الكسول اعجاب المشاهدين بسهولة ، وبدون اجهاد .

أما ميكلانجلو فقد كان مركزا على جسم الانسان بوصفه دراسة مضنية فى التشريح . وكان شديد الاعجاب بجمال جسم الرجل ولا يحفل بجمال جسم المرأة ، وهى سمة كثيرا ما نلاحظها فى الفن اليونانى القديم ، ولذا جاءت أكثر أعماله الفنية من تماثيل وصور دراسات فائقة الدقة فى كمال أجسام الرجال .

وفى ١٥١٤ كلفه راع من رعاة الفن يدعى فارج دى بوركارى بنحت تمثال يسمى « المسيح منتصرا » (على الموت) أو « المسيح قائما من بين الأموات » (كريستو ريزورتو) ، ولكنه لم يبدأ العمل فيه جديا الا فى ١٥٢١ واتمه فى ١٥٢٣ ثم سلمه لصبى موهوب اسمه بيترو دى أوربينو كان يعمل

عنده ليتولى صقله . وكان هـذا الصبى يشيع بين الناس انه هو صانع التمثال ، وبالفعل عبث به بتدخله فأفسد اجزاء من أصابع اليدين والقدمين واللحية وارنبة الأنف ، فسلم ميكلانجلو التمثال الى مثال يدعى فريتزى ليرممه ويقيمه على قاعدة ، فقام بترميمه . . غير أن ميكلانجلو عرض على مشترى التمثال أن يصنع له غيره ، ولكن المشترى تمسك بالتمثال قائلا : انه كنز من كنوز الفن . ومن المبالغات التى قيلت فى هـذا التمثال يومئذ ان « ركبة » « المسيح منتصرا » تساوى روما كلها . وبالفعل فقد أجمع نقاد الفن على ان هذا التمثال معجزة فنية ، وقد اشتهر أمره حتى أن فرنسوا الأول ملك فرنسا استخرج منه نسخة برونزية . ولكن الجديد فى هـذا التمثال ان ميكلانجلو خرج عن الصـورة التقليدية للمسيح الـذى اشـتهر بالوداعة ، فجسده فى الرخام عارى الجسد تماما قويا مثل هرقل فكان بقسمات جسـمه معجزة فى التشريح وكان بشعره المتدلى على الكتفين معجزة فى الوضـع والحـركة .

وكان ميكلانجلو رجـلا غريب الأطـوار وكان سـيىء الحظ « مع صبيانه » وخدمه ومن عاونه من الأسطوات . . فكان فى فترة عمله فى محراب السستين يقيم فى روما فى غرفة واحـدة أو فى شـقة العازب ويشرك معه فيها ثلاثة من مساعديه وخـادمه الغلام . وكان كثيرا ما ينام بملابسه كاملة . . وكان فى العـادة يسـتقدم خدمه وصبيانه من فلورنسـا ، ثم لا يلبث أن يعيدهم اليها : هـذا لأنه كسول لا يخـدم ولـكن ينتظر من سيده أن يخدمه ، وهـذا لأنه نصـاب ، وهذا لأنه يتصرف كاللوردات ويختال فى روما بحذائه القطيفة . وكان لا يطيق وجـود خادمة فى البيت لأن الخادمات فى روما « كلهن بغايا وكلهن خنازير » ، أما صبية روما « فكلهم أوغاد » ولا يصلحون خدما . وكان لا يكف فى خطاباته عن تعنيف أسرته لأنهم شرهون يرهقونه بطلب المـال وكلما أعطاهم طالبوا بالمزيد ليشتروا الأطيان رغم أنهم يعرفون أنه يحـرم نفسه ليعينهم ويعمل الليل والنهار ، فهو يشقى من أجلهم لترتفع مرتبتهم قليلا فى الحياة . وبالمثل كان يستقدم الصبيان أو الأسطوات من فلورنسا وكانت أسرته تتولى ارسالهم اليه .

وكان حـاد الطباع الب على نفسه الكثيرين من فنانى عصره بسبب صراحته ، سريع الغضب ، متسرعا فى القـول وفى الفعل ولكنه كان يهدأ بسرعة .. وكان كثير الشكوك الى حد المرض ، شـديد الاكتئاب الى حد الجنون ، يكره البشر ويرعب من يخالطه من الناس ، متقشفا الى حد الظهور بالامـلاق ، متهما بالبخل رغم أنه ساعد الكثيرين ماليا . وكان محبا للوحدة لا يطيق أن يشرك معه أحدا فى العمل ولا يحب أن يعلم فنه لأحد ، وكان

كتوما لا يطلع احدا حتى أقرب معاونيه على تصميمات مشروعاته الفنية ، وقــد تسبب جهلهم بنواياه فى تغيير تصميماته بعد وفاته . وكان جبانا على مستوى الشجار البدنى ، ولكن كانت له طاقة ماردة على العمل . وكان بعض أصدقائه الخلصاء يتهمونه بأنه ســكير . وقــد عــرف عنه حبه للشبان الوسيمين وعــدم اكتراثه بالنساء . أما ميكلانجلو الفنان فقد كان شديد التواضع فى الفن ، رغم انــه كان متطــرف الكبرياء على المستوى الاجتماعى ، فقد كان يكره أن يسمى مثالا ، وكان شديد الاعتداد بنسبه البعيد الى أشراف كانوسا .

ولأن ميكلانجلو لم يعلم أحدا شيئا ، فهو لم يترك مدرسة رغم أنه عمر الى التسعين ، بينما ترك رفاييل مدرسة زاهرة فى تاريخ الفن رغم أنه مات فى شرخ الشباب . كان رفاييل يكلف تلامذته بالأعمال ثم يصححها ، أما ميكلانجلو فكان يضطلع بأى عمل يتصدى له من الألف الى الياء .

وكان ميكلانجلو متعاطفا مع مبادىء سافونارولا رغم أنه كان ربيب لورنزو دى مديتشى . ومع ذلك فقــد كان يخشى التدخل فى السياسة . وبعد معركة رافينا فى ١٥١٢ فرض ريموندو دى كاردونا أسرة مديتشى من جديدة سادة على فلورنسا . وكانت لأسرة ميكلانجلو عواطف نحو حــزب سافونارولا ، فكتب اليهم ميكلانجلو يحذرهم من التدخــل فى السياسة . وبالفعل فرضت عليهم بعد عــودة آل مديتشى فى ١٤ سبتمبر ١٥١٢ غرامة مالية قدرها ٦٠٠ دوقية ، ولكنهم سلموا من الاضطهاد لتفاهة شأنهم . وكتب ميكلانجلو الى الكاردينال جيوفانى دى مديتشى (بن لورنزو) يدافع عن أسرته ، ويبدو أن دفاعه أثمر لأن أباه أعيد الى وظيفته .

وبعد وفاة البابا يوليوس الثانى جلس الكاردينال جيوفانى دى مديشى ابن لورنزو على الكرسى البابوى باسم البابا ليو العاشر لمدة ثمانى سنوات ، حتى مات فى ١٥٢١ . وكان هــذا البابا لا عمل له الا تثبيت سلطة آل مديتشى فى فلورنسا ، ولم يزدهر بسببه فنان ولا أديب . على العكس من ذلك ، فقد كلف ليو العاشر ميكلانجلو ورفاييل وسانجاللو بتجديد كنيسة سان لورنزو فى فلورنسا حيث كانت مقابر آل مديتشى . وكانت تجربة مؤسفة لأنها ضيعت سنوات على ميكلانجلو . فقد رفض ميكلانجلو العمل مع غيره فوقع عليه العبء كله ، واهمل العمل فى مقبرة يوليوس الثانى .

وبعد وفاة ليــو العاشر فى أول ديسمبر ١٥٢١ تــلاه البابا ادريان السادس الــذى كان مؤدب الامبراطور شرلكان ، ولم يجلس على الكرسى البابوى الا سنة وثمانية شهور لأنه مات فى ٢٣ سبتمبر ١٥٢٣ .. وكان

ادريان هـــذا لا يهتم بالسياسة ولا بالفن ولا بالادب ، وانما يهتم بالدين وحده وكان يسمى التماثيل أوثان الوثنيين ، فلما مات خلفه جوليو دى مديتشى باسم البابا كلمنت السابع (١٥٢٣ ـــ ١٥٣٤) . وكلف ميكلانجلو بالعمل فى تجديد كنيسة سان لورنزو بفلورنسا وتجديد مقابر آل مديتشى فى هـــذه الكنيسة وأجرى عليه معاشا شهريا وأنزله مسكنا بجـــوار عمله ليطمئن الى تفرغه الكامل . وبالفعل حين عرضت عليه حكومة مدينة جنوا فى ١٥٢٣ أن يصنع لها تمثالا لمواطنها الشهير اندريا دوريا الـــذى كان أميرال أساطيل فرنسوا الأول وشرلكان على التوالى ، اعتذر ميكلانجلو . وفى هذه الفترة صنع ميكلانجلو للدومو (القبة) فى فلورنسا ، ١٢ تمثالا خـــلال ١٢ سنة مقابل فلورينين ذهبيين شهريا .

وكان العمل فى سان لورنزو عمل مهندس معمارى اكثر منه عمل مثال ، ولم يكن ميكلانجلو سعيدا به . وزاد من شقائه أن دوق أوربينو قريب البابا يوليوس الثانى ، رفع عليه دعـــوى لأنه تقاضى ١٦٫٠٠٠ دوقية ليبنى مقبرة البابا ولكنه لم يف بالتزاماته .

ثم اضطربت أمـــور روما وفلورنسا خـــلال عامى ١٥٢٧ و ١٥٢٨ حين دمـــرت الجيوش الغازية رومـــا باسم الامبراطور شرلكان وطردت آل مديتشى من فلورنسا مرة أخـــرى . وانقطعت أخبار ميكلانجلو نحو سنتين وسط هـــذا الاضطراب السياسى . غير أن انجلترا وفرنسا اتفقتا مع شرلكان فى صلح برشلونة (٢٠ يونيو ١٥٢٩) على اعادة فرض أسرة مديتشى على فلورنسا واطلاق يد البابا كليمنت السابع فيها . وسار اليها أمير أورانج بجيش لحصارها ، فاستعدت المدينة للدفاع عن نفسها وعينت لجنة الحرب ميكلانجلو مديرا للاستحكامات .

واشتم ميكلانجلو رائحة الخيانة فى أحـــد القـــواد فتسلل خارجا من المدينة وقصـــد الى البندقية حامـــلا ٣٠٠٠ دوقية ، وهناك استقبلته حكومتها استقبالا رسميا .. وكان فى نية ميكلانجلو أن ينطلق من البندقية الى باريس ، فكتب قنصـــل فرنســـا فى البندقية ، لازار دى باييف ، الى فرانسوا الأول أن يضـــم ميكلانجلو الى بلاطه ، ولكن ميكلانجلو عـــدل عن هـــذه الرحلة وعـــاد الى فلورنسا فى ٢٠ نوفمبر ١٥٢٩ وسط الحصار قبل سقوط المدينة فى يد أمير أورانج قائد جيش شرلكان فى أغسطس ١٥٣٠ نتيجة للخيانة كما توقع . واكتفت السنيورية بعزل ميكلانجلو من منصبه ومن المجلس الكبير لـــمدة ثلاث سنوات عقابا له على تسلله من فلورنسا ، رغم انها صادرت أمـــلاك غيره من الفارين . وكان الاتفاق بموجب صلح برشلونة ان يعيد الأمبراطور شرلكان السـاندرو (اسكندر) مديتشى اميرا

على فلورنسا بعد أن زوجه من ابنته باعتبار فلورنسا « دوطة » منها لزوجها . وحين سقطت المدينة اختفى ميكلانجلو فى بلدة بعيدة خشية البطش به .

ولما هدأت الأحوال وانتهت أعمال الانتقام وعده البابا كليمنت السابع بالأمان لو عاد الى فلورنسا للعمل فى كنيسة سان لورنزو ومقابر آل مديتشى . فعاد وكان مرتبه خمسين كورونا شهريا . وفى هذه الفترة وضع ميكلانجلو تصميم تمثاله « شمشون الجبار » ، ورسم لوحة « ليدا والبجع » التى اشتراها فرانسوا الأول وظلت فى قصر فونتنبلو حتى عهد لويس الثالث عشر حين دمرت بأمر الوزير دينواييه بسبب اباحيتها ، وفى هذه الفترة أيضا نحت ميكلانجلو من الرخام تمثال « أبولو رامى السهم » ، وتمثال « النزول من الصليب » فى كنيسة الدومو (القبة) حيث نرى مريم عاجزة عن حمل جسد المسيح .

ومن ١٥٣٠ الى ١٥٣٣ اشتغل ميكلانجلو فى اتمام مقبرة آل مديتشى فى كنيسة سان لورنزو بفلورنسا . وكان مركزه قلقا فى المدينة بسبب عداوة الدوق ألساندرو مديتشى له . وفى هذه الفترة أيضا تم التراضى بين ميكلانجلو ودوق أوربينو ، بعد مفاوضات مضنية ، على أن تقتصر مقبرة يوليوس الثانى على واجهة واحدة ومعها ستة تماثيل من صنع ميكلانجلو نفسه مقابل كل ما تقاضاه من أموال . ثم سافر البابا كليمنت السابع الى مرسيليا فى ١٥٣٣ ليزوج بنت عمه كاترين دى مدسيس للدوفين ، ولى عهد فرنسا . وقبل موت البابا فى ٢٣ سبتمبر ١٥٣٤ بيومين وصل ميكلانجلو الى روما من فلورنسا ، وكان ذلك من حسن حظه . فقد كان البابا ، وهو من آل مديتشى .. يحميه من غضب ألساندرو مديتشى أمير فلورنسا ، وبموته انتهت هذه الحماية . ومع ذلك فقد زار ميكلانجلو فلورنسا مرة أخيرة ثم غادرها نهائيا الى بيزا وروما فى ديسمبر ١٥٣٤ ، ولم يعد اليها حتى مات فى ١٥٦٤ ليدفن فيها .

لم يعد ميكلانجلو قط الى فلورنسا بعد موت البابا كليمنت السابع ، وكان عمر ميكلانجلو يومئذ ٥٩ سنة ، واستدعاه البابا الجديد بول الثالث (تولى ١٥٣٤ — ١٥٤٩) ، وطلب اليه أن يدخل فى خدمته ولكن ميكلانجلو اعتذر بضرورة قيامه باتمام مقبرة يوليوس الثانى .. فغضب البابا بول الثالث قائلا انه انتظر هذه اللحظة ثلاثين عاما فلما جاءت خيب ميكلانجلو امله . وهرب ميكلانجلو الى دير فى جنوا ليتم عمله بجوار محاجر الرخام فى كرارا . ولكن البابا بول الثالث نجح فى استقدامه الى روما ليكمل ما بدأه من فريسكات محراب السستين . وأصدر البابا بيانا بأن ميكلانجلو غير

مسئول عن اى تعطيل فى مقبرة يوليوس الثانى وان الفاتيكان يعفيه من أية تعويضات عن التأخير .

وهكذا تفرغ ميكلانجلو لرسم فريسكو « يـوم القيامة » حتى أتمه وعرض على الجمهور فى ٢٥ ديسمبر ١٥٤١ ، وكان عمر ميكلانجلو يومئذ ٦٦ عاما . وهـذا الفريسكو من الأعمـال الخـالدة التى اقترنت باسم ميكلانجلو . كذلك اتم ميكلانجلو فريسكات « محراب الباولين » بتكليف من البابا بـول الثالث . أتمها فى سبع سنوات وهو فى الخامسة والسبعين من عمـره .

وقد أرسل فرنسوا الأول الى ميكلانجلو فى سنة ١٥٤٦ خطابا يرجوه فيه أن يقيم له بيديه أثرا فنيا يعتز به . فاعتذر ميكلانجلو بالشيخوخة وبدنو الأجل .. قائلا انه لو كان فى الامكان عمل تماثيل فى الـدار الأخرى ، حيث الشباب دائم ، فسوف يسعده أن يصنعها « لصاحب الجلالة المقدسة » .

اما حلم ميكلانجلو فى شيخوخته فقد كان قبة الكاتدرائية الجديدة للقديس بطرس مؤسس الكنيسة الكاثوليكية .. وقد كان البابا يوليوس الثانى أول من هـدم كاتدرائية القديس بطرس القديمة لتتسع لتصميم مقبرته الضخمة التى لم يتم تنفيذها لأن البابوات المتعاقبين شغلوا ميكلانجلو عن تنفيذها بما صنع من تماثيل وما رسم من فريسكات وما أقـام من معمار فى كنيسة القديس بطرس الجديدة .

وكان واضـع تصميم هـذه الكاتدرائية العظيمة المهندس المعمارى المشهور برامانتى الـذى كان كبير المهندسين فيها حتى توفى فى ١٥١٤ . وكان تصـميم الكاتدرائية يقـوم على مبـدأ الصليب المصرى اليونانى المتساوى الأضلاع فى الأرضية من المدخل الى الهيكل . فلما مات برامانتى قاد العمل مكانه فى ١٥١٧ الفنان رفاييل أيام البابا ليو العاشر .. يساعده المهندس المعمارى انطونيو دى سانجاللو . وعدل رفاييل التصميم فأسسه على الصليب اللاتينى ، حيث الضلع الرأسى أطـول من الضـلع الأفقى . فلما مات رفاييل فى ١٥٢٠ قاد العمل سانجاللو بمعاونة بيروتزى ، وعادا الى تصميم الكنيسة على قاعدة الصليب المصرى اليونانى ، ولم يتقدم العمل كثيرا بسـبب الارتبـاك السياسى . ثم مـات بيروتزى فى ١٥٣٧ وانفرد سانجاللو بالعمل فزاد من التعقيد الهندسى للمبنى ، مازجا الطراز القوطى بالطراز الكلاسيكى .. وأضاف ممرا طويلا عند مدخل الكاتدرائية ليحقق وهما بقاعدة الصليب اللاتينى . ولكن كان له فضل اضافة القبة الوسطى الشامخة . وقـد سيطر سانجللو على العمل نحو ثلاثين سنة ، من ١٥٢٠

حتى بعد ١٥٥٠ ، كان خلالها مصدر استنزاف لأموال الفاتيكان وربى مدرسة ضخمة من المعاونين الفاسدين شملت المقاولين الغشاشين والكرادلة والاداريين المرتشين . فلما تولى ميكلانجلو قيادة العمل بعد موت سانجاللو أحاطوه بمؤامراتهم المستمرة لدى البابوات وبوشاياتهم التى لم تنقطع حتى وفاته .. ولم ينقذ ميكلانجلو الا أنه كان يعمل متطوعا مكتفيا بما كان البابوات يهبونه من هبات .

عاد ميكلانجلو الى تصميم برامانتى الأصلى القائم على مبدأ الصليب القبطى اليونانى المتساوى الأضلاع . وعاد الى بساطة مشروع برامانتى ولكنه تمسك بالقبة الشامخة وزادها شموخا وأضاف مدخلا شامخا بعد أن الغى الدهليز الذى أضافه سانجاللو ليوهم بأبعاد الصليب اللاتينى فى البناء وزيادة الطول عن العرض . وكان البابا بعد البابا يقر تصميم ميكلانجلو رغم مؤامرات اتباع سانجاللو : بول الثالث المتوفى فى ١٥٤٩ ثم يوليوس الثالث المتوفى فى ١٥٥٥ ثم مارسيل الثانى الذى مات بعد أسابيع قليلة من توليه ثم بول الرابع ثم بيوس الرابع الذى جلس فى ١٥٥٩ .

ولأن ميكلانجلو كان يعمل دائما فى انفراد ولا يشرك معه احدا ، بل ولا يطلع أحدا من معاونيه على خطواته التالية .. انتهى تصميمه بموته فعدل أخلافه مشروعه وعاد صليبه القبطى اليونانى صليبا لاتينيا ولم يبق من ميكلانجلو حقيقة فى كاتدرائية القديس بطرس الا القبة الشامخة . ولم يترك ميكلانجلو رسوما هندسية بتصوره . حتى البنائين كانوا لا يعرفون مخططاته وانما كانوا ينفذون ما يشير به جزءا بجزء .

وفى عهد بول الثالث وضع ميكلانجلو أيضا تصميم الكابيتول فى ميدان الكامبودوليو . ونفذ هذا التصميم فى عهد البابا اينوتشنتو العاشر (١٦٤٤ — ١٦٥٥) .

وعندما مات ميكلانجلو فى ١٨ فبراير ١٥٦٤ لم يجدوا عنده الا صندوقا مختوما بالشمع الأحمر به نحو ٨٠٠٠ كورون و ١٠ رسوم جديدة وبعض التماثيل القليلة غير المكتملة التى تمثل موضوعات دينية ، منها تمثال للقديس بطرس ..وكان يملك عند موته بيتا فى روما وبيتا فى فلورنسا وبضعة حقول فى توسكانيا الى جانب ما كان يرسله من اعانات كثيرة لأسرته . ونقلت رفاته من روما الى فلورنسا حيث دفنت فى كنيسة سانتا كروتشى فى احتفال مهيب شارك فيه كل الفنانين والآلاف من المواطنين .

أما عن علاقات ميكلانجلو بالنساء فليس لها وجود . فيما خلا صداقته لسيدة اسمها فيتوريا كولونا بنت حكمدار نابولى .. كانت متزوجة من محارب

اسمه المركيز دى بيسكارا وكان احد قواد الامبراطور شرلكان ثم مات فى ١٥٢٥ متهما بخيانة الامبراطور . وظلت المركيزة فيتوريا دى بيسكارا أمينة لذكرى زوجها بين الاعتكاف فى الدير والاعتكاف فى دارها ونظم الشعر ، ولم نسمع عن صداقتها لميكلانجلو الا فى ١٥٣٤ وهى فى الحادية والأربعين من عمرها ، اما ميكلانجلو نفسه فكان قد قارب الستين . وكانت هـذه السيدة تخالط المفكرين والفنانين وبعض رجال الاصـلاح الدينى ، فكانت موضع اشتباه من المحافظين أو دعاة « مناهضة الاصلاح الدينى » ، رغم انها لم تكن بروتستانتية أو منشقة على الكنيسة الكاثوليكية . ولا أحـد يعرف متى بدأت صلتها بميكلانجلو ولا مدى هذه الصلة . وربما اجتذبه فيها أنه كان مثلها من دعاة اصلاح الكنيسة وانه كان متأثرا بمبادىء سافونارولا . وكان ينظم فيهـا قصائد الشـعر وبينهما مراسـلات كثيرة . وقـد كان ميكلانجلو شاعرا لا بأس به .

أما بقية صداقات ميكلانجلو فكانت كلها مع الذكور ، ولاسيما الشبان من أهل الوسامة ، مثل النبيل الشاب توماسو كافاليرى وجيرهاردو بيرينى وغيرهما . وكانت له فى توماسو كافاليرى قصائد عديدة تتمدح بجماله .. شبيهة بسونيتات شكسبير التى كان يتمدح فيها بجمال ايرل ساوثهامبتون . ويلاحظ ان الأخوة بوناروتى الخمسة .. وفيهم ميكلانجلو .. لم يتزوج منهم الا واحد فقط .

●●●

اذا تكلمنا عن عصر الرنيسانس لم يكن هناك مناص من الـكلام عن عشرات من الفنانين التشكيليين من مصورين ومثالين ومعماريين فى كل بلد من بلاد أوربا .. وعلى قمتهم ليوناردو دافنشى ورفاييل وميكلانجلو . جددوا بالخط واللون والحجر ذلك النفس الجبار الذى شاع فى حضارتى اليونان والرومان وفى سائر الحضارات القديمة منذ أن كان الدين مصـدر الهـام عظيم لكافة الفنون .. فتجددت بالفنون الجميلة نهضة أوربا على أساس التوفيق بين مجد الله ومجد الانسان ، دونما خشية من العودة الى الوثنية .

وكان من أكبر انتصارات المذهب الانسانى أو الهيومانيزم ان الكنيسة الكاثوليكية نفسها أصبحت منذ جيوتو (١٢٦٦ — ١٣٣٧) حتى ميكلانجلو أكبر راع للفنون الجميلة فى أوربا بعد أن ظل العالم المسيحى نحو الف عام يرتعد خوفا أمام الصورة والتمثال وكل تجسيد بالبعد الثالث باعتباره احياء

لوثنية القدماء . فذبلت الفنون الجميلة ولم يبق منها الا فن الزخرفة البلهاء التى تستهلك مواهب الانسان التشكيلية والموسيقية فى امشاق او انساق أو انماط مكررة عقيمة من الجمل اللونية والموسيقية المجردة من كل مضمون يعبر تعبيرا خلاقا عن الدين او الدنيا . وغدت الزهرة المسطحة او ورقة الشجر أو الخطوط الهندسية الجوفاء او حروف الأبجدية اهم من الانسان ومن قصص الأنبياء .

●●●

ss

إرازمـــوس

ERASMUS

١٥٣٦-١٤٦٩

١

□ لم يكن عصر النهضة الأوروبية مجرد انفجار ثقافى وفكرى وعملى غير معالم الحياة فى أوروبا ومقاييسها وقيمها فى جيل واحد أو قرن واحد ، بل كان عصر النهضة الأوروبية مجموعة من الحركات الثقافية والفكرية والعملية التى استغرقت نحو ثلاثة قرون بين ١٣٠٠ و ١٦٠٠ ميلادية على وجه التقريب على مساحة أوروبا كلها ، أو فلنقل بين دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١) فى ايطاليا الى شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦) فى انجلترا .

وقد شهدت هذه القرون الثلاثة تغيرات جوهرية فى الحياة الأوروبية غاية فى الخطورة كان من أهمها :

١ — تبلور اللغات والآداب القومية الحديثة فى أوروبا .

٢ — تبلور حركات الاستقلال القومى والوحدة القومية فيها .

٣ — تبلور الكنائس القومية وانسلاخها من الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) وتقلص سلطة الخلافة الرسولية المعروفة بالبابوية ، وما تبع ذلك من سيادة الدولة على الدين بدلا من سيادة الدين على الدولة .

٤ — تبلور فكرة الحق الطبيعى وحلولها محل فكرة الحق الالهى ، وما ترتب على ذلك من حلول القانون الوضعى وحقوق الانسان محل القانون السماوى .

٥ — انهيار النظام الاقطاعى نتيجة لحركات الوحدة القومية وظهور الملكية المطلقة ثم الملكية المقيدة ثم الديمقراطيات الحديثة .

٦ — حركات الاصلاح الدينى باعادة فتح باب الاجتهاد فى الدين على أساس احلال العقل محل النقل ، والغاء احتكار الفقهاء والكهنة كمفسرين للوحى والغاء دور الأولياء كوسطاء بين الناس والله .

ss

٧ — الايمان بأن للانسان قيمة فى ذاته وان الانسان سيد مصيره وان لحياة الانسان وعلومه وفنونه وآدابه وفلسفاته ومساعيه قيمة فى ذاتهـا لا تغنى عنها علوم الدين ولا نسك الرهبان ولا اعتبار الحياة الدنيا مجرد معبر للآخرة واضمحلال الاديرة وتحولها الى جامعات .

٨ — احياء التراث الوثنى السابق على المسـيحية (اليونـانى والرومانى) — بوصفه جزءا لا يتجزأ من تراث الانسانية وازدهار الابداع الأدبى والفكرى نتيجة لذلك .

٩ — حلول الطباعة محل النسخ اليدوى منذ اخترع جوتنبرج (١٣٩٤— ١٤٦٨) المطبعة وطبع اول كتاب فى تاريخ النشر وهو الكتاب المقـدس فى ١٤٥٠ ، بعد أن نقل الأوروبيون عن الصينيين صناعة الورق .

١٠ — اكتشاف أمريكا فى ١٤٩٢ وغيرها من بقاع العالم المجهولةوبداية عصر الاستعمار الاستيطانى .

هذه كانت اهم مقومات عصر النهضة الأوروبية الذى امتد نحو ثلاثة قرون بين ١٣٠٠ — ١٦٠٠ بعد نحو ألف عام من العصـور الوسطى منذ سقوط روما فى يد أتيلا عام ٤٥٢ ، وهذه المقومات هى أسس الحضارة الغربية الحديثة .. وقد كان ارازموس (١٤٦٩ — ١٥٣٦ م) قطبا بين كتاب عصر النهضة وكان معبرا صادقا عن اكثر هذه المقومات . ومع ذلك فرغم اتفاقه مع أكثر كتاب عصره في تمجيد الانسان والحياة الانسانية وتهكمه بالرهبانية والزهد ورفض الحياة الذى كانت تدعو له الكنيسة الكاثوليكية وفقراؤها ، فقد انفرد ارازموس فى هولندا مع معاصره وصديقه السير توماس مور فى انجلترا (١٤٧٨ — ١٥٣٥) برفض مبدأ تشقق العالم المسيحى الى قوميات متحاربة وكنائس قومية متنابذة متعارضة فى ظل كنيسة رسـولية جامعة واحدة هى عنده الكنيسة الكاثوليكية التابعة للبابوية فى روما .

وقد كان من أقوال ارازموس المشهورة : « ان نهر الراين لا ينبغى ان يفصل المسيحى عن المسيحى » . أما السير توماس مور فقد دفع حياته ثمنا لولائه لوحدة العالم المسيحى فى ظل بابوية روما ولوقوفه باصرار ضـد التيار القومى فى الدين والسياسة فى زمن هنرى الثامن ملك انجلترا .

كان منطق هذين المفكرين العظيمين : الاصلاح الدينى ، نعم . ولكنه الاصلاح من الداخل بما لا يفتت وحدة العالم المسيحى . وبهذا الموقف الفريد انفرد ارازموس والسير توماس مور بين كافة دعاة الهيومانزم او المذهب

الانسانى فى عصر النهضة الأوروبية بمحاولة التوفيق بين قيم العصور الوسطى وقيم الرنيسانس ، فوضعا اساس ما يسمى فى تاريخ الفكر الأوربى « بالهيومانزم المسيحى » وهى صيغة مركبة كانت فى زمانه على الأقل ضد مجرى التاريخ . بل هى فى زماننا ضد مجرى المنطق . فقد كان على ارازموس أن يقول بوحدة النوع الانسانى فى كل زمان ومكان ، لا بوحدة العالم المسيحى فقط فى كل زمان ومكان . كان على ارازموس لا أن يقول ان الراين لا ينبغى أن يفصل المسيحى عن المسيحى ، بل أن يقول ان جبال الأورال أو البحر المتوسط او المحيط الأطلسى أو صحراء منغوليا أو الغابات الاستوائية أو حواجز الدين أو اللون أو الجنس او العنصر أو اللغة أو الطبقة لا ينبغى ان تفصل الانسان عن الانسان .

بغير هذا لا تكون هناك انسانية ولا مذهب انسانى . واتخاذ وحدة الدين أساسا لمفهوم وحدة الانسان لا يقل عنجهية ولا تمزيقا لوحدة البشر وحقهم المتساوى فى الحياة وفى الكرامة وفى السعادة من اتخاذ وحدة العرق او القوم أو الوطن الخ .. أساسا للاخاء الانسانى .

ومع كل هذا فقد كان ارازموس عند الكثيرين يلقب بأمير الانسانيين، بسبب قوة دعوته للاخاء الانسانى فى زمن مزقت فيه الخلافات والحروب الدينية أوروبا بأسرها .

ولد ديزيدير ارازموس بمدينة روتردام بهولندا ، واشتهر بمكان مولده حتى كان يعرف عادة باسم ارازموس الروتردامى . وكان أصغر ابنين فى أسرته . وكانت أمه ، واسمها مرجريت ، ابنة طبيب ، وابوه ، واسمه جيرار ، فقد نزح من مدينة روتردام على دلتا نهر الراين بهولندا الى روما حيث اشتغل نساخا للمخطوطات . ومما يذكر عن ارازموس أن اباه وأمه لم يتزوجا قط ، وقد توفيا عنه وهو بعد يافع فى الخامسة عشرة من عمره ، وتركاه مع أخيه فى رعاية أوصياء .

وقد بدأ ارازموس تعليمه فى سن الخامسة فى جودا ثم دخل فى سن السادسة عشرة كتاب الكنيسة فى بلدة ديفنتر الذى اسسه داعية لمذهب دينى اسمه « اخوة الحياة المشتركة » . وحين شب ارازموس اراد أن يدخل مع أخيه الجامعة ، ولكن الأوصياء ضغطوا عليهما ليدخلا سلك الرهبان، فدخل ارازموس مدرسة دينية ثم التحق بعد عامين بدير ايماوس ببلدة شتاين ، ورسم قسيسا فى ١٤٩٢ اى فى الثالثة والعشرين من عمره ، على طريقة القديس أوغسطين .

وقد جاءته فرصة التحرر من سلك الكهنوت ــ حين عرض عليه أن يعمل سكرتيرا لاتينيا لهنرى برجن أسقف كامبريه الذى كان اهم رجل من رجال الدين فى بلاط بورجونيا بفرنسا ، وساعده هذا الأسقف على دخول جامعة باريس عام ١٤٩٥ ، حيث التحق بكلية مونتاجيو . ولكنه لم يسكن كالعادة فى الكلية وانما أقام خارجها فى بيت خاص حيث كان يعلم التلاميذ ، وفى ١٤٩٨ حصل على درجة بكالوريوس فى اللاهوت . وفى باريس كتب أولى « محاوراته » ، ثم انتقل الى جامعة لوفان ببلجيكا حيث كتب كتابه « دليل الجندى المسيحى » عام ١٥٠٣ .

وقد زار ارازموس انجلترا لأول مرة فى ١٤٩٩ فى معية أحد تلاميذه الانجليز وهو اللورد مونتجوى الذى استضافه فى داره فى جرينتش حيث تعرف ارازموس على السير توماس مور الذى كان وقتئذ يدرس العلوم الانسانية ويزاول المحاماة فى لندن ، وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وكان عمر ارازموس يومئذ ثلاثين سنة . ومنذ رحلته الأولى الى انجلترا تعددت زيارته لها خمس مرات فتركت انجلترا فى تفكيره آثارا باقية .

وفى زيارته الأولى تعرف أيضا على الأمير الغلام البرنس هنرى ابن الملك هنرى السابع ، وهو الذى ارتقى العرش فى شبابه (١٥٠٩) باسم العاهل الخطير هنرى الثامن (١٤٩١ ــ ١٥٢٧) ، وكان الأمير يومئذ فى التاسعة من عمره . وفى اكسفورد تعرف على العلامة جون كوليت الذى كان اشهر محقق للتراث اليونانى واللاتينى ولا سيما رسائل القديس بولس . فى زيارته الثانية تعرف على جون فيشر ، أسقف روشستر ورئيس جامعة كامبريدج ، ووليم وارهام كبير أساقفة كانتربرى .

وكانت رحلته الثالثة الى انجلترا أطول رحلاته فاستغرقت نحو خمس سنوات من ١٥٠٩ و ١٥١٤ . وفى أثناء هذه الاقامة اشتغل ارازموس بتدريس اللغة اليونانية وآدابها بجامعة كامبريدج بنفوذ الأسقف فيشر . ثم قبل كرسى الدراسات اللاهوتية الذى أنشأته الليدى مرجريت تيودور فى تلك الجامعة ، وأقام فى كلية كوينز . وبعد رحلة ارازموس الايطالية وعودته الى انجلترا فى ١٥٠٩ كتب كتابه الأشهر « دفاع عن الحماقة » (حرفيا « فى مدح الحماقة ») أثناء اقامته بدار السير توماس مور . وفى فترة اقامته بكامبريدج أتم دراسته عن « النص اليونانى للانجيل » .

وقد أتيح لارازموس أن يقوم بزيارة ايطاليا بعد رحلته فى ١٥٠٦ . ذهب الى ايطاليا كمؤدب لأولاد الطبيب الايطالى الذى كان طبيب هنرى السابع ملك انجلترا . وفى ايطاليا حصل ارازموس على درجة الدكتوراه فى اللاهوت

من جامعة تورينو . كما أنه تعلم فى جامعة بولونيـــا ، وقضى عاما فى البندقية ضيفا على النــاشر الشهير الدو مانوتزيو الذى اكتسب شهرته من طبـــع مخطوطات التراث اليونانى ولا سيما أعمال اسخيلوس . وفى ايطاليا تجول ارازموس بين مدنها الشهيرة بادوا وفيرارا وفلورنسا وسيينا وروما ، وقد نشر له الناشر الدو طبعة أنيقة من كتابه « الأمثال » . ثم عاد ارازموس الى انجلترا بدعوة من اصدقائه الانجليز فى ١٥٠٩ بعد اعتــلاء هنرى الثــامن عرشها ، بأمل أن يجد فيها مزيدا من التقدير بعد أن أصبح علما من أعـــلام الدراسات الانسانية فى أوروبا وبالفعل أصبح ارازموس أستاذا لليونانيات فى جامعة كامبريدج بضع سنوات .

وبعد أن غادر ارازموس انجلترا فى ١٥١٤ ، استقر أكثر حياته الباقية فى حوض نهر الراين حيث ولد وترعرع ، رغم أنه لم يكف عن التنقل فى أوروبا ، فنراه استاذا بجامعة لوفان ببلجيكا التى أقام فيها أربع سنوات بين ١٥١٧ و ١٥٢١ . وكان أكثر مقامه فى مدينة بازل بسويسرا حيث أقام أولا سنتين (١٥١٤ — ١٥١٦) ، ثم ثمانى سنوات (١٥٢١ — ١٥٢٩) ، ثم أخر سنوات فى حياته حتى توفى فى ١٥٣٦ .كذلك نراه فى كونستانس فى سويسرا وبيزانسون بفرنسا وفريبورج ، وبريسلاو بألمانيا ، وهى كلها مدن مجاورة . وكانت بازل على الراين من اشـــهر مدن أوروبـــا بجامعتها العريقة وبتجمع المثقفين والكتاب والفنانين فيها ، وبدار النشر الكبيرة فيها ، وهى دار جون فروبن الذى أصبح ارازموس مستشارها الأدبى والمشرف على ما تصدره من مؤلفات ثقافية . وقد نشر فروبن لارازموس دراسته « النص اليونانى للانجيـــل » عام ١٥١٦ . وفى بازل كان يقيم الفنان العظيم هانز هولباين وفيها رسم صورة ارازموس الشهيرة .

وفى أكتوبر ١٥١٧ علق مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) بيانه الشهير « خمس وتسعون قضية » احتجاجا على صكوك الغفران التى كانت تصدرها الكنيسة الكاثوليكية وبابوات روما للمؤمنين الخطاة لتنقذهم من نـــار جهنم وتبيعهم قصورا ومربعات فى الجنة ، علق بيانه على أبواب كنيسة ويتنبرج بألمانيا ، وبذلك وضع حجر الأساس فى المذهب البروتستانتى المنسوب اليه. ولم يكن لوثر وحده فى الاحتجاج على مفاسد الكنيسة الكاثوليكية فى زمانه ، بل كان يمثل حلقة هامة فيما يسمى « حركة الاصلاح الدينى » . وفى ١٥١٩ بدأ المصلح الدينى زوينجلى حركة الاصلاح الدينى فى مدينـــة زيورخ التى أصبحت مركز الثورة الروحية على بابوية روما .

وكان ارازموس يرقب كل هذه التشنجات الروحية التى تجتاح أوربا فى عصره ويحـــاول ما أمكنه ألا يدخل دائرة الصراع بين المذاهب المسيحية المنشقة والكنيسة الكاثوليكية الأم .

فقد كان مشغولا حتى تلك المرحلة بمحاولة احتواء ثورة العديد من المثقفين الأوروبيين من دعاة المذهب الانسانى على الدين المسيحى فى جملته ، بسبب افتتانهم بفلسفات اليونان وآدابهم وفنونهم . وكان شغله الشاغل هو أن يثبت للمثقفين أن روح المسيحية لا تقل عن روح الوثنيات اليونانية والرومانية تمجيدا للحياة الدنيا واعترافا بقيمة الانسان وحقه فى المعرفة والقوة والسعادة على الأرض وانها ليست مجرد اعداد للحياة الاخرى . وكان هذا هو الهيومانزم داخل الاطار المسيحى الذى كان يدعو اليه ارازموس ، مستخدما ترسانته الضخمة من التراث الوثني وترسانته الضخمة من التراث المسيحى .

فلما وجد البيت يتصدع من داخله دخل المعركة أملا فى ان يكون رسول سلام بين المتحاربين .. وقد كان موقف ارازموس موقفا فريدا بين مفكرى عصره ، فقد كان مقتنعا بصواب دعاة الاصلاح الدينى وموضوعية ثورتهم على مفاسد الكنيسة الكاثوليكية وتجاوزات رجالها وجمود مفسريها بمثل ما كان مقتنعا بضرورة الحفاظ على وحدة الكنيسة الجامعة . وكان هذا تقريبا موقفه من دعاة الهيومانزم الثائرين على الدين جملة : ليس من الضرورى أن نتخلى عن العلم والمعرفة لنكون متدينين .. هكذا كان يقول للجامدين من المؤمنين . ليس من الضرورى أن نتخلى عن الدين لنكون متعلمين .. هكذا كان يقول للملحدين والشكاك .

وبالمثل فقد بدأ ارازموس بمحاولة التوفيق بين لوثر والكنيسة الكاثوليكية . حاول أن يحمى لوثر من الاضطهاد وأن يتيح له فرصة عادلة لكى يشرح آراءه، فاقترح تشكيل لجنة تحكيم من الفقهاء المستنيرين المحايدين تستمع للطرفين وتقضى بينهما . وحاول ارازموس نفسه أولا أن يقف موقف الحياد فى هذا الصراع الفكرى والروحى ، فلم ينجح الا فى اكتساب عداوة الطرفين .. فسقط بين جمود الجامدين من رجال الكنيسة الكاثوليكية وبين عنف مارتن لوثر وعناده .

وجد ارازموس نفسه موضع سخط الكاثوليك والبرتستانت جميعا . وفى ذلك الزمان الذى كانت محاكم التفتيش تحرق فيه المصلحين بتهمة الزندقة وكانت مجامع البرتستانت تعدم الكاثوليك بتهمة العمالة لروما ، أوشك ارازموس أن يدفع حياته ثمنا لاعتداله وبغضه للعنف والتطرف . كتب الفنان الشهير دورر فى مفكرته يقول : « أى ارازموس الروتردامى : ترى أين يكون مكانك يا فارس المسيح ! اذاهب انت لتلبس تاج الشهداء ! » .

SS

٢

دفاع عن الحماقة

□ وعندما الغى دعاة الاصلاح الدينى فى سويسرا القداس وأزالوا الصور والتماثيل المقدسة فى كنيسة بازل باعتبارها أوثانا ، غادر ارازموس سويسرا عام ١٥٢٩ وانتقل الى مدينة فرايبورج فى الغابة السوداء فى جنوب المانيا حيث عاش بقية حياته فى هدوء العلماء يدرس فى الجامعة . وفى فرايبورج جاءته الأنباء من انجلترا فى صيف ١٥٣٥ باعدام هنرى الثامن لصديقيه السير توماس مور والأسقف فيشر لاعتراضهما على فصل كنيسة انجلترا عن كنيسة روما ، فغادر ارازموس الى بازل حيث أقام نحو عام حتى مات فى يوليو ١٥٣٦ . وكان عطر ذكراه لا يزال يملأ أرجاء جامعة بازل فحمل تلاميذه نعشه الى كاتدرائية المدينة يتبعهم أساتذة الجامعة حيث دفنوه على الشعائر الكاثوليكية . وشاركت سلطات المدينة فى جنازته المهيبة قيل : ولم يتخلف أستاذ ولا طالب عن هذا الوداع الأخير .

ماذا كان ارازموس يمثل فى زمانه والى يومنا هذا ؟ كان ارازموس يحض ابناء العالم المسيحى على احياء التراث الوثنى القديم عند اليونان والرومان فى الفنون والآداب والفلسفة والعلوم الانسانية بعامة وكان يرى أن البحث عن الحقيقة كان غاية الحضارات والثقافات الوثنية بمثل ما كان غاية الحضارة والثقافة المسيحية ، ولذا فقد أنفق كل حياته فى تحقيق التراث اليونانى والرومانى ونشره وتدريسه والتعليق عليه جنبا الى جنب مع ما كان يحققه وينشره من نصوص آباء الكنيسة فى اليونانية واللاتينية .

كان يرى أن الطرق الى بلوغ الحكمة متعددة ، وان عصره يمكن أن ينتفع من حكمة القدماء لو استطاع أن يهتدى الى جوهر الفكر المسيحى وجوهر الفكر الوثنى على السواء . وكان جوهر الفكر المسيحى عند ارازموس لا يؤدى الى سحق الانسان كما كان ينادى فقهاء الدين الضيقو الأفق ، وانما يؤدى الى مجد الانسان ، هذا الذى يبهرنا فى فلسفات العالم القديم والوثنيات الأولى . فليس من داع لأن يتخلى المسيحى عن مسيحيته حتى يصيب هذه الحكمة ، والمسيحى العاقل يستطيع أن يجد فى دينه كل ما يجده عند اليونان والرومان من شرف الحياة الدنيا ومن كرامة الانسان على الأرض وحقه فى الحرية والسعادة وزينة الحياة .

SS

اما اهم أعماله فهــو « دليل الجندى المسيحى » الــذى نشر فى أنتويرب عام ١٥٠٣ ، و « دفاع عن الحمــاقة » الذى نشر فى باريس عام ١٥١١ ، و « محاورات مألوفة » الــذى نشر عــام ١٥١٨ ، وكلها مكتوبة فى لاتينية صافية رشيقة تفيض بالدعابة والتهكم الشديد . نعم . الدعابة والتهكم الشديد من جهل الجهال وخرف المخرفين ونطاعة الجامدين مــن فقهاء الدين ونفــاق القساوسة والرهبان وحذلقة المجــدفين من عبدة الآداب الوثنية .

كان الاحتكام الى العقل عند ارازموس هو الطريق الى الدين والطريق الى حكمة الأولين على حد سواء . كذلك ترك ارازموس نحو ٣٠٠٠ خطاب نشر اكثرها فى مجموعات أثناء حياته وكلها مكتوبة باللاتينية ، وتعتبر بحق سجلا هاما للصراعات الفكرية التى شغلت المثقفين فى عصر الرنيسانس وحركة الاصلاح الدينى .

كان أرازموس مثل كافة دعاة الهيومانزم فى عصره يبحث عن الانسان ولا يكتفى بالبحث عن الله ، وكان يدعو لاكتشاف الدنيا ولا يكتفى باكتشاف الآخرة ، ومع ذلك فقد تميز ادبــه بظاهرتين فريدتين فى عصره : هما أنه كتب كل ما كتب باللغة العالمية فى العصور الوسطى الا وهى اللغة اللاتينية بدلا من أن يكتب باحــدى اللغــات القومية كالهولندية او الألمــانية أو الايطالية ، وأنــه كان من دعــاة التمســك بالكنيسة العــالمية الجامعة (الكاثوليكية) ، رافضا لمبــدأ قيام الكنائس القومية المستقلة التى فتنت بها المذاهب البروتستانتية المختلفة وحــدة العالم المسيحى .

بعبارة اخــرى ، فقــد كان ارازموس من القلة القليلة بين مفكرى الرنيسانس الرافضين للفكرة القومية .. وبهذه النقائض فقد وقف مثل صديقه السير توماس مــور فى منتصــف الطريق بين العصور الوسطى وعصر النهضــة الأوربية .

أهدى ارازموس كتابه « دفاع عن الحماقة » أو على الأصح « فى مدح الحماقة » الى صديقه السير توماس مور بنوع من الدعابة قائلا ان اسم « مور » باللاتينية يذكره بالحماقة (مورياى) فكأنه فى الواقع يكتب كتابا فى مدح توماس مور لا فى مدح الحماقة !

بهذه الدعابة يبدأ ارازموس كلامه مستخلصا أن نهجه اذن هو اصلاح اخطاء البشر وحماقاتهم بالتهكم والسخرية التى مهما كانت لاذعة لا ينبغى أن تكون جارحة . فاذا ضحك الناس من اخطائهم كان هذا بداية الاصلاح :

« فهناك مثلا المسرفون فى التدين الى درجة تدعو الى السخرية : هؤلاء نجدهم على استعداد لاحتمال اى تعريض مهما كان قاسيا بالمسيح نفسه على الا تمس شعرة من راس البابا او الأمير ، ولا سيما اذا كان هذا النقد ينتقص من مكاسبهم . فمن انتقد حياة الناس على هـذا النحو دون ان يخصص بالاسم احـدا ، فهل يقال عنه انه يجرح ويهدم أم يقال عنه انه يعلم ويعظ ؟ وبناء عليه فلو قال احـد انه المقصود بهذا النقـد فهو المريب الـذى يفضح زلله بنفسه ويقول خذونى .

والحماقة تدافع عن نفسها بأنها رغم سوء سمعتها الوحيدة التى يضحك منها الآلهة والبشر ، فما ان تقف لتتحدث فى اى مجمع حتى تنفرج أسارير الناس ابتهاجا وكأنهم مجمع الآلهة فى هوميروس وقـد انتشت بقطر الندى ، بعد أن كانوا يجلسون عابسين وكأنهم لتوهم عائدون من استخارة ولى يقرأ الغيب . ومواعظ العالم كله وخطب البلغاء الملة لا تهدىء العقل المضطرب بقدر ما تهدئه رؤية الحماقة ولو لحظة واحدة . المهم ألا يستمع الناس لكلام الحماقة بنفس الآذان التى يستمعون بها لكلام القسيس فى الكنيسة ، ولكن بالآذان التى يستمعون بها الى المهرجين والبهلوانات والحواة .

و « الحماقة » تقـول عن نفسـها انها ربة كربات اليونان ، وهى ليست كغيرها ، ليست كآلهة هوميروس وهسيود ، بنت جوبيتر أبى الآلهة والناس ، بل بنت بلوتو رب المال والثراء ومسكنه ليس فى السماء ولكن تحت الأرض ، وهو لم يخلقها كما خلق جوبيتر الربة اثينا من راسه ، ولكن بلوتو خلقها من معاشرة الحورية التى يسمونها « هيبا ربة الشباب » زينـة الحـور .

ومادمنا نتحدث عن البنين والبنات وعن الانجاب ، فهل هناك اله او انسان لا يحتاج الى « الحماقة » لكى ينجب ؟ . . حتى الفلاسفة الرواقيون الذين يخالون أنفسهم فى المقام التالى للآلهة ، نجد أن الواحد منهم حين يعاشر زوجته يخلع لحيته رمز وقاره وحكمته ، فان احتفظ بها اصبحت عليه كلحية التيس رمز الاخصاب ، ولكنه على كل حال ملـزم بأن يتنازل عن وقاره وغطرسته ومبادئه الصارمة فى الزهد والعفة ان اراد ان ينسـل ولدا . . نعم . . ان الحكماء أنفسـهم بحاجة الى « الحماقة » فى فراش الزوجية . ثم منذ البداية أليس كل رجل بحاجة الى « الحماقة » لكى يضع حـول عنقه حبل الزوجية ؟ ثم اية امراة فى كامل عقلها تقبل مخاطر الحمل وعناء تربية الأطفال ، فتسعى مشوقة الى حماقة الزواج . ان فينوس نفسها ربة الحب ، تعترف أن كل جهودها تضيع سدى بغير مساعدة منى أنا ،

ربة الحماقة : « فمن هــذه اللعبة المضحكة ، لعبة الربيع ، ولد الفلاسفة المتعالون الذين حل محلهم ذلك النوع من البشر الــذى يســميه العالم الرهبان والكرادلة والقساوسة والبابوات المقدسين ، » كما يقول ارازموس فى « دفاع عن الحماقة » .

الناس اذن تلتمس النصح عند ربة « الحماقة » فتنصحهم بالزواج فهو رغم حماقته ممتع ولذيذ ، وهو يدمث خشونة الرجال بحماقة النساء . وأفلاطون نفسه لم يكن يعــرف كيف يصنف المراة : أيضعها فى فصيلة الانسان أم فى فصيلة الحيوان . وكانت اليونان تقــول : « القرد هو القرد ولو لبس أحمر فى أحمر » . كذلك المراة هى المراة تحت اى قناع تلبس .

والمراة يجب أن تعترف بفضل الحماقة عليها فهناك أولا جمالها الذى يجعلها تطغى على أعتى الطغاة . أما الرجــال فيدركهم مرض الحــكمة فيتغضن جبينهم ويخشوشن جلدهم وتطول لحاهم ويظهر عليهم الهرم . أما النساء فخدودهن دائما ممتلئة وناعمة وأصواتهن دائما ناعمة عليهن الشباب الدائم . ثم أنه لا عمل لهن فى الحياة الا ارضاء الرجال ، والا ما معنى التفنن فى الثياب والاســتحمام المستمر وتصفيف الشعر والعطور وتزجيج الحواجب وتطرية الجلد ، كل هــذا فى النهاية طلبا للذة . وهــذه الحماقة نفسها هى مصدر سعادة الرجل . فمن لم تهتم بزينتها اهتمت بالطبخ وهــذا ايضا مصدر سعادة الرجل .

تقول « الحماقة » دفاعا عن نفسها : أنا أجعل الرجل يقبل عنق عشيقته رغم أنه مكسو بالنمش ، أو يقبل الكيس الدهنى النامى على أنفها ، وأجعل الوالد يقسم أن ابنه الأحول هو أجمل مخلوق فى الدنيا ، وأجعل عين الرضا عن كل عيب كليلة ، ومع ذلك فهذه الحماقة هى التى تقيم الود وتبعثه بين الناس وبغيرها ما امتدت صداقات ولا دامت زواجات .

وكم من طــلاق ــ بل ما هو أفظع ــ كان يمكن أن يحدث يوميا لولا ان حديث الزوجين قائم على الملق والرقة والجهل واخفاء الحقائق . ولو دقق كل زوج فى الاعيب زوجته الجميلة المحتشمة قبل الزواج لما تم زواج ، ولولا جهل الأزواج أو غفلتهم عن كثير من تصرفات الزوجات بعــد الزواج لمــا أبقى الطلاق على زواج . والناس تسخر من الرجل الــذى يلعق دموع زوجته ، ومع ذلك فالزوج المخدوع أسعد من الزوج الــذى تنهشه الغيرة . كل هذه السعادة لا تبقى بغير الحماقة والغفلة .

ss

لولا الحماقة لمـــا احتملت الشعوب حكامها ولا احتمل الحكام شعوبهم ولما احتمل الخادم سيده ولا السيد خادمه ، ولا الطالب أستاذه ولا الأستاذ تلميذه ، ولا الجندى قائده ولا القائد جنوده .. لولا الحماقة لمـــا احتمل صديق صديقه ولا زوج زوجته ٠

أليست هى الحماقة التى تجعل كل عطايا امنا الطبيعة وجمالها تنتهى الى فساد وزوال ؟ فما نفع الجمال ، وهو نعمة السماء الأولى ، اذا خامره التكلف . وما جدوى الشباب اذا كان الفريسة المحققة للشيخوخة القاسية ؟ وما قيمة اى عمل فى الحياة مادامت الأنانية أو حب الذات يداخل كل عمل . وبعد ، أليست الأنانية أختى ، اخت الحماقة ؟ اليس من الحماقة أن يخصص كل منا حياته للاعجاب بنفسه ؟ ومع ذلك فلولا هـــذا الاعجاب بالنفس لمـــا خطب خطيب ولا عزفت موسيقى ، ولولا حب الاطراء لصغر الجمهور للممثل ليجلو عن المسرح ولاستسخف الناس شـــعر الشعراء وفن الفنانين بل ولأعرضوا عن طب الأطباء . لولا حب النفس والاعجاب بالنفس لمـــا أتقن أحـــد شيئا ٠ لكى يرضى الناس عن عملنا يجب أن نرضى نحن عنه أولا .

ما أسعد كل منا بشخصه ومواهبه وخلاله : هاتوا لى رجـــلا يخجل من وجهه ، أو من عقله ، أو من نسبه ، أو من بيته أو من أسلوبه فى العيشة أو من وطنه أو من أمته ، فلا الجبلى يرضى بأن يكون ايطاليا ولا الطراقى يرضى بأن يكون اثينيا ولا الريفى يرضى بأن يكون ابن المدينة ولا البـــدوى يرضى بأن يكون حضريا . كل سعيد بذاته وصفاته والقرد فى عين أمه غزال . أليست هذه حماقة ؟ ومن أين لنا بهذا النعيم بغير حماقة حب الذات والرضا عن الـــذات ؟ .

من المتفق عليه أن كل شهواتنا نابعة من الحماقة ، ومن كان بغير شهوات أو مسيطرا تماما على شهواته فهو أعقل العقـــلاء ، وهو الحكيم الاكمل الـــذى حدثنا عنه الحـــكيم الروائى سنيكا ٠ ومثل هـــذا الرجل ، لو وجد ، لكان من طينة الآلهة لا من طينة البشر ، ولمـــا وجـــد بين الناس من يشابهه أو يشاركه صفاته أو يفهمه ، بل لخاف الناس وفروا من هـــذا الرجل الفريد الـــذى لا يشترك مع احـــد فى مشاعره ولكان مكانه الأوحد هو على راس جمهورية أفـــلاطون أو مدينته الفاضلة .. هـــذا الانسان الكامل لا مكان له بين البشر ٠ مثل هـــذا الانسان الكامل لو رشح نفسه للانتخاب ، فأية مدينة تختاره حاكما عليها ، وأى جيش يقبله قائدا له ، وأية زوجة ترضى به بعلا لها ؟

مثل هـــذا الانسان الكامل ذى العقل البارد ، لو وجـــد ، ســـوف يعيش معزولا فى برج عاجى ، بـــلا أصحاب ولا أتباع . الأمـــر اذن بحاجة

الى درجـــة من درجات الحماقة ليعيش المرء سعيدا مع زوجة تشاطره حماقته واصدقاؤه يتحامقون معه ورؤساء ومرؤوسون يذوقون معه طعم الحماقة ، فلــو كنا جميعا حكماء لكنا من طينة غير هــذه الطينة ولكان الفخار الذى صنعنا منه خيرا من هذا الفخار .

أما هبتى الخاصـــة لهؤلاء الشيوخ الحــكماء فهى انى ابلغ بهم فى شيخوختهم الطاعنة مبلغا يردهم الى طفولتهم السعيدة ، فيصبحون سعداء رغم مشيبهم ، وصلعهم ، وتهتهتهم ، وفأفأتهم لأنهم غدوا بــلا اسنان ، وهرفهم ، لأنهم ارتدوا الى الطفولة الثانية ، وضمور أجسادهم حتى أصبحوا جلدا على عظم ، ولا ينقصـــهم الا الحلمة ليرضـــعوا منها كما وصفهم أرسطوفانيس ، ومع ذلك فهم سعداء بالحياة حريصون على أن يبدوا شبابا فى عيون الآخرين .. فتراهم يصبغون شعرهم ان بقى لهم شـــعر ، اما من أصابهم الصلع فهم يلبسون الباروكة ومن فقد أسنانه نراه يلبس طقم اسنان ليخفى درده ، وترى الواحـــد منهم يتيم صبابة ببنت شـــابة ولا يخجل أن يطاردها أكثر مما يطاردها شاب فى سن احفاده .

فما أكثر ما نـــرى أمثـــال هـــؤلاء العجائز الطاعنين فى السن برجل فى الدنيا ورجل فى القبر يتزوجون من صبايا ممتلئات الأجساد حتى لنحسب أن هـــذه الزيجات « موصوفة » للعجائز — وادعى للضحك من هـــذا ان نرى النساء العجـــائز الناحلات كالهياكل العظمية يرددون دائما قولهن : « ما أحلى الحياة » ، ويضعن الأصباغ يوميا على وجوهن ، ولا يغيب بصرهن عن المرآة ويرقصن ويكتبن الرسائل الغرامية ويخضن فى أعراض الناس .. ورغم أن سلوك العجائز موضع تفكه الناس الا أن أصحابه سعداء به أيما سعادة بفضل ما وهبتهم من حماقة . ومع ذلك فانى أسأل : ايهما أفضل : سعادة الحمقى هـــذه أم أن « يشنقوا أنفســـهم بحبل غليظ كما يوصيهم المثل السائر » .

● ● ●

والحمقى هم اسعد النـــاس طرا . فهم أولا لا يهابون الموت لأنهم لا يفكرون فيه . وهم ثانيا لا يعذبهم ضـــمير ولا ادراك لمعنى الشر ، وهم لا يخشون الجن ولا الأرواح ولا الأشباح ، وهم يعيشون بغير خـــوف ولا امل فى المستقبل ولا تزعجهم هموم الحيـــاة الكثيرة ، وهم لا يعـــرفون التواضع او الطموح أو الحسد أو الحب ، ولأنهم فى جهل العجماوات فهم لا يعرفون الخطيئة .

هؤلاء الحمقى هم المهرجون والمضحكون والبهلوانات • ولـــذا نجد الملوك والأمـــراء يقربونهم منهم اكثر مما يقربون مستشاريهم العقلاء من رجال الدولة ، فتراهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يسمرون الا ومعهم مضحكوهم ومهرجوهم .. لمـــاذا ؟ لأن الحكماء من رجـــال الدولة لا يحدثون الملـــوك والأمراء الا فى الأمور الجادة الخطيرة المثيرة للهموم ، وهم استنادا الى علمهم وحكمتهم لا يخشون خدش مسامع سادتهم ببعض الحقائق المرة ، أمـــا المضحكون والمهرجون فكل كلامهم هـــزل فى هـــزل ولغو فى لغو .

• • •

جوردانو برونو
GIORDANO BRUNO
١٥٤٨ - ١٦٠٠

١

□ بعد مائة عام من احراق سافونارولا فى فلورنسا سنة ١٤٩٩ . احرقت الكنيسة الكاثوليكية جوردانو برونو فى « ميدان الأزهار » (كامبو دى فيورى) بروما فى ١٧ فبراير ١٦٠٠ .

وقد كانت التهم الموجهة الى سافونارولا تهما واضحة ومحددة ، وهى : قلب نظام الحكم .. والتخابر مع دول أجنبية لقلب البابوية .. وادعاء النبوة . أما التهم التى وجهت الى جوردانو برونو فلا نعرفها على وجه التحديد .. لأن محاضر محاكمته فى روما ضاعت بعد نقلها الى باريس بأمر نابوليون ثم بيعت بعد سقوط نابوليون كورق دشت .. ولم يبق للمؤرخين الا محاضر محاكمته التمهيدية أمام محكمة التفتيش فى البندقية .

ومع ذلك فيمكن بعد تحليل ما لدينا من وثائق ومن كتابات جوردانو برونو أن نلخص التهم التى وجهت الى جوردانو برونو على الوجه الآتى :

١ ــ الزندقة والردة والطعن فى العقيدة المسيحية .

٢ ــ الدعوة لنظرية كوبرنيك (١٤٧٣ ــ ١٥٤٣) فى الفلك ، وهى النظرية القائلة بان الأرض ليست مركز الكون وبان الكواكب تدور حول محورها وحول الشمس معا ، وهو ما يتنافى مع الجغرافيا والفلك كما استخلصتهما الكنيسة من الكتاب المقدس ومن أعمال ارسطو (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق.م) وبطليموس الجغرافى (ق ٢ للميلاد) .. صاحب « المجسطى » وكتاب « الجغرافيا » .

٣ ــ الاشتغال بالسحر . ويدخل فى هذا الباب الدعوة للعلم للسيطرة على الطبيعة .

٤ ــ التواصل مع بعض ملوك الدول الأجنبية الذين يهددون الكنيسة الكاثوليكية بدعوى « الاصلاح الدينى » .

وبعض هـذه التهم غامض كالـكلام عن « الزندقة » و « الردة » و « الطعن فى العقيدة المسيحية » . وهى تهم كانت صحيحة يومئذ باعتبار انه لم يكن للمسيحية فى اوربا الا تفسير واحد .. تاريخا وعقيدة .. هو ما كانت تملكه الكنيسة الكاثوليكية فى تلك الأيـام .. أمـا اليوم فنحن نرى الأبعاد التراجيدية بأكملها فى مأسـاة جوردانو برونو كما نراها فى مأساة الحـلاج وابن عربى والنفرى وابن الراوندى والسهرورى المقتـول وعامة المتصوفة الذين دعـوا لنظرية الحلول ولوحـدة الوجود .. ومنهم فى عالمنا من دفع حياته او حريته ثمنا لدعوته .

ولكن كل هـذه البشاعات التى ارتكبتها السلطة الروحية والسلطة الدنيوية فى العصور الوسطى كانت الثمن الـذى دفعته الانسانية فى سبيل حرية الفكر والتعبير والعقيدة والبحث العلمى . وفى سـبيل اقرار حق الاختلاف بين الناس .. بل وحق الخطأ وفى سبيل حل المتناقضات بالحوار بدلا من القهر وسفك الدماء .

ولولا ما وجـده جوردانو برونو .. وكوبرنيك (١٤٧٣ — ١٥٤٣) وكبلر (١٥٧١ — ١٦٣٠) وجاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) من عنت نحو ١٦٠٠ لـما أمكن تحقيق شيء من فتوحات العلم الحديث . ولـولا انتصار أكثر نظرياتهم بحيث أصبحت من بديهيات العلم الحديث لظل الأوربيون ينظرون الى الكتاب المقدس .. كما كانوا يفعلون .. على انه كتـاب فى الفلك وفى الفيزياء وفى الجيولوجيا وفى التاريخ الطبيعي وفى البيولوجيا وفى الطب . بل وفى التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والقانون والعلوم السياسية ، لا يفرط فى شيء من علوم الأرض أو السماء .

• • •

ولد جوردانو برونو عـام ١٥٤٨ فى بلـدة نولا بالقرب من نابولى على سفح جبل فيزوف حيث البركان الثائر الشهير .. وقـد دخل ديـر الدومنيكان عام ١٥٦٣ وهو فى سن الخامسـة عشرة . وهو الدير الكبير الـذى دفن فيـه القديس توماس الأكوينى . وبعد أن أقـام جوردانو برونو فى الدير ثلاث عشرة سنة ، واجه المتاعب فى ١٥٧٦ لاتهامه بالزندقة . فهرب من الدير وهو فى الثامنة والعشرين من عمره .. وخلع مسوح الرهبـان . وذهب يطوف بلدان أوربا : فقصد أولا الى جنيف ولكنه لم يأنس الى حكومتها الثيوقراطية (الدينية) ولم تأنس اليه حكومتها الثيوقراطية التى أسسها المصلح الدينى كالفن (١٥٠٩ — ١٥٦٤) . فانتقل جوردانو برونو الى تولوز بفرنسا حيث حاضر نحـو سنتين فى علم الفلك التقليدى القائم على الأبراج

السماوية والشبيهة بمعارف المنجمين . وفى أواخـر ١٥٨١ انتقل جـوردانو برونو الى باريس وهو فى سن الثالثة والثلاثين .

وفى باريس القى جوردانو برونو محـاضرات عـديدة كان أهمهـا محاضراته الثلاثين عن صـفات اللـه الثلاثين .. فاسترعى نظر هنرى الثالث ملك فرنسا .. وفى باريس أيضـا نشر كتابين عن « فن الذاكرة » ربطا اسمه بالاشتغال بالسحر .. وهـذان هما كتاب « ظلال المثل » أو « ظـلال الأفكار » الـذى نشر فى ١٥٨٢ .. وكتاب « أغنية كيركيه » (اسم الحورية الساحرة فى « أوديسا » هوميروس التى أعطت لبحارة أوليس شرابا سحريا جعلهم يتحولون الى خنازير) .

والاشارة فى « ظـلال الأفكار » هى لظلال « المثل » (جمع مثال) الأفلاطونية .. وهى النماذج العليا المجردة التى كانت موجود فى عقل الله قبل أن تنعكس ظلالها فى موجودات الكون المـادى .. وهى تمثل كل ما فى الوجـود فى جوهره الحقيقى النورانى الكامل قبل أن يلقى بظلاله فى العالم المـادى . فما الكون المـادى عند افلاطون الا محض ظل للحقائق المثالية العليا الموجودة فى ذهن الله . ولهذا كان من الأصوب أن نترجم عنوان كتاب جوردانو برونو اللاتينى « ظلال المثل » ، أى الحقائق المجردة العليا وليس « ظلال الأفكار » .

أما الكتاب الأول فهو كتاب فى «فن الذاكرة» ، ولذا يعالجه دارسو جوردانو برونو على انه امتداد لتلك التقاليد والقواعد التى تركها شيشرون الخطيب وكوينتليان علم البلاغة الرومانى لتعليم فن الخطـابة بتدريب الخطيب على تذكر ما ينبغى أن يقوله بحفظ سلسلة من الأسماء والألفاظ تذكره بالأفـكار التى ينبغى أن يتناولها فى خطابه . وقـد استمرت هـذه التقاليد والقواعد من العصر الرومانى عبر العصور الوسطى ، وتبناها بعض مفكرى الكنيسة غالبا لتدريب الوعاظ على الوعظ .

ولكن عنوان الكتاب وموضوعه يدلان على أن المقصود ليس « فن الذاكرة » ولكن « علم الذكريات » . والذكريات هنـا هى « الذكريات الأفلاطونية » . فنحن نعرف أن « المعرفة » و « الادراك العقلى » هما عند افلاطون عملية استحضار عقل الانسان لذكرياته الموغلة فى القـدم .. ذكرياته عن وجـوده الأول قبل ميلاده حين كان عقل الانسان أو روحه جزءا من عقل الله أو روحه ، فى كماله النورانى الأول ، أى قبل أن يخامره النسيان بسقوطه فى ظلال المـادة .

فالعودة الى الله اذن عملية تذكر للمثال او المثل التى كان عليها الانسان فى كماله الأول . و « فن التذكر » الذى يحدثنـا عنه جوردانو برونو ليس فن تذكر الالفاظ او المعانى عند الخطباء والوعاظ .. ولكن فن تذكر المثل او الحقائق الالهية العليا التى نسيها الانسان منذ عاش فى ظلال الأفكار أى فى وجـوده المـادى . واسلوب جوردانو برونو فى هـذا الكتاب يقـوم على التهكم الموجع بالنحاة وبأساتذة الخطابة والبلاغة .

وكتاب « ظلال المثل » عبـارة عن محاورات بين ثلاثة أشخاص هم هرميز وفيلوثيموس ولوجيفر . وهرميز هو قطب الأقطاب فى هذه المحاورات لأنه كان رسـول الآلهة الى البشر كما كانت اليونان تقول — وكان كاتب الآلهة واله الكتاب . وهو المرادف عند قدماء اليونان للإله تحت أو جحوتى أو توت عند قدماء المصريين فى عصورهم المختلفة . فهـو اذن اله الحكمة وملهم الحكماء وهو ترجمان السماء لأهل الأرض . ومن هنا فقد اتخذه الهرامزة ، اى اتباع ديانة هرميز ، نبيا لهم وينبوعا للحكمة فى كل تلك المتون المقدسة التى دونها الأولون فى القرون القليلة السابقة على ميلاد المسيح وعرفت فى تاريخ الأديان بمتون « هرميز المثلث العظمات » وكانت أقـرب شىء فى الوثنيات الأولى لدعـوة التوحيد .

كانت الهرمزية العبادة الخاصة للفلاسفة والمتفلسفين والنساك وتلك الجماعات التى عرفت فى العالم القديم باسم « الغنوصيين » أو « العارفين بالله » وصحتها « النوسـيون » ، ومنهـا اشـتقت كلمة « النسك » و « النسـاك » . وقد ازدهرت هذه الديانة بتأثير تداخل الثقافة اليونانية والثقافة المصرية القديمة فى مدرسة الاسكندرية ، وادت الى ظهور الأفلاطونية الحديثة التى اسسـها أفلوطـين (٢٠٥ — ٢٧٠) وتلميذه بورفريـوس (٢٣٤ — ٢٦٥) فى جامعة الاسكندرية وحاولا فيها التوفيق بين مثالية أفلاطون والمثالية المسيحية .

وشخصية لوجيفر (اى حامل المنطق أو صاحب المنطق) ، يعرف كل ما قاله الجهابذة عن « فن التذكر » ويستشهد بما قاله نطس الأطباء عن أنواع الاطعمة وأساليب الصيام والافطار التى تنعش الذاكرة . امـا هرميز فيشرح لصاحبيه أن قوة الذاكرة لا تكون الا بدراسة الأبراج السماوية ومدارات الأفـلاك ، وعنده أن « شمس المعرفة » هى التى تسحق كائنات الظلام وتبرز كائنات الضياء .

والمعنى الباطنى فى كلام جوردانو برونو أننـا لا نقترب من ذكر الله بالصوم كما يقـول الأطباء ، ولا نحيى ذكريات الكمال الأول فينا بأكل الزيت

او مقاطعة هـــذا النوع من الطعام او ذاك ، ولكننا نقترب من ذكر الله ونحيي ذكريات الكمال الأول فينا بالمعرفة ودراســـة الكون وحركة الأفلاك ، ولا ســـيما الشمس .

وبالفعل ، عندما انتقل جوردانو برونو الى انجلتـــرا كتب كثيرا عن نظريات كوبرنيك التى طرحها فى كتابه : « فى دوران الأفلاك السماوية » الذى صـــدر فى ١٥٤٣ شهورا قليلة قبل وفاته ، ولم تنتبه له الكنيسة وقت ظهوره لأنه كان كتابا مليئا بالمعادلات الرياضية التى لا يفهمها الا الرياضيون. ولكن حين شرح جوردانو برونو نظرية كوبرنيك فى الفلك تنبهت الكنيسة الى تعارضها مع ما جاء عن خلق الكون فى الكتاب المقدس ، ومع اجتهادات القدماء ورجال الدين فى علم الفلك فحرمت تلك النظريات وأخـــذت تطارد كل من يروج لها . وهـــذه النظريات لم تخرج عن قول كوبرنيك ان الشمس لا تدور حـــول الأرض وان الأرض هى التى تـــدور حـــول الشمس ، وان الأرض ليست ثابتة ولكنها تدور حـــول محورها ، وان ما يصدق على الأرض يصدق على بقية الكواكب السيارة ، وان الأرض ليست فى مركز الكون بل فى ركن مهمل من اركانه .

ولكن مشكلة جوردانو برونو هى انه خلط دعوته للنظريات العلمية فى الفلك بتعاليم السحر التى اخذها عن ديانة الهرامزة وفلسفتهم ، وذهب يدعو لهما باعتبار ان كل ما فى عالم الظـــلال أو العالم المـــادى هو مجـــرد صـــورة باهتة لعالم المثل الكامل فى الكون أو فى السماء .

وقد عرفت اوربا ديانة هرميز وفلسفة « هرميز المثلث العظمات » منذ نحـــو ١٤٦٠ حين وصل الى فلورنسا من مقدونيا راهب كان يعمل مع عديد من أمثاله فى خدمة البنكير كوسيمو دى مديتشى فى جمع المخطوطات اليونانية واللاتينية بعد استيلاء الأتـــراك العثمانيين على القسطنطينية ، وصل حاملا نسخة مما يسمى « متون الهرامزة » أو « النصوص الهرمزية ». وكانت النسخة ناقصة لأنها كانت تشتمل على ١٤ من ١٥ نصا من المحاورات فلم يكن ينقصها الا نص واحد هو النص الأخير .

وكان المثقفون الأوربيون يعرفون بوجود نصوص « هرميز المثلث العظمات » من كتابات فقهاء المسيحية الأولين ، ولا سيما من كتابات القديس كلمنت السكندرى .. بابا الاسكندرية من ٨٨ الى ٩٧ ميلادية ، الـــذى ذكر فى وصف مواكب الكهنة المصريين فى أواخر أيـــام مصر الفرعونية الوثنية ان « المنشد » على راس الموكب كان يحمل كتابين من الموسيقى والمزامير أو التراتيل من تأليف هرميز ، وأن « المنجم » كان يحمل أربعة كتب من وحى

هرميز أو تاليفه عن موضوع النجـوم البازغة والغاربة ووقت المواليد وعلاقاتها بالسعد والنحس . وقـد ذكر كلمنت السكندرى فى هـذا الوصف أن هناك ٤٢ كتابا من وحى هرميز المثلث العظمات أو من تاليفه .. منها ٣٦ كتابا تشتمل على كل حكمة المصريين ، أما الستة الباقية فهى فى الطب . وكان المثقفون فى عصر النهضة يعتقدون أن من بين صـحف هرميز كتاب « اسكولاب » أو « اسكوليب » الشهير بين النصوص الهرمزية .

كذلك عرف المثقفون الأوربيون بأمر ديانة هرميز من كتابات لاكتانس (٢٥٠ — ٣٢٥م) ، وهو من آباء الكنيسة ودعاتها ، ولا سيما من كتابه « المدونة » ، ومن كتابات القديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠م) ، ولاسيما من كتابه « مدينة الله » . وفى جميع الأحـوال كان هؤلاء الفقهاء يصفون هرميز بأنه حكيم عظيم « أعطى المصريين آدابهم وقوانينهم » فى غابر الزمان كما يقول لاكتانس ، وأن له وجودا حقيقيا وأنه تحدث عن الاله « الأوحد » ، وهكذا يضعونه فى موضع النبى او الرسـول كما نقـول نحن ، رغم أننا نعلم الآن من تاريخ الأديان أن هرميز هـذا لم يكن الا الاسم اليونانى للاله تحت أو توت اله الحكمة عند قدماء المصريين .. ولا كتانس يصفه فى مقاله عن « الغضب الالهى » بأنه سابق على أفلاطون وفيثاغورس . وهو يترجم اسم كتاب هرميز المسمى باليونانية « اسكوليب » بعبارة « الكلمة الكاملة » فى اللاتينية . وبينما نجـد لاكتانس يمتدح هرميز ويستشهد به على صحة الدين المسيحى ، نجد أن أوغسطين يندد به على أنه رمز لوثنية المصريين واشتغالهم بالسحر وكلفهم بالخرافات .

كانت مخطوطات أعمال أفلاطون فى أصـلها اليونانى قد جمعت فى فلورنسا أيام كوسيمو دى مديتشى ، وكان المتفق أن يتفرغ الفيلسوف فيتشينو لترجمتها الى اللاتينية ، ولكن ما أن وصـلت نصـوص « هرميز المثلث العظمات » الى فلورنسا نحو عـام ١٤٦٠ حتى طلب كوسيمو دى مديتشى من طبيبه الفيلسوف فيتشينو أن يؤجل ترجمتها وأن يتفرغ لترجمة نصوص هرميز بدلا منهـا ثم يتجه الى ترجمة أفلاطون بعد أن يفرغ منها ، وقد كان .

حكمة المصريين قبل حكمة أفلاطون : هكذا كان الأوربيون فى عصر النهضة يفكرون فى تلك الأيام .. ولم يكن لديهم من « نصوص هرميز » الا ترجمة لاتينية قديمة لسـفر « اسكوليب » ، فأتم فيتشـينو ترجمة بقية الأسفار فى بضعة شهور .. وفى المقدمة ذكر أن هرميز كان معاصرا لموسى وأنه أسس مدينة هرموبوليس ، اى مدينة هرميز كما يسميها اليونان وهذه هى تونا الجبل والأشمونين . وبهذا نقترب من مدينة اخيتاتون التى بنـاها

اخناتون لتكون عاصمة لملكه ولتكون صـــورة من الجنة على الأرض ، وقد كانت الأشمونين فى الدولة الحديثة مركز عبادة الاله تحوت (جحوتى) أو تحت (توت) كبير « الثامون » أو الآلهة الثمانية التى كانت تحكم مصر غالبا منذ أن اكتشفت مصر الاله الواحـــد أيـــام اخناتون (١٣٧٢ — ١٣٥٤) . وكانت نموذجا للمدينة الفاضلة او لجنة عدن ، وكان اسمها فى النصـــوص الهرمزية « ادوكنتين » وهى مدينة « الأشمونين » .

وقد سمى فيتشينو ترجمته للنصوص الهرمزية باسم « بيماندر » ، وشاع أمرها فكانت هناك منها نسخ وفيرة ، وطبعت عام ١٤٧١ لأول مرة وصدرت منها ١٦ طبعة حتى نهـــاية القرن السادس عشر .. كذلك ترجمت الى الايطالية ونشرت فى ١٥٤٨ . وقد دل شيوعها على اهتمام المثقفين بها .

وفى كتاب « ظلال الأفكار » أو « ظلال المثل » يقـــول برونو على لسان فيلوثيموس أو فيلوتيو أو تيوفيلو (أى محب اللـــه) ان معلمه هو هرميز المثلث العظمات ، وان هرميز هو الـــذى سـلمه كتاب « ظـــلال المثل » ، فهو من صحف هرميز ، وموضوعه هو السحر الشمسى ، ليس سحر الشمس الظاهرة للعين ، فديانة قدماء المصريين هى كما يقول ديانة العقل ونـــور الفكر .. وبحسب ما يقـــول القديس أوغسطين ان المسيحيين هم الذين صادروا هـــذه الديانة وحرموها بموجب القانون ، فكانت هذه هى الضربة القاضية لحضارة مصر القديمة الوثنية .

وجوهر كتاب « ظلال المثل » هو أن كل ما على الأرض ظلال أما حقائق هـــذه الظلال فهى المثل الكائنة فى السماء فى العقل الالهى . وعملية « المعرفة » ليست الا عملية « تذكر » لهذه المثل . وما على الانسان لكى يبلغ الحكمة الا أن يستوعب صورة الكون الأعلى فى عقله باستيعاب الأبراج السماوية ومنازل القمر وكل ما كان فى النجـــوم والكواكب متحكما فى حياة الانسان ، وهـــذا ما ادخل جوردانو برونو فى عالم السحر .

اما الكتاب الثانى الـــذى صدر فى باريس فى نفس العام ، وهو « نشيد الساحرة كيركيه » (١٥٨٢) ، فهو عبارة عن نشيد تغنيه هـــذه الحورية كتعويذة للشمس ، ثم تعقبها اغان اخرى كالتعاويذ موجهـــة الى الكواكب السيارة : الى القمر وزحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد . والقصد من هـــذه التعاويذ هو كالعادة اقتراب « المثل » من عقل الانســـان حتى يدركها أو يتذكرها ويعيش فيها .

ويبدو أن جوردانو برونو كان يعارض بكتابه « نشيد كيركيه » عرضا موسيقيا راقصا رآه عام ١٥٨١ فى البلاط الفرنسى أو سمع به أو قـــرأ

نصه المنشور فى ١٥٨٢ ، وهو يـدور حـول تعاويذ الساحرة كيركيه التى حولت بالسحر الأسود البشر الى قطيع من الخنازير فقاموا بالمذابح الدينية وبحرب الأديـان التى نشـبت بين الكاثوليك والبروتستانت حتى وضع هنـرى الثالث ملك فرنسا حـدا لها بقـوة السحر الأبيض . وبالمثل فان أناشيد كيركيه فى جوردانو برونو كانت « اسرارا بربرية » أطلقت الشر من عقاله وجعلت مخلوقات الضياء تفـر أمام مخلوقات الظلام .. ولكن كيركيه لا تلبث أن تتوجه بنشيدها الى الشمس وهى تحـرق البخور الزكية وتتأوه فى صلاتها على اختفاء « أستريا » ، رمز العدالة فى العصر الذهبى ، وهنا تتجلى قـوة السـحر الأبيض المتمثل فى ضـياء الشمس وتنجلى الظلمة ويغنى ديك الصـباح . وقـد فهم يومئذ أن الشمس هو ملك فرنسا وقـد كافأه الملك بتعيينه أستاذا فى الجامعة .

والمفهوم فى رمزية جوردانو برونو أن اشراق الصباح يمثل اشراق الاصلاح الدينى وانقشاع ظـلام عصور التعصب والجمود . ولكن مشكلة جوردانو برونو هى انه كان يلتمس الاصـلاح الدينى من خارج اطـار العقيدة المسيحية السائدة فى أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت .. كان يدعو لاحياء ديانة مصر القديمة .

• • •

SS

٢

أكاديمي بلا أكاديمية

□ غادر جوردانو برونو فرنسا وقصد الى انجلترا حاملا خطاب توصية من هنرى الثالث ملك فرنسا الى ميشيل دى كاستلنو دى موفيسيير سفير فرنسا فى انجلترا الذى استضاف برونو فى داره طيلة اقامته فى انجلترا ، وهو أمر ثابت تاريخيا ، وثابت كذلك ان سفير فرنسا فى انجلترا تكفل أيضا بحماية برونو من الشغب الذى ثار بسبب ما نشره من كتب هناك هيجت عليه الخواطر وبسبب مسلكه الذى أثار عليه حفيظة الكثيرين .

وقد اتيح لجوردانو برونو اثناء اقامته فى انجلترا ان ينشر افكارا لو نشرها كاتب انجليزى فى عصر اليزابيث لحوكم او أودع السجن او صودرت كتاباته ، كما حدث للشاعر المسرحى الكبير كريستوفر مارلو (١٥٦٤ ــ ١٥٩٣) وللشاعر المسرحى الأعظم وليم شكسبير (١٥٦٤ ــ ١٦١٦) ، فقد كانت الرقابة على المسرح والأدب والفكر محكمة فى عصر اليزابيث .

ومن هنا يفترض مترجمو سيرة جوردانو برونو انه كان يتمتع بنوع من الحصانة التى جاءته من ملك فرنسا . ولم تكن أفكار برونو غريبة على الانجليز حتى قبل وصوله الى انجلترا ، فقد كتب هنرى كوبهام ، سفير انجلترا فى فرنسا الى فرانسيس والسينجهام ، رجل البلاط اليقظ المقرب من اليزابيث ، منبها اياه الى قرب وصول « الدكتور جوردانو برونو النولانى ، استاذ الفلسفة الذى ينوى المجىء الى انجلترا ، وهو رجل لا استطيع ان ازكى عقيدته الدينية » . ويلاحظ هنا ان السفير لا يشير الى فلسفة جوردانو برونو ولكن يشير الى « عقيدته الدينية » .

وبدأ جوردانو برونو دعوته الفكرية فى انجلترا باصدار كتاب باللاتينية عام ١٥٨٣ يشتمل على ثلاثة اجزاء : جزء هو « فن الذاكرة » الذى سبق نشره فى باريس ضمن « نشيد الساحرة كيركيه » ، وجزء اسمه « تفسير الأختام الثلاثين » (باللاتينية) ، وجزء اسمه « خاتم الأختام » (باللاتينية) .

وفى ١٥٨٣ زار انجلترا امير بولندى يدعى البرت الاسكو ، وبناء على توجيه اليزابيث اعد لاستقباله برنامج حافل من الولائم والمحاضرات فى

جامعة اكسفورد ، وكذلك من العروض المسرحية والشعرية والغنائية ، وكان فى بعثة الشرف المرافقة لهذا الأمير بأمر الملكة الكاتب الكبير السير فيليب سيدنى . وقد شارك جوردانو برونو فى المناظرات الفلسفية التى عقدت فى اكسفورد لهذه المناسبة .

ومن الأدب الانجليزى فى عصر اليزابيث نستطيع أن نستخلص أن جامعة اكسفورد لم تكن سعيدة بآراء جوردانو برونو ولا بوقاحته وغطرسته فى التعامل مع الأساتذة . ومن كتاب صدر فى ١٦٠٤ للأسقف جورج أبوت الذى اصبح فيما بعد رئيس أساقفة كانتربرى ، نعلم أن برونو جاء اكسفورد فى حاشية الأمير الاسكو فى ١٥٨٣ ، وأن هذا « الحاوى الايطالى » قام بطرح أفكار عديدة من بينها دفاعه عن نظرية كوبرنيك « القائلة بان الأرض تدور وأن السماء ثابتة ، بينما فى واقع الأمر أن رأسه هو الذى يدور وأن مخه هو غير الثابت » ، وأن أحد الأساتذة اكتشف أن محاضرتيه الأولى والثانية منقولتان حرفيا تقريبا من كتاب الفيلسوف الايطالى فيتشينو « مقارنة الحياة السماوية » . والغريب أن هذا التهكم الموجع جاء فى معرض مهاجمة الأسقف للكاثوليك والبابوية من وجهة نظر بروتستانتية ، أما انطباع جوردانو برونو عن الحياة الأكاديمية فى اكسفورد فهو أن أساتذتها كانوا مجموعة من النحاة المتحذلقين فى اليونانية واللاتينية ، وقد سجل هذا الرأى فى كتابه الذى أصدره فى لندن عام ١٥٨٤ « عشاء أربعاء الرماد » ، وهو عبارة عن محاورات باللغة الايطالية مهداة الى سفير فرنسا فى لندن . وقد عاد برونو الى هجاء أساتذة اكسفورد فى كتابه التالى « فى العلة والمبدأ والواحد » (١٥٨٤) وهو أيضا مهدى الى السفير ، ويبدو أن الشغب الفكرى الذى حدث بين أساتذة اكسفورد وجوردانو برونو كانت له أصداء واسعة فى الحياة الفكرية والأدبية الانجليزية فى عصر اليزابيث ، لأننا نجد أصداء له فى مسرحية كريستوفر مارلو « الدكتور فاوست » وفى مسرحية روبرت جرين « الراهب بيكون والراهب بنجى » (١٥٨٧) ، وربما فى « خاب سعى العشاق » لشكسبير . وكان برونو يسمى نفسه « أكاديمى بلا أكاديمية » .

وفى السنة نفسها (١٥٨٤) أصدر جوردانو برونو محاوراته الايطالية المسماة « الكون اللانهائى » ومحاوراته الايطالية المسماة « طرد الوحش المنتصر » (قيل إنه يقصد بالوحش بابوية روما وبداية الاصلاح الدينى) ، وفى هذا الكتاب دعا لاحياء ديانة قدماء المصريين فى مرحلتها الهرمزية القائمة على وحدة الوجود وعلى نظرية الحلول ، والكتاب مهدى الى السير فيليب سيدنى . وفى ١٥٨٥ أصدر جوردانو برونو كتابه « الجنون البطولى » ، وهو مجموعة قصائد فى الحب الصوفى ، و « سحر براق

SS

الشعر » (١٥٨٥) ، وقـد طبع على هـذا أنه صـدر فى باريس والحقيقة انه صـدر فى لندن .

وفى أكتوبر ١٥٨٥ استدعى السـفير موفيسيير الى بلاده فعاد من انجلترا الى فرنسا ومعه جوردانو برونو فى حاشيته .. وفى أثناء عبور المانش هاجم القرصان السفينة التى كانت تحملهما وسلبوها . وعند وصولهما الى باريس كان الجو ملبدا ينذر بالحرب الدينية . فقد عبأ الدوق دى جيز قواته بمساعدة الأسـبان لغرض الهيمنـة الكاثوليكية فى فرنسا وسحق الهيجونوت ، اى اسـتئصال البروتستانتية ، مستعينا بالحلف الكاثوليكى (المقدس) بتوجيه من البابا ، الـذى كان يناصر أسـبانيا فى تسـابقها الاستعمارى مع انجلترا للسيطرة على الدنيا الجديدة (الأمريكتين) .

فالواقع أن أهم أهـداف الصراعات الدينية فى أوربا كان التسابق الاستعمارى للسيطرة على الدنيا الجديدة ونهب ثرواتها بين دول جنوب أوربا بقيادة أسبانيا ودول شـمال أوربا بقيادة انجلتـرا منـذ أن اكتشـف كولومبوس الأمريكتين فى ١٤٩٢ — وهـذا الصراع الاقتصادى يفسر ضراوة الكاثوليك فى البلاد الكاثوليكية فى اضطهاد البروتستانت وضراوة البروتستانت فى البلاد البروتستانتية فى اضطهاد الكاثوليك . فالتهمة المعلنة كانت دائمـا الزندقة أو الهرطقة الدينية ، ولكن التهمة الحقيقية كانت التعاون أو التعاطف مع اعداء الوطن السياسيين والاقتصاديين .

ومنذ أن ترك برونو انجلترا لم يكتب شيئا بالايطالية وانما كانت كل كتبه باللاتينية ، وبعد عـودة برونو الى باريس طبع له كتابه « تصوير الفيزيقـا لأرسطو » (١٥٨٦) ، ومحاورتان عن « فابريتزيو موردانتى » (١٥٨٦) ، ومحاورتان آخريان إحداهما بعنوان « الأبله منتصرا » والثانية بعنوان « تفسير الأحـلام » (١٥٨٦) .

وقد كانت لفابريتزيو موردانتى قصة طريفة مع جوردانو برونو . فقد كان موردانتى مهندسا رياضيا ايطاليا بارعا يقيم فى باريس ، وقـد اخترع بوصـلة تحمس لها برونو حماسا شديدا ، وكان يصف مخترعها بأنه « اله بين علماء الهندسة » . ولمـا كان موردانتى يجهل اللغة اللاتينية ، فقد أعانه برونو بأن شرح اختراعه فى كتاب باللاتينية نيابة عنه . وبالفعل كتب برونو أربع محاورات عن بوصلة موردانتى ، ولكنه انتهز هذه المناسبة ليقول ان موردانتى لم يكن يدرك حقيقة أبعاد اختراعه العظيم وإن الفضـل يعود الى برونو نفسـه لأنه كشف عن هـذه الأبعاد .

وكان هـذا تكرارا لمـا سبق ان فعله جوردانو برونو حين كان فى انجلترا . فهو فى كتابه « عشاء أربعاء الرماد » قد تصـدى لشرح نظرية كوبرنيك فى دوران الأرض والمجموعة الشمسية حـول محورها وحـول الشمس ، ولكن شخصيته المعقدة وامتـلاءه بنفسـه جعـلاه يقـول أن كوبرنيك لم يكن الا عبقريا عالمـا بالرياضيات ، ولـذا فانه اكتشف اكتشافا عبقريا ولكنه لم يـدرك معناه تماما . أما هو — جوردانو برونو — فقد اكتشف بهذا الاكتشاف سر الأسرار ، وهو وحـدة الله والكون وتجلى الله الشامل فى الطبيعة ، وهو ما خفى على فقهاء اكسفورد المتحذلقين الذين لم يدركوا أن ديانة مصر القديمة قد وعت كل هـذه الأسرار الالهية والطبيعية .

كان طبيعيا اذن أن يغضب موردانتى لمـا كتبه عنه برونو من أنه اخترع شيئا عظيما لم يـدرك أهميته وبـدأ يقاتل برونو عن طريق الدين ، فانضم الى حـزب الـدوق دى جيز قائد التيار الكاثوليكى المتعصب فى فرنسا وعـدو هنـرى الثالث وكل دعـاة الاصـلاح الدينى . وحين ساء مركز هنرى الثالث أمام الـدوق دى جيز الـذى كان يزحف على باريس وانصاره المسلحون فى باريس فى كل مكان ، أصبح جوردانو برونو بلا حماية وتخلى عنه الملك فى مصالحاته المتقطعة مع الحلف الكاثوليكى ، فترك برونو فرنسا وذهب الى المـانيا فى ١٥٨٦ .

وكان آخر ما فعله جوردانو برونو فى باريس انه نشر فى ١٥٨٦ كتابا صغيرا اسمه « مائة وعشرون وصية للرد على المشائين » (باللاتينيـة) باسم تلميذ من تلاميذه يدعى جان هنيكان ، والكتاب كله هـدم للفلسفة الارسطاليسية ، وهو مهدى الى هنـرى الثالث ملك فرنسا . ثم نظم برونو مناظرة لمناقشة هـذا الكتيب ، أو على الأصح المحاضرتين اللتين القاهمـا هنيكان بدلا من برونو فى كلية كامبريه يومى ٢٨ ، ٢٩ من مايـو ١٥٨٦ ، بينما جلس برونو نفسـه بجوار باب القاعة يرقب أثر المحاضرتين فى السامعين (والمشاءون هم تلامذة ارسـطو ، لأن ارسـطو كان يعلم وهـو يمشى) .

ولم يكن فى المحاضرتين جديد : كانت فكرتهما تقـوم على نظرية تشابه العالم المـادى مع الـكهف الأفلاطونى . نحن نعيش سجناء فى سجن مظلم ومن هـذا السجن لا نـرى الا نجـوم السماء على البعد البعيد . أمـا الآن فقد أطلق سراحنا بعد ثـورة كوبرنيك فى علم الفلك باكتشاف دوران الكواكب فى المجموعة الشمسية ، فنحن نعرف الآن انه ليست هناك الا سماء أثيرية واحدة تتحـرك فيها كل الأجرام السماوية المتأججة النيران ، وهذا ما يعلن لنا عن عظمة اللـه وجلاله . وهـذا يدفعنا الى أن نتأمل لانهائية

العلة الأولى (الله) وراء هـذا المعلول اللانهائى (الكون) . وهو يجعلنا نرى أن الذات الالهية ليست بعيدة عنا ولكن فينا لأن مركزها فى كل مكان ، فى عالمنا كما هى فى العوالم الأخرى . والكون اللانهائى تصـور اقرب الى عظمة الله من الكون المحدود (كان ارسطو يعلم ان الكون محدود بالسموات السبع حيث الكواكب السيارة ومن بعدها الخلاء التام) .

وفى نهاية الكـلام وقف برونو ليسأل ان كان هناك من يعقب . فبرز له محام يدعى رودولف كاليريوس ودافع عن ارسطو ونـدد بجوردانو برونو فى قسوة بالغة . وأراد برونو الانصراف ولكن الطلبة احاطوا به واصروا على الاستماع لدفاعه . فوعدهم برونو بالحضور فى اليوم التالى ، ولكنه لم يفعل ، بل اختفى نهائيا من باريس بعد شهور .

وانتقل برونو الى ويتنبرج فى المـانيا حيث اقام سنتين بين ١٥٨٦ و ١٥٨٨ — اسـتاذا فى الجامعة التى تعلم فيهـا مارتن لوثـر مؤسس البروتستانتية . ويبدو من غزارة انتاجه فى هـذه الفترة انه كان مستقرا ، وعلى علاقات طيبة مع بيئته الجديدة ، ولكن يبدو أيضا أن اكثر مؤلفات هذه الفترة كان من مذكرات محاضراته . ومن هذه المؤلفات كتاب عن « فلسفة ريموند لولى » ، وكتاب عن « تقدم المنطق » ، وكتاب عن « كتاب الفيزيقا لأرسطو » ، وهذه طبعت فى أعمال جوردانو برونو باللاتينية . كذلك هناك كتاب عن « صناعة الخطابة » طبع فى ١٦١٢ بعد اعدام برونو . وهناك كتابه الهام عن الكائن الأعظم : « اللا معدود واللا محدود » ، وقد نشر فى المانيا عام ١٥٩١ ، كما أن هناك كتابه « فى السحر » وكتابه « حلقات السلسلة » ، وهما من مؤلفات ١٥٩٠ — ١٥٩١ ، ولكنهما لم ينشرا الا فى أواخر القرن التاسع عشر .

ومن مؤلفات تلك الفترة كتاب « التماثيل الثلاثون » الـذى أكمل به شرحه لديانة الهرامزة أو العارفين بالله أو الغنوصيين .. فهو قد بـدأ « بالظلال الثلاثين » فى كتابه « ظلال المثل » أيام باريس الأولى ، ثم كتب وهو فى انجلترا « الأختام الثلاثون » ، وكتب فى المانيا « الحلقات الثلاثون » و « التماثيل الثلاثون » ، كل ذلك لتوضيح تجلى الـذات الالهية فى كل كائنات الوجـود .

ثم تغيرت الأحوال فى جامعة ويتنبرج ، فبعد أن كان يسـيطر عليها اساتذة مشايعون للمصلح الدينى مارتن لوثر ، سيطر عليها اساتذة مشايعون للمصلح الدينى كالفن ، ممن كان جوردانو برونو يرميهم فى باريس بالزندقة أو الهرطقة . وهكذا ادرك برونو انه بلغ نهاية المطاف فى جامعة ويتنبرج . فألقى فى الأساتذة « خطبة الوداع » وسافر الى براج فى ١٥٨٨ حيث أقام

نحو ستة شهور . وكان الأمبراطور رودولف الثانى يجمع فى بلاطه الفلكيين والمنجمين والمشتغلين بالكيمياء والسيمياء ويبسط عليهم رعايته ليساعدوه على العثور على حجر الفلاسفة . فوضع جوردانو برونو مؤلفا بعنوان « الرد على الرياضيين » وأهداه للأمبراطور ، وهو كتاب لم يطبع الا فى ١٨٨٩ بين أعمال برونو اللاتينية .

ومن المصادفات الغريبة ان فابريتزيو موردانتى ، مخترع البوصلة فى باريس ، كان يشغل وظيفة « الفلكى الأمبراطورى » فى بلاط رودولف الثانى وقت أن كان جوردانو برونو فى براج . فليس مصادفة اذن أن الأمبراطور منح برونو مكافأة على كتابه ولكنه لم يعينه فى منصب ما .

وبعد ذلك انتقل جوردانو برونو الى هيلمشتاد حيث كانت الجامعة فيها منشأة حديثا . وفيها القى « خطبة العزاء » بمناسبة وفاة منشئها يوليوس دوق برانسويج الذى كان حاكما بروتستانتيا ، فامتدحه مدحا أخذته عليه فيما بعد محكمة التفتيش التى حاكمته فى روما وأدانته ، مثلما أخذت عليه امتداحه لاليزابيث ملكة انجلترا البروتستانتية بعبارات مثل « اليزابيث الالهية » ، ومثل تمجيده لهنرى الثالث ملك فرنسا المتعاطف مع البروتستانت ، ولدوق نافار البروتستانتى الذى أصبح فيما بعد هنرى الرابع ملك فرنسا (١٥٨٩ — ١٦١٠) . وقد كان هنرى الثالث وهنرى الرابع معاديين للحلف الكاثوليكى المقدس الذى كان يعاون أسبانيا فى صراعها الضارى مع انجلترا للسيادة على البحار والمحيطات والعالم الجديد والقديم .

لقد كانت تهمة العمالة للدول البروتستانتية فى تلك الأيام أشبه شىء فى العالم الكاثوليكى بتهمة « الخيانة الوطنية » فى العصر الحديث ، تهمة تجر على صاحبها عقوبة الاعدام . أما طريقة الاعدام ، فبسيف الجلاد أو بالشنق أو بالحرق أو بالمقصلة الخ .. فهذه كانت مسألة تفصيلية يحددها اختلاف العصور .

وانتقل جوردانو برونو نحو منتصف ١٥٩٠ الى فرانكفورت حيث طبع بعض الأشعار اللاتينية . ثم قضى شهورا قليلة فى سويسرا ، ثم عاد الى فرانكفورت . وفى سويسرا كتب برونو كتابا اسمه « فى تركيب الخيال والاشارات والأفكار » ونشره فى فرانكفورت عام ١٥٩١ . والأرجح أن هذه هى الفترة التى كتب فيها برونو كتابه « فى السحر » وكتابه عن « حلقات السلسلة » .

ثم عاد جوردانو برونو الى ايطاليا فى اغسطس ١٥٩١ ليواجه سنوات

مديدة من السجن فى البندقية ثم محـــكمة التفتيش والاعـــدام حرقا فى روما عـــام ١٦٠٠ .

ولا احد يعرف بالضبط كيف القى جوردانو برونو بيديه الى التهلكة بهذه البساطة وكأنه رجل خلا تماما من كل احساس بالخطر . لعله كان يتوهم وهو حول الأربعين من عمره أن موعد رسالته قد حان وأنه عائد الى موطنه للتبشير بدينه الجديد . لقد كان طوال طوافه بفرنسا وانجلترا والمانيا يحلم بتأسيس دين عالمى يزيل حزازات التعصب بين البشر ويضع حـــدا للمذابح والحروب الدينية ، وكان هذا الدين العالمى عنده هو احياء الديانة المصرية القديمة فى مرحلة عناقها مع الفيثاغورية والأفلاطونية والأفلاطونيـــة الحديثة ، وهى ديانة « هرميز المثلث العظمات » ، ديانة (العارفين بالله) او المتصـــوفة من الغنوصيين المؤمنين بحلول الله فى الـــكون وبوحـــدة الوجـــود .

قيل بل كانت له مهمة سياسية موالية لفرنســـا بعد ان جلس على عرشها هنرى الرابع البروتســـتانتى عام ١٥٨٩ وهـــزم انصار الحـــلف الكاثوليكى عام ١٥٩٠ وتأهب لاقتحام باريس .

ايا كان الأمر فالذى حدث هو الآتى :

كان هناك وراق (كتبى) فى البندقية اسمه تشيوتو يعرف جوردانو برونو منذ التقى به فى سوق الكتاب فى مدينة فرانكفورت . وكان يتردد على هذا الوراق زبون اسمه زوان موتشينجو ، كان ينتمى لأسرة نبيلة عريقـــة فى البندقية ، وكان يشترى بعض كتب برونو من هـــذا الوراق . واعرب موتشينجو عن رغبته فى استضافة جوردانو برونو ليتعلم منه « اسرار الذاكرة » . وحمل الوراق هذه الدعوة الى برونو فى فرانكفورت فقبلهـــا ، وبالفعل وصل الى البندقية ونزل ضيفا على موتشينجو . ولكن برونو لم ينزل ضيفا على موتشينجو الا بعد شهور من عودته الى ايطاليا ، وقد اقام ثلاثة شهور فى بادوا قبل انتقاله الى البندقية فى مارس ١٥٩٢ . وحين انتقـــل الى البندقية عاش فى مسكن مستقل فترة ، وكان يتردد على الوراق وعلى المنتديات العلمية قبل انتقاله الى دار موتشينجو . وكل هذا يثبت أن دافع جوردانو برونو الى العودة الى ايطاليـــا لم يكن مجرد الاستجابة للدعوة التى تلقاها من موتشينجو .

كانت دعوة موتشينجو هى الفخ الذى نصب لجوردانو برونو . فقـــد كان موتشينجو يكتب التقارير بانتظام لسلطات التفتيش فى البندقيـــة بكل

ما يسمعه من جوردانو برونو اثناء اقامته فى داره نحو شهرين . وكان برونو يعد كتابا عن «الفنون الحرة السبعة» بنشاط محموم بغية طبعه فى فرانكفورت واهدائه الى البابا كليمنت الثامن عسى أن يكون بداية طيبة لاسترضاء البابا . ويبدو أن برونو قد بدأ يشتبه فى نوايا مضيفه فأعد العدة للسفر الى فرانكفورت ، ولكن موتشينجو منعه بالقوة من مغادرة داره بأن حبسه فى احدى غرف الدار ، ومنها نقل الى سجن محكمة التفتيش فى البندقية فى ٢٦ مايو ١٥٩٢ . وبقى فى السجن ثمانى سنوات حتى اعدامه .

وبعد أن فرغت محكمة التفتيش فى البندقية من استجواب جوردانو برونو تراجع عن كل ما كان يدعو اليه وأعلن توبته وطلب الرحمة من المحكمة . وبموجب القانون كان لابد من عرض قضيته على محكمة التفتيش فى روما حيث مركز البابوية .

وطالت المحاكمة . وفى ١٥٩٩ لخص قس جزويتى مشهور يدعى روبرتو بيللارمين نقاط الزندقة فى كتابات جوردانو برونو فى ثمانى قضايا ، وطلب الى برونو أن يتراجع عنها فأبدى استعداده لذلك . ولكنه بعد ذلك سحب كل تراجعاته وأصر على انه ليس فى كتاباته ولا فى اقواله أى شىء ينطوى على الزندقة ، واتهم كهنة الفاتيكان باساءة تأويل آرائه . فصدر عليه الحكم بالكفر ، وسلمته الكنيسة للسلطات المدنية لاعدامه ، فأحرق حيا فى ميدان كامبو دى فيورى فى ١٧ فبراير ١٦٠٠ .

● ● ●

٣

عاشق الله

□ هناك طريقتان يمكن أن نعرف بهما لماذا أعدم جوردانو برونو بتهمة الكفر أو الزندقة : احداهما ان ننظر فى أعماله لنعرف ماذا قال .. والأخرى أن ندرس ملف قضيته لنعرف التهم الموجهة اليه أو الثابتة عليه . وخير من هذه وتلك أن نلجأ الى الطريقتين معا .

لعل أهم ما قاله جوردانو برونو فى مؤلفاته وأهم ما نسب اليه من تهم فكرية هو قوله بنظرية وحدة الوجود أو نظرية الحلول ، أى حلول الله فى الكون أو العالم المادى والروحانى . وهذه النظرية تنتهى فى النهاية الى اعتبار الانسان هو « الميكروكوزم » أى « العالم الأصغر » ، واعتبار « الميكروكوزم » صورة مصغرة من « الماكروكوزم » أو « العالم الأكبر » . وقد عبر المتصوفة العرب عن ذلك بقولهم عن الانسان :

« وتحسب أنك جرم صغير
وفيك التقى العالم الأكبر »

وحين كان الحلاج يقول : « ما فى الجبة غير الله » ، انما كان يعبر عن الفلسفة الصوفية القائلة بان الله لا وجود له خارج الكون ، فهو الروح الأعظم المتجلى فى الكون وكل ما يحتويه .

وقد جرى العرف على اعتبار نظرية الحلول ووحدة الوجود خارج اطار الفكر الدينى القويم الذى يقوم على أن الله يتجاوز الكون وليس متوحدا معه ، فهو سابق للكون فى الوجود وهو العلة الأولى فى كينونة الكون بمعنى أنه خالق العالم وهو لامتناه فى الزمان وفى المكان وفى الصفات بينما الكون متناه فى الزمان والمكان والصفات ، وهكذا دواليك . وحين تخلى المتصوفة العرب عن نظرية « التجاوز » الذى يفترض بطبيعة الحال ازدواج الله والعالم ، والروح والمادة .. الخ .. وقالوا بنظرية « الحلول » أو « وحدة الوجود » لاقوا من العنف فى العالم الاسلامى ما لاقاه جوردانو برونو فى العالم المسيحى ، ومن لم ينته منهم نهاية حزينة عاش حياته مطاردا من السلطات الدينية والدنيوية .

وبوجه عام نستطيع ان نرد بدايات وحدة الوجود أو الحلول الى فلسفة افلوطين والأفلاطونية الحديثة التى كانت ذاتها تطويرا للفيثاغورية والأفلاطونية ، وهما فى ذاتهما تطوير لأساسيات المثالية فى الديانة المصرية القديمة التى تعلمها اليونان من المصريين وفلسفوها وحولوها الى مقولات تخضع للمنطق والجدلية .

وازدواجية المثل (جمع مثال) والظلال فى افلاطون أقوى منها فى تاسوع أفلوطين ، الذى يقول ان الله هو بمثابة نافورة النور فى المركز الذى يعشى ضياؤه الأبصار ، وكلما ابتعدت دوائر الوجود والموجودات عن المركز النورانى خامر الظلام النور اكثر فأكثر حتى نصل الى دائرة العالم المادى حيث كثافة المادة تكاد تحول دون ابصار نور الذات الالهية .

وبالرياضة الصوفية أو بالتأمل يقترب الحكماء من نافورة الضياء ويحاولون التوحد مع الذات الالهية . وهؤلاء هم العارفون بالله . هذا ما وصلت اليه مدرسة الاسكندرية فى تلك القرون الرهيبة التى فصلت ما بين وثنية القدماء والتوحيد المسيحى .

وقد حاول بعض فقهاء المسيحية الأوائل أن يوفقوا بين الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة من جهة وبين العقيدة المسيحية من جهة أخرى . فقد كانت الصفوة المثقفة تنظر الى المسيحية على أنها دين الموت والحياة الأخرى ولا تليق الا بالعبيد والبسطاء والمعذبين فى الأرض ، وعلى أنها ديانة معادية للثقافة والحضارة والفكر والفنون والآداب وكل نشاط دنيوى .. فاتجهت الصفوة المثقفة الى ابتكار عقائد توفق بين الأخلاق المسيحية وثقافة القدماء، وكان أهم هذه العقائد الرواقية والأفلاطونية المسيحية والغنوصية أو مذهب العارفين بالله .

والمشكلة فى مذهب الحلول ، وفى الاعتقاد بأن الله ليس خارج الكون ولكن داخله وملازم له ، هى أنه ينتهى بالاعتقاد بالوهية الانسان بالفعل أو بالقوة (أى بالامكان) ، وبالوهية الكون ، وهو ما مكن برونو من أن يتحدث عن « الله (أو) الطبيعة » . وهو يسمى الله « روح الأرواح » و « حياة الحيوات » و « جوهر الجواهر » ، ولكنه يرفض مبدأ الخلق من العدم ، ويذهب الى أن الذات الالهية تتجلى بذاتها فى الكون وكائناته ، أو كما يقول فى « عشاء أربعاء الرماد » : « ونحن نقرر المبدأ القائل بعدم البحث عن الالوهية بعيدا عنا . لأننا نملكها بالقرب منا ، بل نملكها فى داخلنا » . وهو فى « الكائن الأعظم : اللامعدود واللا محدود » يذكرنا بأن هرميز المثلث العظمات وصف الانسان بأنه « المعجزة الكبرى » ، ولأن أصل الانسان الهى ففى

استطاعته أن يعود الها كما كان . وهــذا جوهر الروح الفاوســتية التى تفشت فى عصر الرنيسانس فلم يقف الأمر عند استرداد كرامة الانسان ومجد الانسان ، بل تجاوز ذلك الى تأله الانسان . وكان هذا الموضــوع من اهم الموضوعات التى تناولها ادب الرنيسانس تناولا مأسويا .

كان جوردانو برونو يلقب نفسه فى محاوراته باسم « فيلوتيو » أو « تيوفيلو » بمعنى « عاشق الله » . وهذا يدل على انه لم يكن ينظــر الى نفسه على انه ملحد ، بل كان مثل عامة المتصوفة يحاول أن يصل الى ذات الله أو يتواصل معها « بالعشق الالهى » كما يقول المتصــوفة . وحين شرح فى « عشاء اربعاء الرماد » نظرية كوبرنيك فى دوران الأرض والأفــلاك ، أضاف اليها من عنده شيئين لم يردا فى كوبرنيك وهما أولا أن الأفلاك تدور بقوة الحب الالهى . وثانيا أن الكون لانهائى فى الزمان والمكان وليس محدودا كما جاء فى فلسفة أرسطو أو فلك بطليموس الجغرافى أو فى تصور فقهــاء الدين المسيحى الكاثوليكى فى ذلك الزمان : فالأرض عند برونو ليست مركز الكون ولكنها فى ركن مهمل منه ، وروح الله هى التى تدفع الأجرام السماوية فى حركتها الدائبة والكون اللانهائى أجدر بعظمة الله من الكون المحدود . وقد كانت الكنيسة والعرف العام والعلم المتوارث عن القدماء قبل كوبرنيك تقول كلها بان الأرض ثابتة فى مركز الكون وبان الشمس هى التى تدور حول الأرض ، وكانت تحكم بالكفر على من يقول غير ذلك .

أما مصطلحات الصوفية ، مثل « العشق الالهى » ، فقــد بدأت تعرف بين المثقفين الأوربيين منذ أن ترجم فيتشينو « تواسيع » أو « تاسوعات » افلوطين ، ونصوص « هرميز المثلث العظمات » قبل برونو بنحــو قــرن ونصف قرن . وقد عرفت المسيحية الكاثوليكية مبدأ « الحب الالهى » ولكنه كان شيئا مختلفا عن « العشق الالهى » ، لأن « الحب الالهى » هو حب الله للبشر (« هكذا أحب الله العالم .. الخ ») أما « العشــق الالهى » فهو عشق البشر لله كما نعرف من كتابات الصوفية وأشعارهم .

لهذا نجد أن جوردانو برونو ببناء فلسفته على الهرمزية أو الغنوصية كان يفكر خارج الاطار المسيحى التقليدى ، وقيل انه يوم احراقه عرض عليه الصليب ليقبله ، على عادة الكاثوليك اذا حضرتهم الوفاة ، فأشــاح عنــه بوجهه . لقد تحولت العقيدة المسيحية فى وجدانه الى مجموعة من الرموز الفلسفية التى لا تتمشى مع الفكر الدينى التقليدى .

قال برونو لمحكمة التفتيش فى البندقية ان الكون لا نهائى لأن القــوة الالهية التى خلقته لا نهائية ، واللا محدود لا يخلق وكما قال فيثــاغورس

الارض كوكب كالقمر ، وبقية الكواكب والعوالم الأخرى نجوم بلا عـــدد . وفي هذا الكون اللانهائى عناية الهية تجعل كل شيء يحيا ويتحرك ، وهـــذه الطبيعة الكونية ظل للالوهية أو لله الذى لا يمكن ادراكه أو تفسيره .

أما صفات الالوهية فهو يتفق فيها مع فقهاء الدين واقطاب الفلاسفة ، وهى القوة والحكمة والخير ، وهذه الصفات مرادفة للذهن والعقل والحب . وهذه تقابل فى اللاهوت « الآب والابن والروح القدس » ، كما يقول جوردانو برونو . فالحكمة هى بنت الذهن ، وهى ما يسميه فقهاء اللاهوت « الكلمة » ويسميه الفلاسفة « العقل » ، أما « الحب » فهو مرادف لمـــا كان القدماء يسمونه « روح العالم » .

• ويقرر جوردانو برونو أمام محكمة التفتيش فى البندقية أن رأيه فى « الآب » أو « الذهن » يتمشى مـــع المذهب الـــكاثوليكى ، وأن رأيه فى « الروح القدس » أو « روح العالم » أو « الحب » يتفق مع آراء الكثيرين من فلاسفة الأفلوطينية المسيحية . ولكن المشكلة عنده هى أنه لا يستطيع أن يقتنع تماما بما يقوله اللاهوت المسيحى من أن « الابن » أو « الكلمة » تجسد فى اللحم أو فى شخص انسانى . وهو لهذا يفضل العودة الى الديانة المصرية الهرمزية فيما يتصل بتصورها « لابن الله » ، وهـــذه عند برونو لا تمثل الارهاصات الأولى للديانة المسيحية كما كان يقول علماء اللاهوت ولاكتانس ، بل تمثل الديانة الصادقة .

وقد شهد أحد السجناء مع جـــوردانو برونو أنه سمعه يقـــول ان « الصليب فى حقيقته رمز مقدس عند قدماء المصريين ، وان الصليب الذى صلب عليه المسيح شيء مغاير للصليب الذى نراه على المذبح فى الكنائس ، فهذا الذى نراه هو فى حقيقته الصليب المنحوت أو المنقوش على صدر الربة ايزيس فى مصر القديمة ، ولكن المسيحيين « سرقوه » من المصريين .. » وحين سألت محكمة التفتيش جوردانو برونو فى ذلك أيد هذا القـــــول ، وقال : « أظن أنى قرأت فى مارسيليو فيتشينو أن فضيلة هذه العـــــلامة وقداستها (يقصد الصليب) اقدم بكثير من زمن تجسد المسيح ، وانهـــا كانت معروفة فى زمن ازدهار الديانة المصرية نحو زمن موسى ، وان هـــذه العلامة كانت تربط على صدر سرابيس (أوزيريس ابيس) » .

وقد كان جوردانو برونو صادقا فيما ذكر لأن هذا الكلام وارد بالفعل فى كتاب فيتشينو « مقارنة الحياة بالسماء » . غير أن فيتشينو لم يقـــل ان المسيحيين « سرقوا » علامة الصليب من قدماء المصريين وانمـــا قال ان الصليب المصرى القديم كان بمثابة تنبؤ بمجيء المسيح .

والصليب المصرى القديم الذى يتحدث عنه جوردانو برونو هو علامة « العنخ » أو « مفتاح الحياة » كما يسمونه . ونحن الآن لا نجد موضعا للتكفير فى هذا الكلام وانما نجد فيه مجرد سوء أدب من جوردانو برونو ، أو ربما حماسة فى غير موضعها . فنحن لا نقول ان المسيحيين « سرقوا » علامة الصليب من علامة « العنخ » أو « مفتاح الحياة » ، وانما نقول ان علامة « الصليب » تطورت من علامة « العنخ » ، على الأقل فى مصر ، كما اثبت علماء الآثار بما بقى من نقوش وصور باقية من القرون الأولى لدخول المسيحية فى مصر .

فمن يزور المتحف القبطى يرى من آثار مصر المسيحية ، على الأقل خلال القرون الأربعة الاولى بعد الميلاد ، أن المصريين حين اعتنقوا الدين المسيحى لم يعرفوا فى بادىء الأمر الصليب برسمه المسيحى المعروف الآن ، وانما كان صليبهم هو علامة العنخ أو مفتاح الحياة كما نرى فى النقوش والصور المحفوظة فى المتحف القبطى ، ودرجة درجة وضعوا الصليب المألوف داخل راس العنخ ، أى داخل « الخية » العليا ، ثم درجة درجة رسموا الصليب المألوف حول أضلاع العنخ ، واخيرا اختفى العنخ تماما وحلت محله صورة الصليب المألوف .

فجمود الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك العصر وخوفها من كل جديد جعلها اذن تجرم هذه الحقيقة الثابتة فى تاريخ الأديان ، وهى أن المصريين قدسوا العنخ أو مفتاح الحياة قبل أن يقدسوا الصليب بعد دخولهم المسيحية فيما يسمى العصر القبطى ، وأن الصليب ، على الأقل فى مصر صورة متطورة من العنخ أو مفتاح الحياة .

وبالمثل فان جمود الكنيسة فى ذلك العصر وخوفها من كل جديد هو الذى دفعها اذن لتحريم نظرية كوبرنيك فى دوران الأرض وكواكب المجموعة الشمسيةحول محورها وحول الشمس ، ومن بعد كوبرنيك قوانين كبلر (١٥٧١ — ١٦٣٠)، وأهمها أن مدارات الكواكب حول الشمس بيضاوية (١٦٠٩) وليست دائرية وأن مربع زمن دوران الكواكب يتناسب مع مكعب المحور الأكبر للمدار (١٦١٩) ، وقوانين جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) فى الأجسام الساقطة وفى الحركة وفى القصور الذاتى ، واثباته لقوانين كوبرنيك « الكافرة » فى اثبات دوران الأرض والمجموعة الشمسية حول الشمس (١٦٣٢) .. وقد كانت الكنيسة تكتفى فى معارفها الفلكية بنصوص سفر التكوين وغيره فى الكتاب المقدس وبعلم الفلك كما ورثته عن أرسطو وعن بطليموس الجغرافى .

ss

كل هذه القوانين والنظريات الفلكية التى أصبحت فى العالم الحديث من بديهيات العلم كانت فى مخاض ولادة الحضارة الحديثة من حضارة العصور الوسطى تهما بالكفر تزج بأصحابها فى غياهب السجون وتنتهى بهم الى الاعدام بعد الحرمان الكنسى . وقد ظلت نظرية كوبرنيك فى الفلك مجرد معادلات رياضية استغلقت على رجال الدين حتى فجر جوردانو برونو مغزاها اولا بشرح معنى هذه المعادلات ثم بما استخرجه منها من نظريات بلانهائية الكون وبأن وراء عالمنا الفلكى عوالم وعوالم بلا عدد ولا حدود ، بما زعزع الاعتقاد الدينى فى أوربا بأن الأرض هى مركز الكون وبأن الانسان هو القصد من الخليقة .

بل ان جوردانو برونو ذهب فى تخريجاته الى أن هناك عوالم ماهولة غير عالمنا ، وان الكون اللانهائى يتصف بالالوهية لأن « روح العالم » التى تحرك كل شىء وتنبت كل شىء وتجدد كل شىء وترقى كل شىء ليست الا « الروح القدس » أو روح الله الحالة فى كل موجودات الوجود . الله والعالم عند جوردانو برونو هوية واحدة بعلةوحدة الوجود أو ما يسميه الفلاسفة « المونزم » .

وهنا يدخل جوردانو برونو دائرة المحظورات لانه ينتهى الى القول بالوهية الانسان ، ذلك القول الذى اودى بكثيرين من المتصوفة الى التهلكة ، وهو الذى جعل الحلاج يقول : « لو ان ذرة من قلبى سقطت على الجحيم لأطفاته ، ولو أن ذرة من قلبى سقطت على الجنة لأنارتها » . والوهية الانسان ليست الوهية بالفعل ولكن الوهية بالقوة ، اى بالامكان ، بحسب درجة قربه او بعده من الفيض النورانى النابع من نافورة الضياء الالهى . وبغية الحكماء ينبغى ان تكون تكثيف هذا الفيض النورانى فى أنفسهم حتى يقتربوا من التوحد مع ذات الله .

هذا التوحد لا يتم « بالذكر » ولكن « بالتذكر » أو باسترجاع ذكريات وجودنا النورانى الكامل قبل ان نبعد عن مركز الضياء . وهذا معنى دراسات جوردانو برونو العديدة فى « فن التذكر » . وهى دراسات خامرها الكثير من دراسة « السحر » ، « السحر الطبيعى » لا سحر السحرة والمشعوذين . والسحر عند جوردانو برونو هو السيطرة على الكون بفض مغاليق الكون وتسخير الطبيعة باستكناه اسرار الطبيعة ، المعرفة او الحكمة هى السحر الأبيض ، وهو للخير ، اما سحر السحرة فهو السحر الأسود ، وهو للشر .

اما وقد ضاع ملف قضية جوردانو برونو فلم يبق امامنا الا « موجز محاكمة جوردانو برونو » الذى وجده الكاردينال انجلو مركاتى عام ١٩٤٢

فى الأرشيف الخاص بالبابا بيوس التاسع (البابا من ١٨٤٦ الى ١٨٧٨) ، ومما جاء فى هذا الموجز أن برونو أدين لقوله فى كتاباته ان لانهائية الله (فى الأزلية والأبدية والطبيعة) تتضمن لانهائية الكون ، وبسبب آرائه فى طريقة خلق روح الانسان ، ولقوله بدوران الأرض ، ولقوله ان النجوم ملائكة ، ولقوله بأن فى الأرض روحا حساسة وعاقلة ، ولقوله بان فى الكون عوالم متعددة .

وفى شهادة رجل يدعى جاسبار شوبيو كان حاضرا اثناء اعدام برونو، ولعله سمع الاتهام والحكم يتلى امامه ، أن برونو ادين لأنه قال ان فى الكون عوالم بلا عدد ، وان السحر شىء نافع ومشروع ، وان « الروح القدس » هو « روح العالم » ، وان موسى كان ساحرا يصنع المعجزات بسحره وان سحره غلب سحر سحرة فرعون لانه كان اكفأ منهم ، وان المسيح كان ساحرا . ونحن لا نعرف ان كانت هذه القائمة تمثل التهم التى لفقتها له محكمة التفتيش فى روما أم انها من صلب اقراراته التى رفض فى النهاية أن يسحبها او يتراجع عنها . وعلى كل فالقضية كلها يحوطها الغموض لأن « الموجز » يذكر راى برونو فى أن الصليب مصرى فى المنشأ استنادا الى اقوال احد السجناء الذين سمعوا برونو يقول هذا الكلام . وهذا معناه أن محكمة التفتيش كانت تبنى احكامها على الدليل النقلى او على شهادة الجواسيس .

ولكن اذا جاز لنا ان نبنى على ما نعرفه عن محاكمة جوردانو برونو فى البندقية ، فقد كانت التهمتان الرئيسيتان الموجهتان الى برونو هما : انه اولا كان يريد أن يؤسس دينا عالميا جديدا يضع حدا للتعصب والتقاتل الدينى بين البشر ، وانه ثانيا كان على صلة بهنرى الرابع ملك نافار البروتستانتى الذى تحول الى الكاثوليكية ليصبح ملك فرنسا ، وأنه كان يأمل منه أن يقوم باصلاح الكنيسة وبأن يجعله « كابيتانو » ، أى يجعله « رئيسا » .

فقد ذكر الكتبى تشيوتو أن رئيس دير الكرمل الذى كان يقيم فيه برونو اثناء إقامته فى فرانكفورت ابلغه « ان برونو كان دائما مشغولا بالكتابة وبالأحلام والتنبؤات بأشياء جديدة ، وانه كان يقول إنه يعرف أكثر مما كان يعرفه حواريو المسيح ، وان فى استطاعته لو اراد ان يجعل كل العالم يتبع دينا واحدا » .

اما تقرير مضيفه موتشينجو فى ١٢ مايو ١٥٩٢ الذى ابلغ عنه سلطات البندقية فقد ورد فيه أن برونو قال له :

« ان المنهج الذى تستخدمه الكنيسة اليوم ليس المنهج الذى استخدمه الرسل ، لأن الرسل حولوا عقيدة الناس بالوعظ وبالقدوة الحسنة فى حياتهم . اما الآن فكل من أراد أن يخرج على الكاثوليكية فلابد له من تحمل القصاص والآلام . فالكنيسة الآن تستعمل العنف فى الاقناع ولا تستعمل المحبة. والعالم لا يمكن أن يستمر على هذا النحو ، فليس فيه سوى الجهل ولا صلاح فى أى مذهب دينى . كذلك قال ان العقيدة الكاثوليكية أحب الى نفسه من أية عقيدة أخرى ، ولكن هذه العقيدة بحاجة أيضا الى اصلاح كبير .. فهى فاسدة فى وضعها الحالى ، ولكن العالم سوف يشهد عما قريب اصلاحا شاملا ، فمن المحال استمرار هذا الفساد . وهو يعلق آمالا كبارا على ملك نافار (هنرى الرابع) ، ولهذا فهو ينوى الاسراع بنشر كتبه لكى ينال بها الحظوة . فحين يجىء الحين فهو يحب أن يصبح كابيتانو (أى رئيسا) وان فقره لن يدوم لأنه سوف ينعم بثروات الغير » .

ومن المحتمل أن يكون برونو قد قال لمضيفه جوهر هذا الكلام ولكن مضيفه بنى عليه تخريجاته الشخصية ، فمن المستبعد أن يكون برونو من الغفلة بحيث يصرح بأنه سينهب أموال الآخرين حين يصبح « كابيتانو » . وعلى كل فقد انكر جوردانو برونو أنه يعرف هنرى الرابع أو التقى به أو بأحد وزرائه . ولكنه نفى عنه « الزندقة البروتستانتية » ونسبها الى ضرورات الحكم فى أن يساير معتقدات شعبه من أهل نافار . أما عن المنافع الخاصة التى كان يرجوها فقد ذكر برونو أنها لا تتجاوز أن يتيح له هنرى الرابع ما أتاحه له هنرى الثالث من التدريس فى الجامعة والقاء المحاضرات العامة .

ولا يسع أى دارس لسيرة جوردانو برونو الا أن يحس بأن الخلفية السياسية كانت هى العامل الفاصل فى نهايته التراجيدية أكثر من الخلافات الفكرية والفلسفية ، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية فى أيامه تعيش فى ذعر من تصاعد أعمال العنف ضد الكاثوليك فى الدول البروتستانتية ومن تفسخ سلطان الكنيسة « الجامعة » وازدهار الكنائس القومية بازدهار الروح القومية فى كل مكان .

● ● ●

ss

٤

العارف بالله

□ « سوف يأتى زمان يستبين فيه أن تمجيد المصريين للذات الالهية بنقوى الفكر وبالمواظبة على الشعائر قد ضاع هباء منثورا . فسوف تصبح عبادتهم المقدسة بلا جدوى .. وسوف تغادر الآلهة الأرض وتعود الى السماء . ولسوف تهجر الآلهة مصر .. هذه الأرض التى كانت فى الماضى وطن الدين سوف تحرم من آلهتها وتعيش فى عوز . سوف يملأ الأجانب هذه البلاد . ولن يقف الأمر عند حد اهمال الشعائر الدينية ، ولكن سيحدث ما هو أنكى .. وهو أن يفرض على الناس بقوة القوانين المزعومة وتحت رهبة العقوبات أن يحجم الجميع عن أعمال التقوى وعن عبادة الآلهة ، وعندئذ سوف تغطى هذه الأرض المقدسة ، موطن المعابد والمحاريب .. بالقبور وبجثث الموتى . آه يا مصر .. يا مصر .. لن يبقى من ديانتك الا الأساطير ، لأن بنيك لن يصدقوا مستقبلا معتقداتك . لن يبقى فيك الا كلمات منقوشة على الحجر لتتحدث عن أعمالك التقية . سيأتى القوقازى أو الهندى أو غيرهما من جيرانك المتبربرين ويستوطنون فى مصر . هيا انظروا ! ان الالوهية تصعد الى السماء ، وهى تتخلى عن الناس فيموتون جميعا . وحين تخلو مصر من الآلهة ومن الناس سوف تصبح مجرد صحراء جرداء .

« وفيم البكاء يا أسكليب ؟ لسوف تتعرض مصر لأشياء أشد بشاعة من هذا .. فسوف تلوثها جرائم أخطر وأنكى . فهى حتى اليوم لا تزال أقدس مكان . وهى تتفانى فى حب الآلهة ، وهى فى الأرض البلد الأوحد الذى اختارته الآلهة موطنا لها لقاء تفانيها فى حبها ، وهى التى علمت البشر القداسة والتقوى . مصر هذه سوف تصبح مضرب المثل فى ابشع الوان القسوة وعندئذ لن يجد الناس أن للحياة قيمة تستحق الاعجاب أو الاحترام . فهذا (الكل) ، وهو الخير ، خير ما يرى فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل .. سوف يتهدده الضياع ، وسوف يعتبره الناس عبئا ثقيلا عليهم ، ومن بعد ذلك سوف يزدرون هذا الكون فى كليته . وهو الابداع الالهى الذى لا نظير له .. ولن يحملوا اى حب لهذا البناء المجيد .. لهذه الخليقة العظيمة المؤلفة من اشكال مختلفة بلا نهاية . هى ارادة الله الذى يسبغ نعمه على كل ما خلق دون أن يغار من خليقته التى اجتمعت فى كل

واحد يقوم على الاختلاف المنسجم وعلى كل ما نراه جديرا بالاحترام والحب والثناء .. عندئذ سوف يفضل الناس الظلام على النور ويؤثرون الموت على الحياة . ولن يرفع احد بصره صوب السماء . عندئذ سوف يعتبر الفاضل مجنونا والسافل عاقلا . وسوف يظن المنهوس شجاعا ويعد أخطر المجرمين رجلا صالحا . عندئذ سوف يسخر الناس من الروح وكل ما يتصل بها من معتقدات بخلود الروح بحكم طبيعتها أو بقدرة الروح على اكتساب الخلود كما علمتك . سوف يظن الناس كل هذا مجرد هراء . وصدقنى حين أقول لك ان الايمان بدين العقل سوف يعد جريمة عظمى فى نظر القانون . وسوف يستجد نظام جديد للعدالة وتسن لها قوانين جديدة . ولن يتحدث أحد فى شىء مقدس أو قائم على التقوى أو خليق بالسماء أو بالآلهة التى تسكن السماء ، ولن يصدق أحد بوجود الروح .

« وسوف تنفصل الآلهة عن بنى البشر . ويا بئس هذا الانفصال . ولن يبقى الا ملائكة الشر وهم أصل الشقاء الذين سوف يختلطون بالناس ويدفعونهم قسرا الى الاسراف فى كل اجتراء على الاجرام .. فيورطونهم فى الحروب وفى اللصوصية وفى أعمال الغش وفى كل ما هو مناف لطبيعة الروح . عندئذ سوف يختل ميزان الأرض ويصبح البحر مهلكة للملاحين وتأفل أكثر النجوم . وتتوقف النجوم عن مسارها فى السماء . وسوف يسكت الناس كل صوت الهى فيصمت . وسوف تذوى خيرات الأرض وتفقد التربة خصبها ويثقل الهواء بركود دامس .

« هذه سوف تكون شيخوخة العالم : ضياع الدين ، والفوضى ، واضطراب كل الخيرات . وحين يقع كل ذلك .. اى اسكليب .. أيتها الكلمة الكاملة .. فان المولى والأب ، الاله الأقوى ، الاله الواحد الخالق بعد أن يتدبر هذه الفعال وهذه الجرائم الاختيارية ، سوف يعمل بارادته الالهية على سد السبيل الى الرذائل والى الفساد الشامل وعلى تصحيح كل هذه الأخطاء ، بأن يمحق كل الشرور اما باغراقها فى طوفان واما باحراقها بالنار واما بتدميرها بالأوبئة التى ينشرها فى كل مكان . عندئذ سوف يعيد العالم الى بهائه الأول ، حتى يعود العالم كما كان جديرا بالاحترام والاعجاب ، وحتى يمجد الناس الله خالق هذا الكون العظيم ومجدده . وعندئذ يعيش الناس فى تسبيح دائم وبركات لا تنقطع . هكذا سيكون الميلاد الجديد للعالم متمثلا فى تجديد كل الخيرات . واعادة تقديسية جادة للطبيعة الى ما كانت عليه بقوة تفرضها ارادة الله عندما يأتى الأوان » . «اسكليب»، أو « الكلمة الكاملة » ، عن ترجمة فرانسس بيتس لترجمة فيتشينو فى ١٤٦٣ لنصوص « هرميز المثلث العظمات » بعنوان « بيماندر » والمنشورة عام ١٤٧١ .

هذه كانت فكرة العارفين بالله فى مدرسة الاسكندرية عن نهاية مصر القديمة وعن نهاية العالم بصفة عامة ، وهى شبيهة بفكرة أديان التوحيد عن قيام الساعة . والنصوص الباقية من كتاب الهرامزة المقدس تنتمى الى القرون الأولى القليلة بعد الميلاد . وهى القرون العصيبة التى عاصرت ذلك الصراع الرهيب بين الوثنية والتوحيد فى العالم القديم ، ولذا فان نصوص العارفين بالله تحمل آثارا من تعدد الآلهة . وهى بمثابة زواج بين الديانة المصرية القديمة والديانة اليونانية القديمة ، ولكن على مستوى فلسفة الصفوة ولاهوتها وليس على مستوى بسطاء الناس .

هذه هى « الديانة المصرية » التى دعا جوردانو برونو الى احلالها محل الديانة المسيحية فى أواخر القرن السادس عشر . فاستنزل على نفسه غضب الكنيسة وانتهى أمره الى المحرقة بعد أن عدل عن توبته عن هذه الزندقة .

وقد خفف من وثنية ديانة هرميز أو ديانة العارفين بالله أن الآلهة تحولت فيها الى بشر من أشباه الأنبياء والرسل . وأكثر المحاورات فيها تدور بين هرميز المثلث العظمات وأسكليب وتوت أو تحوت وهامون .. الذى يبدو أنه بقية من أمون وايزيس وحوريس ومومويس .. الخ .هؤلاء يلتقون فى معبد من المعابد المصرية التى لا يدخلها الا الحكماء ويدور بينهم الحوار حول الله والعالم والانسان .. وحول الروح والمادة .. الخ .. وهناك « العقل » يتحدث الى هرميز قائلا ان الكون كله انعكاس فى « العقل » .. قال « العقل » لهرميز المثلث العظمات :

« تأمل الكون من خلالى وانظر الى بهائه .. انظر الى تدرج السموات السبع والى نظامها ، تر كل شىء ممتلئا بالنور .. وانظر الى الأرض مستقرة وسط (الكل) ، وهى المرضع التى تغذى كل مخلوقات الأرض . (الكل) مفعم بالروح . وكل الكائنات فى حركة. من خلق هذه الأشياء ..انه الاله الواحد .. لأن الله واحد . وانت ترى أن العالم دائما واحد : الشمس واحدة والقمر واحد والنشاط الالهى واحد . وكذلك فان الله واحد .. وبما أن كل شىء حى والحياة واحدة فان الله دون شك واحد ، وكل شىء يخلق بفعل . والموت ليس تدميرا للعناصر المجتمعة فى الجسم ، ولكنه مجرد تفكيك لاتحادها . وهذا التغيير يسمى الموت لأن الجسم ينحل ، ولكنى أعلن عليك ، أيها العزيز هرميز ، أن الكائنات التى تتحلل على هذا النحو لا تنتهى ولكن تتحول .

« كل ما هو موجود موجود فى الله .. لا بمعنى أنه موضوع فى موضع ، لأن الكائنات ليست موضوعة على هذا النحو فى ملكة التمثيل اللاتجسيدى . ولتحكم بهذا من تجربتك الخاصة : مر روحك أن تنطلق الى الهند أو أن تعبر المحيط .. ولسوف يحدث هذا فى لمح البصر . مرها أن تطير الى السماء ولن تحتاج روحك الى أجنحة لتفعل ذلك ، ولن يعوقها شيء عن ذلك . ولو شئت ان تخترق قبة الكون وتتأمل ما وراءها — ان كان وراءها شيء — فلن يمنعك شيء من ذلك .

« تأمل مدى ما تملك من قوة ومدى ما تملك من سرعة . وقس على هذا تصورك لله . فهو الكل فى الكل : هو كل ما هو موجود . وهو يحتوى داخل ذاته ، كما يحتوى الفكر .. على العالم وعلى ذاته وعلى (الكل) . وبناء عليه فلن تستطيع ان تفهم الله الا اذا جعلت من نفسك كفئا لله ، فلن يدرك النظير الا النظير . اجعل ذاتك تتعاظم بلا حدود . وحرر ذاتك بوثبة من الجسد . ارفع ذاتك فوق كل زمان وكن سرمديا . وعندئذ سوف تفهم الله . أعتقد بأنه لا شيء يستحيل عليك . وتصور ذاتك خالدا وقادرا على فهم كل شيء ، كل الفنون وكل العلوم وطبيعة كل كائن حى . اصعد أعلى من أعلى عليين . وأنزل أسفل من أسفل سافلين . امتص فى داخل نفسك كل أحاسيس كافة المخلوقات ، النار والماء والجفاف والرطوبة . متصورا أنك فى كل مكان : على الأرض وفى البحر وفى السماء . وأنك لم تولد بعد . وانك لا تزال فى رحم أمك . وأنك يافع وشيخ . وأنك ميت وفيما بعد الموت . فلو استطعت أن تضم داخل فكرك دفعة واحدة كل الأشياء والأزمنة والأمكنة والماهيات والصفات والكميات ، أمكنك أن تفهم الله .

« فلا تقل اذن ان الله غير مرئى .. لا تقل ذلك فليس هناك ما هو أشد ظهورا من الله . فهو قد خلق كل شيء حتى يمكنك أن ترى هذا الكل من خلال الكائنات . فهذه قدرة الله المعجزة . أن يظهر نفسه من خلال جميع الكائنات .. فليس فى الوجود شيء غير مرئى . حتى الكائنات غير الجسدانية ظاهرة الوجود . العقل يظهر نفسه بالتفكير والله يظهر ذاته بالخلق » . (« نصوص هرميز المثلث العظمات ») .

من السهل علينا بعد قراءة هذا النص وأمثاله فى النصوص الهرمزية أن نفهم سبب انزعاج أديان التوحيد من هذه الديانة المصرية القديمة التى قد تلتقى بأديان التوحيد فى قولها ان الله واحد وانه ليس كمثله شيء وانه يظهر أو يتجلى فى خليقته (الكون .. العالم .. الانسان .. الخ) ، ولكنها تختلف عن أديان التوحيد من حيث أنها تقول ان فكر الحكماء العارفين بالله

يمكن أن يستوعب الذات الالهية بقدرات الانسان اللانهائية فى الفكر والمعرفة والتوحيد مع ذات الله بالتأله .

وهذا فى حقيقته لا يخرج عن كونه التعبير الفلسفى عن الشخصية الفاوستية المتمثلة فى تأله الانسان ومحاولته بالرياضة الروحية أو العقلية أن يتوحد مع ذات الله ، وهى شخصية كانت شائعة بين الأوربيين ربما الى حد النمطية فى عصر الرنيسانس ، وربما كانت فى مجملها متمثلة فى حضارة العصر الحديث منذ حركة الرنيسانس حتى اليوم .

ولا شك أن أديان التوحيد متفقة على ان الله خلق الانسان على صورته وأن روح الانسان قبس من روح الله ، ولكنها لا تتطاول الى حد الزعم بأن الجزء يمكن أن يستوعب الكل أو أن يكافئه أو يضاهيه أو أن يطابقه فى الهوية ولو بالامكان .

وبمنطق العارفين بالله نقرا قول هرميز فى « نصوص الغنوصيين » :

« وبناء عليه ، أى اسكليب ، الانسان هو (المعجزة الكبرى) ، وهو كائن خليق بالاحترام والتكريم ، لانه يرقى الى شخصية اله وكأنه بالفعل اله ، وهو يألف معاشرة الجن لانه يعلم أن اصله وأصلهم واحد . وهو يحتقر ذلك الجانب من طبيعته المحدودة ببشريته لانه يطمع فى الوهية جانبه الآخر .

« والانسان يتحد بالآلهة بموجب ما فيه من جانب الهى وهو عقله . أما كل المخلوقات الأخرى فهى مرتبطة بالانسان بموجب المخطط السماوى وهو يربطها به بعرى الحب . وهذا الاتحاد الذى يقوم بين الآلهة والبشر ليس مفتوحا لكل الناس ، وانما هو مقصور على أولئك الذين يتمتعون بملكة العقل .. وبهذا يكون الانسان هو الوحيد بين المخلوقات المزدوجة الطبيعة، فجزء منه يشبه الله ، والجزء الآخر مكون من العناصر » .

وجوهر هذا الكلام أن مدرسة العارفين بالله كانت تؤمن بنوع من الارستقراطية الروحية حيث معرفة الله والاتحاد بالله مقصوران على الحكماء أو الصفوة المثقفة ، اما الجهال والطبقات الدنيا الناقصة فى العقل فهى عاجزة عن معرفة الله . وهذا ما جعل الغنوصية أو الهرمزية دين السادة والمثقفين ، يتعالى على المسيحية المنافسة ايام نشأتها بوصفها دين الرعاع وبسطاء العقول . وهذا طبيعى فى أية ديانة فلسفية نابعة من الأفلاطونية الحديثة . وتعتمد على نظرية الفيض الالهى النابع من نافورة الضياء

فى قلب الوجود او عقله لينير الكون وكائناته بالنور الداخلى ، بما يجعل نصيب الصفوة من القبس الالهى اضعاف اضعاف نصيب بسطاء الناس .

كذلك نستطيع أن نفهم انزعاج الكنيسة من نظرية برونو القائلة بلانهائية الكون أو العالم ، لأن اللانهائية صفة لا تطلق فى أديان التوحيد الا على الله ، ولأن خلق الله للعالم يجعل الكون حادثا لا قديما ويجعل الكون محدودا فى الزمان والمكان . وما كان محدودا له بداية ونهاية . فالقول بلانهائية العالم هو المرادف عند برونو لما كان يعرف عند بعض فلاسفة العرب «بقدم العالم» وهو رأى الدهريين ، وهو ينقض وصف أرسطو واتباعه لله بأنه « العلة الأولى » . . و « المحرك الأول » . فالخلق اذن عند برونو ليس فعلا حدث فى زمن ما داخل مكان ما ولكنه حالة أزلية أبدية ولا متناهية فى المكان . وتفسيره عند برونو هو وحدة الوجود أو وحدة الله والعالم .

الله عنده نور العالم ، والعالم عنده ظل النور ، أو النور الذى تخامره درجات من الظلمة بمقدار ما يبتعد عن نافورة الضياء وفقا لتاسوعات أفلوطين .

هذه هى الحرب العوان التى اعلنها جوردانو برونو على أرسطو والارسطاطاليسية ، وعلى أساتذة جامعة أكسفورد والسوربون وعلى علماء اللاهوت من المدرسة الاسكولائية ، اتباع أرسطو . ومنذ كتابه الأول « ظلال المثل » أو « ظلال الأفكار » (١٥٨٢) كان واضحا أن برونو كان يبحث عن « المثل » الأفلاطونية و «الذكريات» الأفلاطونية التى يولد بها الانسان ويقضى حياته محاولا استرجاع حقائق حياته التى كان يعيش بها فى عالم المثل قبل مولده ، أى قبل أن يدخل عالم الظلال .

كان واضحا منذ الكتاب الأول أن جوردانو برونو الذى استتر تحت اسم شخصية « فيلوثيوس » ، أى « عاشق الله » انما كان يطرح التفسير الأفلاطونى للوجود وللحياة ، فى مواجهة شخصية « لوجيفر » ، أى « حامل المنطق » . . وهذا ليس الا ارسطو أبو المنطق ، وحوارهما يدور مع « هرميز » (تحوت) معلم الحكمة لجماعة « العارفين بالله » . ونفس الأمر بالنسبة لكتابه الثانى « نشيد الساحرة كيركيه » .

وفى كتب جوردانو برونو التى أصدرها فى انجلترا وأهمها : « طرد الوحش المنتصر » (١٥٨٤) ، و « عشاء أربعاء الرماد » (١٥٨٤) ، يتفجر تمجيد

برونو لديانة قدماء المصريين من جهة ، وتتفجر دعوة برونو لفلسفة الحلول أو وحدة الوجود من جهة اخرى .

ففى كتاب « طرد الوحش المنتصر » يبحث برونو أمر حرب العقائد الدينية والأوضاع الاجتماعية والسياسية وعلاقة الفرد بالدولة . ويقول ان الناس فى حاجة الى الدين لكى يسلس قيادها ، والعاقل من يقبل عادات البلد الذى يقيم فيه .. ولكن فى الوقت نفسه لابد من التسامح ومن حرية التعبير . والوحش المنتصر عند برونو هو ارسطو وعبيده من أساتذة المنطق الصورى وفقهاء اللاهوت المسيحى الذين جمدوا الفكر الدينى المسيحى بعقلانية المعلم الأول وبتعاليمه . والحل عنده هو العودة الى الديانة المصرية القديمة .

وفى هذه المحاورات يحمل برونو حملة شعواء على التعصب الدينى والحروب الدينية ، ولاسيما ضراوة الكاثوليك فى اضطهاد البروتستانت ، وضراوة البروتستانت فى اضطهاد الكاثوليك .. وهو يدافع عن مبدأ الدولة القومية .. واستقلالها عن سلطان الكنيسة الرومانية الجامعة .. بما يوحى بأن مجاز « طرد الوحش المنتصر » كان يتضمن أيضا عند برونو طرد البابوات الفاسدين ومن ظاهرهم من ملوك اسبانيا المتعصبين الذين خلطوا الحماس للكاثوليك بالحماس للتوسع الامبريالى .

وقد حاول جوردانو برونو فى محاورات « طرد الوحش المنتصر » أن يدعو الى مقاييس جديدة فى الأخلاق الاجتماعية لاصلاح حال المجتمع . فالهدف من القانون عنده ليس البحث عن الحقيقة المطلقة ولكن تحقيق الخير العام لجميع المواطنين . والقانون عنده سند النظام وضمان خير المجموع . وهو يرى احياء الفضائل الرومانية القديمة كروح الخدمة العامة واهمال الفضائل غير النافعة كالعفة مثلا . والقيم الحقيقية عنده مرتبطة بنفعها الاجتماعى ، والفضائل الخاصة تأتى فى المقام الثانى ؛ أما الفضائل التى تخدم الجماعة فهى تستحق التكريم وبها يخلد الانسان . ومن هنا فبرونو يرى أن طلب المجد ليس رذيلة كما يقول الدين ، بل فضيلة محققة . وبالمثل فان هروب المثقفين والرهبان من خدمة المجتمع ومن آلام الدنيا واعتكافهم فى برج عاجى لمجرد البحث أو التأمل أمر عقيم .

وكتاب « عشاء اربعاء الرماد » (١٥٨٤) يحمل هذا الاسم الغريب لأن أربعاء الرماد هو فى الطقوس الكاثوليكية اللاتينية بداية الصيام فى اليوم التالى لعيد الكرنفال مباشرة . وعيد الكرنفال هو عيد البهجة الجماعية

وانطلاق الحواس والسكر والرقص الجماعى والموسيقى والغناء ومواكب الزهور والأقنعة وكل ما نسميه « المسخرة » أو « الماسكيرا » وفيه تباح الموبقات وأفراح الحياة باعتبار ان الحياة لحظة قصيرة يجب اهتبالها . ويليه « أربعاء الرماد » الذى يذكر الناس بالموت (« من الرماد والى الرماد تعود ») ، ويبدأ الصوم والتفكير فى الموت تكفيرا عن حب الحياة . وما أبعد الفرق بين عشاء الصائمين وعشاء الكرنفال .

فى « عشاء أربعاء الرماد » يهاجم برونو ارسطو ومدرسته ويشرح نظريته فى لانهائية الكون . هذا من جهة . ومن جهة أخرى نجده يهاجم دعاة الفهم الحرفى للكتاب المقدس الذين يعلمون الناس ان الشمس هى التى تدور حول الأرض وليس العكس كما جاء فى كتاب كوبرنيك فى علم الفلك . قالت محكمة التفتيش لجوردانو برونو : فليكن كما تقول ان الأرض تدور حول الشمس وان الكون لا متناه فى الزمان وفى المكان ، ولكن ماذا نفعل بما قاله « سفر التكوين » عن خلق العالم ؟ .

وكان رد برونو فى كل كتبه أن الاعتقاد بوحدة الوجود ، أى وحدة الله والكون ، أو بحلول الله فى الكون ، وبوحدة المادة والصورة ، أى وحدة المادة والشكل ، هى الاجابة على هذا السؤال . كان رد برونو فى كل كتبه هو الوهية الكون وبأن الله كائن فى الكون ، لا بمعنى الحلول المكانى ، ولكن بمعنى الفيض الذاتى . فعلاقته بالعالم المادى هى علاقة النور المثالى بالظلال التى نسميها المادة .

ووجد جوردانو برونو أن فهم الدين القائم على ازدواجية الله والكون ، والروح والمادة ، ازدواجية مطلقة فهم خاطىء . ولذا لجأ الى احياء ديانة مصر القديمة أيام العارفين بالله حيث التواصل مستمر بين الله والعالم وحيث كان يمكن للانسان أن يخرج من دائرة الظل ويقترب من المثل النورانية حتى يتحد بنافورة الضياء .

هذا الاعتقاد فى امكان التواصل بين الطبيعة وما وراء الطبيعة ملأ عالم جوردانو برونو بالمثل والأرواح والجان ، وجعل فى فلسفته الدينية مكانا عظيما للسحر ليمكن الانسان من الارتقاء بالسيطرة على ظلال العالم المادى . وكان يسمى هذا « السحر الطبيعى » وليس سحر السحرة . وهو عنده مرادف للسيطرة على الطبيعة باكتشاف قوانينها .. فكان هذا أيضا مما أورده موارد التهلكة فى محاكم التفتيش .

ss

جـــاليـليـو

GALILEO

١٥٦٤ - ١٦٤٢

١

ثورة الفلك

□ كانوا ثلاثة وكلهم رياضيون وفلكيون هم الذين وضعوا أساس علم الفلك الحديث وانقذوا الانسانية من خرافات القدماء حـــول تكوين الكون القريب فيما يسمى بالمجموعة الشمسية .

وكان أولهم بولنديـــا هو كوبرنيك (١٤٧٣ ـــ ١٥٤٣) الذى اكتشف الحركة المزدوجة للكواكب حول نفسها وحول الشمس . وكان ثانيهم ايطاليا ، وهو جاليليو (١٥٦٤ ـــ ١٦٤٢) الذى اكتشف قانون تذبذب الأجسام وقانون الأجسام الساقطة ووضع أسس قانون القصور الذاتى واكتشف البقـــع الشمسية وقوانين المد والجزر واكتشف بعض التوابع غير المعروفة للقدماء واخترع التليسكوب والميكروسكوب وقضى حياته يدافع عن نظرية كوبرنيك فى دوران الأرض حول الشمس ولقى فى ذلك عنتا شديدا أمام محاكم التفتيش. أما الثالث فكان المانيـــا وهو كبلر (١٥٧١ ـــ ١٦٣٠) الذى اكتشف أن مدارات الكواكب حول الشمس بيضاوية ووضع بدايات قانون الجاذبية الذى بنى نيوتن عليه أهم نظرياته .

وأوسع هؤلاء الثلاثة شهرة هو جاليليو بسبب كفاحه المديد العنيد لمـــا يسمى التوفيق بين العلم والدين . وهو فى حقيقته كفاح مرير ليجعل الكنيسة الكاثوليكية تقبل نظريات العلم الحديث ومنهج العلم الحديث . وقد خسر جاليليو معركته أثناء حياته ولكن جهاده توج بعد وفاته بتفتح الكنيسة درجة درجة للعلم الحديث فى نظرياته ومنهجه .

وقد ولد جاليـــليو جاليـــلى فى بيزا فى ١٥ فبراير ١٥٦٤ لأب يدعى فنشنتزيو جاليلى كان يعمل موسيقيا ولكنه جمع بين الفن والتجارة بسبب قلة موارده من الفن . وكان أصلا من فلورنسا وينتمى الى عائلة مرموقة ، فكان منهم الوزير فى القرن الرابع عشر وكان منهم الطبيب الشهير فى القرن الخامس عشر ، ولا تزال قبورهم هناك فى كنيسة سانتا كروتشى ، حيث مثوى

جاليليو نفسه . وكان الأب بارعا فى العزف على العود ضليعا فى نظريات الموسيقى وفى الرياضيات وفى الآداب اليونانية واللاتينية . ولكنه كان محافظا فى الموسيقى ، فكان يعادى البوليفونية (تعدد الأصوات) والتجديد الموسيقى الواردين من البندقية ويدعو للعودة الى الميلودية ، وله فى هذا مؤلفات .

وكان جاليليو هو الأبن الاكبر على سنة أبناء آخرين ، منهم ابن وبنتان اختفى ذكرهم تماما ، أما الباقون ، وهم فرجيتا وليفيا وميكلانجلو فقد كان لهم دور هام فى حياة جاليليو ، وقد عاشت أسرة فنشنتزيو جاليلى فى بيزا حتى عام ١٥٧٤ ثم انتقلت الى فلورنسا . ودخل جاليليو فى صباه ديرا حيث تعلم مبادىء المنطق ولكنه لم يستمر ، بل التحق فى ١٥٨١ ، أى وهو فى السادسة عشرة من عمره ، بجامعة بيزا بقسم « الفنون الحرة » بوصفه طالب طب بتوجيه من أبيه ، ولكنه لم يبد أى اهتمام بدراسة الطب ، ثم عاد الى فلورنسا فى ١٥٨٥ دون اتمام دراسته ولم يحصل من الجامعة على درجة علمية فى الطب أو فى غير الطب .

وقد بدأ جاليليو يدرس مبادىء الرياضيات سرا دون علم أبيه عام ١٥٨٣ . وكان معلمه صديقا للأسرة اسمه أوستيليو ريتشى . وسطعت موهبة جاليليو فى الرياضيات الى درجة أذهلت معلمه ريتشى ، فاستأذن ريتشى أباه فى أن يواصل تعليمه فوافق الأب مشترطا الا يجور ذلك على دراسة الطب التى اختارها الأب لابنه لأنها مهنة مجزية .

ولعل أهم ما أخذه جاليليو عن ريتشى أن ريتشى كان يعلم الرياضيات بعقلية مهندس ، اى على أساس أن مبادىء الرياضيات قابلة للتطبيق العملى . وكان تدريس الرياضيات مهملا فى جامعة بيزا كما كان تعليم الفيزياء مهملا فيها ، ولذا احتاج جاليليو الى أستاذ آخر من فلورنسا ليعلمه الفيزياء ، وهو الأستاذ بوناميكو . ولكن مشكلة بوناميكو انه كان يتبع مدرسة أرسطو التقليدية ، مدرسة المشائين ، وكانت ملتزمة بالفيزياء الأرسطاطاليسية ، وكان له كتاب فيها اسمه « فى الحركة » فى عشرة أبواب نشر فى ١٥٨٤ وتأثر به جاليليو الشاب كما تأثر بمحاضراته فى جامعة بيزا ، ويظهر ذلك فى كتابات شبابه . ولم تكن الفيزياء الأرسطاطاليسية مثل الفيزياء اليوم ، بل كانت خليطا من الميتافيزيقا والتجربة العملية أو نوعا من علم الكون المستخدم فى تفسير ظواهر محددة أو قوانين مادية محددة .

أما ريتشى فكان على العكس من ذلك يدعو جاليليو الى التخلى عن هذه الفيزياء الأرسطاطاليسية القديمة والى الاتجاه الى الفيزياء « الباريسية » ، وبالفعل نجح ريتشى فى التأثير على جاليليو .

وفى ١٥٨٣ اكتشف جاليليو نظرية تساوى الزمن فى ذبذبات البندول ، والمتداول أنه وصل الى نتائجه من ملاحظة الحركة البندولية لمصباح معلق فى كاتدرائية بيزا . كذلك طبق جاليليو نظرية التساوى الزمنى فى الذبابات الصغيرة على ضربات النبض وعلى ضربات القلب . وهذا نموذج من اهتمامه الدائم بأن يجد تطبيقات عملية لنظرياته الرياضية .

وفى ١٥٨٥ عاد جاليليو الى فلورنسا وأقام فى أسرته أربع سنوات لا يعمل شيئا الا الالتهام الثقافى للآداب والعلوم . واقبل على الكلاسيكيات فدرس فرجيل وهوراس واوفيد وسنيكا . وفى هذه الفترة تداخل الشعر والعلم فى وجدانه حتى انه قدم لأكاديمية فلورنسا بحثا فى ١٥٨٨ عنوانه «دروس فى شكل جحيم دانتى ومكانه وحجمه » ، وبذلك حول « جحيم » دانتى الى مجموعة من المشكلات الرياضية .

وفى ١٥٨٦ اخترع جاليليو الميزان الهيدروستاتيكى لتحديد الوزن النوعى للأجسام ، وكتب فى ذلك بحثا اسمه « الميزان » نشر بعد موته. وفى ١٥٨٦ — ١٥٨٧ كتب جاليليو كتابا عن مركز الثقل فى الأجسام ولم ينشره الا عام ١٦٣٨ .

وكان جاليليو طوال هذه الفترة يرتزق من تدريس الرياضيات فى فلورنسا . وكان ينقصه الاستقرار المادى فبحث عن منصب للتدريس الجامعى فجرب جامعة بولونيا ولكنها فضلت عليه أستاذا آخر ، غير أنه عين أخيرا فى كرسى الرياضيات بجامعة بيزا بمرتب ضئيل هو ٦٠ اسكودى سنويا ، بينما كان أستاذ الطب يتقاضى ٢٠٠٠ اسكودى سنويا .

وقضى جاليليو فى بيزا ثلاث سنوات أستاذا للرياضيات كان خلالها يعلم هندسة اقليدس وفلك بطليموس القائمين على ان الأرض هى مركز الكون . كان يعلم الهندسة التقليدية والفلك التقليدى بين ١٥٨٩ — و ١٥٩٢ ، بحيث لا يستطيع احد ان يجزم اذا كان جاليليو فى هذه المرحلة مؤمنا بهما أم انه كان يفعل ذلك من باب « أكل العيش » . وفى رأى الأستاذ كويريه ان فترة جامعة بيزا كانت بداية قبول جاليليو لثورة كوبرنيك فى علم الفلك وبداية الديناميكا الجديدة التى وضع جاليليو أساسها . فلما انتقل جاليليو الى جامعة بادوا شاع عنه أنه كان يعلم فلك بطليموس علنا ويدافع سرا عن فلك كوبرنيك .

وفى ١٥٩١ مات أبوه ، فكان على جاليليو أن يعول أسرته الكبيرة المكونة من أمه واخوته وأخواته . وانتهى عقده مع جامعة بيزا فساعده

أحد رعاته من النبلاء على التعاقد فى ديسمبر ١٥٩٢ مع جامعة بادوا لشغل كرسى الرياضيات لمدة اربع سنوات قابلة للمد سنتين اخريين بموافقة دوق البندقية ، فقد كانت جامعة بادوا تابعة للبندقية . غير أن مرتبه ظل ضئيلا (١٨٠ فلورين سنويا) ، فلم يخفف هذا من ضنكه المالى .

وبدأ اعراض جاليليو عن نظرية أرسطو فى الحركة ، وهى أن الحركة نتيجة لتأثير الفلاف الذى تتحرك فيه الأشياء كقوة الماء والهواء ، منذ فترة تدريس جاليليو فى جامعة بيزا . كذلك اعرض جاليليو عن نظرية «الدافع» التى كانت شائعة فى جامعة باريس ، واعرض عن الرياضيات الفيثاغورية ورياضيات الأفلاطونية الحديثة التى كانت تقرأ فى الأرقام خصائص ميتافيزيقية معينة وتربط ربطا سحريا بين الأرقام وبين بعض ظواهر الطبيعة .

وظهر اتجاه جاليليو الى ربط الرياضيات بالتطبيقات العملية . بل ظهر اعراضه عن الرياضة البحتة جملة وهى الرياضة الأفلاطونية ، فقد كان علم الرياضيات عند أفلاطون علما نظريا صرفا لا علاقة له بالواقع ، علما مثاليا يمثل الحقائق العليا الكاملة المجردة ، حتى لقد كتب أفلاطون على باب الأكاديمية التى اسسها خارج أثينا شعار : « لا يدخلها الا الرياضيون » . ومنذ فترة بيزا أيضا اتجه جاليليو الى تكامل المعرفة فكان يكتب عن الشاعر الايطالى الملحمى تاسو وعن الشاعر الايطالى الملحمى اريوسطو كما سبق له أن كتب عن جحيم دانتى ، وتجلت فى كتاباته وحدة الثقافة العلمية والثقافة الأدبية . وكان يسخر فى كتاباته من علماء البرج العاجى المنفصلين عن الحياة ويتهمهم بالحذلقة . وقد عبر عن ذلك فى هجائه للأرواب الجامعية وهى رداء العلماء .

وعلى الجملة فقد كان جو جامعة بيزا خانقا لجاليليو ، فلما انتقل الى جامعة بادوا وجد الجو العلمى فيها دافئا بروح الزمالة الحقيقية والأستاذية الصادقة وبحرية البحث العلمى التامة التى ضمنتها حكومة البندقية . واشتغل جاليليو فى جامعة بادوا ثمانى عشرة سنة وصفها فيما بعد ، عام ١٦٤٠ ، بأنها كانت أجمل سنوات عمره . وبدأ مرتبه فى بادوا بمبلغ ١٨٠ فلورينا سنويا ، ثم ارتفع فى ١٥٩٨ الى ٣٢٠ فلورينا سنويا ، ثم ارتفع فى ١٦٠٦ الى ٥٢٠ فلورينا سنويا ، ثم ارتفع فى ١٦٠٩ الى ١٠٠٠ فلورين سنويا .. ومع ذلك فقد ظل جاليليو فى ارتباك مالى مزمن بسبب كفالته لأسرته . فقد جهز أخته فرجينيا للزواج ثم جهز أخته ليفيا أيضا للزواج ، وكان ينفق على أخيه الموسيقى الموهوب المتلاف ميكلانجلو وعلى زواجه وعلى أولاده الكثيرين .

ss

ويبدو ان هذه التبعات العائلية قد جعلت جاليليو يزهد فى الزواج او يخاف من مسئوليات الزواج . ومع ذلك نجده قد أنشأ لنفسه أسرة غير شرعية ، فعاشر امرأة من البندقية تدعى مارينا جامبا عشر سنوات ، وانتقلت مارينا اليه فى بادوا وأنجبت منه بنتين هما جينيا فى ١٦٠٠ وليفيا فى ١٦٠١ ثم غلاما هو فنشنتزيو فى ١٦٠٦ . ولم تكن مارينا تقيم مع جاليليو تحت سقف واحد بل كانت تقيم فى منزل مستقل ، ربما مراعاة للتقاليد وربما طلبا للهدوء . ثم انفصل جاليليو ومارينا عند انتقال جاليليو الى فلورنسا عام ١٦١٠ ، وكان انفصالهما على مودة فترك فى كنفها ابنه الصغير فنشنتزيو لتربيته حتى بعد زواجها من أحد معارفه ، أما البنتان فقد أدخلهما جاليليو الدير ، وهو لون من القسوة الفظيعة التى لجأ اليها جاليليو لعلمه بأن بنتيه لا أمل لهما فى الزواج من أحد فى مثل طبقته الاجتماعية .

وبسبب هذه الضائقة المالية المتصلة التى كان يعيش فيها جاليليو فى بادوا كان يستكمل دخله باعطاء دروس خصوصية لطلبة الجامعة ، فتحول بيته الى ما يشبه النزل أو الفندق ، فكان يقيم فيه نحو عشرين طالبا جاءوا من مختلف ارجاء اوروبا ، بعضهم بسبب شهرة جامعة بادوا وبعضهم بسبب شهرة جاليليو نفسه ، وكان جلهم من أبناء البيوتات .

ووجد جاليليو وهو فى بادوا أن مشكلته الحقيقية هى أنه كان يضيع أكثر وقته على الدروس الخصوصية بدلا من تخصيصه للبحث العلمى أو للنشاط الثقافى ، فقرر أن ينهى علاقته بجامعة بادوا وأن يدخل فى خدمة راع ينفق عليه حبا فى العلم وطلبا للمجد . وبعد مفاوضات دخل بلاط الغراندوق كوسيمو الثانى دى مديتشى أمير توسكانيا الذى كان أحد طلبته فى بادوا ومن أشد المعجبين به ، وترك له كوسيمو مطلق الحرية فى البحث والتفكير والدعوة لما يعتنقه من نظريات . وقد ساءت عاقبة هذا الاختيار ولكنه بدا يومئذ لجاليليو انه افضل اختيار ممكن .

وفى فترة التدريس بجامعة بادوا لم يؤلف جاليليو كتبا ذات بال ، ولكنه اكتشف بعض قوانين الميكانيكا الهامة مثل قوانين تزايد سرعة الأجسام الساقطة تزايدا طبيعيا . والغريب أن جاليليو وضع كتابه المسمى : « رسالة عن الكرة الأرضية أو عن خريطة الكون » ، وليس فيه اشارة واحدة الى كوبرنيك أو اعتراض واحد على تصور بطليموس أن الأرض هى مركز الكون ، ومع ذلك ففى تلك السنة نفسها كان جاليليو يعلن لأول مرة دفاعه عن فلك كوبرنيك فى خطاب بتاريخ ٣٠ مايو ١٥٩٧ الى أستاذ للفلسفة بجامعة بيزا يدعى ماتزونى ، وفى خطاب بتاريخ ٤ اغسطس ١٥٩٧ الى

العلامة كبلر . وكان كبلر أستاذا للفلك والرياضيات بجامعة توبنجن بألمانيا، ونشر فى ١٥٩٦ كتابه « مقدمة رسائل فى شرح سر خريطة الكون بخمسة اشكال هندسية » . ويقول جاليليو فى خطابه لكبلر انه اعتنق نظرية كوبرنيك فى الفلك لسنوات مضت وبها استطاع تفسير عديد من ظواهر الطبيعة .

واذا كان جاليليو باعترافه قد اعتنق نظريات كوبرنيك الفلكية ، على الأقل منذ أوائل التسعينيات من القرن السادس عشر وهو يعمل فى جامعة بادوا ، فلا شك أنه كان يتابع فى صمت أولا بأول محنة جوردانو برونو أمام محكمة التفتيش فى البندقية ثم فى روما حتى اعدامه على المحرقة بتهمة الزندقة . وقد كان من الاتهامات الأساسية التى جرت الكارثة على برونو دعوته لثورة كوبرنيك فى الفلك ورفضه نظرية أرسطو وبطليموس فى أن الأرض هى مركز الكون وأنها ثابتة تدور حولها الشمس والكواكب السيارة السبعة فيما يسمى السموات السبع .

واذن فالأرجح أن جاليليو ادرك أن ما كان يجرى لجوردانو برونو كان بمثابة انذار لكل علماء عصره . وقد طلب كبلر من جاليليو نشر الأدلة التى توصل اليها لاثبات صحة نظرية كوبرنيك ولكن جاليليو لم يستجب ، والأرجح أن الحذر كان وراء تكتم جاليليو العلمى فى هذه الفترة من حياته ، وليس تناقض الشخصية ، كما ذهب بعض مؤرخى الفكر . فاذا ذكرنا عبودية جاليليو المالية لأسرته خلال فترة عمله فى جامعة بادوا ، أدركنا سر حرصه الشديد ألا يزج بنفسه فى متاعب تعرضه وتعرض ذويه للتشرد فى هذه الفترة من حياته .

أما صمته التام عن مأساة جوردانو برونو فالأرجح أن سببه أن برونو كان يستخرج من فلك كوبرنيك فلسفة روحانية خارج الاطار المسيحى تصل الى حدود الزندقة الصارخة ، بينما كان جاليليو يعلن دائما انه صادق الايمان مخلص للكنيسة الكاثوليكية ، وان قصارى أمله هو أن يكسب رجال الدين ، وعلى رأسهم البابا والكرادلة ، الى صف العلم والمنهج العلمى .

وكانت أول اشارة معلنة من جاليليو الى نظرية كوبرنيك فى الفلك عام ١٦٠٤ . ففى ٣٠ سبتمبر ١٦٠٤ أبلغه راهب يدعى التوبيللى انه رأى نجما جديدا فى السماء ، وقد أيد هذه الرؤية عالم فى ميلان يدعى كابرا الذى أبلغ جاليليو أن هذا النجم استمر فى السماء لمدة ١٨ شهرا وأن حجمه

تضاءل تدريجيا خلال هذه الفترة ، والقى جاليليو ثلاث محاضرات فى هذا الموضوع حضرها جمهور كبير ، وكان راى جاليليو ان ظهور هذا النجم يثبت بوضوح صحة نظرية كوبرنيك فى الفلك .

وفى اثناء فترة بادوا أنشأ جاليليو فى منزله ورشة يصنع فيها الموازين والمقاييس والعدسات والتليسكوبات ويجمع الأدوات المغناطيسية . واخترع مسطرة حاسبة كان يسميها « البرجل الهندسى الحربى » ، وقد شاع استعمالها فى حساب اللوغاريتمات . واخترع مقياسا للحرارة هو فى حقيقته ترمومتر بارومترى لأنه يتأثر بالحرارة وبالضغط الجوى . وفى ١٦٠٩ صنع نموذجا لتليسكوبه المشهور . كانت الثورة الثقافية تعنى عند جاليليو التعايش بين العلم والدين لا أكثر من هذا .

وفى ١٦٠٤ كتب جاليليو خطابا الى راهب يدعى باولو ساربى يشرح فيه نظريته حول قانون الأجسام الساقطة ، ملاحظا زيادة سرعة الأجسام الساقطة بنسبة ابتعادها عن نقطة السقوط ، وكانت هذه بداية البحث فى الجاذبية ، ثم نقح نظريته أخيرا بقوله ان زيادة سرعة الأجسام الساقطة مطردة مع بعدها عن « لحظة » السقوط وليس مع بعدها عن « نقطة » السقوط .

وتحتل قوانين الميكانيكا ركنا هاما فى أعمال جاليليو ، فقد وجه جاليليو كل اهتمامه لدراسة قوانين الميكانيكا وتدريسها بين ١٦٠٢ و١٦٠٩ . وكان منذ ١٥٩٨ يخصص محاضراته لشرح الظواهر الميكانيكية بدءا بميكانيكا ارسطو التى كانت فرعا من فروع الفيزياء ، ولكنه لم ينشر شيئا فى هذا الموضوع فى تلك الفترة . والراجح أن تجاربه وملاحظاته ودراساته فى تلك الفترة كانت الخامة التى بنى عليها كتابه العظيم الذى صدر فى ١٦٣٨ ، وهو « حوار العلوم الحديثة » ، وربما ايضا نص كتابه « رسالة فى الميكانيكا » الذى نشر فى باريس عام ١٦٣٤ فى ترجمته الفرنسية قبل نشره بالايطالية فى ١٦٤٩ بعد وفاة جاليليو .

• • •

SS

٢

العاصفة الأولى

□ فى كتاب « الطبيعة » (« الفيزيقا » أو « الفيزياء ») لأرسطو تحدث ارسطو عن الميكانيكا فقسم الحركة الطبيعية الى نوعين : حركة هابطة ، وهذه هى حركة الأرض والماء ، وحركة صاعدة ، وهذه هى حركة الهواء والنار .

اما جاليليو فقال ان الحركة الطبيعية حركة واحدة ، وهى الحركة الهابطة . بمعنى آخر ، كل جسم عند جاليليو له وزن ، وبناء عليه فهو يتجه طبيعيا بحكم وزنه الى مركز الأرض .

فاذا كانت هناك أجسام ذات حركة صاعدة فذلك لأنها تندفع فى مجال ذى وزن نوعى أكبر من وزنها ، وهذا يدفعها الى أعلى كما اكتشف أرشميدس . حتى الهواء والنار ، اذا لم يوجدا فى مجال ذى وزن نوعى أكبر من وزنهما ، فان اتجاه حركتهما الطبيعية يكون الى أسفل . وقد تجاوز جاليليو أرشميدس فى أن ارشميدس كان يطبق الرياضيات على الأشياء الاستاتيكية ، أى وهى فى حالة ثبات ، أما جاليليو فكان يطبقها على الأشياء الديناميكية ، أى وهى فى حالة حركة .

وبعد أن اكتشف جاليليو قانونه بأن الأجسام الساقطة تزداد سرعتها زيادة مطردة مع ابتعادها عن نقطة السقوط فى المكان ، عدل نظريته وقال ان الأجسام الساقطة تزداد سرعتها زيادة مطردة مع ابتعادها عن لحظة السقوط فى الزمان وليس عن نقطة السقوط فى المكان .

وقد كان هناك اجماع بين مؤرخى العلم على أن جاليليو كان أول من اهتدى الى قانون القصور الذاتى ، ولكن مؤرخ الفكر العلامة كويريه حاول اثبات أن صاحب الفضل فى اكتشاف هذا القانون كان ديكارت .

وكانت أهم آلة اخترعها جاليليو هى « التليسكوب » ، وهو المنظار المقرب للأشياء البعيدة بحيث تبدو اكبر حجما واشد وضوحا مما هى للعين المجردة . وقد سبقه الى هذا الاختراع آخرون بعضهم من صناع عدسات الابصار فى هولندا وغيرها . وكان كبلر وجيوفانى باتيستا ديللا بورتا قد

توصلا فى ١٥٨٩ و ١٥٩٣ و ١٦٠٤ ، وكانا من المختصين فى البصريات ، الى دراسة طبيعة العدسات ، ولـكن دراستهما وقفت عند الحد النظرى . كذلك اخترع اسطى نظاراتى هولندى المنظار المقرب وعرضه على بعض الأمراء للأغراض الحربية ولـكن لم يحفل به كثيرون وفشل تجاريا . وكان هذا النظاراتى الهولندى لا يعرف شيئا عن نظرية البصريات والعدسات ، فتجاهله كبلر وديللا بورتا تماما . وفى الطرف المقابل اهتدى كبلر نظريا فى ١٦١١ الى نظرية التليسكوب ، ولـكنه لم يصنع منظارا ولا نظارات .

صنع جاليليو التليسكوب ونسب اختراعه لنفسه وقدمه لجمهورية البندقية فى ٢٥ أغسطس ١٦٠٩ فأثار فيها حماسا عظيما ، وكافأته البندقية بأن عرضت عليه مد عقده فى جامعة بادوا مدى الحياة وزيادة مرتبه من ٥٠٠ فلورين الى ١٠٠٠ فلورين سنويا . وكثرت الحملات عليه بسبب اعلانه أنه صاحب هذا الاختراع ، فخاض معاركه مع كبلر وديللا بورتا بسبب هذا الادعاء ولم يسلم من تهجم عشرات من نظارتية اوروبا الذين كانت حرفتهم صناعة العدسات .. ومع ذلك فمن المؤكد أن جاليليو ، سواء أكان المخترع الحقيقى للتليسكوب أم كان أول من صنع تليسكوبا متقنا ، كان أول من استخدم التليسكوب فى رصد الكواكب ونجوم السماء .

استعمل جاليليو المنظار فى دراسة نجوم السماء بانتظام . وفى يناير ١٦١٠ اعلن بعض النتائج الهامة . وإحدى هذه النتائج أن سطح القمر شبيه بسطح الأرض وفيه جبال اعلى بكثير من جبال الأرض . كذلك اكتشف جاليليو أن نهر المجرة يبدو « كمجموعة مكدسة من النجوم الصغيرة » ، كما اكتشف أن كوكب « جوبيتر » (المشترى) له ثلاثة اقمار تابعة له ، ثم اكتشف ان عدد هذه الأقمار اربعة وليس ثلاثة ، وقد أطلق جاليليو عليها اسم « أقمار مديتشى » أو « كوكبة مديتشى » ، وأرسل الى كوسيمو دى مديتشى الثانى عاهل فلورنسا منظارا مقربا بصفة هدية ووعده بمنظار افضل . وفى آخر يناير ١٦١٠ طبع جاليليو نتائج أبحاثه فى كتيب صغير باللاتينية فى البندقية ، أردفه فى ١٢ مارس ١٦١٠ بكتابه اللاتينى الشهير « رسول النجوم » ، فأهداه كوسيمو الثانى قلادة من ذهب وميدالية .

وفى ٥ يونيو ١٦١٠ ارسل سكرتير كوسيمو الثانى الى جاليليو خطابا يقول فيه ان الغراندوق كوسيمو قرر تعيينه الرياضى الأول فى جامعة بيزا وفيلسوف الغراندوق السامى ، مع إعفائه من واجبات التدريس فى جامعة بيزا مع الاقامة فى هذه المدينة بمرتب قدره ١٠٠٠ جنيه سنويا

من عملة فلورنسا . ووافق جاليليو على هذا العرض ووقع العقد فى ١٠ مايو ١٦١٠ . وكان هذا بالضبط ما يصبو جاليليو اليه ، أن يحصل على منحة تفرغ تمكنه من الانقطاع للبحث العلمى وللتنوير الثقافى . وقد غضبت سلطات البندقية وبادوا من هذا الانصراف المفاجىء ، ولاسيما بعد كل ما غمرت به جاليليو من مظاهر التكريم .

وقبيل انتقاله المفاجىء من بادوا الى فلورنسا اكتشف جاليليو بعض البقع الشمسية التى سبق أن تحدث عنها شاعر الرومان الأعظم فرجيل فى ديوانه « اغانى الفلاحين » (« الجورجيك ») ، وكذلك اكتشف أن الكوكب ساتورن (زحل) ، وهو أبعد الكواكب السيارة ، مكون من ثلاثة نجوم . وبمجرد وصول جاليليو الى فلورنسا اكتشف أن منازل كوكب الزهرة تشبه تماما منازل القمر .

وكان لهذه الاكتشافات رد فعل قوى فى أوروبا كلها بالايجاب والسلب معا ، وادعى عالم اسمه سيمون مير انه اكتشف توابع جوبيتر قبل جاليليو بأيام . ومن نقاد جاليليو عالم اسمه سيزار كريمونينى كان زميلا لجاليليو فى بادوا ، وقد ادعى أن تليسكوب جاليليو اداة لا تؤدى الى كشوف صحيحة ، وكان ارسطاطاليسيا متمسكا بالنظرية التقليدية وهى أن الكواكب السيارة السبعة ، وهى القمر والزهرة وعطارد والمريخ والمشترى وزحل والشمس فى ظن القدماء ، كلها تدور حول الأرض ، وأن الأرض هى مركز الكون . ولم يهتم كريمونينى حتى أن ينظر الى السماء بمنظار جاليليو ، ونشر هجومه على جاليليو فى كتاب أصدره فى البندقية عام ١٦١٣ .

وكان أخطر اعتراض هو اعتراض انطونيو ماجينى ، أستاذ الرياضيات بجامعة بولونيا ، الذى زعم أن عدسة منظار جاليليو تجعل الرؤية مزدوجة . وكان جاليليو مهتما باقناعه فسافر اليه بمنظاره ، ولكن جمود فكر ماجينى جعله يصر على أن هذه الرؤية المزدوجة تجعل جاليليو يتوهم رؤية اربعة توابع لا وجود لها . غير أن ماجينى بعد طول دراسة للسماء بمنظار جاليليو عاد واقتنع بصحة مشاهدات جاليليو ، فتراجع ماجينى واعتذر اعتذارا كريما .

وهو نفس ما سبق أن حدث للأب كلافيوس ، أستاذ الرياضيات بجامعة روما ، الذى ظن فى اكتوبر ١٦١٠ أن عدسة منظار جاليليو تؤدى الى الخداع الحسى ، ولكن بعد طول دراسة للسماء بهذا المنظار اقتنع فى ديسمبر ١٦١٠ بصحة كشف جاليليو لثريا مديتشى .

وبالمثل كان كبلر أولا من المعترضين ، ولكنه تحول الى الاشادة باكتشاف جاليليو فى خطابه اليه المؤرخ ١٩ ابريل ١٦١٠ . ومع ذلك فقد لام كبلر جاليليو لأنه اغفل ذكر من سبقوه فى صناعة المنظار او فى الاهتداء الى نظريته ، من امثال ديللا بورتا وكبلر نفسه . وبين ٣٠ اغسطس و ٩ سبتمبر ١٦١٠ عكف كبلر على دراسة السماء بمنظار متقن كان جاليليو قد أرسله الى امير كولونيا ، واعلن كبلر تأكده من وجود كوكبة مديتشى على الأقل . واعلن ذلك على الملأ فى بحث نشره عام ١٦١١ فى فرانكفورت قال فيه « لقد انتصرت يا جاليليو » .

وكان على جاليليو أن يقنع علماء روما ، فانتقل الى روما فى أول ابريل ١٦١١ ، واستقبله عديد من الكرادلة بحفاوة بالغة . ثم استقبله البابا بول الخامس نفسه وسمح له أن ينهض فى حضرته بدلا من الركوع كما كان يقضى البروتوكول ، وكان معه الأمير فرديريكو تشيزى ، مؤسس « اكاديمية لينتشى » للرياضيات والفيزياء والتاريخ الطبيعى وادخل الأمير جاليليو عضوا بالأكاديمية .

وكان للآباء الجزويت فى الفاتيكان سطوة عظيمة ، وكانوا من أوسع رجال الدين فى ذلك العصر معرفة بالعلوم والرياضيات .

واستقبل الآباء الجزويت جاليليو اولا بحفاوة بالغة ، واعترفوا بوجود ثريا مديتشى حول كوكب جوبيتر بعد دراسة مركزة بالمنظار استغرقت نحو شهرين ، واعلنوا هذا فى احتفال رسمى بحضور جاليليو فى مايو ١٦١١ . ولكن الجزويت كانوا متحفظين بالنسبة لبقية استنتاجات جاليليو .

وكان الجزويت رغم سعة معرفتهم بالرياضيات والعلوم من اشد الطوائف محافظة على العقيدة الكاثوليكية التقليدية ، وكانوا يخشون أن يزعزع العلم الحديث هذه العقيدة التقليدية .. وكان زعيم هؤلاء المحافظين الكاردينال بللارمين رئيس محكمة التفتيش الذى سبق أن رأيناه يجرى التحقيق مع جوردانو برونو ويدينه فى ١٦٠٠ . وما فتىء بللارمين يبدى المخاوف من النظريات الفلكية الحديثة حتى قرر مجمع الكرادلة فى الفاتيكان فى ١٦ مايو ١٦١١ الاستعلام سرا عما اذا كان اسم جاليليو قد ورد فى قضية كريمونينى امام محكمة التفتيش . ورغم أن كريمونينى كان من اتباع ارسطو فقد اتهم بالزندقة ودافعت عنه جمهورية البندقية حتى برىء .

وكانت اعتراضات بعض الجزويت من أتباع أرسطو ، مثل الأب كلافيوس ، تقوم على أن وجود جبال فى القمر يقلل من كروية القمر الكاملة .

فأجاب جاليليو بأن الكروية الكاملة ليست سوى مجرد افتراض تقليدى ، وفى العلم لا ينبغى التعويل الا على ما هو ثابت أو قابل للاثبات . كذلك اجاب بأن حواسنا قد تفضى الى الخطأ ، ولكن ليس معنى هذا أن نتخلى عن حواسنا كأدوات للمعرفة ونعتمد على ادوات غيبية أو خفية . المشاهدة والتجربة هما اساس المنهج العلمى ، وفضل جاليليو على المنهج العلمى كبير . وكانت مشكلة جاليليو بين ١٦١٠ و ١٦١٥ هى بنتاه الكبرى فرجينيا والصغرى ليفيا ، فأدخلهما دير سان ماتيو فى نهاية ١٦١٣ ، وكانت الأولى فى سن ١٣ والثانية فى سن ١٢ ، ولذا استحال أن تلبسا الحجاب فورا ، ولكنهما دخلتا عهد الرهبنة فى ١٦١٦ ، وكانت الكبرى مستسلمة أما الصغرى فكانت متمردة . وكانت هذه طريقة جاليليو الأنانية فى التخلص من مسئولية الفتاتين حتى يتفرغ للعلم ، فقد كان يائسا من زواج بنتيه غير الشرعيتين من رجلين فى مكانته الاجتماعية .

وبين ١٦١١ و ١٦١٥ تفرغ جاليليو لبحث مشكلة الأجسام الطافية ومشكلة البقع الشمسية . وفى هذه الفترة نشر كتابيه « حديث فى الأجسام الطافية » (١٦١٢) و « رسائل شمسية » ، وكانت هناك مناظرة ودية فى قصر الغراندوق كوسيمو الثانى عام ١٦١١ حول قانون الأجسام الطافية شارك فيها عدد من العلماء والفلاسفة المدعوين ، ودافع فيها جاليليو عن نظرية أرشميدس ، وانحاز له الكاردينال بربرينى الذى غدا فيما بعد البابا أوربان الثامن . وفى الطرف الآخر كان هناك عالم ارسطاطاليسى من فلورنسا يدعى ديللا كولومبيه يؤيد الكاردينال جونزاجا واتباع ارسطو المعادين لنظرية كوبرنيك .

كان أرسطو ينسب طفو الأجسام على الماء الى أن الأجسام الطافية يتخللها الهواء لأن الهواء نازع للصعود . أما أرشميدس ففسر طفو الأجسام بقلة وزنها النوعى عن وزن الماء النوعى ، وانحاز جاليليو لأرشميدس .

أما بالنسبة للبقع الشمسية فقد ثار جدل فظيع حولها بين جاليليو وفلكى يدعى شاينر . وكان جاليليو قد أعلن عن وجودها فى مناقشاته وأحاديثه الخاصة ولكنه لم ينشر عنها شيئا ، فاذا بشاينر يفاجئه بنسبة هذا الاكتشاف الى نفسه . وكان تفسير شاينر للبقع الشمسية انها نتيجة لتكدس النجوم أو السدم حول الشمس كطرود النحل وقرر انها منفصلة عن الشمس . أما جاليليو فقال انها أشبه بالسحب والأبخرة منها بالسدم أو النجوم وانها من مادة حمم سائلة غير منفصلة عن الشمس وانما هى موجودة على سطحها ، وفسر ما يبدو من دوران البقع حول الشمس بأنه

ss

دليل على أن الشمس نفسها تدور حول محورها ، ووجد فى هذا تأييدا جديدا لنظرية كوبرنيك القائلة بأن هناك علاقة بين دوران الشمس حول نفسها ودوران المجموعة الشمسية حول الشمس .

وقد قضى جاليليو عشرين عاما يدعو لنظرية كوبرنيك عرف فيهـــا مرارة الهزيمة فى ١٦٢٢ ثم المثول أمام محكمة التفتيش والسجن فى ١٦٣٣ . وكان جاليليو يعرف النتائج الخطيرة المترتبة على نظرية كوبرنيك فى الفلك ، ألا وهى زعزعة العقيدة الدينية ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يدرك خطـــورة الكنيسة لو وقفت حائلا فى طريق العلم الحديث ، لذا فقد قامت دعوته على أن نظرية كوبرنيك لا تتعارض مع العقيدة الدينية . وكان مهتما باقناع كبار رجال الدين بالكوبرنيكية لكى يحصل على تأييد الكنيسة .

كان يقول ان أقوال الكتاب المقدس فى الفلك صحيحة ، واقوال كوبرنيك صحيحة . ولم يحاول مثل الفلكى الدنماركى تيكو براهى أن يجرى تنازلات فى العلم للتوفيق بينه وبين الدين . فرفض جاليليو كل الحلول الوسط لارضاء أصحاب القديم ، ولكنه فى الوقت نفسه رفض كل تصحيح للعقيدة يمكن أن يضع العـــلم خارج العقيدة .

وكان تفسيره للتناقض بين العلم والدين أنه تناقض ظاهرى فقط ناشىء من مشكلة التعبير اللغوى . فالعلم يتعامل مع حقائق الطبيعة والـــكتاب المقدس يستخدم لغة تقرب حقائق الطبيعة من أفهام عامة الناس . وهذا التعبير المجازى التقريبى لا يغير حقيقة الطبيعة ولا يغير قوانينها الحقيقيـــة لأن الطبيعة أو الخليقة هى « الفعل » الالهى . ولغة العلم واضحة ودقيقة لا مجال فيها للغموض والتأويلات ، أما اللغة المألوفة فهى مرنة وغـير محددة، الألفاظ فيها قد تحمل أكثر من معنى . وكان جاليليو يفضل الكتابة بالايطالية من دون اللاتينية لينشر المعرفة العلمية على أوسع نطاق ممكن .

وقد حاول جاليليو أن يشرك معه فى دعوة التنوير العلمى غيره من العلماء ولكنهم أحجموا عن المجـــازفة . حتى كبلر كان يرى ان العلمـــاء لا ينبغى أن يخاطبوا الا العلمـــاء وأن نظـــرية كوبرنيك فى دوران الأرض والكواكب حول الشمس لا يصح تداولها بين عامة الناس . بل لقد حمل كبلر جاليليو مسئولية مصادرة الكنيسة لكتاب كوبرنيك وتحريم قراءته على المؤمنين بعد أن ظلت قراءته مباحة مدى ثمانين سنة ، لأن جاليليو علم الناس أن الأرض ليست مركز الكون وأنها تدور حول محورها وحول الشمس لا أن الشمس تدور حول الأرض .

SS

وقد بدأت متاعب جاليليو التى انتهت بمحاكمته الأولى فى ١٦١٦ عندما القى راهب من الدومنيكان يدعى نيكولو لورينى فى أول ديسمبر ١٦١٢ موعظة فى كنيسة دير سان ماتيو بفلورنسا هاجم فيها جاليليو وعلم الفلك الجديد الذى وضع كوبرنيك أساسه . ثم ما لبث هذا الراهب الجاهل ان كتب خطابا لجاليليو معتذرا بأنه لم يقصد مهاجمته شخصيا وانما قصد مهاجمة « رأى ايبرنيكو » المتعارض مع نصوص الكتاب المقدس . وكان جهل هذا الراهب موضوعا لتفكه المثقفين .

اما الهجوم الثانى فجاء فى ١٦١٤ من راهب دومنيكانى آخر يدعى كانشينى فى خطبة الأحد فى كنيسة سانتا ماريا نوفيللا بفلورنسا ، وفيها ندد كاتشينى بعلم الرياضيات « الشيطانى » وبعلم الفلك « الشيطانى » ، واتهم جاليليو بالزندقة لأنه كان يتفحص السماء بمنظاره فى حين أن انجيل لوقا استنكر فى أهل الجليل الشخوص الى السماء وقت صعود المسيح .

وبعد أسابيع عاد الراهب لورينى الى مهاجمة جاليليو فأرسل الى أحد الكرادلة بالمقر البابوى نسخة من رسالة جاليليو الى راهب عالم يدعى كاستيللى ، واتهم جاليليو باسم كل رهبان دير سان مارك بالمروق عن الدين ونسب اليه قوله « ان الأرض تتحرك بينما السماء ثابتة » وقوله « ان بعض آيات الكتاب المقدس لا تطابق الحقائق العلمية » ، وقوله « انه فى مناقشة الظواهر الطبيعية لا ينبغى الرجوع الى الكتاب المقدس الا فى آخر الأمر » . وطالب الراهب لورينى الكاردينال باتخاذ اجراء لحماية العقيدة وقمع الفتنة فى مهدهـا .

وهكذا قرر الفاتيكان بناء على هذه الشكوى اجراء تحقيق فى سرية تامة ، وكلف كبير أساقفة بيزا ورئيس لجنة التفتيش بها بالحصول « بطريقة ماهرة » على أصل رسالة جاليليو الى كاستيللى بخط جاليليو نفسه واحال الموضوع الى احد مستشاريه .

وكانت هذه هى العاصفة الأولى .

● ● ●

SS

٣

سنوات الصمت

□ تناول التحقيق الرسالة الموجهة من جاليليو الى كاستيللى واتهامات الزندقة الموجهة الى جاليليو ومدرسته ، وأسفر بعد فحص الرسالة أن الاتهام زوبعة فى فنجان .

قال تقرير مستشار الفاتيكان ، الذى كلف بفحص رسالة جاليليو الى كاستيللى ، انه لم يجد فى هذه الرسالة الا ثلاث عبارات سيئة التعبير ، منها مثلا قوله ان الكتاب المقدس به كثير من التعبيرات « الخاطئة » لو اخذت بمعناها الحرفى . غير ذلك فقد شهد التقرير بأن رسالة جاليليو « لم تنحرف عن التعبير الكاثوليكى » .

وكان هناك اتجاه لحفظ الموضوع لولا أن الأب كاتشينى حضر بشخصه الى روما متطوعا للشهادة ضد جاليليو فى ٢٠ مارس ١٦١٥ . واستشهد برجلين أحدهما هو الأب خمنيز والآخر هو الأب التافانتى ، ولكن الرجلين شهدا فى صالح جاليليو . قال التافانتى : « انا ما سمعت قط السنيور جاليليو يتفوه بأقوال معارضة للكتاب المقدس أو لعقيدتنا الكاثوليكية المقدسة ، غير أنى فى النطاقين الفلسفى ، والرياضى ، سمعت السيد المذكور يقول وفقا لمذهب كوبرنيك ان الأرض تدور حول نفسها وانها تتحرك أيضا حول الشمس ، وان الشمس كذلك تدور حول نفسها ولكنها لا تتحرك فى مجال شىء ، كما يتضح من بعض رسائله التى نشرها فى روما بعنوان « البقع الشمسية » والتى أوافقه عليها جملة وتفصيلا » .

وفى ٢٥ نوفمبر ١٦١٥ قرئت الشهادتان فى جلسة المجلس البابوى وقرر المجلس الا يتخذ اجراءات أخرى سوى دراسة كتاب « البقع الشمسية » ، وعنوانه الحقيقى « رسائل شمسية » ، لمعرفة أبعاد المشكلة .

وفى أوائل ديسمبر ١٦١٥ انتقل جاليليو متطوعا من فلورنسا الى روما ليشرح قضيته بنفسه أمام كرادلة الفاتيكان وأمام البابا .. وأمر كوسيمو دى مديتشى الثانى جيتشياردينى ، سفير توسكانيا فى روما ، أن يخصص له جناحا ممتازا فى السفارة وسكرتيرا وخادما خاصا وبغلة يركبها فى

تنقلاته ، كما كتب الى عدد من الكرادلة يوصيهم خيرا بجاليليو ، كذلك كان لجاليليو معارف عديدون بين الكرادلة المثقفين . وكان جاليليو عظيم التفاؤل بكسبه قضيته ولكن ما مر أسبوعان حتى صدر قرار المجلس البابوى بتحريم نظرية كوبرنيك . أما السفير جيتشياردينى فكان منذ البداية شديد التشاؤم لأنه كان أعرف بمراكز القوى المحافظة داخل الفاتيكان . وقد كتب منذ البداية الى فلورنسا محذرا من مجىء جاليليو الى روما .

وقد كان الأمر بالفعل أكبر من جاليليو وقضيته : كان فى الكنيسة حزبان كبيران حزب تقدمى يطالب بتفتح الكنيسة على العلوم والآداب الحديثة ، وحزب رجعى يخشى أن تزلزل العلوم والآداب الحديثة كيان الكنيسة وتزعزع العقيدة الدينية . وكان بين الفريقين صراع خفى ضار على السلطة داخل الفاتيكان ، ولم تكن شكاوى الراهبين الا مجرد واجهة لهذا الصراع .

وكان زعيم المتزمتين الكاردينال بللارمين الذى سبق أن رأيناه محقق محكمة التفتيش الذى استجوب جوردانو برونو عام ١٦٠٠ . وكان بللارمين يترصد لجاليليو منذ زيارته السابقة لروما فى ١٦١١ . نعرف هذا من رسالة أرسلها السفير جيتشياردينى فى ٥ ديسمبر ١٦١٥ لأحد الوزراء فى فلورنسا . قال جيتشياردينى ان نظريات جاليليو لم ترق لمجمع الكرادلة الى حد أن بللارمين هدد بأنه لو طالت اقامته فى روما فمن الممكن مساءلته على أقواله .. وكان السفير غير مرتاح لزيارة جاليليو لروما للدفاع عن نظرياته أو نظريات كوبرنيك . وقد أثبتت الأيام صحة هواجسه ، لأن الكرادلة الجزويت تخلوا عن جاليليو بعد أن بدا ميلهم الى تأييده .

وفى ١٥ مايو ١٦١٥ كتب الكاردينال دينى لصديقه جاليليو : « أنا أعلم أن الكثيرين من الجزويت متفقون معك فى الرأى فى السر ولكنهم يسكتون عن الحق فى العلن » . وقد انتهى أمرهم بالانسحاب من هذا الخلاف خوفا من أن انتصار نظرية كوبرنيك قد يهدم فلسفة أرسطو ، وهذا ما جعل جاليليو يحمل لهم البغض بعد ١٦١٦ . ولكن غير واضح ان كان تدهور الموقف نتيجة لعدوانية الرهبان الدومنيكان أو نتيجة لصمت الجزويت .

وفى ١٩ فبراير ١٦١٦ قدم المجلس البابوى الى علماء اللاهوت قضيتين للبت فيهما .

« (أ) أن الشمس هى مركز الكون وبناء عليه فهى لا تتحرك .

(ب) أن الأرض ليست مركز الكون وانها ليست ثابتة بل تدور حول نفسها وان هذا الدوران حركة يومية » .

وفى ٢٤ فبراير أعلن علماء اللاهوت بالاجماع ان القضية الأولى سقيمة وتجافى العقل من الناحية الفلسفية ، وانها تنطوى على كفر صريح من حيث تعارضها مع الأفكار الواردة فى الكتاب المقدس بمعناها الحرفى وكما فهمها آباء الكنيسة وفقهاء الدين . أما القضية الثانية فهى أيضا خاطئة من الناحية الفلسفية ، أما من الناحية اللاهوتية فهى على الأقل خاطئة من وجهة نظر العقيدة الدينية . وفى اليوم التالى قرىء هـذا القرار على مجمع الكرادلة فى اجتماعه العـام .

ومن المهم أن نذكر أنه لا القضية الأولى ولا القضية الثانية لهما أى ذكر بالنص الحرفى فى كتابات جاليليو أو كوبرنيك ، وانهما مجرد ترديد لاتهامات كاتشينى . فجاليليو لم يقل إن الشمس ثابتة لا تتحرك . ولكن كان واضحا أن ادانة هاتين القضيتين هى ادانة عامة لنظام كوبرنيك الكونى . وبعد أيام ابلغ الأمر البابوى بتحريم نظرية كوبرنيك الى مجلس المصـادرة . ففى ٥ مارس ١٦١٦ نشر المجلس قرار الادانة من ثلاث نقاط :

١ — سحب كتب كوبرنيك وديجو دى زوتييجا من التـداول حتى يتم « تصحيحها » .

٢ — ادانة كتب الأب فوسكارينى وتحريمها على وجه الاطلاق .

٣ — عدم ادانة كل الكتب التى تردد هذه النظريات ولكن تحريمها فى مجموعها .

ولم يرد فى القرار ذكر لأعمال جاليليو بالذات ولكنها اصبحت ضمنا محرمة . ولم يرد فى القـرار ادانة لرسائل جاليليـو الى الأب كاستيللى والكاردينال دينى وكريستين دى لورين زوجة كوسيمو دى مديتشى الثانى باعتبار أنها رسائل شخصية رغم أنها كانت تنسخ لتقرأ على نطاق واسع . كذلك لم تصدر ادانة لكتاب جاليليو « رسائل شمسية » رغم ان المجلس البابوى نظر فى أمرها فى جلسة ٢٥ نوفمبر ١٦١٥ . والمؤرخون يفسرون هذا التغاضى بعدم رغبة الفاتيكان فى اغضاب آل مديتشى سـادة فلورنسا أو ارهاق عالم كبير .

ومع ذلك ففى ٢٥ فبراير ١٦١٦ كلف البابا بول الخامس الكاردينال بللارمين باستدعاء جاليليو واخطاره بضرورة التخلى عن النظريات التى

ادانها الفاتيكان ، وفى حالة رفضه الانصياع لهذا الاخطار فقد كلف البـــابا الكاردينال بللارمين بأن « يحذره » فى حضور موثق وشهود أن يكف عن تعليم هذه النظريات المدانة او ان يحاول اثباتها عمليـــا ، اى باستخدام التليســـكوب .

وفى ٢٦ فبراير ١٦١٦ استدعى بللارمين جاليليو ، وفى حضور القوميسير البابوى طالبه فى محضر بالتخلى عن نظرياته ، ثم امره بعدها مباشرة بالامتناع عن تعلم او تعليم أو عرض هذه النظريات شفاهة او كتابة « باية صورة من الصور » . ويقول المحضر ان جاليليو وافق ووعد بالامتناع عن كل ما حرم عليه من افكار ، وبالتالى لم يكن هناك مجال للاشارة الى عقوبة السجن اذا خالف التحذير .

كان هذا المحضر محضرا خطيرا رغم انه غير موقع ، لأنه كان الأساس الذى بنيت عليه محاكمة جاليليو فى ١٦٣٣ . وهناك من يقـــول بانه محضر ملفق فى ١٦٣٣ اثناء المحاكمة وليس المحضر الاصلى المدون فى ١٦١٦ ، لأن فيه خروجا على القرار البابوى الذى لا يذكر « التحذير » من تعليم نظريات الفلك الجديدة الا فى حالة رفض جاليليو « التخلى » عن هذه النظريات . ثم ان القرار البابوى لم ترد فيه عبارة « باية صـــورة من الصور » التى يتضح فيها التزيد بقصد التصيد . ولكن فحص الوثائق بالأشعة فوق البنفسجية قد اثبت الآن ان المحضر مدون على ورق من نفس اوراق قضية ١٦١٦ . ومع ذلك فهذا لا ينفى أن الكاردينال بللارمين المتخصص فى صيد الزنادقة او سواه سحب المحضر الأصلى فى تلك الفترة نفسها ووضع مكانه هذا المحضر الغريب الذى لا يحمل توقيعا بقصد استخدامه مستقبلا كدليل على عصيان جاليليو للأمر البابوى .. والمعنى الحقيقى لقرار البابا هو أن جاليليو لو شاء التمسك بنظرية كوبرنيك فالكنيسة تنذره أن يحتفظ بأفكاره لنفسه ولا ينشرها بين الناس . « فالتحذير » ينصب على حالة واحدة وهى الترويج لنظريات الفلك الجديدة .

والمفهوم من المحضر ان جاليليو وعد باطاعة امر الكنيسة او البـــابا فيما يمس تعليم الفلك الجديد لا ان جاليليو تراجع عن معتقداته . ومع ذلك فقد اتخذ اعداء جاليليو من هذا المحضر وسيلة للتشهير به ، فذهبوا يشيعون فى كل مكان ان جاليليو تراجع عن كل نظرياته السابقة امام الكاردينال بللارمين لاثبات ضعفه الخلقى أو زيفه العلمى ، حتى اضطر جاليليو أن يحصل على شهادة من الكاردينال بللارمين تبرىء « السنيور جاليليو من التراجـــع عن

ss

آرائه أو نظرياته أمامنا أو أمام الغير ، فى روما او فى غيرها ، فى حـــدود علمنا » ، وتشهد بأن :

« كل ما حدث هو انه ابلغ بقرار البـــابا الذى اعلنه مجلس التحريم المقدس ، وهو القرار الذى جاء فيه ان النظرية المنسوبة الى كوبرنيك والقائلة بأن الأرض تدور حول الشمس بينما الشمس ثابتة فى مركز الكون دون أن تتحرك من الشرق الى الغرب ، نظرية منافية للكتاب المقدس وبناء عليه لا يجوز الدفاع عنها ولا اعتناقها » .

والشهادة مؤرخة ٢٦ مايو ١٦١٦ وتقول ان الغرض منها تبرئة جاليليو ازاء المشهرين به .

عاد جاليليو الى فلورنسا فى يونيو ١٦١٦ ، وتلت عودته سنوات من الصمت .. كان فى ١٦١٦ قد نشر كتابه « حديث عن المد والجزر » . وعاد جاليليو الى دراساته الفلكية ، فأخذ يتعمق فى رصد توابع جوبيتر بالتليسكوب ورصد كسوفها وخسوفها ومحاقها وتقابلها وتقاطعها للاعتماد عليها فى تحديد خطوط الطول والعرض بدلا من الاعتماد على كسوف الشمس وهو نادر الوقوع .

وفى نوفمبر ١٦١٨ ظهرت ثلاثة مذنبات .. والقى جاليليو أمام اكاديمية فلورنسا بحثا اسمه « حديث المذنبات » رأى فيه أنها مجرد ظواهر بصرية مثل قوس قزح أو الهالات ، ثم تبين فساد رأيه .

وفى ١٦٢١ مات راعيه كوسيمو دى مديتشى الثانى غراندوق توسكانيا. وفى ١٦٢٣ انتخب صديقه الكاردينال بربرينى بابا ، واتخذ اسم أوربان الثامن وذلك بعد وفاة بول الخامس . وفى ١٦٢٣ نشرت اكاديمية روما لجاليليو كتابه عن المذنبات بعنوان « المجتهد » وأهدته للبابا الجديد ، وهو كتاب ملىء بالأخطاء . ولكن أعداء جاليليو كفوا عن ايذائه بسبب صداقته للبابا الجديد .

وقرر جاليليو أن يزور البـــابا أوربان الثامن شخصيا بعد تهنئته ، فوصل روما فى ٢٣ ابريل ١٦٢٤ ، وحاول جاليليو ان يجعل البـــابا يعدل موقف الكنيسة من نظـــرية كوبرنيك ، ولكنه لم يستطع أن يستخلص منه تصريحا واحدا فى هذا الاتجاه رغم أن البابا استقبله ست مرات خلال شهر ونصف . وكان أوربان الثامن يقول : حتى ولو اشارت دلائل عديدة الى أن الأرض هى التى تدور حول الشمس ، فانه من الممكن نظريا للقدرة الالهية المطلقة أن تعكس الأمر بمعجزة وتصل الى نفس النتائج فتجعل الشمس تدور

حول الأرض كما يقول الكتاب المقدس . واشتهرت نظرية « المعجزة الالهية » فى تاريخ الفلك بأنها نظرية أوربان الثامن .

وأعلن الكاردينال زولر : « أن الكنيسة المقدسة لم تحكم بادانة نظرية مركزية الشمس ولم تفكر فى تحريمها بوصفها هرطقة ، وانما ادانتها لمجرد كونها اجتراء .. ومع ذلك فهناك ما يدل على أنه يمكن لأحد أن يثبت صحة هذه النظرية صحة قاطعة » . وبدأ الأمل يراود جاليليو بامكان تعديل موقف الكنيسة .

وفى هذه الأثناء اخترع جاليليو الميكروسكوب عام ١٦٢٤ .

ومنذ ازمة ١٦١٦ كان فرانشيسكو انجولى ، وهو من اشد اعداء الكوبرنيكية .. قد نشر هجوما ضاريا على الفلك الجديد . وبعد تولى أوربان الثامن كتب جاليليو « الرد على أنجولى » ، وهو رسالة مطولة فى الدفاع عن الكوبرنيكية لم تطبع ولم يرسلها جاليليو الى انجولى ، ولكن يبدو أنها كانت موجهة الى البابا وأنها كانت تتداول فى الأوساط العلمية . وقد عاد فيهما جاليليو الى الدفاع عن الفلك الجديد ولكن بلغة أشد احتياطا عن ذى قبل ومع عدم التعرض للاهوت .

وفى ١٦٢٧ بدأت تتكاثر عليه المشاكل العائلية ، فعاد أخوه ميكلانجلو بأسرته الكبيرة المكونة من زوجة وسبعة ابناء ، وعاش عبئا على جاليليو ، ثم مات ميكلانجلو فى يناير ١٦٣١ فازداد العبء .. وفى ١٦٢٨ حصل ابنه فنشنتزيو على ليسانس الحقوق فى جامعة بيزا وتزوج فى ١٦٢٩ . وفى ١٦٣١ أجر جاليليو فيللا اسمها « الجوهرة » بجوار دير سان ماتيو ليكون على مقربة من بنتيه الراهبتين .. وهى الفيللا التى حددت الكنيسة اقامته فيها فى ديسمبر ١٦٣٣ بأمر البابا .

وفى يناير ١٦٣٠ أتم جاليليو كتابه عن « المد والجزر » بعد ست سنوات من العمل ، وهو فى صورة حوار . وسمع جاليليو أن أوربان الثامن استقبل كامبانيللا وقال له عن تحريم كوبرنيك : « ان مثل هذه الفكرة لم تدخل فى نوايانا .. ولو كان الأمر يتوقف علينا لما صدر هذا القرار » .

وفى أواخر مارس ١٦٣٠ ذهب جاليليو الى روما ليعرض مخطوطه على السلطات الكنسية بقصد أن تقر نشره . وكان متفقا أن تنشره اكاديمية روما ولكن موت مؤسسها الأمير تشيزى فجأة جعل الأكاديمية تتنصل من نشر الكتاب رغم أن جاليليو حصل على موافقة مبدئية من الكنيسة على هذا النشر . واقتنع جاليليو بنشر كتابه فى فلورنسا حيث كان من السهل عليه الحصول على ختم الرقيب المدنى ، انتظارا لرأى كنيسة روما النهائى .

وهنا تحرك أعداء جاليليو فطلبت روما نص الكتاب لتفحصه من

جديد . وخاف جاليليو واقترح أن يعرض النص على ممثل التفتيش الكنسى فى فلورنسا ، فوافقت روما بشرط أن يعرض عليها نص المقدمة والخاتمة .

وتلكأت روما فى مراجعة الكتاب ، ولكنها فرغت أخيرا من ملاحظاتها وتعديلاتها بضغط شديد من سفير توسكانيا فى روما واسمه نيسكولينى ، واشترطت عدم ذكر « المد والجزر » فى عنوان الكتاب ، وابلغت كل ذلك الى مندوب التفتيش فى فلورنسا فى يوليو ١٦٣١ ، بل وكتبت للكتاب مسودة مقدمة لا يخرج جاليليو عن معانيها . واخيرا صدر الكتاب فى ٢١ فبراير ١٦٣٢ فى فلورنسا بعنوان : « حوار النظامين العظيمين ، البطلمى والكوبرنيكى » .

وفى هذا الحوار تشترك ثلاث شخصيات منها شخصيتان حقيقيتان ، هما نبيل من فلورنسا اسمه فيلليو سالفياتى (١٥٨٣—١٦١٤) كان جاليليو قد أهدى اليه كتابه « رسائل شمسية » ، ونبيل من البندقية اسمه ساجريدو (١٥٧١ — ١٦٢٠) ، أما الشخصية الثالثة فهى شخصية وهمية اسمها « سمبليتشيو » بمعنى « الساذج » وهو نموذج للمفكر الأرسطاطاليسى المتحجر . ويدور الحوار بينهم لمدة اربعة أيام فى قصر ساجريدو .

وفى اليوم الأول يبدأ الحوار بنقد نظرية كمال بعض الأرقام عند المشائين من أتباع أرسطو وعند فيثاغورس وأتباعه ، مثل العدد ٣ . ويتناول نقد الفيزياء الارسطاطاليسية القائمة على التمييز بين الأرض والسماء ومحاولة ارسطو اثبات أن مركز الأرض هو مركز الكون . أما اليومان الثانى والثالث فالحوار فيهما يدور حول دوران الأرض اليومى حول محورها ودورانها السنوى حول الشمس . وفيه تسفيه لأرسطو وبطليموس وتيكو براهى وانتصار لكوبرنيك . وكذلك يدور حول حركة الكواكب السيارة وتوابعها . أما حوار اليوم الرابع فقد كان يدور حول المد والجزر . وفيه يهاجم جاليليو نظرية كبلر فى جذب القمر لمياه الأرض . وكان جاليليو يرى أن المد والجزر نتيجتان ميكانيكيتان لدورتى الأرض .. وهو رأى خاطىء طبعا .

ولم يكن هذا الحوار عملا فلكيا ولا فيزيائيا موجها للعلماء بقدر ما كان عرضا إدبيا تعليميا تنويريا رائعا موجها للمثقفين العاديين . وقد كتب باللغة الايطالية الدارجة وليس باللاتينية ليكون فى متناول افهام الجميع .

وكان لجاليليو هدفان من كتابه « حوار النظامين العظيمين » : أولهما هو نشر نظريات الفلك الحديث بين المثقفين حتى يتخلوا عن الخرافات الفلكية التى ورثوها عن العصور الوسطى وعن العالم القديم . أما الهدف الثانى فقد كان تحذير الكنيسة من خطورة الجمود والاستمرار فى تبنى النظريات الخاطئة ومعارضة العلم الحديث .. وقد حقق جاليليو هدفه الأول . اما هدفه الثانى فقد جاء بنتيجة عكسية .

SS

٤

مأساة عالم

□ بمجرد أن طبع جاليليو كتابه الشهير « حوار النظامين العظيمين : نظام بطليموس ونظام كوبرنيك » بدأت المؤامرات تحاك من حوله يغذيها الأب شاينر وأعداء جاليليو من الآباء والكرادلة الجزويت المهتمين بالفلك القديم والجديد . واقتنع الدساسون البابا أن جاليليو فصل شخصية « الساذج » فى محاوراته على سمته ، بسبب نظرية أوربان الثامن بأن القدرة الالهية جعلت الشمس تدور حول الأرض وغيرت دورة الأفلاك على سبيل المعجزة لتثبت قدرة الله على خرق قوانين الطبيعة .

بل أكثر من هذا . فقد راجت شائعة تقول ان صدور الكتاب عن « دار السمكات الثلاث » فى فلورنسا كان فيه تعريض باطنى بالبابا لأن فيه اشارة رمزية الى أولاد أخته الثلاثة الذين كان يحابيهم البابا وينهب لهم أملاك الكنيسة لكى يثروا . وكان البابا أوربان الثامن مشهورا بأنه واسع الثراء وبالفعل بدأ الفاتيكان يتحرى عما فى هذا الرمز من معنى .

وهكذا غضب البابا على جاليليو رغم أنه كان من أصدقائه . ولكن الاكتفاء بهذه التفسيرات الشخصية تبسيط للأمور . فقد كانت الصورة أعقد من كل ذلك لأن فيها جانبا سياسيا حرض البابا لاذلال غراندوق توسكانيا ، وعاصمتها فلورنسا .. فقد كان البابا يتبع سياسة موالية لفرنسا ومعادية لحلف أسرة هابسبورج ولأسبانيا ، وفى ١٦٣٢ تجرأ الكاردينال جاسبار بورجيا سفير أسبانيا وأتهم البابا أوربان الثامن علنا فى اجتماع عام بأنه يحمى الكفار وانه ناقص فى غيرته « الرسولية » وأنه ليس اهلا للبابوية كما كان سلفه . وكان أوربان الثامن سىء السمعة على المستوى الشعبى بسبب الفساد والتكالب على الماديات ومحاباة اقربائه .

كان البابا فى موقف خطر فأخذ يستأسد فى وجوه من كان يدخلهم فى عداد الأعداء .. وقد كان غراندوق توسكانيا يدخل فى عداد الأعداء بهذا المقياس لأنه كان من أنصار التحالف مع المانيا وأسبانيا لا مع فرنسا ، قائدة الحركة الانسانية فى أوربا فى القرن السادس عشر . وكانت وسيلة البابا فى ذلك هى اذلال غراندوق توسكانيا بابداء الصرامة فى معاملة أكبر عالم يرعاه الغراندوق فى بلاطه .. الا وهو جاليليو .

SS

وبدأ الردع بخطـــاب كتبه الأب ريكاردى الى قوميسير التفتيش فى فلورنسا ، ويدعى ايجيدى ، يقول ريكاردى فيه ان كتاب جاليليو وصل وهو يشتمل على اشياء عـــديدة لا يرضى عنها « سادتنا » ، وهم على كل حال يرغبون فى اجـــراء تعديلات فىالكتاب : « وبناء عليه فهذا أمـــر من البابا المعظم ، أن يصادر هذا الكتاب ، وأن يمنع من التداول حتى يخطـــرك المقر البابوى بمواطن التصويب . وأهم من هـــذا وذاك الا يسمح للكتاب بالخروج من فلورنسا . هـــذا أمـــر البابا ولـــكن لا تذكر الا أسمى فى هـــذا الشأن ، على أن تتفاهم مع القاصد الرسولى فى فلورنســـا وان تتصرف بمنتهى اللين حتى تصل الى الغرض المقصود » . لقد كانت صداقة جاليليو للبابا تستدعى هـــذا اللين .

وفى ٧ اغسطس ١٦٣٢ أرســـل الأب ريكاردى خطابا آخـــر مؤكدا ضرورة اســـتعمال منتهى اللين مع الاستفسار عن عـــدد النسخ المطبوعة وعن مكانها حتى يمكن جمعها . واحتج غراندوق توسكانيا على هذه المصادرة واعتبرها عـــدوانا عليه ، فكتب أحـــد وزرائه الى سفير توسكانيا فى روما فى ٢٤ اغسطس ١٦٣٢ يقول ان كتاب جاليليو قدمه مؤلفه بنفســـه الى السلطات الدينية والكتاب يحمل كل أختام الموافقة المطلوبة للنشر ، ويذكر أن الكتاب قرىء ثم أعيدت قراءته وتم تصحيحه وتعديله بالحـــذف والاضافة بمنتهى العناية ، بل أن المؤلف نفسه هو الـــذى كان يلح فى اجراء التصويبات والتعديلات اللازمة ، ولـــذا فان قرار المصادرة قـــرار غير مفهوم .

وكانت اول خطـــوة اتخذها الفاتيكان احالة الكتاب الى لجنة خبراء لتقرر اذا ما كان الكتاب يحبذ الكوبرنيكية فعـــلا كما يدعى خصوم جاليليو ، برغم المقدمة والخاتمة اللتين تدينان الكوبرنيكية ، وهما من اضافات رجال الكنيسة فى روما ، وقـــد قبلهما جاليليو تفاديا لكل سوء ظن .

وبعرض راى الخبـــراء على المجلس البابوى بـــدات محاكمة جاليليو التى انتهت فى ١٦٣٣ بسجنه وهو فى سن السبعين ثم بتحـــديد اقامته مـــدى الحيـــاة .

وفى ٢٥ سبتمبر ١٦٣٢ كتب الكاردينال أنطونيو بربرينى ، اخـــو البابا ، الى مفوض التفتيش فى فلورنسا ، يأمره باستدعاء جاليليو الى مكان فيه شهود وموثق ، دون أن يوضـــح له سبب حضـــور الشـــهود ، ثم ابلاغه بأمر حضـــوره الى روما فى خـــلال شـــهر اكتوبر ليكون تحت تصرف القوميسير العـــام للمقر البابوى . وقـــد تم هـــذا الاستدعاء فى أول اكتوبر ١٦٣٢ ، ودون جاليليو علمه بهذا الاستدعاء ووعد بالمثـــول بنفس راضية .

وكانت نفس جاليليو راضية الى حد انه كتب الرسائل لكل أصدقائه الأقوياء يطلب منهم التوسط لتأجيل سفره الى روما بسبب اعتلال صحته وشيخوخته وانتشار الطاعون فى الطريق من فلورنسا الى روما . كل هذا لم يجد شيئا . كذلك عبثا توسط السفير نيكولينى أن يتم الاستجواب فى فلورنسا بدلا من روما .

وفى أول يناير ١٦٣٣ أرسل الكاردينال أنطونيو بربرينى الى قوميسير التفتيش فى فلورنسا يستحثه أن يحسم الأمر ، قائلا :

« ان مجمعنا البابوى المقدس لا يقر عصيان جاليليو جاليلى للأمر الصادر اليه بالحضور الى روما على وجه السرعة ، ولا ينبغى له أن يتعلل بقسوة الشتاء لأنه المسئول عن اضطراره للسفر الآن . فان هو حاول أن يتستر للعصيان بدعوى المرض فانه سوف يسىء التصرف . ان قداسة البابا ونيافة الكرادلة الذين اتحدث باسمهم لا يريدون التسامح مع هذه الادعاءات بأى حال من الأحوال . وبناء عليه فيجب على نيافتك ابلاغ جاليليو انه اذا لم يصدع بالأمر فورا ، فسوف نرسل الى فلورنسا أطباء ليقبضوا عليه ويقودوه مكبلا بالأغلال الى سجون هذه المحكمة العليا ، لأننا نرى أنه حتى الآن قد أساء استغلال طيبة مجمعنا الذى سيتكفل بكافة نفقات هذه القضية . فتفضلوا بالعمل بما هو محدد فى هذا الأمر وابلاغنا بتنفيذه » .

وحاول جاليليو التسويف مرة أخرى ، وهرع الى غراندوق توسكانيا ليستنجد به ، ولكن الغراندوق تملص بلباقة ووعد جاليليو بأن يضع تحت تصرفه مركبة من مركباته وسائقا يتصف بالتكتم . ثم أن سمو الغراندوق يود أن ينزل جاليليو ضيفا على السفير نيكولينى لمدة شهر حتى تنتهى قضيته . ما أبعد الفرق بين هذا الغراندوق الجديد والغراندوق كوسيمو دى مديتشى الثانى الذى كان يحمى جاليليو فى بلاطه .

وهكذا سافر جاليليو الى روما فى ٢٠ يناير ١٦٣٣ فى زمهرير الشتاء ، فوصلها فى ١٣ فبراير وهو فى غاية الاجهاد . ولكنه وجد عند السفير وزوجته حفاوة بالغة ودفئا عظيما . وحين انقضى شهر الضيافة على نفقة الغراندوق أصر السفير وزوجته أن يكون جاليليو ضيفهما الشخصى .

وبعد مشقة سمحت الكنيسة لجاليليو بالاقامة فى دار السفير نيكولينى بدلا من اعتقاله على الفور واحتجازه فى سجن الفاتيكان ، ولكنها اشترطت عليه ألا يغادر المكان أو يستقبل أصدقاءه . وبقى هناك نحو شهرين

دون أن يستجد شيء ما . وأرسل له الفاتيكان كاردينالا فى الظاهر ليواسيه ، ولكن فى الواقع ليتجسس عليه ، حتى يعرف منه خطط دفاعه فيرتب الفاتيكان التهم المناسبة .

كان كل شيء يـدور فى تكتم كامل .. وحاول السـفير نيكولينى أن يعرف الموضوع بوسائله الخاصة ، وأخيرا عرف أن الاتهام يـدور حول خرق التعهد الـذى قطعه جاليليو على نفسه عـام ١٦١٦ فى المواجهة بينه وبين الكاردينال بيللارمين بأمر البابا الا يدعو لنظرية كوبرنيك فى الفلك أو يدافع عنها ، كما يدور حـول تجاهله فى كتابه الأخير « حـوار النظامين العظيمين » للتحذير البابوى المثبت فى محضر ١٦١٦ وهو المحضر الخالى من التوقيعات . وابلغ السفير نيكولينى غراندوق توسكانيا بذلك .

ولمـا علم جاليليو بهذا استهان بالأمر وظن أنه بمأمن . وهـذا ما دفع البعض الى الاعتقاد أن محضر التحذير محضر مزيف سواء فى ١٦١٦ أو فى ١٦٣٣ لاضطهاد جاليليو بتهمة الاستخفاف بالتحذير البابوى .

بل لقد بلغ من سذاجة جاليليو انه اخـذ يتصور ان هـذه سـوف تكون فرصة مواتية له للدفاع عن قضية دوران الأرض ولاقناع الكرادلة بالتخلى عن آرائهم الجامدة ، واقنـاع القضاة بأنه ضـحية مؤامرة حاكها له أعداؤه من العلماء الجزويت مثل الأب شاينر ، الذين كانوا يسرقون أفكاره قبل تدوينها وينسبونها الى انفسهم .

اما السفير نيكولينى فقـد صارح جاليليو بالخطر المحـدق به ، ونصحه بألا يتكلم فى دفاعه عن نظرية كوبرنيك ودوران الأرض أو أن يدافع عن آرائه العلمية ، بل ان يقفل كل هـذه الأبواب المفتوحة وأن يوافق الكنيسة على كل ما تقوله . بل ان السفير نفسـه ، رغم صداقته لجاليليو ، لم يفهم سر اصرار جاليليو على « اعطاء أهميـة خاصة لموضـوع دوران الأرض » . وكان أحيانا يراه غاية فى الاكتئاب الى حد يدفعه للقلق على حياته .

وفى أوائل ابريل عرف نيكولينى أن جاليليو سوف يستدعى وشيكا الى المقر البابوى حيث يبقى متحفظا عليه لأيام عددها غير معروف ، وحذر هـذا السفير الواقعى العليم ببواطن الامور هـذا العالم المثـالى الجليل الذى لم يكن له الا حلم واحـد هو ازالة الحواجز بين العلم والدين واقناع الكنيسة بقبول العلم الحديث ، حـذره من اى كـلام قد يزيد الموقف التهابا .

وفى ١٢ ابريل ١٦٣٣ قـدم جاليليو نفسـه للمقـر البابوى ، ولم يكن يعلم انه سيحتجز هنـاك الى آخـر الشهر . ولم تكن هناك مناقشات

علمية أو فلسفية بل كانت هناك مناورات ماكرة للايقاع بجاليليو فى فخ الكفر والخروج عن طاعة الكنيسة والحنث بالعهد ، ومناورات ساذجة من جانب جاليليو المسكين للفرار من هذا الفخ .

كانت مشكلة الكنيسة هى أن كتاب « حوار النظامين العظيمين » قد صدر بكل الموافقات التى اقتضتها الكنيسة وبكل الشروط التى فرضتها ، وكان اهتمام جاليليو بالحصول على تلك الموافقات وبقبول كل تلك التعديلات أن ذلك سوف يعنى اعطاء الضوء الأخضر للعلماء المهتمين بالفلك الجديد وان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لن تتعرض لهم بالمنع فى المستقبل .

ولم تجد الكنيسة حلا الا استغلال محضر ٢٦ فبراير ١٦١٦ بين جاليليو والكاردينال بيللارمين ، واتهام جاليليو بخرق نصوصه بأنه قصد عامدا متعمدا عدم ابلاغ الأب ريكاردى رقيب الفاتيكان بوجود هذا التحذير السابق (!) وكانت الصعوبة هى ان جاليليو لم يوقع هذا المحضر كما ان الشاهد البابوى لم يوقعه ، فكان الايقاع يتركز فى استخلاص اعتراف شفوى من جاليليو فى ١٦٣٣ بوجود هذا الحظر والتحذير فى ١٦١٦ وبعلمه بهما وقبوله لهما . وانكر جاليليو وجود هذا « التحذير » ، وسماه « ابلاغا » بقرار البابا ، وأنكر وجود شهود ، وانما قال انه كان هناك رهبان كثيرون يروحون ويجيئون فى القاعة . ولكنه اعترف بوجود القرار البابوى . وعندما سئل : لماذا لم يبلغ ذلك للأب ريكاردى حين سلمه المخطوط لمراقبته والحصول على تأشيرة « لا مانع من النشر » ، اجاب جاليليو بانه لم ير ضرورة لذلك ، ثم ان كتابه يقول ان ادلة كوبرنيك غير دامغة . وبهذه العبارة الأخيرة افسد جاليليو دفاعه .

وكانت جلسة الاستجواب الثانية فى ٣٠ ابريل ١٦٣٣ . وظل جاليليو سجينا لا فى سجن الفاتيكان ، ولكن فى جناح الكاردينال المحقق ، وقد كان جناحا مريحا . وفى جلسة ٣٠ ابريل اعترف جاليليو بأن فى كتابه اتجاهات كوبرنيكية ونسب الى نفسه غرور العلماء وحبهم للمعان ولو على حساب الحقيقة . وحين اقر جاليليو بهذا الاعتراف افرج عنه على ان يلزم دار السفير لا يبارحها .

وفى ١٠ مايو استدعى جاليليو من جديد للمقر البابوى ليقدم دفاعا مكتوبا خلال ثمانية ايام وكان قد اعد مذكرة فى ذلك قدمها للمحكمة واضاف : « وكل ما بقى لى أن اقوله هو انى اترك نفسى فى كل شىء لعدالة المحكمة واضع نفسى تحت رحمتها المعروفة للجميع » .

وهكذا اكتملت ادلة ادانة جاليليو باعترافه بمحضر ٢٦ فبراير ١٦١٦ . ومر شهر آخر للبحث فى « نوايا جاليليو » قبل صدور الحكم . وفى ٢٠ يونيو استدعى لاستجوابه فى « معتقداته » ، وفى ٢١ يونيو تعرض لما يسمى « الامتحان الصعب » ، وكان هذا الامتحان يبيح تعذيب المتهمين ليقروا بالحقيقة كاملة ، ولكن غير ثابت أن جاليليو تعرض لهذا التعذيب ، وكانت كل اجابات جاليليو انكارية ، قال : « أنا لا اشارك فى راى كوبرنيك ، ولم اشارك فيه منذ أن أبلغت رسميا بوجوب التخلىعنه . ولم يبقى الا انى هنا بين أيديكم فأفعلوا بى ما تشاءون » .

بعد هذا لم يفرج عن جاليليو بل احتجز فى أحد سجون البابوية . ومن هناك نقل فى٢٢ يونيو الى القاعة الكبرى فى دير الدومنيكان فى سانتا ماريا ديللا مينرفا . وأمام المجمع المقدس قرىء عليه الحكم : وهو يتضمن مصادرة كتاب « حوار النظامين العظيمين » والحكم بالسجن على مؤلفه رهن رغبة البابا ، كما حكم على جاليليو ان يقرا مرة كل اسبوع مزامير التوبة السبعة لمدة ثلاثة شهور ، واحتفظ البابا لنفسه بحق تخفيف الحكم أو تعديله أو الغائه جملة .

وبحسب تقاليد ذلك الزمان ، جثا جاليليو على ركبتيه وأعلن الاستنكار التالى :

« أنا جاليليو بن فنتشنتزيو جاليلى من فلورنسا ، البالغ من العمر سبعينعاما ، الحاضر امامكم والجاثى فى حضرتكم ، يا نيافة الكرادلة وقضاة التفتيش العاملين باسم كل العالم المسيحى ضد كل انحرافات الزندقة ، وأمام عينى الانجيل المقدس الذى أمسكه بكلتا يدى ، أقسم بأنى كنت دائما أؤمن ، وبأنى الآن أؤمن ، وبمعونة الله سوف أؤمن دائما بكل ما تقبله الكنيسة الكاثوليكية الرسولية المقدسة ، وبكل ما تعظ به ، وبكل ما تعلمه .

« وهذا المجمع البابوى نفسه سبق أن وجه الى رسميا وقانونيا امرا بالتخلى تماما عن الراى الزائف القائل بان الشمس هى مركز العالم وإنها لا تنتقل من مكانها . وحظر على تصديق هذا المذهب الزائف أو الدفاع عنه أو تعليمه بأية صورة من الصور ، شفاها أو كتابة ..

« ورغبة منى فى أن اقتلع من اذهان نيافتكم ومن اذهان كل المسيحيين المؤمنين هذه الريبة القوية فى عقيدتى ، وهى ريبة فى موضعها ، فانى بقلب صادق وبنية خالصة تماما ، استنكر هذه الأخطاء والزندقات المذكورة ،

وبوجه عــام كل الأخطاء والزندقات والمعتقدات المتعارضة مع الكنيسة المقدسة . . . الخ . تحرر هــذا فى دير مينرفا فى ٢٢ يونيو ١٦٣٣ » .

وهناك قــول شائع ولكنه غير موثق بأن جاليليو ما أن فرغ من تــلاوة هــذا الاستنكار حتى نهض واقفا وضرب الأرض بقدمه صائحا « ايبور سى مووى » ، ومعناها « ومع ذلك فهى تدور » ، وهى من أشهر العبارات التى دخلت الفولكلور العلمى .

وبمجرد صدور هذا الحكم خففه على الفور الكاردينال بربرينى الى تحديد اقامة جاليليو فى حديقــة ترينيتيه دى مون حيث نقله نيكولينى ســـفير توسكانيا . وفى ٣٠ يونيو وافق البابا على طلب السفير أن تحــدد اقامة جاليليو لا فى روما ولكن فى توسكانيا حيث ينزل ضــيفا سجينا على كبير أساقفة مدينة سيينا وهو من أصــدقاء جاليليو . وهكذا رحل جاليليو عن روما فى ٦ يوليو ١٦٣٣ ووصل سيينا بعد ثلاثة أيام . وقــد مكنه هــذا الترتيب من رعاية مصــالحه فى توسكانيا ومن الحيــاة بالقرب من ابنتيه الراهبتين .

وهكذا اقتربنا من النهاية ، فقد قضى جاليليو السنوات التسع الأخيرة من حياته فى عزلة نسبية عاكفا على بحوثه العلمية النظرية بعد أن تخلى تماما عن كل محاولة لتنوير الناس وزيادة وعيهم بالفلك الجــديد (فقد توفى فى بيته ببلــدة ارتشــيترى فى ٨ يناير ١٦٤٢ بعد أن أصــيب بالعمى فى أواخر عمره) .

بــدأ جاليليو حياته الجديدة فى سيينا يملؤه الشعور بالاحباط والمرارة ، ولكن صــديقه الكريم ، اسكانيو بيكولومينى كبير أساقفة سيينا ، سرعان ما جعله يحس بأن القصر الأسقفى لم يكن معتقــلا بل جامعة حـــرة . فأخذ ينظم له « زيارات مستمرة » يقــوم بهــا صفوة الناس لجاليليو ليستفسروا منه عن المشكلات العلمية . فاذا بجناح جاليليو يتحول الى ندوة علمية دائمة . واسترد جاليليو ثقته فى نفســه لكثرة ما رأى من تبجيل الناس له فزال عنه الاكتئاب ــ واقبل على البحث العلمى من جديد .

وعاد أعــداء جاليليو للكيد له وكثرت شكاواهم للفاتيكان تتهمه وتتهم كبير الأساقفة بنشر الزندقة فى سيينا ، ولكنها كانت شكاوى من مجهولين . ولم يستطع الفاتيكان تجاهل هذا اللغط فوجد الحــل فى ابعاد جاليليو عن سيينا . وفى أول ديسمبر ١٦٣٣ قرر البابا اجابة جاليليو الى مطلبه ، وهو أن تحدد اقامته فى بيته فى فيللا ارتشيترى بجوار فلورنسا حيث يمكن لابنتيه

الراهبتين أن تزوراه يوميا . وعرفت نفس جاليليو السكون ولكنه سرعان ما رزىء فى ربيع ١٦٣٤ بوفاة أبنته الكبرى التى كانت تحيطه برعايتها . فعاد الى عزلته المريرة لأن أبنته الصغرى كانت من التفاهة بحيث لم تكن تبدى اكتراثا لما كان يجرى لأبيها العظيم .

وكان الحصار المضروب حول جاليليو حصارا جديا . حتى تلامذته القدامى عجزوا عن زيارته الا بأذن من روما وفى حضور مندوب عن الكنيسة ، تحسبا لتجدد مدرسة جاليليو . ومع ذلك فقد نجح فى زيارته عديد من العلماء الأجانب ما بين ١٦٣٤ و ١٦٣٨ وانشغل جاليليو فى اكداس من المراسلات مع العلماء والمترجمين والناشرين خارج ايطاليا (فى فرنسا وهولندا والمانيا) . وفى ١٦٣٨ صدر فى لايدن كتاب جاليليو المعروف « حوار العلوم الحديثة » (فى الميكانيكا) .

وانطفأ نور عينه اليمنى ثم لم يلبث أن فقد الابصار تماما . وفى ١٦٣٩ سمحت الكنيسة لعالم شاب اسمه فيفيانى ان يرافق جاليليو فى ايامه الأخيرة ويدون ما يلقيه من ملاحظات ونظريات علمية . وفى أكتوبر ١٦٤١ سمحت الكنيسة لعالم شاب آخر ، هو العلامة الشهير توريتشيللى ان يلازم جاليليو أيضا فى أيامه الأخيرة . وقد حفظ لنا هذان العالمان الشابان كثيرا مما أملاه جاليليو فى ختام حياته .

ولم يرتفع غضب الكنيسة عن جاليليو حتى بعد وفاته ، فرفضت أن تقام له مقبرة تذكارية فى فلورنسا ، فلم تقم هذه المقبرة الا عام ١٧٣٧ ، اى بعد وفاته بمائة عام .

أما غضب الكنيسة على أفكار جاليليو فقد استمر حتى ١٧٥٧ ، وهو تاريخ سحب قرار تحريم الأعمال التى تعلم الناس نظرية دوران الأرض حول الشمس .

●●●

كامبانيلا

CAMPANELLA

١٥٦٨ ـ ١٦٣٩

١

المدينة الفاضلة

□ فى عصر النهضة الاوروبية شاع بين المثقفين نوع من الأدب الاجتماعى والسياسى والاخلاقى هو أدب « المدينة الفاضلة » ، وهو تصور أدبى فلسفى لقيام الجمهورية المثلى التى يتحقق فيها للانسان أقصى الرقى والسعادة وسلام النفس ، قياسا على تجربة افلاطون فى «الجمهورية» ، وعلى تجربة القديس أوغسطين فى « مدينة الله » ، وعلى تجربة الفارابى فى « المدينة الفاضلة » ، وربما تجربة ابن طفيل فى « حى بن يقظان » ، وعلى تجربة توماس مور فى « المدينة الفاضلة » (يوتوبيا أو الطوبى) ، وعلى تجربة فرانسيس بيكون فى « اطلنطيس الجديدة » ، وغيرها .

وقد أضاف كامبانيلا تجربته الهامة فى « مدينة الشمس » الى احلام الفلاسفة فى تصور نظام اجتماعى يقيم الجنة على الأرض أو يحقق الفردوس الارضى كما يقولون .

ولد جيوفانى دومنيكو كامبانيلا عام ١٥٦٨ فى بلدة ستيلو من أعمال اقليم كالابريا فى جنوب ايطاليا . وكان غلاما معجزة ، ففى سن الثالثة عشرة كان قد قرأ أكثر اعمال التراث اللاتينى فى عصره الكلاسيكى باللاتينية وفى ١٥٨٢ دخل فى سن الرابعة عشرة دير بلاكانيكا والتحق بسلك الرهبان الدومنيكان بعد عام وسمى نفسه الفرير (الأخ) توماسو كامبانيلا ، تيمنا باسم الفقيه الدينى الشهير القديس توماس الأكوينى .

درس كامبانيلا العلوم والفلسفة فى مدرسة الفقيه تيليسيو فى مورجنتيا ، كما درس اللاهوت فى كوزنتزا بعد أن ترك ديره عام ١٥٨٨ ، أى وهو فى سن العشرين . وفى معهد كوزنتزا كان الرهبان يتداولون الكتب المحرمة ، وعندهم قرأ كامبانيلا اعمال الفقيه تيليسيو ، وهو معلم كبير الشأن فى جنوب ايطاليا كان مولده فى بلدة كوزنتزا . وكانت أهمية تيليسيو انه كان ينادى باستخلاص الحقيقة من « طبيعة الأشياء » ، وليس

من العنعنة أو اقوال الثقات ولا بمجرد الدليل النظرى . وكان هذا من بدايات المنهج العلمى الحديث القائم على المشاهدة والتجربة كما نجد فى المنهج الأمبريقى الذى وضعه فرانسيس بيكون . وكان كامبانيلا تلميذ تيليسيو الروحى رغم انه لم يلتق به ابدا .

ومنذ شبابه الأول كان كامبانيلا ، مثل جوردانو برونو وفرانسيس بيكون ، يرى أن ارسطو كان بمثابة الوحش فى عالم الفكر او بمثابة التنين الذى يحتاج الى مار جرجس جديد ليخلص العالم منه ، وانه سيطر بعبقريته الفذة على الفكر الدينى والفلسفى والادبى والعلمى فى الطبيعة والتاريخ الطبيعى والفلك وكل وجه من وجوه الفكر . وهكذا ركز كامبانيلا هجومه على ارسطو وعلى اتباع ارسطو . فلما اشتدت حملاته على المعلم الأول وعلى التابعين له من رجال الدين والدنيا ، انذروه فى الدير عام ١٥٨٨ بسوء المصير لو استمر فى غلوائه فى الهجوم على ارسطو .

وشدد اتباع ارسطو النكير على كامبانيلا فترك أديرة كالابريا دون اذن من رؤسائه وانتقل الى حلقات عالم روحانى فى نابولى يدعى جان باتيستا ديللا بورتا . وفى ١٥٩١ أصدر كامبانيلا كتابه « شرح فلسفة الحواس » ، وكان عمره يومئذ ثلاثا وعشرين سنة . وفى هذا الكتاب هاجم أرسطو وانحاز لأفلاطون وتيليسيو . فأرسطو اقام تصوره للعالم ولكل شىء على ازدواجية المادة والصورة ،اما افلاطون فقد اقامه على ثلاثية الجسم والعقل والروح .

وقد ظل كامبانيلا حتى هذه المرحلة داخل حظيرة الايمان المسيحى التقليدى ، يقبل مبدأ الخلق من العدم ومبدأ سقوط الانسان وخلاصه بالمسيح ، ويقبل بكارة مريم العذراء وصدق الكتاب المقدس وسلطة الكنيسة . ولكنه كان يفصل العلم عن الدين ويقول ان العلوم الطبيعية لا تدخل فى نطاق العقيدة ولا شأن للكنيسة بها . وعنده أن العلم يعتمد على المعرفة الحسية الاستقرائية (الملاحظة والتجربة) وليس على الاستنتاج العقلى المجرد ، ورغم أنه هاجم التنجيم ، فانه شاع عنه التعامل مع الأرواح . كذلك اشيع عنه ممارسة الشذوذ الجنسى مع ديللا بورتا ومع شاب يهودى كان يعلمه السحر واليازرجة أو « الكابالاه » .

وقبض على كامبانيلا فى ١٥٩٢ ، واودع سجن القاصد الرسولى (ممثل البابا) فى نابولى بوشاية من احد الرهبان الذى اتهمه بأن له « اخا من الجن » يعلمه كل هذا العلم الغزير الذى يتجلى فى مناقشاته وفى كتاباته.

وحاكمته فى نابولى محكمة من الرهبان الدومنيكان واثارت هذه المحكمة اهتمام الناس حتى أن سفير توسكانيا فى نابولى وصف كامبانيللا بأنه « من اندر العبقريات » فى ايطاليا . كذلك أصبح كامبانيللا موضع رعاية بعض المثقفين الاثرياء . واستطاع كامبانيللا أن يرد الاتهامات الموجهة اليه . ولكن السؤال الحائر ظل حائرا بين الرهبان الذين ظلوا يتساءلون كيف أتيح لهذا الشاب ابن الأسكافى الفقير ان يعرف كل هذه الأشياء عن الفلاسفة والقدماء دون أن يتعلم فى الجامعة . وقد كان كامبانيللا وقحا فى الرد على قضاته حين سألوه هذا السؤال ، فأجابهم بقوله انه كان يحرق من الزيت فى سراجه اكثر مما يشربون من النبيذ .

وصدر على كامبانيللا حكم مخفف بالعودة الى الدير فى كالابريا حيث يتلو صلوات التوبة وصلاة الموتى ثلاث مرات فى يوم السبت .

وفى نابولى أيضا أصدر كامبانيللا كتابا اسمه « فى الأحلام » وكتابا آخر اسمه « كرة اريستارخوس » يقارن فيه نظريات فيثاغورس بنظريات كوبرنيك الخاصة بالكرة الأرضية .

وبدلا من أن ينفذ الحكم ويذهب الى كالابريا ، ذهب كامبانيللا الى روما ثم فلورنسا ثم بولونيا ثم بادوا . وفى بولونيا سرق منه بعض الرهبان المزيفين مخطوطات كتبه ، وفى بادوا التقى بجاليليو وغيره من العلماء . وفى بادوا حوكم بتهمة الفسق ولكنه برىء .

وقضى سنة من الهدوء النسبى ثم استولت الكنيسة هناك على مخطوطات كتبه وقدمته للمحاكمة عام ١٥٩٤ أمام محكمة التفتيش بتهمة التشيع لفلسفة الفيلسوف اليونانى ديمقريط (٤٦٠ — ٣٧٠ ق٠م) أول من تصور الكائنات مكونة من ذرات لا نهائية فى عددها ، كما اتهمته بكتابة منشور الحادى ، ولكنه برىء من التهمتين ، غير أن الموضوع أحيل الى روما لمزيد من التحقيق . وفى روما عذب كامبانيللا وحكم عليه فى ١٥٩٦ بأن يستنكر علنا آراء الزندقة المنسوبة اليه . وبعد سنة سجن مرة اخرى بتهمة الزندقة ، ولكن أفرج عنه بشرط أن يحدد رؤساؤه اقامته فى الدير . وفى أغسطس ١٥٩٨ أعيد الى كالابريا .

ومنذ ١٥٩٣ اشتهر كامبانيللا بدعوته لتنظيم عالمى للمجتمع تحت قيادة بابوية جديدة فى كتابه « ملكية المسيحيين » وكتابه « فى نظام الكنيسة »، وكانت هذه بدايات حلمه بالمدينة الفاضلة للانسانية كلها وباصلاح الكنيسة وبعودة البشر الى حالة البراءة الأولى .

كذلك كان كامبانيللا معاديا للحكم الأسبانى فى كالابريا ، ولكنه كان يحتقر الفلاحين والطبقات الشعبية ويعتبرها فى عداد البهائم أو فى حكم الوحوش . وكان البديل عنده هو حكم « الفيلسوف الملك » على نهج أفلاطون فى « الجمهورية » أو « البابا ملكا » الذى يجمع فى يديه حكم العالم روحيا وزمنيا .

وفى ٦ سبتمبر ١٥٩٩ قبض على كامبانيللا فى كالابريا لاشتراكه فى مؤامرة لطرد المحتلين الأسبان وتأسيس جمهورية ايطالية فى كالابريا ، وحوكم فى نابولى بتهمة الزندقة وبتهمة اثارة الفتنة . وكان شركاؤه خليطا من الوطنيين والرهبان الاباحيين وأنصار الحرية والنبلاء المفلسين الذين لا تكاد تميزهم من قطاع الطرق . ولكن كامبانيللا كان يحلم باقامة جمهورية عالمية هى جمهورية الشمس حيث الدين كامل النقاء .

وتحت وطأة التعذيب اعترف كامبانيللا بالتهمتين ، ولكى ينجو من الاعدام ادعى الجنون طوال فترة التحقيق مع التعذيب التى امتدت ستا وثلاثين ساعة . وانتهت المحاكمة فى ١٦٠٢ بالسجن مدى الحياة بعد ان اقتنع المحققون بجنونه . واستمر كامبانيللا فى ادعاء الجنون بين زملائه المسجونين وأمام الحراس حتى ظنوه بالفعل مجنونا . غير ان ممثل الادعاء الموفد من قبل نائب ملك اسبانيا دس عليه الجواسيس فى الزنازين المجاورة ، وكان يحادث أحدهم باللاتينية فبدا كامبانيللا له عاقلا ، وقد ظل سجينا ٢٧ سنة، من ١٥٩٩ حتى ١٦٢٦ ، حين أفرج عنه بوساطة البابا أوربان الثامن ، وكان عمر كامبانيللا يومئذ ٥٨ سنة .

وفى السجن كتب كامبانيللا مؤلفات عديدة كان أهمها « مدينة الشمس » الذى وضعه فى ١٦٠٢ فى سجنه بكالابريا ، ولكنه لم ينشر الا فى ١٦٢٣ فى مدينة فرانكفورت ثلاث سنوات قبل اطلاق سراحه فى ١٦٢٦ .

ثم سجن كامبانيللا مرة أخرى فى روما وأفرج عنه فى ١٦٢٩ ، فقد شاع عنه أنه مشترك فى مؤامرة قام بها أحد مريديه . وكانت حياته فى خطر فاعتكف فى دير فراسكاتى ، ثم فر الى باريس فى ١٦٣٤ بنصيحة البابا وبمساعدته وبمساعدة سفير فرنسا فى روما . وفى باريس بسط عليه الكاردينال ريشليو رعايته وأجرى عليه ملك فرنسا معاشا ، فقضى السنوات الخمس الأخيرة من حياته فى هدوء حتى مات فى ١٦٣٩ . ولكن ديكارت وغيره من فلاسفة فرنسا ومفكريها وأدبائها كانوا ينظرون اليه نظرهم الى رجل مثالى مجذوب من بقايا عصر مضى وانقضى ، وهو عصر

الرنيسانس ، عصر ما قبل العقلانية،عصر المغامرة بالفكر وبالخيال وبالأسفار في عوالم لم يألفها الانسان .

وقد لوحظ على كامبانيللا أثنـــاء سجنه في كالابريا أنه حـــافظ على تحديه الفكرى جملة سنوات . ولكن كتاباته منذ ١٦٠٦ اتسمت بمشايعة العقيدة الكاثوليكية وقبول السلطة البابوية . ولا أحد يعلم على وجه اليقين ان كان ذلك يمثل تحولا حقيقيا في أفكار كامبانيللا أم أنه كان مجرد تراجع تكتيكى لتجنب التعذيب بالخداع .

وكان كامبانيللا منذ شبابه قد اتخذ لنفسه شعارا هو : « لن أصمت أبدا » وكان يقول عن نفسه : « أنما ولدت لأقاتل ثلاثة شرور ، هى الطغيان والسفسطة والنفاق » . وقد كتب خلال حياته ٨٨ كتابا لم يعد أحد يقرأ منها الا أربعا هى : « مدينة الشمس » (١٦٠٢) ، وهى المدينة الفاضلة، و « في الملكية الاسبانية » (١٦٠٢) ، وهو كتاب يهاجم الاستبداد السياسى، و « الحس بالأشياء » (١٦٢٠) ، وهو كتاب يدافع عن علم الفسيولوجيا ، أى وظائف الأعضاء ، كما كان معروفا في زمانه ، و « دفاع عن جاليليو » (١٦٢٢) ، وهو دفاع مجيد عن العلم رغم أنه لم يخرج عن الاطـــار الأفلاطونى ويقوم على قبول حياة الرهبانية .

كان كامبانيللا يصف فلسفة أرســطو وأرسطاطاليسية العصـــور الوسطى بأنها مجرد معـــارك كلامية ، وقد حاول بنـــاء الميتافيزيقا أو علم ما وراء الطبيعة على العلوم الطبيعية . وكان معبد العلم عنده متحفا ضخما للتاريخ الطبيعى يشتمل على صور لكل ما في السماء وما على الأرض ، وكان أطفال مدينته الفاضلة يتعلمون مبادىء الجغرافيا والفلك والبيولوجيا وعلم التشريح بالاطلاع على هذه الصور . أما الدراسات اللغوية فقد كانت عند كامبانيللا مجرد تحصيل يعتمد على الذاكرة ، وكذلك فقد أهدر كامبانيللا الدراسات الانسانية التى كان يدعـــو اليها دعـــاة الهيومانزم أو المذهب الانسانى ، وأهدر احياء التراث الفكرى الذى تركه القدماء ، وكان يرى ان أساس الفلسفة هو العلوم وليس الآداب .

وكان الانجليز في القرن السابع عشر يسمون كامبانيللا « مكيافيللى الثانى » ، لدوره في حركة التحرير الوطنى في جنوب ايطاليا ومقاومة الحكم الاسبانى ولاعتباره أن الغايات تبرر الوسائل ــ ولدعوته القائلة بســيادة الكنيســة على الدولة ، ممــا أفســح لكامبانيللا مكانا في تاريخ النظريات السياسية بوصفه من واضعى أساس نظرية السيادة ، وقد خصص له هيجل صفحات في كتابه « فلســفة التــاريخ » بمثل ما خصص لجوردانو

برونو . وقد استحق كامبانيللا بسبب رؤياه التى صور فيها المدينة الفاضلة أن ينقش اسمه على مسلة فى الميدان الأحمر فى موسكو بين أسماء من يعدهم الروس آباء الثورة الروسية .

وقد لاحظ بعض مؤرخى الفكر أن التهم التى وجهت الى كامبانيللا فى ١٥٩٩ أيام مؤامرة تحرير كالابريا من الأسبان كانت كافية للحكم عليه بالاعدام شنقا وحرقا بمنطق ذلك الزمان لو ثبتت عليه . فبين التهم الدينية: انكار وجود الله والجنة والنار والجن والشياطين ، والقول بان الأسرار المقدسة كسر القربان المقدس لا قيمة لها ، وانما هى وسائل لتوطيد سلطة الكنيسة أو توطيد سلطة الدولة عن طريق الكنيسة ، كذلك انكاره لمعجزات الأنبياء وقوله انها ظواهر طبيعية وقوله بأن الثالوث فكرة فاسدة . أما التهم السياسية فأهمها أنه كان ينوى الانضمام الى الأتراك الذين كانوا يحاولون غزو كالابريا والاستيلاء عليها من الأسبان ، وأنه كان ينوى اقامة جمهورية فى كالابريا .

وقد كان بين شهود الاثبات شهود زور من بين الرهبان وزملاء فى مؤامرة كالابريا اعترفوا بما يخالف الحقيقة تحت وطأة التعذيب .. ومن بين هؤلاء قاطعا طريق من النبلاء المتآمرين المشتركين فى الثورة على الحكم الأسبانى ، وقد اعترف أحدهما ، وهو موريتسيو دى رينالدو قبل أن يصعد الى المشنقة أن كامبانيللا لم يكن على علم بالمفاوضات التى كانت تجرى مع رجال أسطول سيكالا قائد البحرية التركى . ولم يعترف كامبانيللا نفسه الا بوضعه مشروعا لاقامة جمهورية مسيحية فى كالابريا ثم فى ايطاليا ، بعد تحريرها من الأسبان ، ثم فى العالم كله .

ويفسر بعض المؤرخين الاكتفاء بسجن كامبانيللا دون اعدامه بأنه تعبير عن التناقض بين السلطات الروحية والزمنية أو بين السلطات الايطالية والسلطات الأسبانية ، باعتبار أن كامبانيللا رغم تجديفه — أو على الأقل رغم آرائه غير المألوفة — كل بطل تحرير قومى . وعلى كل فمن المهم أن نذكر أن كامبانيللا نفسه كان يعدل من مخطوطات كتبه أو يعيد صياغة ما طبع منها مع اختلافات واضحة فى المضمون بقصد اتقاء شر أعدائه الذين أبقوه فى السجن سبعا وعشرين سنة ، أو بقصد تضليلهم عن مراميه الحقيقية . وقد حوله السجن المديد والتعذيب الى انسان ماكر مراوغ يظهر مالا يبطن . حتى كتابه « مدينة الشمس » الذى يعد حجر الزاوية فى فلسفته عرف بعض التعديلات فى طبعاته المختلفة .

ss

وقد اتم كامبانيللا « مدينة الشمس » فى ١٦٠٢ أثناء سجنه فى كالابريا باللغة الايطالية . ثم ترجمها الى اللاتينية وصدرت فى طبعتها اللاتينية فى فرانكفورت عام ١٦٢٣ ، وهو لايزال مسجونا ، ثم فى باريس عام ١٦٣٧ أثناء اقامته فيها وقبل وفاته بعامين ، ثم فى أوتريخت عام ١٦٤٣ بعد وفاته بأربعة أعوام ، وفى كل هذه تعديلات ملحوظة ، كما كان هناك عديد من المخطوطات التى جرى عليها التعديل، ولكن الجوهر واحد بطبيعةالحال .

وأهم ما تمثله « مدينة الشمس » لكامبانيللا أمران : أولهما أنها تعد أكبر قاعدة فى علم المعرفة لفلسفة العلوم التى قامت عليها الحضارة الأوربية الحديثة ، ولاسيما العلوم الطبيعية . ومن مؤرخى الفكر من يذهب الى أن فرانسيس بيكون ، مؤسس المنهج العلمى التجريبى فى الحضارة الأوربية الحديثة ، ربما قد اطلع على « مدينة الشمس » فى طبعة فرانكفورت عام ١٦٢٣ ، قبل أن يكتب مدينته الفاضلة الشهيرة « بأطلنطيس الجديدة » . فنحن لا نعرف على وجه التحديد متى فرغ بيكون من تدوين كتابه هذا .

وقد كانت عبادة العلم من مألوف الأشياء التى تميز بها فكر أنصار الجديد فى عصر النهضة الأوربية رغم مقاومة الكنيسة الكاثوليكية التى كانت تستمد تعاليمها فى الفلك وفى الطبيعة وفى التاريخ الطبيعى وفى التاريخ وفى الجغرافيا الخ .. من الكتاب المقدس ومن كتب ارسطو وبطليموس الجغرافى، وتقف موقفا معاديا لكل منهج علمى أو مقولات علمية تتعارض مع هذه الموروثات بالدليل النقلى . بل لقد كانت هناك « ثقافتان » متميزتان : ثقافة العلماء والمثقفين التى تقوم بفتوحات العلم الحديث وتحاول أن تحل المشاكل الفكرية والدنيوية على الأساس العلمانى ، وثقافة فقهاء الدين التى لا تعرف بوجود هذا البرزخ الذى يصل الدين بالدنيا ويجعل للعالم مكانا وسط كل هذه الالهيات .

ولكن الأمر الثانى فى « مدينة الشمس » الذى كان بمثابة صدمة فكرية لمعاصرى كامبانيللا ، كان دعوة كامبانيللا لالغاء الملكية الفردية ولالغاء نظام الأسرة . وقد قرأ مكسيم جوركى « مدينة الشمس » وهو فى ايطاليا وحدث عنها لوناتشارسكى ولينين . وكان اكثر ما لفت أنظار مؤسسى الشيوعية الروسية هو طريقة تعليم العلوم بالصور ، وقد صدرت بعد الثورة الروسية توجيهات ثورية بوضع الفن فى خدمة العلم .

●●●

SS

٢

مدينة الشمس

□ و « مدينة الشمس » هى المدينة الفاضلة . كما يسميها كامبانيللا . ونستطيع أن نلمح فيها تأثيرات من جمهورية أفلاطون ، والنص نفسه قائم على حوار بين رجلين ، هما قائد من قواد « فرسان القديس يوحنا » وقبطان من ميناء جنوا كان ينزل ضيفا عليه .

ويطلب القائد من القبطان ان يروى عليه ما جرى له خلال ترحاله .

قال القبطان انه طاف بالعالم كله ، وفى أسفاره وصل الى مكان اسمه تايروبان ، واضطر أن يرسو هناك ، ولكنه اختبأ فى غابة خوفا من السكان الأصليين . وحين خرج من الغابة وجد نفسه على سهل تحت خط الاستواء مباشرة ووجد نفسه بين عدد غفير من الرجال وبين نسوة يحملن السلاح وأكثرهم كان لا يفهم لغة وطنه .

وعلى الفور قادوه الى مدينة الشمس وهى فردوسهم الأرضى .. ووجد المدينة مبنية فى هيئة دوائر قطرها ميلان ومحيطها سبعة أميال . وهى مقامة على تل مرتفع يحيط به سهل متسع .

وكانت المدينة مقسمة الى سبع دوائر واسعة ، الدائرة ضمن الأخرى، سميت على أسماء الكواكب السيارة وكأنها صورة مصغرة من النظام الفلكى كما كانوا يتصورونه فى العصور الوسطى ، وهذه الدوائر متصلة فيما بينها بأربع بوابات مفتوحة على الجهات الأربع الأصلية .

وقد صممت المدينة بطريقة تجعل غزوها غاية فى الصعوبة : فاذا غزيت الدائرة الأولى وسقطت فالغزاة يحتاجون الى ضعف عدتهم من الرجال والعتاد والجهد لاقتحام الدائرة الثانية . وهكذا فلابد من مضاعفة الهجوم كلما اقترب الغزاة من مركز الدائرة أو مركز مدينة الشمس حيث المعبد قائم فى مأمن من كل يد عادية . قال القبطان : وفى رأيى ان مناعة أسوار الدائرة الأولى ذاتها تجعل اقتحام نطاقها الأول أمرا مستحيلا .

واستطرد القبطان قائلا : وأخذونى لاجتياز البوابة الشمالية ، فرأيت مسافة مستوية عرضها سبعون خطوة ما بين السورين الأول والثانى . ومن

هناك ابصرت قصورا فسيحة كلها متلاصقة ، ظهرها مستند الى دائرة السور الثانى بطول الدائرة حتى لقد حسبت أنها قصر واحد . وفى واجهتها بواكى ترتفع الى منتصف القصر بطول الدائرة . وعلى هذه البواكى طرق للنزهة ترتكز على أعمدة ضخمة جميلة متسقة ، فكأنما البواكى أقباء دير جميل .

وبين كل سور دائرى وسور دائرى آخر هناك سهل خصيب . وفى مركز هذه الدوائر السبع سهل عظيم فى أعلى التل ، يتوسطه معبد عظيم يصل اليه القاصد بدرج خفيف التدرج لا مشقة فى ارتقائه حتى بلوغ هذا المعبد المركزى فى قمة التل ، وهذا الدرج يمتد من السور الخارجى حتى آخر سور فى الداخل .

أما المعبد فهو دائرى الشكل فى بنائه ولا تحيط به أسوار ، وانما يقوم على أعمدة غلاظ شامخة منسقة فى بهاء . وفى أعلى المعبد قبة ترتفع من قبة ، وهى فوق المذبح مباشرة ، ومن حول المذبح أعمدة . والمعبد نفسه على رقعة طولها ٣٥٠ خطوة ، ومحوط بالبواكى القائمة على أعمدة ترتفع فوقها حلقة أخرى من الأعمدة ، وكل هذه البواكى تحتها ممرات أو طرقات رصفها آية فى الجمال ، وفيها آرائك ثابتة بين الأعمدة . وهناك كراسى تنقل باليد وهى تحف عظيمة البهاء . وليس على المذبح الا كرة جسيمة نقشت عليها نجوم السماء ، وكرة أخرى تمثل الأرض ، وعلى النجوم أسماؤها ووصف لتأثيرها على كائنات الأرض . ورصيف المعبد لامع ومطعم بالأحجار الكريمة، وفيه سبعة مصابيح ذهبية دائمة الاشتعال ، وهى مسماة على أسماء الكواكب السيارة .

وهناك فى أعلى المعبد عدد من الصوامع الجميلة التى تحيط بالقبة الصغرى ، كما أن هناك صفوفا من الصوامع تحت الأقباء أو البواكى فى الداخل والخارج ، وهى فى أحجام مختلفة ، وفيها يقيم كهنة المعبد وعددهم تسعة وأربعون كاهنا ، وعلى القبة الصغرى يرفرف علم يلف فى اتجاه الريح ويبين للكهنة مسار الرياح ، ومنه يعرفون الطقس وأنواع السنوات فى البر والبحر . وتحت القبة كتاب منقوش بحروف من ذهب .

وحين يسأل القائد عن نوع الحكومة القائمة فى هذه المدينة الفاضلة ، يجيب القبطان قائلا : يحكم « مدينة الشمس » كاهن أسمى اسمه « هوه » (تنطق على وزن « خوخ » بالعربية العامية) ، ولكن يجب علينا أن نسميه « ميتافيزيقا » (أى ما وراء الطبيعة) . ومعنى هذا أن كامبانيللا يقول لنا

ان رئيس هذه الدويلة ، أو هذه المدينة الفاضلة ، هو اعلم حبر فى امور الالهيات أو فى أمور الغيب — وهو ارفع الكهنة شانا واقواهم سلطة كما أنه يقضى فى كل الأمور الروحية والمادية .

ويعاون « هــوه » فى ممارسة سلطاته ثلاثة أمراء : احدهم يدعى « بون » (ينطق على وزن « بن » القهــوة ولكن ببــاء ثقيلة) ، وهــو « أمير القوة » ، والثانى يدعى « سن » (وينطق على وزن « سن » مفرد « أسنان ») ، وهو « أمير الحكمة » ، والثالث يدعى « مور » (وينطق على وزن « مر » ، عكس « حلو ») ، وهو « أمير الحب » .

وتتبع « أمير القوة » شئون الحرب والسلم ، وهو يتحكم فى الجيش وفى القادة العسكريين ، وتتبعه الذخيرة والتحصينات والأسلحة والعتاد والحدادون وصناع السلاح .

أما « أمير الحكمة » فتتبعه الفنون الحرة والفنــون الميكانيكية وكافة العلوم ، انما يدخل تحت ولايته العلماء والفقهاء . ومن العلماء التابعين له عالم اسمه « الفلكى » ، وآخر اسمه « عالم الفضاء » ، وثالث اســمه « عالم الرياضيات » ، ورابع اسمه « المهندس » ، وخامس اسمه «المؤرخ»، وسادس اسمه « الشاعر » ، وسابع اسمه « المنطيق » ، وثامن اســمه « عالم البــلاغة » ، وتاســع اســمه « النحــوى » ، وعاشر اســمه « الطبيب » ، وحادى عشر اسمه « الفسيولوجى » ، وثانى عشر اسمه « الأخلاق » . ولهؤلاء العلماء كتاب واحد يسمونه « كتاب الحكمة » ، وقــد سطرت فيه كافة العلوم بدقة متناهية وبأسلوب متدفق ، وهم يقرءون هذا الكتاب على الناس على طريقة الفيثاغوريين ، وهذه « الحكمة » هى التى تزين اسوار « مدينة الشمس » العليا والسفلى ، من الداخل ومن الخارج بالصور الرائعة ، وهى التى ترسم فى هذه الصور توضيحات كل العلوم وعلى جدران المعبد وعلى القبة رسمت صور النجوم بحسب جرم كل منها وما فيه من حركة وماله من تأثير .

فعلى السور الدائرى الأول من الداخل رسمت مبادىء الرياضيات ، كل الأرقام والمعادلات الرياضية ومعها تفسيراتها وحلولها مبلورة فى قصائد صغيرة جميلة ، وهذه هى الطريقة الفيثاغورية فى التعليم . اما من الخارج فقد رسمت الأرض كلها وكل قطر من اقطارها اى مبادىء علم الجغرافيا ، مع توضيح عاداتها العامة والخاصة وقوانينها ومنشأ سكانها ، أى مبادىء علم الاجتماع ، كل الشعوب موضحة فوق أبجدية « مدينة الشمس » .

ss

وعلى السور الدائرى الثانى من الداخل هناك صور لكل الأحجار الكريمة وغير الكريمة والمعادن وخصائص كل حجر ومعدن ملخصة فى بيتين من الشعر ، فهى تصور مبادىء الجيولوجيا . أما من الخارج فقد صورت كافة البحار والبحيرات والأنهار وكل ما فى الأرض من سوائل ، كما كانت هناك رسوم للرعد والبرق والثلج والعواصف . وهذا استكمال للجغرافيا وللأرصاد الجوية .

وعلى السور الدائرى الثالث من الداخل رسمت مبادىء علم النبات : كل أنواع الأشجار والنباتات مع بيان طبيعة كل منها . أما من الخارج فقد رسمت كل انواع الأسماك والمخلوقات البرية مع بيان خصائصها ، وبذلك وضعت أساس علم « الأحياء المائية » .

وعلى الدائرة الرابعة من الداخل رسمت كل أنواع الطيور مع بيان طبائعها وخصائصها وعاداتها . وسكان « مدينة الشمس » وحدهم يملكون العنقاء الوحيدة فى العالم . أما من الخارج فقد رسمت كل أنواع الزواحف والحشرات ، الخ ..

وعلى الدائرة الخامسة من الداخل رسمت حيوانات الأرض الجسيمة ، وهى الف مرة أكثر مما نعرف ، ومن الداخل رسمت فصائل هذه الحيوانات، فكانت من الحصان وحده مائة فصيلة .

وفى الدائرة السادسة رسمت كل الفنون الميكانيكية مع أدواتها وبيان طرق استعمالها ومخترعيها . أما من الخارج فقد رسمت صور كل المخترعين والمكتشفين فى العلوم وفى فن الحرب وصور المشرعين . أما المشرعون عند كامبانيللا فقد كانوا أوزيريس وجوبيتر وهرميز وليكورجوس وفيثاغورس وصولون من عصور الوثنية ، وموسى والمسيح ومحمد من عصور التوحيد . أما عظماء التاريخ فقد رأى القبطان منهم صور الاسكندر ويوليوس قيصر وبيروس وهانيبال .

وقيل للقبطان ان أهل « مدينة الشمس » يعرفون كل لغات العالم ويوفدون المكتشفين والسفراء الى كل البلاد ، ومن هنا معرفتهم بتاريخ كل بلد وبعادات كل شعب ، ومنهم عرف القبطان أن أهل الصين عرفوا المدفع والمطبعة قبل أن تعرفهما أوروبا ، والأطفال فى « مدينة الشمس » يتعلمون كل شىء من الصور دون عناء .

قال القبطان :

SS

فى « مدينة الشمس » نجد الرجال والنساء متحابين ولذا فهم ينسلون أحسن النسل . وهم يعجبون منا لأننا نهتم بسلالات الخيل والكلاب بينما نهمل سلالات البشر . ولذا فان تعليم الأطفال عندهم من اختصاص « أمير الحب » .

وحين استفسر قائد فرسان القديس يوحنا عن نظام الحكم فى « مدينة الشمس » ، ان كان ملكيا أم جمهوريا أم ارستقراطيا ، أجاب قبطان جنوا ان أهل « مدينة الشمس » جاءوا أصلا من الهند فرارا من سيوف المجوس ومن الطغاة النهابين ، وقرروا أن يعيشوا معا فى اخاء الحكماء والفلاسفة فجعلوا كل شيء مشاعا بينهم : المعرفة والمجد واللذات والمال . كل شيء عندهم على المشاع ، حتى الزوجات . وهم يتولون ان الملكية الفردية انما تكتسب وتنمى بسبب نظام الأسرة ، وهذا يؤدى الى حب الذات . فاذا الغى نظام الأسرة لم يبق الا حب الدولة .

صاح قائد فرسان القديس يوحنا : هذا ما يقوله افلاطون فى « الجمهورية » ، وقد رد عليه أرسطو بقوله ان هذا سيغرى الناس بالتواكل والانصراف عن العمل ليعيشوا على ثمار عمل الغير . فأجاب قبطان جنوا قائلا انه لاحظ أن أهل « مدينة الشمس » من اكثر الشعوب تفانيا فى حب وطنهم ، ومن يمت دفاعا عن الوطن لا يقيم وزنا للمال . ولو أن الرهبان أظهروا مثل زهدهم فى المال لجعلوا الدنيا مكانا لحياة أرقى .

قال القائد : اذن فالصداقة بينهم لا معنى لها عندهم لأنهم لا يتبادلون الهدايا والعطايا . فأجاب القبطان بأن العطايا عندهم ممنوعة ، فكل منهم يحصل فقط على ما يأتيه من الجماعة . والحكام يحظرون أن يأخذ أى منهم اكثر مما يستحق أو يحتاج اليه ، ولكنهم يضمنون الضروريات للجميع . أما الصداقة عندهم فتتجلى عند المرض وفى الحرب وبتبادل التعليم ، وأبناء كل جيل يسمون بعضهم بعضا « الأخ » فلان . وليست بينهم سرقة ولا قتل عمد ولا زنا ولا تدنيس الحرام ولا انحلال خلقى كالذى نجده فيما بيننا . والقضاة يسهرون على ذلك .

وكل شيء فى الحياة مشترك فى قاعات الطعام أو فى عنابر النوم . والرجال يقومون بالأعمال الشاقة ، والنساء يقمن بالصناعات المنزلية وبحلب اللبن وصناعة الجبن وبالغزل والنسيج والخياطة والحلاقة وقص الشعر . وهن يتعلمن الموسيقى من دون الطبلة والنفير . والشباب دون الأربعين يخدمون الشيوخ فوق الأربعين . والسفرجية بنات وصبيان دون العشرين . والرجال يجلسون للطعام فى صف والنساء فى الصف المواجه ، والطعام

يجرى فى صمت كما هو الحال فى الأديرة . وأثناء الطعام يقرأ شـــاب كتابا بصـــوت مرتل . وكامبانيللا كان يستعمل كلمـــة « كومون » بمعنى الحياة المشتركة ، لوصف هذه الحياة الجماعية فى « مدينة الشمس » ، وهذا ما جعل له مكانا خاصا فى تاريخ الفكر الاشتراكى .

وبعد الفطام ترعى النساء الأطفال الاناث ويرعى الرجال الأطفـــال الذكور .. وبعـــد سن السادسة يتعلم الأطفال صنعة من الصنائع ، كل بحسب ميوله واستعداده . اما ضعاف العقول فيرسلون الى الحقول حتى يتم تدريبهم ثم يصـــبحون مواطنين . والعمل اليـــدوى شرف فى « مدينة الشمس » . وهم يسخرون منا لاننا نحتقر العمل اليدوى ونسمى من لا يتقنون عملا من الأعمال ويعيشون فى بطالة بالوراثة « بالنبلاء » .

وليس بين أبناء « مدينة الشمس » أحقاد ولا تحاسد على المناصب لأنهم لا يطمعون فى حياة الترف : فكل شىء عندهم يدار لصالح الأمة وليس لصالح الأفراد ، فهم يخالفوننا فى نظرتنا الى الأسرة والأطفال . نحن نرى أن النظام الطبيعى هو أن يعترف الانسان بنسله ويتكفل بتربيتهم ، وينظر الى زوجته وداره على انهما ملك له . اما هم فيرفضون ذلك ويقولون ان الأطفال يأتون لحفظ النوع لا لمتعتنا الخاصة ، وهذا عين ما قاله القديس توماس الاكوينى .

ولمـــا كان أكثر الناس ينجبون النسل بالخطأ ويربون الأبناء تربيـــة خاطئة ، وهذا تخريب للدولة ، فأهل « مدينة الشمس » يعتقدون أن فى امكانهم ازالة هذا التخريب لأنهم يعهدون بتربية أولادهم الى قضاة المدينة لأن الأولاد هم عماد الجمهورية ، وذلك من باب حماية الجمهورية . وهم لهذا ينتقون أفضل الشباب والشابات ليضمنوا انجاب أفضل نسل ممكن بحسب مبادىء الفلاسفة . ويرى افلاطون أن هذا الاختيار يجب أن يتم فى الظاهر بالقرعة حتى لا تثور المحرومات من النساء غير الجميلات على قرارات القضاة. فلا مناص عند أفلاطون من الخداع بحيث تعطى أجمل النساء لأصح الرجال ، أما الرجال المعتلون فيوزع القضاة عليهم ما يستحقون مع ايهامهم أنهم نالوا نصيبهم .

أما فى «مدينة الشمس» فهذا الايهام لا لزوم له ، لأن اهل المدينة يعتقدون أن الجمال هو الصحة والصحة هى الجمال ، فاذا صنعت المرأة وجهها لتبدو جميلة أو أطالت كعبيها لتبدو طويلة أو أطالت ثوبها لتخفى حذاءها العالى حكم عليها بالاعدام .

وليس فى « مدينة الشمس » أرقاء لأن كل الناس تعمل أربع ساعات يوميا . (وهنا يقول كامبانيللا على لسان القبطان ان نابولى كان بها ...ر٧٠

نسمة لم يكن يعمل منهم الا ١٥٫٠٠٠ نسمة أما الباقون فكانوا يتسكعون فى حياة الكسل والشهوات وجمع المـال الحرام ويسـترقون آلاف الأسرات بسبب فقرها) . وبعد ساعات العمل الأربع يقضى أهل «مدينة الشمس» بقية يومهم فى الاطلاع والمناظرات والكتابة والرياضة . والعاب الزهر عندهم محظورة وكذلك الشطرنج ، والألعاب الوحيدة المصرح بها عندهم هى الألعاب الرياضية الاسبرطية .

وعند أهل « مدينة الشمس » ان الفقر الشديد يجعل الناس عديمى القدرة ، ماكرين أفظاظا متجهمين ، لصوصا ، صعاليك ، كذابين ، يشهدون بالزور . أما الغنى الفاحش فهو يجعل الناس وقحين متغطرسين ، جهالا أدعياء ، خونة غشاشين ، فشارين يمزقون سمعة الناس دون ضمير ، ناقصين فى المودة ، الخ .

وقضاة المدينة فيهم الرجال والنساء ، وهم يلبسون نفس الزى ، الا أن عباءة النساء أطول من عباءة الرجال ، فهى تحت الركبة .

والرئيس « هوه » منتخب مدى الحياة ، وهو عندهم أعلم النـاس وأحكمهم وأعرفهم بالأمور الالهية ، وهو لا ينفرد بالسلطة أبدا بل يعمل فى انسجام مستمر مع « أمير القوة » ومع « أمير الحكمة » و « أمير الحب » . وحكمته تعصمه من الاستبداد .

والنساء فى « مدينة الشمس » يشتركن فى القتال مع الرجال . وأهل المدينة لا يهابون الموت لأنهم يؤمنون بخلود الروح ، وهم يتبعون الى حد ما البراهما وفيثاغورس ولكنهم لا يؤمنون بتناسخ الأرواح . وهم شـديدو الاهتمام بفن الحرب ويتدربون على القتال يوميا خشية أن تصيبهم الطـراوة فيعجزون عن رد العدو اذا نزلت نازلة مفاجئة . وليس فى المدينة الا سجن واحد يضعون فيه أعداء الجمهورية والثائرين عليها .

أما عن ديانة « مدينة الشمس » فأهلها يعبدون الله ، وهم يمجدون الشمس والنجوم ولكنهم لا يعبدونها : هم يعبدون الله ويعظمون الشمس . والثالوث عندهم هو : القوة العليا والحكمة العليا والحب الأعلى وثلاثتها صفات لله الواحد ، وليس لها أسماء مستقلة أو وجود مستقل .

هذا مجمل وصف الحياة فى « مدينة الشمس » ، ويلاحظ فى تصـور المدينة الفاضلة لكامبانيللا انه بنى على بعض أسس جمهورية أفلاطون ، لأن أفلاطون حصر شيوعية المـال والنساء فى طبقتين هما الارستقراطية

(الصفوة) الحاكمة من جهة والجند والطبقات الدنيا من جهة أخرى . أما الطبقات الوسطى فهو لم يطبق عليها نظام الملكية العامة ، لأن حاسة الملكية الفردية لديها بالغة القوة .

ومهما يكن من شيء فان مدينة كامبانيللا تمثل عودة للحلم الأفلاطونى معدلا بأن يحكم الجمهورية الفاضلة« الملك الفيلسوف »أو« الفيلسوف الملك ». وذلك لا يكون الا اذا اجتمعت القوة والفكر أو العلم فى شخص واحد . وهذا وجه التناقض فى الفكر الأفلاطونى : الفزل الدائم بين الفكر والسيف ، ان أصحاب « مدينة الشمس » وجدوا أن أعلم الناس اقدرهم على الحكم ، وهم يرون أن نظامهم افضل من نظامنا ، لأننا نضع فى السلطة الجهال ونرضى بهم لمجرد انهم من ابنـــاء البيوتات أو من محاسيب القوى الســـياسية والاقتصـــادية .

و « هوه » ، رئيس « مدينة الشمس » ، هو الوحيد الذى تأتيه حكمته من الحياة ومن الطبيعة . أما بقية حكماء المدينة ، فكل حكمتهم تأتيهم من بطون الكتب شأن قراءة أرسطو وغيره ، وهم لا يعرفون شيئا عن الحياة ، فكل علومهم نقيلة من الذاكرة .

« والمؤثرات الاسبرطية » واضحة فى « مدينة الشمس » كما هى واضحة فى « جمهورية » أفلاطون ، وأهمها الشغف بالرياضة البدنية وعبادة «الصحة» والتقشف الدائم والاستعداد الدائم للحرب والقسوة على الضعفاء الى حـــد تعريضهم عرايا لثلوج الشتاء وعواصفه حتى لا ينجو من الأطفال الا من يصلح حقا للحياة . كذلك من المؤثرات الاسبرطية نظرية تحسين النســـل بالانتخاب الصناعى أى بتزويج أصح الفتيان لأجمل الفتيات ، وكأننا فى مزرعة خيول أصيلة .

وظاهر الأمر يوحى بأن كامبانيللا كان مطلعا على قصـــة السندباد البحرى وربما قصـــة « حى بن يقظان » لابن طفيل وربما قصة «الاسراء والمعراج » لابن عباس فى ترجماتها اللاتينية أو فى نصوصها العربية ، ولكن أهم ما فى « مدينة الشمس » هو أنها كانت متحفا عظيما للعلوم ولمعارف الانسان فهى بمثابة البداية الحقيقية لحضارة العلم الحديث .

• • •

SS

مطبوعات
مركز الأهرام للترجمة والنشر

☐ **كتب للأطفال والنشء**

فى مجال العلوم

- الموسوعة العلمية الأولى للأطفال (ترجمة د . محمد أمين سليمان)
- طرائف والت ديزنى بالكومبيوتر (ترجمة د . أيمن الدسوقى)
- ميكى يسأل ويجيب (ترجمة د . أحمد فؤاد باشا)

☐ **سلسلة علماء العرب**

- ابن النفيس (مكتشف الدورة الدموية الصغرى) .
- ابن الهيثم (عالم البصريات)
- البيرونى (عالم الجغرافيا الفلكية)
- جابر بن حيان (أبو الكيمياء)
- ابن البيطار (عالم النبات)
- ابن بطوطة (رحالة الاسلام) (سليمان فياض)

☐ **فى مجال التربية البدنية والرياضية**

- موسوعة جوف الرياضية

- السباحة والغطس
- الالعاب الأوليمبية
- العاب الأطفال (ترجمة : نجيب المستكاوى) .

☐ **فى مجال ترقية المهارات والخيال**

- ألوان ألوان (حسين أبو زيد)
- ألوان ألوان - حيوانات الغابة (حسين أبو زيد)
- ألوان ألوان - حول العالم (حسين أبو زيد)
- ألوان ألوان - حيوانات أليفة (حسين أبو زيد)
- تعال نصنع (حسين أبو زيد)
- رحلة صيد (شاكر المعداوى)
- حكايات أعجبتنى (يعقوب الشارونى)
- حكايات عربية واسلامية (جزئين) (علية توفيق - رسوم : كمال درويش)

ss

☐ فى مجال التربية الفكرية

- حوار بين طفل ساذج وقط مثقف (أحمد بهجت)

☐ كتب الابداع الأدبى

- طرائف دبلوماسية (السفير جمال بركات)
- عرابى زعيم الفلاحين (عبد الرحمن الشرقاوى)
- كانت صعبة ومغرورة (احسان عبد القدوس)
- المجانين لا يركبون القطار (لطفى الخولى)
- مسافر على الرصيف (محمود السعدنى)

☐ كتب فى الابداع الفكرى

- سرقة ملك مصر (محسن محمد)
- معجم الأمثال العامية مع كشاف موضوعى (أحمد تيمور باشا)
- انطباعات مستفزة (د . يوسف ادريس)
- مذكرات صائم (احمد بهجت)
- ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوروبية (د . لويس عوض)

☐ كتب دينية

- قراءة فى وثائق البهائية (د . بنت الشاطىء)
- القرآن مأدبة الله للعالمين (الشيخ احمد حسن الباقورى)
- معانى القرآن بين الراوية والدراية (الشيخ احمد حسن الباقورى)
- الله فى العقيدة الاسلامية (أحمد بهجت)
- الفاروق عمر بن الخطاب (عبد الرحمن الشرقاوى)
- نحل العسل فى القرآن والطب (د . محمد البنبى)
- التدين المنقوص (فهمى هويدى)

☐ كتب سياسية وفكرية

- ملفات السويس (محمد حسنين هيكل)
- محاربون ومفاوضون (كمال حسن على)
- نحن والعالم ونحن وانفسنا (ابراهيم نافع)
- المأزق العربى (لطفى الخولى)
- شهود العصر الأهرام ١١٠ مقالات و ١١٠ اعوام

ss

□ **كتب علمية وطبية**

● إيـــــــــــــــدز
مرض نقص المناعة المكتسب (د . محمد صادق صبور)

□ **معاجم وموسوعات**

● معجم مصطلحات الحاسبات الألكترونية (مركز الأهرام للترجمة والنشر)
● الموسوعة المصورة للشباب (ترجمة د . محمد أمين سليمان)
(ترجمة د . أحمد فؤاد باشا)

□ □

رقم الايداع بدار الكتب

٢٤٧٣ / ١٩٨٧

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر

SS

من أهم اهتمامات الاستاذ الدكتور لويس عوض - بعد النقد الادبى - تاريخ الفكر . وقد صدرت له حتى الآن خمسة مجلدات فى تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر اسماعيل ، ومن عصر اسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ .

وهو الآن يقدم دراسته الأولى عن تاريخ الفكر الأوربى الحديث فى عصر الرنيسانس المعروف بعصر النهضة الأوربية ، ليبين لنا الارتباط الوثيق بين ثورة الفكر الأوربى ونشأة الحضارة الغربية الحديثة . وقد بدأ بأعلام الأدب والفن والعلم والاستكشاف فى إيطاليا من ماركوبولو إلى جاليليو .

والأعلام الذين يتناولهم هذا الكتاب هم :

(١) ماركو بولو
(٢) دانتى اليجييرى
(٣) بترارك
(٤) بوكاشيو
(٥) مكيافيللى
(٦) لورنزو دى مديتشى
(٧) سافونارولا
(٨) بيكو ديللا ميراندولا
(٩) ليوناردو دافنشى
(١٠) رفاييل
(١١) ميكلانجلو
(١٢) إرازموس
(١٣) جوردانو برونو
(١٤) جاليليو
(١٥) كامبانيللا

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر